المدن الفينيقية

تاريخ لبنان القديم

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

استاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

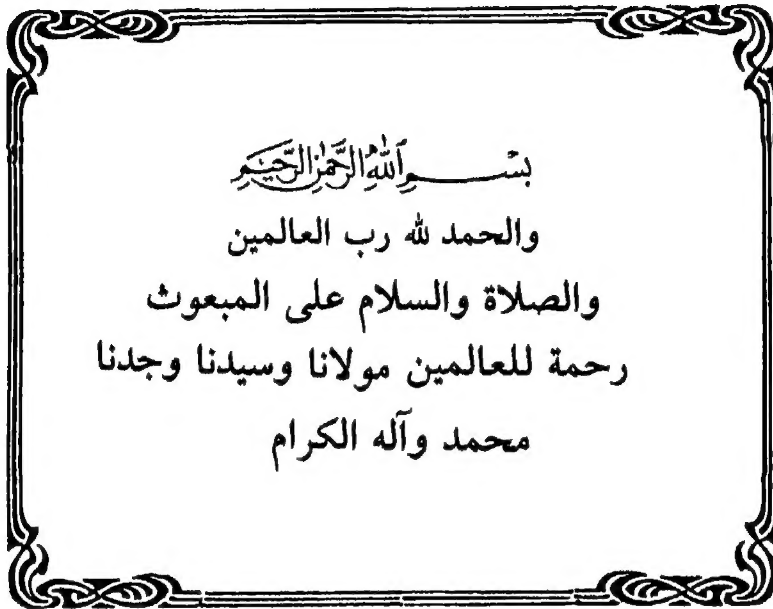


دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت . ص.ب ١١٠٧٤٩

* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية كريدية، تلفون. ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠
برقياً دانهضة، ص. ب ٧٤٩-١١
تلكس NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم ٣، غربي الجامعة العربية، تلفون: ٣١٦٢٠٢ .

* المستودع: بئر حسن، تلفون: ٨٣٣١٨٠ .



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث

رحمة للعالمين مولانا وسيدنا وجدنا

محمد وآله الكرام

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم - في العالمين إنك حميد مجيد.

تقديم

لا ريب في أن الفينيقيين، إنما كانوا جنساً حاذقاً، نجحوا في الحرب والسلم، ونبغوا في الكتابة والآداب، فضلاً عن بعض الفنون الأخرى كقيادة السفن، والحروب البحرية، وفن الحكم.

ولا ريب كذلك في أن القوم، إنما قد تأثروا ـ إلى أبعد الحدود ـ بالبيئة التي عاشوا فيها، واستجابوا لها، استجابة كاملة، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أن الوطن الفينيقي ـ الممتد على سواحل الشام، على صورة شريط ضيق بين البحر من الغرب، والصحراء من الشرق ـ إنما قد أصبح بمثابة قنطرة، يعبرها الغزاة القادمون من بلاد النهرين، قبل نزولهم وادي النيل، كما تعبرها الجيوش المصرية القادمة من الوادي، تتعقب الغزاة ـ وهم في طريق فرارهم، بعد دفعهم عن حدود مصر ـ.

وهكذا كان الوطن الفينيقي في مهب التيارات العالمية، بين قوى عالمية كبرى، قامت في وادي النيل، وفي بلاذ النهرين، وفي آسيا الصغرى، الأمر الذي أدى إلى عدم قيام دولة كبرى موحدة في فينيقيا ـ أو حتى في سورية بمعناها الواسع ـ تصد هذه التيارات، وتضع حداً لهذا النفوذ الأجنبي.

ومن ثم فإن الفينيقيين لم يجدوا مفراً من أن يؤلفوا منهم مجتمعات صغيرة، تعيش في مدن محصنة، ذات أسوار عالية، وأبراج كبيرة، يلجأ

إليها السكان في وقت الخطر، ويحتمون بأسوارها، ويتخذونها ـ وقت السلم ـ أسواقاً لتجارتهم.

على أن قيام هذه المدن المحصنة ـ وإن كانت أحسن وسيلة لصد غارات المعتدين ـ غير أن تقسيم البلاد إلى مدن صغرى يحارب بعضها البعض الآخر، ولا يسود بينها نوع من الاستقرار، إنما جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة.

وكانت الملكية الفينيقية ـ كما تشير الوثائق المصرية والآشورية ـ وراثية في الغالب، مع انقطاع في التسلسل الملكي، هذا فضلاً عن أن سلطة الملك الفينيقي، إنما كانت محدودة، بسلطة مجلس الشيوخ ـ وكان مؤلفاً من أغنى تجار المدينة ـ وهو الأمر الذي نجده كذلك في «قرطاج»، وهو ـ على أية حال ـ ضروري في جملته لدولة تعتمد في مواردها الرئيسية على التجارة.

وفي الواقع فلقد اكتسبت مجالس الشيوخ ـ في أخريات العصر الفينيقي في قرطاج مثلاً ـ سلطة تكاد تتساوى مع سلطة الملك، وكان عدد أعضاء مجلس الشيوخ ـ في صيدا مثلاً ـ مائة عضو، وكان في مقدور مجلس الشيوخ ـ في صور مثلاً ـ أن يتخذ أي قرار في غيبة الملك.

وقد أشارت التوراة كثيراً ـ كما في سفر حزقيال ـ إلى صدى ما كان من أمر مجلس الشيوخ في «جبيل» (بيبلوس).

وهكذا تحول نظام الملكية الوراثية إلى نظام «حكم الأقلية» أو «حكم الخاصة» (Oligarchy)، وهناك ما يشير إلى قيام «الجمهورية» في «صور» في «العصر البابلي الأخير» (٦٢٦ ـ ٥٣٩ق. م)، وكان يتولى رياستها «قضاة» ـ على مثال القضاة في بني إسرائيل ـ وكانوا يعينون لمدة سنتين، كما كانت العادة أن يتولى الحكم اثنان منهم، مرة واحدة.

ولم يكن الأمر في «قرطاج» يختلف كثيراً عنه ـ مثلاً ـ في المدينة الأم (صور) وغيرها من المدن الفينيقية، فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد، ذكر

«أرسطو» (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق. م) أن القوة بقيت في أيدي اثنين من القضاة، كانا ينتخبان في كل سنة، ويسميان «الملوك» أو «القضاة»، ويحملان لقب «سوفيت» (Suffete) ـ وهي في السامية «شوفيت» بمعنى «قاضي».

هذا فضلاً عن مجلس «سناتو»، ويتكون من ثلاثمائة عضو، يعينون مدى الحياة، هذا إلى جانب هيئة مكونة من ١٠٤ عضواً، يشكلون «هيئة الأمن العام»، وهي الهيئة التي أشار إليها «جوستان» (من القرن الثاني الميلادي) أنها تستطيع أن تسائل القواد، ثم أخيراً جمعية عمومية من الشعب.

وكانت ديانة الفينيقيين مجموعة من الطقوس والعبادات تقيمها المدن الفينيقية، وتختلف من مدينة إلى أخرى، وإن اشتركت جميعها في نظرة القوم العامة، وفي الظواهر الكونية والطبيعية، وكانت طقوس العبادة منبثقة من حياة القوم الزراعية.

وكانت المعبودات الفينيقية ـ شأنها في ذلك شأن معظم الديانات القديمة ـ تدور حول تقديس مظاهر الكون، وعبادة الطبيعة، ومن ثم فقد كان لكل مدينة «بعلها» ـ أي سيدها ـ وهوجد ملوكها، ومخصب أرضها، فكل الحبوب والخمور والتين والكتان من عمله.

وكان الإله المعبود، إنما يوصف بالمكان الذي يُعْبد فيه، مثل «بعل روشي» ـ أي سيد الرأس ـ و «بعل سافون» ـ أي سيد الشمال ـ و «بعل شمين» ـ أي سيد السماوات ـ و «زيوس كاسيوس جوبيتر» ـ أي الإله الذي يحمي جبل كاسيوس ـ.

وكان للحياة البحرية التي عاشها الفينيقيون أثرها في نسبة صفات بحرية إلى آلهتها، وقد أضيفت تلك الصفات إلى الصفات القديمة، وقد كان يغلب على «بعل صور» في العصور القديمة، الصفة البحرية، كما كان «بعل داجون» ـ والملقب «سيتون» (Seton) ـ يوصف كذلك في العهود القديمة بصفات بحرية.

هذا فضلاً عن أن آلهة الدين الكنعاني ـ الفينيقي، إنما كانت ذات طابع غير محدد، أو ثابت، فهي كثيراً ما كانت تتناوب صفاتها ووظائفها ـ بل كذلك جنسها ـ حتى ليصعب أحياناً، أن نعرف حقيقة طبيعتها، وصلات بعضها بالبعض الآخر.

ولعل السبب في ذلك، إنما يرجع (أولاً) إلى انعدام الوحدة بين الفينيقيين أنفسهم، ويرجع (ثانياً) إلى عدم وجود طبقة من الكهان منظمة تنظيماً كافياً، بحيث تستطيع أن تقيم تنظيماً دينياً سليماً ـ كما في أرض الرافدين ـ.

ولا ريب في أن الفينيقيين ـ كما يقول ول ديورانت ـ جديرون بأن تكون لهم مشكاة صغيرة في محراب الأمم المتحضرة، ذلك أن تجارهم ـ في أكبر الظن ـ إنما هم الذين علموا الأمم القديمة الحروف الهجائية المصرية.

وقد اشتهروا باقتران اسمهم بالحروف الهجائية، التي ينسب إليهم أنهم أول من تعرف عليهم، غير أن الحقيقة أن هناك من سبقهم إليها، واهتدى إلى معرفتها قبلهم، فهم ـ في أغلب الأمر ـ ناقلون، استطاعوا أن يدخلوا بعض التحسينات والإضافات للحروف التي أخذوها عن المصريين، حيث أخذوا البردى كذلك منهم.

هذا وقد أنتجت فينيقيا فناً راقياً، وتدلنا الغنائم التي أخذها الفرعون (تحوتمس الثالث) (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق. م) بعد انتصاره على حلف كبير في موقعة «مجدو» ـ في ١٢ مايو عام ١٤٦٨ قبل الميلاد ـ على مدى ثراء تلك المنطقة، وتقدمها الحضاري، فإلى جانب العربات المصفحة بالذهب والفضة، والأواني الذهبية والأسلحة، هناك قضبان من نوع ثمين من الخشب يسمى «مرو»، وكانت مصفحة بالفضة، لتحمل سرادقات بعض الأمراء.

وقد كشفت الحفريات الحديثة في فينيقيا عن الأبراج والقلاع

والحصون، مما يشهد للمهندس الفينيقي بتمكنه من فنه، وكانت القلاع والحصون والأسوار الفينيقية من أعظم ما عرفه العالم القديم من فن العمارة، كما يتجلى ذلك في أسوار: جازر وصيدا وصور.

ولعل من أهم حرف السكان ـ إلى جانب الملاحة والصيد ـ إنما كانت الزراعة، حتى أن القوم لا يدعون أقل قطعة من الأرض صالحة للزراعة، دون استغلال، وحتى أنهم ليعلقون زراعاتهم على مسطحات مدرجة على سفوح جبال لبنان، ويقيمون من حولها الأسوار، لحماية الأرض، وبسط رقعتها، وقد كانت هذه السفوح ملائمة تماماً لزراعة الحدائق والكروم والحبوب.

هذا وقد اشتهر الفينيقيون بالصيد، وبرعوا فيه، بحكم موقعهم على الشاطىء، وصنعوا الزوارق من خشب الأرز، ومن أشهر مدن الصيد الفينيقية، مدينة «صيدا»، حتى ذهب البعض إلى أن اسمها، إنما قد اشتق من الجذر السامي «صيد»، بمعنى صيد الأسماك، وأشار «هومير» إلى أن السمك في صيدا أوفر من الرمال.

وكانت صناعة الصبغة الأرجوانية الفينيقية ذات شهرة عالمية في العالم القديم، كما كانت المنسوجات المصبوغة لا يقدر على اقتنائها سوى الأغنياء، ومن ثم فقد أصبحت الثياب الأرجوانية اللون عنوان التفوق، وأدت فيما بعد إلى التعبير المتعلق بالملوك «مولود في الأرجوان» (Born to the Purple) ـ وهو تعبير كان يستعمل دائماً للتعبير عن الأرستقراطية، وشرف المولد، وكان الامبراطور البيزنطي «قسطنطين السابع» (٩١٢ ـ ٩١٩م) يعرف «بالمولود في الأرجوان» وكانت كلمتا «أرجوان» و «ملكي» متلازمتين.

هذا وكانت صناعة الغزل والنسيج من أهم الصناعات المنزلية التي قامت بدور كبير في الحياة الاقتصادية في فينيقيا، وقد استمرت شهرة الفينيقيين في صناعة الملابس ـ وخاصة الحريرية ـ منذ العصور القديمة،

وقد اشتهرت «صور» في العهد الروماني بحياكة وصناعة الملابس الحريرية، ويروي بعض المؤرخين: كيف ظهرت الملكة كليوبترا (٥١ ـ ٣٠ق. م) في إحدى الاحتفالات مرتدية ملابس حريرية مطرزة بالفضة، ومصنوعة في «صور».

ولا ريب في أن صناعة الزجاج من الصناعات التي تفوق الفينيقيون فيها، غير أنهم إنما كانوا أبعد بكثير جداً، من أن يكونوا ـ كما زعم بليني ـ هم الذين اخترعوها، ذلك لأن شرف هذا الاختراع إنما كان لمصر والمصريين، إبان عهد الامبراطور الطيبية (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ق. م).

وأياً ما كان الأمر، فلقد بلغ الفينيقيون شأواً بعيداً في صناعة الزجاج ـ دقة ومهارة ـ وآية ذلك، أن أحد العمودين اللذين شاهدهما «هيرودوت» (٤٨٤ ـ ٤٣٠ق. م) في هيكل «ملقارت» عند زيارته لمدينة «صور» (حوالى عام ٤٥٠ق. م)، والذي وصفه بأنه من «الزمرد الخالص الذي يشع ليلاً»، إنما كان من الزجاج الصوري الأزرق الشفاف، وأن مصابيح مضيئة كانت تشع من داخله.

هذا ومن المعروف أن التجارة إنما كانت ـ أو كادت ـ أن تصبح الحرفة الرئيسية للفينيقيين ـ وخاصة أهل صور وصيدا ـ الذين كانوا بمثابة وسطاء للتجارة العالمية، وقد انتشروا في العالم القديم ـ شرقاً وغرباً ـ وحملوا إلى الأسواق الأوربية كل سلع الشرق ومنتجاته.

وهكذا تميز الفينيقيون باستعدادهم التجاري، استعداداً كان مضرب الأمثال، بحيث أصبحت كلمة «فينيقي» كثيراً ما تستعمل ـ كمرادف للفظ «تاجر».

وبعد: فهذه صفحات من تاريخ فينيقيا ـ أو المدن الفينيقية القديم ـ وهو يمثل الجزء «الرابع عشر» من سلسلة دراسات في «تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم» وقد ظهرت كالتالي:

١ ـ مصر ـ الجزء الأول ـ الإسكندرية ١٩٨٨.

٢ ـ مصر ـ الجزء الثاني ـ الإسكندرية ١٩٨٨ .
٣ ـ مصر ـ الجزء الثالث ـ الإسكندرية ١٩٨٨ .
٤ ـ الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الأول ـ الإسكندرية ١٩٨٩ .
٥ ـ الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الثاني ـ الإسكندرية ١٩٨٩ .
٦ ـ تاريخ العرب القديم ـ الجزء الأول ـ الإسكندرية ١٩٩٤ .
٧ ـ تاريخ العرب القديم ـ الجزء الثاني ـ الإسكندرية ١٩٩٤ .
٨ ـ الحضارة العربية القديمة ـ الإسكندرية ١٩٨٨ .
٩ ـ المغرب القديم ـ الإسكندرية ١٩٩٠ .
١٠ ـ تاريخ العراق القديم ـ الإسكندرية ١٩٩٠ .
١١ ـ بلاد الشام ـ الإسكندرية ١٩٩٠ .
١٢ ـ التاريخ والتأريخ ـ الإسكندرية ١٩٩٢ .
١٣ ـ تاريخ السودان القديم ـ الإسكندرية ١٩٩٤ م .
١٤ ـ المدن الفينيقية ـ بيروت ١٩٩٤م .

وأملي كبير في الله تعالى، أن يكون فيها بعض النفع ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

الإسكندرية في: الرابع عشر من ربيع الآخر عام ١٤١٤هـ
الأول من أكتوبر عام ١٩٩٣م

دكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

الباب الأول

دراسة تمهيدية

الفصل الأول

مقدّمة جغرافيّة

١ ـ موقع لبنان الجغرافي وأهميته:

يقول الدكتور «فيليب حتي» في كتابه «تاريخ لبنان»[١]، يصف موقع وطنه لبنان الجغرافي: «طبيعة أرضه الجبلية، وقربه من البحر، وموقعه في مركز متوسط في البلدان التي كانت مهد الحضارة ـ مصر والعراق ـ وموقعه عند مفترق الطرق العالمية، وكونه جزءاً من الطريق الدولية، التي كانت تربط بين قارات ثلاث ـ أوربا وآسيا وأفريقيا ـ هذه وغيرها، كانت عوامل ذات أثر بعيد المدى في تكوين دوره التاريخي، فقد كان بحر لبنان، البحر الأبيض المتوسط[١]، أول طريق بحري مرت عليه بضائع الشعوب المتحضرة لتتوزع على بلدان شواطئه، بضائع مادية، وبضائع ثقافية، وكانت الشعوب التي أنشأت الحضارة الأولى، تستوطن وادي النيل ووادي الرافدين، وكان لبنان يتوسطهما.

هذه البقعة الجغرافية التي يُكوّن لبنان فقارها، تتجه نحو البحر

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ـ ترجمة أنيس فريحة، ومراجعة نقولا زيادة ـ بيروت ١٩٨٥ ص ٥.

(٢) لعله يعني «بحر المشرق» (Levant)، ففي ما أعلم، أن البحر الأبيض المتوسط لم يطلق عليه اسم «بحر لبنان»، هذا وقد أطلق عليه الفراعنة اسم «الأخضر العظيم» (واج ور)، كما جاء في مقبرة «باحيري» في «الكاب» من الأسرة السابعة عشرة، وقد أطلق البابليون اسم «أمورو» على كل سورية، كما سموا البحر الأبيض المتوسط «بحر أمورو العظيم».

الأبيض المتوسط، الذي أعطاه لبنان، أكثر مما أخذ عنه، ووراءه تقع سهول سورية، التي تمتد إلى الصحراء، فإلى أواسط آسيا، وإلى شماله كانت تقع مواطن الحيثيين، حيث نشأ أقدم مركز حضاري للشعوب «الهندو ـ جرمانية»، وإلى جنوبه تقوم فلسطين، حيث ولدت الديانة اليهودية[1]، ثم المسيحية[2].

(١) ليس صحيحاً على الإطلاق أن اليهودية ولدت في فلسطين، إذا كنا نقصد بتعبير «اليهودية» تلك الديانة التي أنزلت على موسى عليه السلام (رغم إيماننا بخطأ هذا التعبير، لأن موسى عليه السلام، نادى بالإسلام، لأن الإسلام في لغة القرآن، ليس إسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك، الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء، ومن ثم فإن الإسلام شعار عام يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، منذ أقدم العصور التاريخية، وحتى البعثة المحمدية، انظر: سورة البقرة: آية ١٣٢ ـ ١٣٣، سورة آل عمران: آية ٦٧، سورة المائدة: آية ١١١، سورة يونس: آية ٧٢، ٨٤، سورة النمل: آية ٢٢ ـ ٤٤).

وحتى لو افترضنا ـ جدلاً ـ أن تعبير اليهودية صحيح، فهي لم تولد أبداً في فلسطين، ذلك لأن دعوة موسى عليه السلام، إنما بدأت، وهو في الطريق من مدين إلى مصر، وعند طور سيناء ـ وهو أرض كانت وما زالت وستظل، إن شاء الله، أبد الدهر، أرضاً مصرية ـ ﴿نودي يا موسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلا أنا * فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ (طه: ١١ ـ ١٣)، ثم أمره الله تعالى أن يذهب ـ هو وأخوه هارون ـ إلى فرعون (طه: ٤٢ ـ ٧٩).

وهنا بدأت دعوة موسى مع فرعون، وعندما لم تنجح الدعوة، وخرج بنو إسرائيل من مصر، وفي صحروات سيناء ـ مرة أخرى ـ تلقى موسى التوراة من ربه، وليس في فلسطين، بل إن موسى وهارون عليهما السلام، وكل من خرج معهم من مصر ـ باستثناء يوشع بن نون وكالب بن يفنه ـ لم يقدر لأحد منهم أن تطأ قدماه أرض فلسطين، كما أن القرآن الكريم يحدثنا كذلك أن موسى تلقى الدعوة من ربه من جانب الطور الأيمن، وفي التوراة أنه تلقى الدعوة على جبل الله (حوريب)، وليس واحداً من المكانين يقع في فلسطين وطبقاً لرواية التوراة: فمن رأس الفسجة، التي يفترض أنها جزء من جبل «نبو» ـ على مبعدة ١٣ كيلاً من نهر الأردن ـ نظر موسى إلى أرض الميعاد، ومات، ودفن في أرض مؤاب، (انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/١ ـ ٤٩٣ (الاسكندرية ١٩٧٨)، إسرائيل ١/٣ ـ ٤٥٧، ١/٤ ـ ٣٥٤ (الإسكندرية ١٩٧٩).

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٥.

هذا ويقع «لبنان» في غربي قارة آسيا، بين دائرتي العرض ٣٣,١٠، ٣٤,٣٥ شمالاً وبين خطي الطول ٣٥,١٥، ٣٦,٣٠، ويطل على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، فيما بين سورية وفلسطين.

ولبنان جمهورية صغيرة، تبلغ مساحتها ١٠,٤٠٠ كيلاً مربعاً[١]، وتمتد في نطاق مستطيل الشكل، يبلغ طوله في المتوسط ٢١٠ كيلاً، بينما يتراوح عرضه فيما بين ٢٥، ٥٠ كيلاً، وتحيط بجمهورية لبنان سورية من جهات ثلاث: الشمال والشرق والجنوب الشرقي، وفلسطين من الجنوب[٢].

وانطلاقاً من كل هذا فإن لبنان إنما يقع في الهامش الجنوبي للمنطقة المعتدلة، ومجاوراً للعروض المدارية، فيتأثر بالدورة الهوائية المعتدلة، والدورة الهوائية المدارية، ويخضع لفعلهما، تبعاً لانتقال الشمس الظاهري.

ومن ثم فإن لبنان إنما يقع في الصيف تحت تأثير الرياح التجارية القارية الجافة، وأما في فصل الشتاء، فإنه إنما يقع تحت تأثير الرياح الغربية، وأعاصيرها الممطرة[٣].

هذا ويبدو المظهر العام للأرضين اللبنانية، على شكل نطاق جبلي شبه مستطيل الشكل، تنحصر أراضيه ـ بوجه عام ـ بين حوضي النهر الكبير الجنوبي شمالاً، ونهر «ربكين» ـ والتي تنبع روافده العليا من منطقة بنت جبيل ـ جنوباً.

---

(١) قارن: حسن أبو العينين: لبنان ـ دراسة في الجغرافيا الطبيعية ـ بيروت ١٩٨٠ ص ١٦.

(٢) جودة حسنين جودة: جغرافية لبنان الإقليمية ـ الإسكندرية ١٩٨٥ ص ١٣.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٥٠.

ولعل من الأفضل هنا أن نتحدث ـ بإيجاز ـ عن أهم مقومات لبنان الجغرافية، وهي: ١ ـ التضاريس ٢ ـ المناخ ٣ ـ الموارد المائية ٤ ـ النبات ٥ ـ الحيوان.

أولاً: التضاريس

تتألف تضاريس لبنان من نطاقات أربع هي:

١ ـ السهل الساحلي:

ويبلغ طوله نحو ٢٢٥ كيلاً، ويمتد فيما بين البحر المتوسط، وجبال لبنان الغربية، على هيئة شريط، موازٍ للبحر، ويتجه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي، فيما بين بلدة «عريضة» عند مصب نهر الكبير الجنوبي شمالاً، وحتى رأس الناقورة جنوباً، حيث الحدود اللبنانية مع فلسطين.

ويقع هذا النطاق الساحلي، عند ساحل أطول، هو الساحل الشرقي للبحر المتوسط، الذي يمتد من خليج الإسكندرونة (إيسوس القديمة) في الشمال، وينتهي عند صحراء سيناء جنوباً.

والساحل اللبناني ـ بوجه عام ـ ساحل صخري، يضيق فجأة هنا، ويختفي تارة هناك، وهو ـ على الخريطة ـ خط مستقيم، قليل التعاريج، يكاد لا تجد لاستقامته مثيلاً على خريطة العالم، فلا خلجان ولا مصاب أنهر عميقة، تصلح أن تكون موانىء طبيعية، ولذا لا تجد ميناء على الساحل اللبناني، أوجدته الطبيعة ليكون ميناء، وهذا ما يدعو إلى العجب الشديد، لأن سكان لبنان القديم ـ الفينيقيين ـ إنما كانوا من أبرع الملاحين في أسفارهم البحرية[1].

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٤.

هذا ويختلف اتساع السهل الساحلي من موقع لآخر، فهو متسع نسبياً في الشمال ـ فيما بين بلدتي العريضة والبترون ـ وفي الجنوب ـ فيما بين صيدا وحدود لبنان مع فلسطين ـ لكنه يضيق في الوسط، ويرجع ذلك التفاوت في اتساع السهل بين موقع وآخر، إلى امتداد جبال لبنان الغربية، ذلك لأن هذه الجبال كلما تقدمت نحو البحر، كلما ضاق السهل، والعكس صحيح، هذا وكثيراً ما تغزو السهل، وتبرز في البحر رؤوس صخرية لتلك الجبال، وبالتالي فلا تدع مجالاً لتكوين سهل ساحلي، كما هو الحال في رأس شكا، وبيروت والناقورة[1].

٢ ـ جبال لبنان الغربية:

عرفت سلسلة جبال لبنان الغربية باسم «لبنان» منذ العصر الروماني، بينما كان يطلق على سلسلة جبال لبنان الشرقية اسم «أنتيليبانوس» (أنتي لبنان ـ Antilibanos) بمعنى «لبنان المقابل»[2]، ومن المعروف أن هاتين السلسلتين من الجبال ـ الشرقية والغربية ـ إنما كانتا في العصور الجيولوجية سلسلة جبال واحدة.

وفي الواقع أن لبنان إنما هو جزء متوسط من سلسلة جبال ونجاد مرتفعة، تبدأ في «جبل اللكام» في شمالي سورية، وتنتهي جنوباً بجبال سيناء، وأن لبنان ـ وهو الجزء المتوسط ـ أعلى جزء في هذه السلسلة، وأكثرها نتوءاً ووعورة، ولكنه أروعها منظراً، وأطرفها بلداً.

هذا ويذهب البعض إلى أن اسم لبنان، إنما هو مشتق من لفظ سامي

---

(١) جودة حسنين: المرجع السابق ص ٣٨.

(٢) انظر: Strabo, Geography, BK, XVI, ch. 2, Parag. 16

وكذا Pliny, Natural History, BK, V, ch, 17, Parag. 20

وكذا Ptolemy, Geography, BK, V, ch. 14

مشترك، هو «لبن» بمعنى «البياض»، بياض اللبن، ذلك لأن الثلج إنما يغطي قممه العالية، قرابة أشهر ستة، وليس ـ كما رأى البعض ـ لأن الصخور الكلسية البيضاء تغطي أعاليه[1]، بل إن هناك ـ في الواقع ـ بقعاً من الثلج، تبقى في أعالي القمم على مدار السنة.

وعلى أية حال، فإن سلسلة جبال لبنان الغربية ـ وهي لبنان الأصيل ـ إنما هي أشبه بهيكل عظمي، تكسوه سهول هنا، ومنخفضات هناك، وهو أول حاجز يقف في سبيل المواصلات بين البحر المتوسط، والبلدان الشرقية التي تقع وراء حاجز، قلّ أن تجد فيه ثغرة، أو معبراً، يسهل اجتيازه[2].

هذا ويحد جبال لبنان الغربية من الشمال «النهر الكبير» (ويعرف في التاريخ الكلاسيكي باسم «اليوثرس» ـ Eleutherus) ويفصلها عن جبال النصيرية في سورية، ويحدها جنوباً نهر «القاسمية»، ومن ثم فهي تمتد حوالى ١٧٠ كيلاً، في اتجاه عام من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي ـ أي في اتجاه يوازي تقريباً اتجاه الساحل اللبناني ـ ويختلف عرض سلسلة جبال لبنان الغربية كثيراً، فهو مثلاً على مقربة من طرابلس ٥٠ كيلاً، وفي الجنوب، لا يتجاوز ٩ كيلاً في منطقة «الباروك»، بل إنه إنما يضيق إلى قرابة ٣ كيلاً في منطقة «مرجعيون»[3].

وتتميز الجبال اللبنانية الغربية بأنها عظيمة الارتفاع، ويبلغ العلو شأوه في مجموعة مرتفعات الأرز ـ حيث يصل ارتفاع قمة القرنة السوداء، جنوب شرقي طرابلس ٣٠٩٠ متراً، وقمة ظهر القضيب القريبة منها ٣٠٤٠ متراً،

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٤ ـ ١٦، أنيس فريحة: أسماء القرى والمدن اللبنانية ـ جونيه ـ لبنان ١٩٥٦ ص ٣٠٤.
(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٦.
(٣) جودة حسنين جودة: المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٤١.

حيث أشهر غابة من بقايا الأرز ـ وفي أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) شقت طرق تخترق الجبل، على مقربة من القمة، وتربط مدينة «بعلبك» بطرابلس.

وهناك قمة ثالثة ـ قمة فم الميزاب ـ على مقربة من القمتين السابقتين، يبلغ ارتفاعها أكثر من ٣٠٠٠ متراً، وقد أنشىء في عام ١٩٥٠م مصعد كهربائي من غابة الأرز إلى قمة «فم الميزاب» لهواة التزلج والرياضة الشتوية، ومن هذه المجموعة الجبلية تنبع أنهر: الجوز وأبو علي والنهر البارد.

هذا وفي وسط سلسلة جبال لبنان الغربية، يرتفع «جبل صنين» (قرابة ٢٥٥٠ متراً)، وجاره «جبل الكنيسة» (٢٢٠٠ متراً)، وهناك كذلك جبال: الفتوح وكسروان والمهولة، وكلها قمم تتراوح ارتفاعاتها، فيما بين ٢٠٠٠، ٢٥٠٠ متراً.

ويتميز القسم الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الغربية، بأنه ضيق ومنخفض، وأعلى قممه «الباروك» (١٩٨٠ متراً)، شرقي بلدة «عين دارة»، وهناك جبل «النان» (١٩٢٠م) شرقي «عين زحلتا» و «نبع الصفا»، ثم هناك «جبل نيحا» (١٨٠٠م).

وعلى أية حال، فإن سلسلة الجبال الغربية، إنما تتحول في أطرافها الجنوبية إلى منطقة تلالية، تعرف باسم «جبل عامل» جنوب نهر القاسمية[١].

---

(١) جودة حسنين: المرجع السابق ص ٤٢، فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٦، وكذا H. Robert, West in Palestine Exploration Fund Quarterly Statement, London, 1861, P. 147-149.

٣ ـ سهل البقاع:

وهو المنطقة التي تفصل بين جبال لبنان الغربية والشرقية، وطوله قرابة ١٧٥ كيلاً، ويتراوح عرضه ـ باتجاه شرقي غربي ـ فيما بين ٩، ١٦ كيلاً، ومتوسط ارتفاعه عن سطح البحر ٨٠٠ متراً، وهو في أواسطه أعرض منه في طرفيه، وسهل البقاع يشكل حوالى ١/ ٥ مساحة لبنان.

هذا وقد عرف سهل البقاع عند مؤرخي الأغارقة والرومان باسم «سورية المجوفة» (Koele Syria)، وذلك في أعقاب فتوحات الإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ق. م)، ثم أصبح الاسم (سورية المجوفة) على أيام الحروب بين السلوقيين في سورية، والبطالمة في مصر، يشمل كل القسم الجنوبي من سورية بأكمله، وأما في العصر الروماني فقد أصبح يشمل البقاع (سورية المجوفة) وحوران، وجزءاً من شرق الأردن.

وأما من الناحية الجيولوجية فهو القسم الأوسط من «شق» أو «وهدة» كبيرة، تبدأ في الشمال عند منعطف نهر العاصي (Orontes) في سورية، ويمتد جنوباً حتى نهر الأردن، فوادي عربة، إلى خليج العقبة في البحر الأحمر[١].

هذا ويشق سهل البقاع نهر العاصي والليطاني، وينبعان على مقربة من «بعلبك» ولا يفصل نبع الواحد منهما عن الآخر، إلا بحوالى ١٥٠٠ متراً، وهما يرويان أرض سهل البقاع، وهي أرض خصبة مسطحة منبسطة ـ في معظمها ـ ومتموجة ـ في أقلها ـ.

وأما لفظ «بقاع» فهو جمع «بقعة»، ومعناها مكان فيه ماء آسن، أو هي لفظ سرياني معناه الشق أو التصدع، كما يدل عليه تكوينه الطبيعي.

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٨ ـ ١٩، جودة حسنين: المرجع السابق ص ٤٥، وكذا Strabo, BK, XVI, ch. 2, Pliny, BK, V, ch. 17, Ptolemy, BK, V, ch. 14.

وانظر:

R. Dussaud, La Penetration des Arabes en Syria avant L'Islam, Paris, 1950.

هذا ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن سهل البقاع هو المنطقة الزراعية الرئيسية في لبنان، وحاصلاته الرئيسية الحبوب، وقد كان في العهد الروماني بمثابة أهراء للحنطة والحبوب في الولايات السورية الرومانية، هذا فضلاً عن أن أرض سهل البقاع إنما تصلح كذلك أن تكون مراعي للماشية.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن المؤرخين والجغرافيين العرب إنما كانوا يقسمون البقاع إلى بقاعين، البقاع البعلبكي، والبقاع العزيزي، وليست تسمية جزء منه باسم «البقاع العزيزي» أنها نسبة إلى العزيز بن صلاح الدين الأيوبي (ت ١١٨٨م) أو نسبة إلى الخليفة الفاطمي «العزيز بالله» (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ـ ٩٩٦م)، وإنما هي نسبة إلى اسم معبود سامي قديم يدعى «عزيزو» (أي العزيز ـ بمعنى القوي الجبار الشديد)، وكانت عبادته شائعة في «حوران» وفي «تدمر»، وفي غيرهما من مجاوراتهما.

وهذا التقسيم العربي، لا ريب في أنه تقسيم صائب، يتفق مع تقسيمه إلى بقاع شمالي: يجري فيه، ويرويه نهر «العاصي» (Orontes)، وبقاع جنوبي يسيل فيه ويسقيه نهر «الليطاني» (Leontes)[١].

٤ ـ جبال لبنان الشرقية:

وهي تقابل جبال لبنان الغربية وتوازيها وتعادلها طولاً وارتفاعاً، وكانت تعرف قديماً باسم «بانتيليبانوس» (أي لبنان المقابل)، وهي اليوم «لبنان الشرقي».

وتبدأ هذه السلسلة من جبال لبنان الشرقية جنوبي «حمص» في سورية، وتمتد إلى «جبل الشيخ» (جبل حرمون)[٢]، ومنه تأخذ في

---

(١) جودة حسنين: المرجع السابق ص ٤٥ ـ ٤٧، فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٨ ـ ٢٠، وكذا Rene Dussaud, Topographie historique de la Syrie antique et Medieval, Paris, 1927 P. 47.

وانظر: هنري لامانس: تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ٢/ ٢٠ ـ ٢٣ (بيروت ١٩١٤).

(٢) حرمون: اسم حرمون عبراني الأصل، ومعناه مقدس، وأسماه الأموريون «شنير» =

الانحدار السريع خارج حدود لبنان، إلى أن تندمج في هضبة حوران، وتتصل بشرق الأردن، إلى أن تنتهي عند الطرف الجنوبي للبحر الميت.

هذا ويشطر نهر «بردى» (واسمه الكلاسيكي القديم إباناً) سلسلة جبال لبنان الشرقي إلى شطرين، الواحد شمالي، تكاد لا تجد على سفوحه الغربية قرية واحدة، وأبرز قممه العالية «جبل حليمة» (ارتفاعه ٢٤٦٤ متراً)، و «أرض الحمرة» (ارتفاعه ٢٣٧٢ متراً).

والثاني: شطر جنوبي، أبرز قممه حرمون (الشيخ) الذي يصل

= والفينيقيون سيريون (تثنية ٣/٩، قارن نشيد الإنشاد ٤/٨)، وكان جبل حرمون جبلاً مقدساً للإله «بعل حرمون» الذي ظلت عبادته معروفة هناك حتى بعد كتابة أسفار العهد القديم (التوراة) بزمن طويل، ويسمى الآن في العربية «الجبل الشيخ» وليس «جبل الشيخ»، وهي التسمية العامية التي أدت إلى خطأ بعض المترجمين، إذ يحسبونه جبل رجل شيخ، طاعن في السن، بينما المعنى هو الجبل المكلل رأسه بالثلج، كما يكلل الشيب رأس الشيخ، هذا وقد عرف جغرافيو العرب جبل الشيخ هذا باسم «جبل الثلج» وقد تكون هذه التسمية ترجمة لاسمه في اللغة الأرامية «طور ثلجا».

وأقدم ذكر لهذا الجبل في الأدب العربي، يرد في قصيدة لحسان بن ثابت ـ شاعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هذا ومن المعروف أن قمة جبل الثلج هذا، والتي تشرف على سلسلة من التلال المتداخلة، والأودية المتشعبة، مجللة بالثلج على مدار السنة، وفي نفس الوقت نرى بقعاً من الثلج، على هيئة خطوط متعرجة، تغطي الأودية المنتشرة على جوانبه.

هذا ويستطيع المرء أن يرى قمة جبل حرمون من فلسطين، ونهر الأردن، الذي يلقبه الشعراء العرب «بابن لبنان البكر» ينبع عند سفوحه، ويستطيع الواقف على قمته ـ إذا كان الجو صافياً ـ أن يرى دمشق وصور وجبل الكرمل وتلال الجليل وسهوله، وبحيرة الحولة، وبحيرة طبرية، هذا وليس هناك ما يؤيد الرأي القائل بأن «الجبل العالي» الذي صعد إليه المسيح عليه السلام، يوم التجلي، هو جبل حرمون (فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٢، إرميا ١٨/١٤، ديوان حسان بن ثابت ص ٧٨ ـ طبعة ليدن ١٩١٠، وكذا

F. M. Abel, Geographie de la Palestine, Paris, 1933, P. 347.

ارتفاعه (٢٨١٤ متراً) وتقوم على سفوحه الغربية قرى عامرة كثيرة، منها قرى درزية.

هذا ولا يقاس بلبنان الشرقي لبنان الغربي، من جهة معدل سقوط المطر، وجفاف الهواء، فإن المطر في السلسلة الشرقية أقل معدلاً، والهواء أشد جفافاً، ولا سيما في الجزء الشمال من هذه السلسلة.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى حدود جمهورية لبنان العربية، إنما هي خط يمر من فوق جبل حرمون، ثم يدور حول التلال: ذات الانحدار الشديد، في منطقتي الزبداني وبلودان[١].

ثانياً: المناخ

لعل من الأهمية بمكان الإشارة - بادىء ذي بدء - إلى أن المناخ في لبنان، إنما يتأثر بعدة عوامل جغرافية، تؤثر فيه بأشكال خاصة، وبدرجات متفاوتة، لكنها تتضافر فيما بينها لتتحكم في عناصره، وفي تكوين نوع مناخي متميز، يسود أرض لبنان.

وأما أهم عناصر المناخ المختلفة وأثرها في تنوع الأقاليم المناخية في لبنان فهي:

١ - الحرارة:

تختلف درجات حرارة الهواء الملامس لأرض لبنان من مكان إلى آخر، بل وفي نفس المكان الواحد، من فصل إلى آخر.

ففي الصيف: عندما تتعامد الشمس على مدار السرطان، ويتأثر لبنان برياح الخماسين المحلية التي تهب من الصحراء الغربية المصرية، ترتفع درجة حرارة الهواء الملامس لسطح الأرض كثيراً، خاصة في المناطق

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١.

الداخلية عنه في المناطق الساحلية، التي تتأثر نسبياً بتأثير البحر الملطف لدرجات الحرارة.

وفي فصل الشتاء، حيث تتعامد الشمس على مدار الجدي، تنخفض درجة حرارة الهواء الملامس لسطح أرض لبنان، ويتمثل ذلك بوضوح في الثنية المقعرة العظمى لمنحنيات الحرارة الشهرية، بمحطات الأرصاد الجوية المختلفة في لبنان.

وفي فصل الربيع يبدو التباين بين الساحل والسهل والجبل أكثر وضوحاً، إذ يبلغ الفرق بين متوسط حرارة الساحل، وقمم الجبال العالية، أكثر من ١٠م، ويدفأ الجو، وتصعد خطوط الحرارة صوب أعالي الجبال، إذ يحيط خط الحرارة ١٥م في شهر أبريل بمرتفعات غرب لبنان على ارتفاع ٨٠٠م، وخط الحرارة ١٠م، على ارتفاع ١٢٠٠م، بينما يكتنف خط الحرارة ٥م بالشواهق المكللة بالثلوج، ويظهر خط الصفر الحراري محيطاً بأعالي قمة جبل المكمل وقمة جبل الشيخ.

ويبقى الجو معتدلاً في ربوع لبنان في فصل الخريف، ويظهر أثر التضاريس والبحر في خفض المتوسطات الحرراية[1].

٣ ـ الأمطار:

من المعروف أن لبنان يحظى بفترة أمطار تمتد من أوائل اكتوبر، وحتى أواخر مايو، ولكنه يعاني الجفاف في الفترة من أوائل يونيو، وحتى أواخر سبتمبر.

وأمطار الخريف متقطعة وغير منتظمة، ويتركز سقوط المطر في شهور الشتاء (ديسمبر ويناير وفبراير) وأمطار يناير أغزرها جميعاً، كما يصحب سقوط المطر في الشتاء عواصف الرعد والبرق والرياح العاصفة، كما

---

(١) جودة حسنين: المرجع السابق ص ٥٣ ـ ٦٠، حسن أبو العينين: المرجع السابق ص ٤٢٤ ـ ٤٣١.

تساقط الثلوج والبرد، وتتناقص كمية الأمطار في الربيع، وتزداد وتطول فترات الطقس الصحو، أما أثناء فصل الصيف فيسود لبنان جفاف تام، خلال شهري يوليو وأغسطس، وشبه تام في يونيو وسبتمبر[١].

ثالثاً: الموارد المائية

يبلغ عدد الأنهار التي تجري في أرض لبنان ١٧ نهراً رئيسياً، منها ثلاثة لا يملك لبنان سوى بعض أجزاء من مجاريها، وهي: نهر الكبير الجنوبي ونهر العاصي ونهر الحصباني. وأما الأنهار الأخرى ـ وعددها ١٤ نهراً ـ فتجري فوق السفوح الغربية لجبال لبنان الغربية، ما عدا نهر الليطاني الذي يجري في البقاع نحو الجنوب، ثم نحو الغرب، حتى يصب في البحر المتوسط.

وهكذا نجد التضاريس تتحكم في اتجاه الأنهار، ومدى انحداراتها، فتنصرف مياه الجانب الغربي للجبل الغربي في البحر المتوسط، وهذه قد شقت لنفسها ودياناً خانقية عميقة، وتتميز هذه الوديان ـ إلى جانب العمق وشدة الانحدار ـ بالقصر، وسرعة الجريان، والامتلاء بالماء أثناء الشتاء والربيع، ولكن مجاريها تتحول في فصل الصيف الجاف وأوائل الخريف إلى مسايل صغيرة، ضحلة المياه، حتى إن بعضها ليكاد يبدو جافاً[٢].

١ ـ النهر الكبير الجنوبي:

يمتد مجرى نهر الكبير الجنوبي، مع الحدود الشمالية بين جمهوريتي لبنان وسورية، وهو ثاني أنهار لبنان من حيث مساحة حوضه، وعظم طول مجراه (بعد نهر الليطاني الذي يبلغ طوله ١٧٠ كيلاً)[٣]، ويبلغ طول مجرى

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٦٩.

(٢) جودة حسنين جودة: المرجع السابق ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) قارن: نهر النيل: الذي يخترق أكثر من ٣٥ درجة عرضية، ويبلغ طول نهر النيل ٦٦٧١ كيلاً (ثاني أطول أنهار العالم كله بعد المسيسبي)، وطوله في مصر ١٥٣٠ كيلاً.

نهر الكبير الجنوبي هذا نحو ٥٨ كيلاً، وينبع من مرتفعات جبل «عكار»، وهضاب الأكروم، وجملة مساحة حوضه ٣١٠ كيلاً، وتغذي الينابيع بعض الروافد العليا لهذا النهر، ومنها نبع القبيات ونبع الجوز ونبع عين العروس.

٢ ـ النهر البارد:

عرف النهر البارد أحياناً باسم «مشمش»، وينبع من جبل «عكار»، ومرتفعات رأس البرقاوية، ويصب غرباً في البحر المتوسط عند بلدة «العبدة» شمالي طرابلس، ويبلغ طوله نحو ٣٤ كيلاً، ومساحة حوضه ٢٧٧ كيلاً، وأهم الينابيع التي تغذيه: عيون السماق ونبع السكر، وينابيع مرجحيم، ومجراه سريع الانحدار، شديد النحت الرأسي.

٣ ـ نهر قاديشا ـ أبو علي ـ:

يطلق لفظ «قديشا» ـ بمعنى المقدس في السريانية ـ على القسم الأعلى من هذا النهر، بينما يطلق اسم «أبو علي» على قسمه الأدنى، وهو ـ على أية حال ـ، من أشهر أنهار لبنان، وأغزرها ماء، وأشدها وعورة.

وأما تسميته «قاديشا» ـ الوادي المقدس أو المقدس فقط ـ فترجع إلى العصور الوسطى، عندما وجد نساك الموارنة ورهبانهم في كهوفه ومغاوره ملاجىء أمينة، هذا و«دير قنوبين» (اسم يوناني بمعنى دير) ـ مقر البطريركية المارونية سابقاً ـ ليس سوى واحد من تلك الأديرة العديدة، التي أنشئت على جنبات الوادي.

هذا وينبع «نهر قاديشا ـ أبو علي» من مرتفعات الأرز والقرنة السوداء، ويمتد مجراه على شكل قوس، من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، ليصب في البحر المتوسط عند مدينة طرابلس.

على أن أهم الينابيع المائية لهذا النهر، إنما تتمثل في نبع «مغارة قاديشا»، وشلال قاديشا، وبعض الينابيع الثانوية، مثل نبع إهدن (نبع مار سركيس)، ونبع رشحين، ونبع العيون في القسم الشمالي من حوض هذا

النهر، هذا فضلاً عن نبع بكفتين، في الحوض الأدنى من هذا النهر، شرقي برسا.

وطول مجرى نهر قاديشا حوالى ٤٢ كيلاً، ومساحة حوضه حوالى ٤٨٥ كيلاً، هذا وتشح المياه في هذا النهر صيفاً، وفي أوائل الخريف[١].

٤ - نهر إبراهيم:

كان نهر إبراهيم هذا، يعرف قديماً بوادي «أدونيس» أو «نهر أدونيس»[٢]، وقد اكتسب هذا الاسم بسبب مياهه الحمراء اللون، المختلطة

---

(١) جودة حسنين: المرجع السابق ص ٨٣ - ٨٥، حسن أبو العينين: المرجع السابق ص ٤٩٣.

(٢) أدونيس: هو معبود تتصل عبادته بعبادة «عشتارت» بوثيق الصلة، لقد كانت عشتارت تحب «أدوني» (آذون بمعنى السيد أو الرب، وهو أدونيس الإله اليوناني، وهو كذلك تموز)، وكان أدونيس أشهر الرموز التي تمثل عامل الإخصاب، كما كانت عشتار أشهر الرموز التي تمثل مظهر الخصب.

وتشير الأساطير إلى موت أدونيس بسبب حقد معبود حاسد، على يد خنزير وحشي كان يصيده، ولما انتقل إلى العالم الآخر حل الموت بالطبيعة، فنزلت عشتارت إليه في العالم السفلي، وأقامته من الموت، فعادت الأرض إلى اخضرارها، وقد اشتهرت مدينة «جبيل» بقيام عبادة عشتار فيها، حيث قدّر أهلوها أن أدونيس لقي مصيره عند منبع نهر إبراهيم (ومن هنا جاءت تسمية نهر أدونيس)، مما جعل ماء النهر يصطبغ بالصبغة الأرجوانية من جراء ما تدفق إليه من دماء أدونيس.

وكانت احتفالات بعث أدونيس تجتذب الكثيرين، حيث كانت النساء يضحين بعفتهن وشعورهن، وكانت تمارس في الحفلات طقوس العويل والضرب بالعصي، تتبعها طقوس بعث أدونيس، بعث الشهوة التي يميزها ما يتم خلالها من دعارة وتهتك وفجور، ذلك لأن عبادة عشتار كذلك في الوقت نفسه تمجيد إخصاب الطبيعة، وكان الكهنة والخصيان يرقصون رقصاً عنيفاً، ويطعنون أنفسهم بالمدى والسكاكين، فإذا جن الليل جاء الكهنة بنور خفي، وفتحوا قبر الإله الشاب أدوني، ونودي بأنه قام من الأموات.

وهنا يمسون شفاه عُبّاد أدوني ببلسم في أيديهم، ثم يُسرون لهم بأنهم سيقومون من قبورهم يوماً ما - كما فعل أدونيس - وعندئذٍ يعم الفرح الناس، ولا سيما النساء =

بالمواد البازلتية والطينية الحمراء والمفتتة، من غرب منطقة العاقورة، ومن منطقة قرطبة، وقد اعتبرت مياه النهر ذات اللون الأحمر، رمزاً لدماء الإله الشاب «أدونيس».

وينبع هذا النهر من مغارة «أفقا» (Aphacca) عند سفح جبال عال، يشبه ملعباً مدرجاً، كان فيما مضى موقعاً لمزار مقدس شهير (أفقا)، كما يأتي البعض الآخر - من نبع ثانوي - هو نبع العاقورة، أو نبع الريس، فضلاً عن نبع الحديد في منطقة قرطبة.

ويمتد نهر إبراهيم على شكل مجرى عرضي قليل المنعطفات من الشرق إلى الغرب ويصب في البحر المتوسط، على مبعدة ٦ كيلاً جنوبي جبيل، ويبلغ طول النهر حوالى ٣٠ كيلاً، وجملة مساحة حوضه ٣٣٣ كيلاً.

وتتميز المناطق العليا لحوض نهر إبراهيم - والواقعة إلى الشمال من منبعيه في أفقا والعاقورة - بتقطعها بأودية شبه جافة، لا تجري فيها المياه إلا إبان فصل الشتاء، وفي نفس الوقت فإن النهر إنما يعد دائم الجريان إلى أسفل مناطق منابعه، كما يتميز مجرى نهر إبراهيم بشدة انحداره، وسرعة جريانه.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن نهر إبراهيم - شأنه في ذلك شأن المجاري النهرية في وسط وشمال مرتفعات لبنان الغربية لنهر البارد وقاديشا والجوز والكلب - إنما تختلف قدرة تصريفه المائي من فصل إلى آخر، فهو في الشتاء عظيم الجريان، سريع التيار، هائل التدفق، ويعظم تصريفه في أخريات مارس، وأوائل أبريل عند ذوبان الثلج، وفي فصل الصيف تهبط كمية التصريف المائي، كما تتذبذب كمية المياه في النهر من سنة إلى

= فينذر بعضهم عفافهن، ولقد نشأت هذه الدعارة الدينية - أو البغاء المقدس - مع عبادة عشتار (نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ٣/٧٦ - ٨٠، ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٢٤ - ١٢٧).

أخرى، لأن ذلك إنما يتوقف على مدى كمية الأمطار السنوية الساقطة، وكمية ثلج الشتاء، وسرعة عملية ذوبانه، وبالتالي كمية المياه الجوفية المتجمعة في الخزانات الصخرية المغذية للعيون المائية في حوض النهر[1].

٥ ـ نهر الكلب:

تصدر مياه نهر الكلب من نبعي اللبن والعسل في السفوح الغربية لمرتفعات الفتوح وجبل صنين، وتصب في البحر المتوسط إلى الجنوب من بلدة «جونيه» بعد أن تقطع ٣٠ كيلاً، ومساحة حوضه نحو ٦٠ كيلاً، وتستمد مدينة بيروت بعض ما تحتاج إليه من مياه من هذا النهر.

هذا وتمثل «مغارة جعيتا»[2] ـ غربي بلدة فريكة ـ مخرجاً لنهر باطني يمتد لمسافة ٦ كيلاً في الصخور الجوراسية، وعلى مقربة من هذا المخرج تشاهد ينابيع «كشكوش» التي تشكل بدورها مورداً هاماً للنهر.

هذا وقد سمي هذا النهر باسم «نهر الكلب» نسبة إلى ما ظنه الناس ـ خطأ ـ أنه تمثال كلب نحت في الصخر، وكان هذا الكلب يحرس المضيق، فكان ـ عند اقتراب العدو ـ ينبح فيسمع ـ كما تقول الأسطورة ـ صوت نباحه، في كل أرجاء المحلة، فيتنبه السكان للخطر الداهم.

ويرجح البعض أن العرب عندما افتتحوا البلاد حطموا التمثال ورموه في البحر، كرهاً للتماثيل والصور، وقد بقي التمثال مغموراً في الماء حتى عام ١٩٤٢م، عندما عثرت عليه الفرقة الأسترالية التي كانت تقوم ببعض الأعمال العسكرية في هذه المنطقة أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩

---

(١) حسن أبو العينين: المرجع السابق ص ٤٩٣ ـ ٤٩٥.

(٢) مغارة جعيتا: أكبر مغارة في لبنان، وهي مغارة عجيبة، ذات مناظر من الداخل رائعة لما فيها من الترسبات الكلسية المتدلية بشكل مقرنصات، وأخرى مرتفعة عن أرض الغابة، وقاعات فسيحة، وأعمدة ارتفاعها أكثر من ١٠٠ قدم، وهي من الأماكن التي يقصدها السياح، وقد استطاع روادها أن يدخلوها بقوارب إلى مسافة تزيد على ٣ أميال (حوالى ٥ كيلاً).

ـ ١٩٤٥م)، وقد وجد أن التمثال ليس تمثال كلب، وإنما تمثال ذئب، وهو محفوظ الآن بالمتحف اللبناني الوطني في بيروت.

هذا وقد أسماه مؤرخو اليونان والرومان بنهر الذئب (Lycus)، وليس نهر الكلب، وروى «سترابو»[١]: أن بحارة أرواد كانوا يبحرون بمراكبهم في النهر صعوداً إلى منابعه.

وهناك من يذهب إلى أن تسمية النهر باسم «نهر الكلب» إنما كان سببه صنماً أقيم هناك على هيئة كلب، كان يتعبد إليه سكان المحلة، ويرجح البعض أن ذلك إنما كان على أيام السيطرة المصرية، حيث أقيم هناك تمثال آلهة مصرية يشبه حيواناً، أو إنساناً رأسه رأس حيوان[٢].

وأيا ما كان سبب التسمية، فهناك عند مصب نهر الكلب ـ على مدى بضعة أميال شمالي بيروت ـ حيث يغسل الجبل قدميه عند البحر، خلف لنا الدهر، على صفحة الصخر الكلسي تسعة عشر نقشاً كتابياً، بلغات ثمان المصرية والآشورية والبابلية واليونانية واللاتينية والإنجليزية والفرنسية والعربية ـ هناك عند هذا الممر كان أهل لبنان ـ بعددهم القليل ـ يصمدون في وجه الأجنبي المجتاح.

وكان أول من خلد ذكر مآثره العسكرية نحتاً أو كتابة، إنما كان فرعون مصر العظيم «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ق. م) عدو الحيثيين، وذلك في العام الرابع من حكمه (حوالى عام ١٢٨٦ق. م)، حيث يعبر الفرعون بقواته فلسطين وفينيقيا، حتى نهر الكلب، وحيث يقيم هناك أول لوحة تذكارية في هذا المكان.

ثم سار في أعقابه موكب الغزاة «إسرحدون الأشوري» (٦٨١ ـ ٦٦٩ق. م)، و «نبوخذ نصر البابلي» (٦٠٥ ـ ٥٦٢ق. م)، والسلطان

---

(١) Strabo, BK, XVI, ch. 2

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٣٤ ـ ٣٥، وكذا Herny Maundrell, A Journey From Aleppo to Jerusalem, Oxford, 1707, P. 36.

سليم الأول العثماني (١٤٩٤ ـ ١٥٦٦م)، والقائد الإنجليزي «اللورد اللنبي» في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) والقائد الفرنسي «جورو» في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م).

وإلى جانب هؤلاء نلتقي بالامبراطور الروماني «ماركوس أوريليوس» (١٦١ ـ ١٨٠م)، و «كراكلا» (١٩٣ ـ ٢١٧م).

غير أن هناك من العظماء من اجتازوا المضيق، عند هذه الصخرة، ولم يسجلوا أسماءهم مثل «الإسكندر الأكبر» (٣٥٦ ـ ٣٢٣ق. م) و «صلاح الدين الأيوبي» (١١٣٧ ـ ١١٩٣م).

وفي عام ١٨٦٠/١٨٦١م، جاءت الحملة الفرنسية التي بعث بها «نابليون الثالث» (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣م) للمساهمة في إحلال السلام بين الموارنة والدروز، فقام قائد الحملة بمحو نقش مصري ـ بالحروف الهيروغليفية ـ وكتب نقشه مكانه، وفي عام ١٩١٨م نقش الجيش البريطاني نقشاً سجل فيه أعماله، ثم أجرى له بعض التعديل عام ١٩٣٠م، كما قام الفرنسيون عام ١٩٢٠م بكتابة نقش أشاروا فيه إلى احتلالهم دمشق.

وكان خاتمة النقوش، نقش عربي، أقامه لبنان تخليداً لذكرى جلاء آخر جندي من جنود عهد الانتداب الفرنسي في ٣١ ديسمبر ١٩٤٦م[١].

٦ ـ نهر بيروت:

ينبع نهبر بيروت من نبع «حماتا» (نبع شاغور حماتا في سفح جبل الكنيسة)، ويعرف «بنهر المتين»، هذا فضلاً عن الأمطار التي تسقط فوق السفوح الغربية لجبلي الكنيسة وصنين، ويعرف «بنهر صليمة».

هذا ويتشكل نهر بيروت (بيريت القديمة) من التقاء الرافدين (المتين وصليمة) فيما بين محلتي «بيت مري» في الشمال، و «العبادية» في الجنوب.

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٣ ـ ٤.

ثم يتجه النهر بعد ذلك، على شكل مجرى عرضي من الشرق إلى الغرب، ثم يغير مجرى النهر اتجاهاته فجأةً، ويصبح على شكل زاوية قائمة، فيصب في خليج «سان جورج» في شرق بيروت، وهنا يغذي نبع الباشونة مجرى النهر.

ورغم عظم حجم مياه النهر، خلال فصل الشتاء، غير أنه في فصل الصيف يكاد يكون في معظم أجزائه جافاً تماماً، وطول نهر بيروت حوالى ٢٩ كيلاً، وجملة مساحة حوضه ٢٣١ كيلاً.

وفي العصر الروماني كانت مدينة بيروت تشرب من نهر بيروت (واسمه الكلاسيكي ماجوراس)، ولا تزال آثار القناة القديمة لجر مياه النهر قائمة، عند مكان يعرف بـ«قناطر زبيدة»[١].

٧ ـ نهـر الدامـور:

سمي هذا النهر باسم «الدامور» نسبة إلى بلدة قريبة من مصبه تدعى «الدامور»، وربما كان اسم الدامور هذا، اسم إله فينيقي (Damuras) الذي كان أبا الإله الفينيقي «ملقارت»، كما يسمى نهر «الدامور» كذلك «نهر تاميراس» (Tamyras).

ويمتد حوض نهر الدامور إلى الجنوب من حوض نهر بيروت، وتتمثل منابعه العليا في السفوح الجبلية الغربية لجبل الباروك، كما يستمد النهر مياهه من عدة ينابيع رئيسية ـ الصفا، وعين دارا، والقاع ـ ثم يؤخذ قسم من مياهه إلى بيت الدين ودير القمر.

هذا ويمتد النهر ـ إلى الغرب من راشميا ـ في مجرى عرضي خانقي

---

(١) حسن أبو العينين: المرجع السابق ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧، فيليب حتي: المرجع السابق ص ٣٤.

ونلاحظ هنا أن المراد بـ«زبيدة»، ليست السيدة زبيدة ابنة جعفر بن الخليفة المنصور، وزوج الخليفة الرشيد، وأم الخليفة الأمين، وإنما المراد الملكة الزباء ملكة تدمر.

من الشرق إلى الغرب، ليصب في البحر المتوسط، جنوبي بلدة الدامور، وطول النهر ٤٠ كيلاً، وجملة مساحة حوضه حوالى ٢٢٨ كيلاً[١].

٨ ـ نهر الأولي:

عرف نهر الأولي في العصور الوسطى باسم «نهر الفراديس»، وسمي في المصادر الكلاسيكية «بوسترانوس»، نسبة إلى قرية تدعى «بسري» يمر النهر فيها، وأما لفظة «الفراديس» ففارسية الأصل، بمعنى «جنائن» (حدائق) كما عرف كذلك باسم نهر «أسكليبيوس» (Asklepios)، وأما اسمه الحالي «الأولي» فنسبه إلى أنه يمر في صيدا، وكانت في القرن السادس عشر، المدينة الأولى، وعاصمة لبنان الجنوبية.

هذا وتنبع روافد نهر الأولي العليا الشمالية من مرتفعات الباروك، عن طريق نبع الباروك، وأما روافده الجنوبية، فتنبع من السفوح الغربية لجبل «نيحا»، وعن طريق نبع «جزين».

ويجري النهر في قسم منه في خانق عميق، ويعترض مجراه الكثير من المساقط والمسارع، وطول ٤٥ النهر كيلاً، ومساحة حوضه ٣٠٠ كيلاً، ويصب في البحر المتوسط شمالي صيدا كمية من المياه[٢].

٩ ـ نهر الليطاني:

يعتبر نهر الليطاني أهم أنهار لبنان وأطولها، وينبع من هضبة بعلبك، التي يعلو منسوبها إلى أكثر من ١٠٠٠م، عند بقعة تقع على مبعدة ١٠ كيلاً غربي بعلبك، ويجري بجميع طوله (١٧٠ كيلاً) داخل الأراضي اللبنانية، حتى يصب في البحر المتوسط عند بلدة «القاسمية»، شمالي صور.

---

(١) أنيس فريحة: أسماء القرى والمدن اللبنانية ص ١٣٩، حسن أبو العينين: المرجع السابق ص ٤٩٧.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٩٧، فيليب حتي: المرجع السابق ص ٣٥ ـ ٣٦، جودة حسنين جودة: المرجع السابق ص ٨٦.

وتسير حدود نهر الليطاني في الشمال، مع عتبة بعلبك، التي تفصل بينه وبين حوض نهر العاصي، الذي يجري شمالاً متجهاً إلى سورية، وأما في الغرب فتسير حدوده مع أعالي قمم جبال صنين والكنيسة والباروك ونيحا، وفي الشرق مع قمم المرتفعات الشرقية، وفي الجنوب مع أعلى جبل عامل[1].

وتبلغ مساحة حوض نهر الليطاني ٢١٦٨ كيلاً، ويقع بكامله داخل حدود لبنان، وإن كان البقاع يستحوذ على ٨٤٪ من مساحة حوضه، وعلى أية حال، فنهر الليطاني من أهم أنهار لبنان، فهو يروي مساحة واسعة من سهول البقاع وصيدا وصور، كما يمد عدداً من المحلات العمرانية بمياه الشرب، .

هذا وقد أقيم سد على نهر الليطاني (Leontes) عند بلدة «القرعون» لخزن مياهه، والإفادة منها في أغراض الري وتوليد الكهرباء[2].

١٠ ـ نهر العاصي:

يعد نهر العاصي أطول الأنهار التي تصب في الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وطول مجراه يزيد عن ٦٠٠ كيلاً، ومساحة حوضه ٦٣٠٠٠ كيلاً، غير أنه لا يجري في أرض لبنان إلا القسم الأعلى منه، والذي لا يزيد عن ٤٠ كيلاً بينما تمتد بقية أجزاء مجراه في سورية.

هذا وتأتي مياه نهر العاصي (Orontes) من نبعين، الواحد: نبع

(١) جودة حسنين: المرجع السابق ص ٨٨ ـ ٨٩، وانظر:

Rene Dussdud, Topographie historique de la Syrie-Antique et Medievale, Paris, 1927, P. 47.

(٢) كانت لبنان قد عقدت اتفاقية مع الحكومة الأمريكية في عام ١٩٥١م، على أن ينشأ خزانات وأقنية للري، ولتوليد الكهرباء من المساعدات الأمريكية المعروفة باسم «النقطة الرابعة» وعرف هذا المشروع باسم «مشروع الليطاني» (فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٩ ـ ٢٠).

في الواقع لا تعدو أن تكون مجرد برك، وأشهرها: بحيرة اليمونة، وبركة الزيتية، وبركة رام الزيتية، وبركة راس العين(1).

رابعاً: النبات

لا ريب في أن نبات لبنان الطبيعي إنما هو انعكاس لتفاوت ظروفه المناخية، وتنوع أشكال سطحه، وتباين ترباته، كما أن العامل البشري له أثر في توزيعه الحالي.

هذا ومن المعروف أن الغابات إنما كانت تغطي مساحات أكبر مما هي الآن، وقد قام الإنسان ـ منذ القدم ـ بقطع كثير من الأشجار لاستخدام أخشابها في مختلف الأغراض، وأخصها بناء السفن.

والتاريخ يحدثنا أن غابات لبنان إنما قد استغلها ـ على مدى التاريخ ـ الفراعنة والفينيقيون والأغارقة والرومان، والعرب والمماليك والعثمانيون.

هذا وتدل الإحصائيات على أن ٧٪ من أرض لبنان مكسوة بالغابات، وهي نسبة توازي نحو ٧٠ ألف هكتار (١٧٥ ألف فدان).

وقد استرعت جودة النبات في لبنان، وتنوع شجره وفاكهته وخضاره، نظر السياح والعلماء على مرّ الأجيال، ويكتب الدمشقي ـ حوالى عام ١٣٠٠ م، فيقول:

«وفي جبل لبنان ـ ولا سيما عند سفوحه ـ قرابة تسعين نوعاً من أنواع النباتات والحشائش التي تنمو بصورة طبيعية، دون عناية الإنسان بها، فهي في متناول جميع الناس، علماً بأن منافعها عظيمة، وتكثر الفاكهة فيه»(2).

ويقدر عالم النبات «جورج بوست»: أن عدد أنواع النبات في لبنان،

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٩١ ـ ٩٥.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٣٦ ـ ٤٦، وانظر: الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ بطرسبورج ١٨٦٥م ـ ١٨٦٦م ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ (ط A.F. Mehren).

وفي البلدين المجاورين له ـ فلسطين وسورية ـ يبلغ ٣٥٠٠ نوعاً، ومما يزيد في جمال لبنان، روعة أزاهيره: شقائق النعمان، والأقحوان، والبرواق، ودويك الجبل، والدفلة، حشائشه وشجيراته ذات الزهر العطر، تضمخ جوّه برائحة عبقة، ووجه أرضه في الربيع سجادة خضراء، ومزارعه على السفوح المدرجة صورة زيتية، رائعة الألوان[١].

وفي التوراة نقرأ عن لبنان، فمثلاً نقرأ في سفر نشيد الإنشاد:

«هلمي معي من لبنان يا عروس، معي من لبنان»[٢].

ويقول: «ورائحة ثيابك كرائحة لبنان»[٣].

ويقول: «لأن الشتاء قد مضى، والمطر مر وزال، الزهور ظهرت في الأرض، بلغ أوان القضب، وصوت اليمامة سمع في أرضنا، التينة أخرجت فجها، وقعال الكروم تفيح راحتها، قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالي»[٤].

هذا وأشهر أشجار غابات لبنان: البلوط، والصنوبر، والعرعر، والأرز، والشربين والزيتون[٥].

هذا وكان النخيل في لبنان قديماً أوفر منه الآن، وإن كان من غير المؤكد أن لفظ «فينيقيا» معناه «بلاد النخيل»، وربما الأرجح أن اللفظ مشتق من اللفظ اليوناني «فوينكس» (Phoenix).

---

(١) G. E. Post, Flora of Syria, Palestine and Sinai, I. Beirut, 1932 P. III.

(٢) نشيد الإنشاد ٤/٨.

(٣) نشيد الإنشاد ٤/١١.

(٤) انظر عن لبنان في التوراة (ملوك أول ٥/٦ ـ ١٠، ٩/١٤، ملوك ثان ٩/٢٣، إرمياء ١٨/١٤، هوشع ١٤/٦ ـ ٧، أشعياء ٦٠/١٣، زكريا ١١/١، عزرا ٣/٧، خروج ٢٧/٥).

(٥) انظر عن النبات في لبنان: فيليب حتي: المرجع السابق ص٣٦ ـ ٤٦، حسن أبو العينين: المرجع السابق ص ص ٦٠٥ ـ ٦٤١، جودة حسنين: المرجع السابق ص ١٠١ ـ ١٠٧.

وكانت لبنان ـ منذ القدم ـ مشهورة بالفواكه ـ كالزيتون والتين والجميز ـ وبعض هذه الأشجار كان نادراً ـ وربما غير معروف ـ في مصر، ومن ثم فقد رأينا الفرعون «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق. م)، بعد غزوه لبلاد الشام، يأمر بتصوير فاكهة سورية ـ كالعنب والرمان ـ في نقوشه، بل إنه ليأمر بجمع الزهور والنباتات النادرة، والطيور المختلفة من أرجاء دولته الواسعة، وتربيتها في قاعة ملحقة بمعبد أمون في الكرنك[١].

خامساً: الحيوان

عرف لبنان تقريباً جميع الحيوانات الأليفة التي عرفتها دول الشرق الأدنى القديم، كالحمار والبغل والحصان والماعز والغنم والبقر، وكلها حيوانات آسيوية، بخلاف الحصان ـ وموطنه الأصلي أمريكا ـ فلقد دجن في البلاد الواقعة شرقي بحر قزوين، ومن هناك انتقل إلى الحيثيين، فالهكسوس، الذين أدخلوه سورية ولبنان ومصر، قبل الميلاد بسبعة عشر قرناً[٢].

كذلك عرف لبنان الدجاج والكلاب والقطط، وجميعها دجنت في غربي آسيا منذ أقدم العصور.

ثم هناك الثيران، ذات القرون المستديرة، والتي تسمى «بوس براشيروس» (Bos-Brachyrecos)، والجاموس والثيران الحدباء.

وأما «البعير»، فهو كالحصان، لم يدخل «فينيقيا» إلا في الألف الثاني قبل الميلاد، وبدهي أنه ـ مع وفرة الأسماك على الشواطىء الفينيقية ـ أن تكون الأسماك مورداً عظيماً من موارد التموين، غير أن وجود التمساح

---

(١) محمد بيومي مهران: مصر ٣/ ٧٦، ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٣٠، وكذا Chabas, Voyage d'un Egyptèan, P. 116-155.

(٢) انظر (أحمد صابون: دراسة حول الخيل في مصر القديمة ـ الإسكندرية ١٩٩٠).

ـ رغم أنه نوع صغير جداً، بالنسبة للتماسيح التي في نهر النيل ـ إنما كان خطراً على السمك.

وكانت الثعابين وافرة الكثرة إلى حد كبير، كما كانت العقارب والجراد ـ وهي من وفود الصحراء الشرقية ـ كثيرة كذلك[1].

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٣١ ـ ٣٢.

الفصل الثاني

مصادر التاريخ الفينيقي القديم

تعتمد الدراسة في تاريخ فينيقيا ـ أو المدن الفينيقية ـ على مصادر أربعة رئيسية هي: الآثار، وما كتبه الرحالة والمؤرخون من الأغارقة والرومان الذين زاروا بلاد الشام ـ ولبنان بصفة خاصة ـ وكتبوا عنها كتباً، أو فصولاً من كتب، ثم المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم ـ وخاصة المصرية والآشورية والبابلية والفارسية وغيرها، وأخيراً ما جاء في التوراة والإنجيل عن لبنان وأحوال مدنه المختلفة، ولنتحدث بشيء قليل من التفصيل عن هذه المصادر:

أولاً: الآثـار

لا ريب في أن الآثار التي تركها لنا الفينيقيون، وما تمد به الباحث في تاريخ فينيقيا من معرفة، سطرت على جدران المعابد والمقابر والتماثيل ولوحات القبور والتوابيت وغيرها، إنما هي المصدر الأول لتاريخ المدن الفينيقية القديم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أننا نعني بالمصادر الأثرية، كل الآثار المادية الباقية، والتي تبدأ بما خلفه الإنسان البدائي القديم في دهوره الحجرية، من أدوات متواضعة، ورسوم بدائية متفرقة، كما تتضمن أساساً ما تركته الجماعات الفينيقية المتحضرة في عصورها التاريخية، من

آثار معمارية قائمة، كبقايا المعابد والأسوار والحصون والمساكن والمقابر، وما عثر عليه في هذه وتلك، من آثار منقولة متنوعة لفنون النحت والنقش وأدوات الزينة، وأدوات الاستعمال اليومي، في مناطق عدة من الوطن الفينيقي القديم.

ولا ريب في أن الآثار إنما هي التاريخ الحي لأهلها، أو هي الشاهد الصادق على حضارة أصحابها، فهي تكشف عن مدى التقدم ـ أو مدى البداوة ـ في إنتاجهم، ومدى الثراء، أو مدى الفقر في إمكاناتهم، ومدى الأصالة ـ أو مدى التقليد ـ في صناعاتهم، ومدى التأثر ـ أو مدى التأثير ـ بين حضارتهم، وحضارة جيرانهم.

ثم هي ـ أي الآثار ـ إنما تعبر عن هيئاتهم وأزيائهم، وطبيعة أذواقهم، وليس هناك من ريب، في أنه كلما زاد الكشف عن هذه الآثار، كلما زادت الحصيلة التي يستنتج منها تاريخهم.

هذا وقد يضاف ـ إلى مدلول الآثار ـ ما يهتم به علماء «الأنثروبولوجي» من دراسة البقايا البشرية، التي يمكن أن تحدد السلالات، ومدى النقاء، أو مدى الاختلاط الجنسي فيها.

ثم هناك كذلك ما يهتم به علماء الجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية من دراسة التكوينات البيئية، لتحديد أماكن المياه، والواحات، مواطن الاستقرار والاستثمار القديمة، ومناطق المناجم، وظروف المناخ، ومسالك الهجرات والتجارة... الخ[1].

وسوف نتحدث ـ في الفصل التالي ـ عن أهم الآثار الفينيقية التي كشفت، والجهود العلمية التي بذلت في كشفها، وقراءة نصوصها، ومن ثم التأريخ لها.

---

(١) عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة ص ٦ ـ ٥، محمد عبد الحليم نور الدين: مقدمة في الآثار اليمنية ـ منشورات جامعة صنعاء ـ ١٩٨٤ ص ٢٦ ـ ٣٢.

ثانياً: كتابات المؤرخين اليونان والرومان

تميزت الفترة فيما بين القرنين ـ السادس قبل الميلاد، والثاني بعد الميلاد ـ بزيارة عدد كبير من الأغارقة لدول الشرق الأدنى القديم ـ ومنها بلاد الشام، بما فيها فينيقيا ـ مؤرخين كانوا أم رحالة ـ وكتبوا عن البلاد التي زاروها كتباً، أو فصولاً من كتب.

على أن الباحثين إنما يلاحظون على كتابات المؤرخين من الأغارقة والرومان عدة نقاط ضعف، لعل من أهمها (أولاً) أن البعض منهم إنما قد تحروا الصدق، فيما قالوا أنهم قد رأوه بأنفسهم، غير أن كثيراً منهم، إنما قد أساءوا فهم ما رأوه، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب في تفسير، أو تعليل ما سمعوه، أو وقعت أبصارهم عليه، ومن هنا فإن المؤرخين المحدثين، إنما ينظرون إلى هذه الكتابات بعين الحذر.

ومنها (ثانياً) أن هؤلاء الكتاب إنما قد اعتمدوا في الكثير من معلوماتهم على الأحاديث الشفوية، التي كانوا يتبادلونها مع من قابلهم من سكان المنطقة التي يزورونها، وذلك لأنهم كانوا يجهلون كتابات هذه البلاد.

ومنها (ثالثاً) أن كثيراً منهم قد كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية ـ أو الرومانية وكثيراً ما كانت كتاباتهم في وقت اختلفت فيه مصالح بلادهم مع مصالح البلاد التي كانوا يكتبون عنها.

ومنها (رابعاً) روح التعصب التي عرفت عن الغربيين لحضارتهم، وإظهارها، وكأنها أرقى من غيرها، وذلك عن طريق عرض نواحي الغرابة في الحضارات الشرقية، التي عاصرتها، أو سبقتها.

ومنها (خامساً) أن كثيراً من هؤلاء الرحالة والمؤرخين إنما قد وفدوا إلى بلاد الشرق، كما يفد السائح العادي، يلتمس الشوادر والنوادر، أكثر ما يلتمس الحقائق.

ومنها (سادساً) أن كثيراً من هؤلاء الكتاب من الأغارقة والرومان إنما قد احتفظ بذكرياته عن البلاد التي زارها ـ من بلاد الشام ومصر ـ في ذاكرته، وبملاحظات دونها بإيجاز، ولم يكتب بإسهاب، إلا بعد أن طوّف في بلاد أخرى، وبعد أن عاد إلى وطنه، ومن ثم فقد اختلط عليه بعدما شاهده، واحتفظ في ذاكرته، وعمّم أموراً ما كان ينبغي له أن يعممها(١).

ومن البدهي أن تكون النتيجة الطبيعية لذلك كله، أن كتابة هؤلاء المؤرخين قد امتلأت بالكثير من الأخطاء والأراجيف والتناقضات، وبالتالي فقد أدت إلى خلق الأساطير والخرافات عن الحياة في البلاد التي زاروها، ثم بدأوا يكتبون عنها، بعد أن عادوا إلى بلادهم(٢).

وأما أشهر من كتب من الكتاب من الأغارقة والرومان فهم:

١ ـ هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٣٠ق.م):

ولد «هيرودوت» ـ أو «هيرودتس الهاليكارناسوس» ـ في مدينة «هاليكارناسوس» ـ وهي مستعمرة دورية في إقليم «كاريا» تدعى الآن (Budrnn)، في جنوب غرب آسيا الصغرى ـ في عام ٤٨٠ قبل الميلاد(٣).

---

(١) عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٤٠، محمد جمال الدين مختار: تاريخ الحضارة المصرية ص ٨٢ (القاهرة ١٩٦٢م).

(٢) محمد بيومي مهران: مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الأول ـ مصر ١/ ٧٢ ـ ٧٤.

(٣) اختلف الباحثون في ميلاد وموت «هيرودوت» فذهب فريق إلى أنه ولد عام ٤٨٩ق. م، ورأى آخرون أنه ولد في عام ٤٨٤ ق. م، على أن هناك وجهاً ثالثاً للنظر يذهب أصحابه إلى أن الرجل قد مات عام ٤٣٠ ق. م، وهناك وجهاً رابعاً للنظر يرى موته في عام ٤٣٥ ق. م (أحمد بدوي: هيرودوت يتحدث عن مصر ـ ترجمة محمد صقر خفاجة ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ١٢، ا. ج، إيفانز: هيرودوت ص ٥، وكذا

H. Gardiner, Egypt of the pharaohs, Oxford, 1961, P. 3.

هذا ويبدو من كتاب هيرودوت، أن صاحبه إنما قد شهد بعض أحداث الحرب البيلوبونيزية (٤٣١ ـ ٤٠٤ق. م)، في مرحلتها الأولى، ومن ثم، فأكبر الظن أن يكون هيرودوت قد عاش فيما بين الحرب الميدية (٥٠٠ ـ ٤٧٥ق. م) التي دفعت بحضارة اليونان إلى المجد، وبين الحرب البيلوبونيزية التي كادت أن تودي بهذه الحضارة، أي أن هيرودوت إنما كان يعيش في العصر الذهبي من التاريخ اليوناني[1].

وأياً ما كان الأمر، فإن «هيرودوت» إنما قد نشأ في أسرة معروفة، وربما قد شارك في أحداث بلده السياسية، ومن ثم فقد تعرض لألوان من المحن والابتلاءات التي أثرت في حياته، ودفعته إلى الهجرة إلى «ساموس» ـ إحدى جزر بحر إيجة، وكان يسكنها منذ القرن ١١ق. م، يونان إيونيون، وكانت مسقط رأس فيثاغورس ـ ومنها قام هيرودوت برحلاته العديدة، حيث زار مصر وبلاد الشام، بل وجاوز «بابل»[2] و «همدان» ـ وهي أكبتانا عاصمة ميديا، على أيام «كيروش الثاني» (٥٥٨ ـ ٥٣٠ق. م)[3].

---

(١) وهيب كامل: هيرودوت في مصر ـ القاهرة ١٩٤٦ ص ٥.

(٢) بابل: مدينة قديمة تقع على الفرات، على مبعدة ٩٠ كيلاً جنوبي بغداد، ويقوم على أطلالها حالياً ـ تل بابل والقصر وعمران بن علي والمركس، وقرى أخرى مثل عنانة وكويرش وجمجمة واندسار ـ وأكبر الظن أنها نشأت قبل وصول الآموريين إليها، وقد عرفها السومريون باسم «كدنجيرا»، ثم أطلق عليها الأموريون اسم «بابل»، بعد أن كبرت واتسعت، وأصبحت عاصمة لهم على أيام أسرة «بابل الأولى»، ثم كانت عاصمة للدولة البابلية ثم الكلدانية، حيث رأت على أيام «نبوخذ نصر» (٦٠٥ ـ ٥٦٢ق. م) أوج عظمتها، وتشير النصوص إلى أنه كان بها ٥٣ معبداً رئيسياً، ٣٦٠ محراباً ثانوياً، أشهرها معبد مردوك، كما كان للمدينة ثمانية أبواب رئيسية، أحدها باب عشتار (أندريه بارو: بلاد أشور ـ بغداد ١٩٨١ ص ١١٩ ـ ١٢٠، محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٥ ـ ٢١٨. وكذا

M.F. Unger, Ungers Bille Dictionary, P. 115-116.

(٣) انظر: Herodotus, I, 177-130.

وكذا Strabo, XV, 3, 8.

وكذا Raux, (G), Ancient Iraq, 1980, P. 354-355.

ثم تنقل بين شواطىء البحر الأسود، وجنوب روسيا، وفي عام ٤٤٤ق. م، توجه إلى بلدة «توريم» (توري) بجنوب إيطاليا، مع فئة من المستعمرين، الذين أرسلهم «بيريكليس» إلى إيطاليا، ومن ثم فقد أصبح هيرودوت من أوائل مستوطني «توريم» التي بقي فيها حتى وافاه أجله، ودفن في سوق المدينة، التي كان يحبها، حباً دفع بعض المؤرخين إلى نسبته إليها، فدعوه «هيرودوت الثوري».

وهناك في «ثور» عكف هيرودوت على كتابة سفره الضخم، الذي قسمه النحويون السكندريون إلى تسعة أجزاء، كل جزء منها لإحدى عرائس العلوم والفنون من بنات «زيوس» ـ سيد الأرباب في أساطير اليونان ـ.

غير أن «هيرودوت» نفسه، إنما كان عندما يشير إلى أجزاء كتابه، لا يسميها بغير عبارات عامة، كالأحاديث الليبية أو الروايات الآشورية... وهكذا[1].

هذا وقد اختلف المؤرخون في الحكم على هيرودوت، وعلى كتبه، اختلافاً بيّناً، فعلى حين يرى «سيشرون» (١٠٦ ـ ٤٣ق. م) أنه أول من استطاع أن يميز بين فن التاريخ والرواية الشعرية، حتى لقبه «أبو التاريخ»، اتهمه «بلوتارك» (٤٦ ـ ١٢٠م) بالتحيز لأعداء بلده، وبأنه «صديق البرابرة» وسماه بعض المؤرخين المحدثين «أبو الأباطيل»، وأنه كان عاجزاً عن إدراك الحقائق، كما كان ينقل عمن سبقوه، دون الإشارة إليهم، وإن وقف آخرون موقف التأييد له[2].

وعلى أية حال، فإلى «هيرودوت» تنسب الرواية التي ترجع بأصل الفينيقيين إلى منطقة الخليج العربي، حيث يروى ـ على لسان الفينيقيين ـ

---

(١) أحمد بدوي: هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٣ ـ ١٧.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٩ ـ ١٢، ١٩ ـ ٢٤، وانظر:

W. A. Heidel. Hecataeus and the Egyptean, Priests in H. Book, II, Boston, 1935, P. 113 f.

أنهم مهاجرون من أرتيريا ـ سواء قصد بهذه العبارة الجنوب العربي وساحل الحبشة، أم من منطقة الخليج في الشمال الشرقي للهضبة العربية ـ وأنهم قد وصلوا إلى بلاد العرب الصخرية، شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم النقب، ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل إلى لبنان وسورية.

وأما متى حدثت هذه الهجرة، فإن «هيرودوت» إنما يروى ـ على لسان علماء صور ـ أنهم قدموا إلى فلسطين في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد[١].

٢ ـ سترابو (٦٦ ـ ٢٤ق. م):

سترابو ـ أو سترابون ـ هذا من مواطني «بونتس»، وقد زار الإسكندرية حوالى عام ٢٥ قبل الميلاد، على أيام الامبراطور «أغسطس» (٢٧ق. م ـ ١٤م)، وأقام بها نحواً من خمس سنوات، ثم صحب صديقه الوالي الروماني في مصر «إليوس جالليوس» في حملة حتى الجندل الأول، حوالى عام (٢٥ ـ ٢٤ق. م)[٢]، وإن كانت الاتجاهات الحديثة تنفي صحبته له في حملة بلاد العرب في نفس العام[٣].

و «سترابون هذا هو صاحب الرأي القائل: إن مقابر البحرين في الخليج العربي، إنما تتشابه ومقابر الفينيقيين، كما أن سكان جزر البحرين

---

(١) محمد بيومي مهران: مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الثامن ـ بلاد الشام ـ الإسكندرية ١٩٩٠ ص ٧٦ ـ ٧٧ ثروت الأسيوطي: نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين ص ١٢٥، وكذا

Diodorus Siculus, II, 48.

وكذا W. Smith, Dictionary of the Bible, I, P. 91.

(٢) The Geography of Strabo, Translated by H.L. Jones, London, 1949.
The Geography of Strabo, Translated by Hamiltons, London, 1912.

(٣) انظر: محمد عبودي إبراهيم: استرابون يتحدث عن حملة إيليوس جالليوس على بلاد العرب ـ مجلة كلية الآداب ـ العدد ٣٩ ـ الإسكندرية ١٩٩٢، محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم ـ الجزء الأول ـ الطبعة الحادية عشرة ـ الإسكندرية ١٩٩٤ ص ٥٠٤ ـ ٥١٠.

إنما يذكرون أن أسماء جزائرهم، إنما هي أسماء فينيقية، وأن في مدنهم هياكل تشبه الهياكل الفينيقية[1].

٣ ـ بليني الأكبر (٢٣/ ٢٤ ـ ٧٩م):

بليني الأكر هذا هو صاحب موسوعة (Historia Naturalis)، وهي تجميع ضخم لقدامى المؤلفين، وقد ذكر «بليني» وغيره من المؤرخين الكلاسيكيين أن الزفت والخمر في مجاورات صيدا[2].

٤ ـ بلوتارك الخيروني (٥٠ ـ ١٢٠م):

يعد «بلوتارك» الخيروني من أصدق المؤرخين القدامى، وأكثرهم أمانة في النقل، وقد ولد «بلوتارك» في عام ٥٠م (وربما عام ٤٦م) مدينة «خيرونيا» في وسط بلاد اليونان، ثم أرسله أبوه ـ حوالى عام ٦٦م ـ إلى «أثينا» لدراسة الفلسفة وعلوم الطبيعة، والخطابة، غير أنه برع في علم الأخلاق.

ثم تنقل في بلاد كثيرة، فزار الإسكندرية وروما واسبرطة وكورنثة وغيرها، وفي عام ٩٥م، عين كاهناً في معبد «أبوللون» بمدينة دلفى»، وبقي فيها حتى توفي في عام ١٢٠م ـ وربما عام ١٢٧م ـ[3].

هذا وقد ألف بلوتارك (بلوتارخوس) كثيراً من الرسائل، زاد عددها على الستين، سميت «بالأخلاقيات»، تناول فيها موضوعات شتى في الأخلاق والدين والسياسة والفلسفة، كما ألف في الطبيعة والفلك والتاريخ الطبيعي والآثار والتراجم[4].

هـذا وقـد اهتـم «بلوتـارك» بـقصة «أوزيـر وإيـزة»، فكتـب كـتابـه

---

(١) Strabo, 16-2

(٢) Strabo, BK, XVI, ch. 2, Sec. 42

وكذا Pliny, BK, XXV, ch. 51.

(٣) محمد بيومي مهران: مصر ١/ ٨٥.

(٤) محمد بيومي مهران: مصر ١/ ٨٥ ـ ٨٦.

(Die Iside et Osiride)، الذي يروي فيه ـ بعد المقدمة ـ قصة أوزير، الذي اغتاله أخوه الشرير ست (تيفون)، ثم انتقم له ولده «حور» الذي كانت أمه «إيزة» قد نشأته في عزلة خفية.

ويقول «بلوتارك» أن ست وضع أوزير في صندوق، وكان في الأصل تابوتاً له، وتذهب أساطير أخرى إلى أن الاغتيال كان عند «ندية»[1]، أو في أرض الغزال شرق الدلتا، ثم ألقاه في النيل، على أن رواية أخرى تذهب إلى أن الاغتيال إنما كان في منف ، أو على مقربة من « عين شمس »، على أن رواية ثالثة تذهب إلى أن الجسد قد حمله تيار النهر إلى « بيليس » (Bylos) في مستنقعات الدلتا ـ والتي حرفت فيما بعد إلى « بيبلوس » (Byblis) التي في فينيقيا.

على أن هناك رواية رابعة تذهب إلى أن النيل قد حمل الصندوق حتى مصبه، وأسلمه للبحر الأخضر العظيم (البحر المتوسط)، الذي احتمله بدوره، حتى ألقاه آمناً على شاطىء «جبيل» في لبنان، فأظلته هناك شجرة مباركة، واحتوته في جوفها، وساحت «إيزة» في الأرض بحثاً عن أخيها وزوجها، حتى بلغت جبيل، واهتدت إلى الشجرة، واستخلصت الوديعة

---

(١) ندية: أو «نديت» تقع على مقربة من البلينا ـ بمحافظة سوهاج ـ وأما أرض الغزال فهي بلدة «كوم مرة» وهي «كومير» الحالية، على مبعدة ١١ كيلاً جنوبي إسنا.

على أن هناك من يشك في ذلك، ويرى أن الأمر كله لا يخرج عن كونه نزاعاً بين أنصار معبودين من شرق الدلتا، أنصار من بلدة «جدو» ضد أنصار من بلدة «شبة» أو «سترة» على حدود مصر الشمالية الشرقية، وأن المعركة كانت عند مياه «ندية» في أرض الغزال، التي يمكن تعينها بمنطقة قرب «كوم أبو ياسين» الحالية، وقرب إقليم «أوزير» نفسه (بر ـ أوزير) وهي «أبو صيربنا الحالية، جنوبي غرب سمنود، ومن ثم فقد سمت النصوص هذا الإقليم «إقليم الفحل الممزق» إشارة إلى هزيمة أوزير نفسه (انظر:

J. H. Breated, The Dawn of Conscience, New York, 1939, P. 100.
H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, V, Paris, 1928, P. 220.
BIFAO, XXX, 1930, P. 271 F.

منها، واحتملتها إلى مصر، حيث اعادت إلى بدن أخيها وزوجها روحه، ثم حملت منه[١]...

هذا وقد كتب «بلوتارك» (Plutarch) ـ بعد سقوط قرطاج ـ «أن الفينيقيين شعب مليء بالصرامة والمشاكسة، مطيع لحكامه، مستبد مع أولئك الذين حكمهم... عنيف إذا ما غضب، لا يتزعزع إذا ما صمم على شيء أو إذا قرر شيئاً، وصارم حتى أنه يكره الملاطفة والشفقة[٢].

وهناك «كلوديوس بتولمايوس» ـ وهو من مدينة بطلمية[٣] ـ وقد قام بأبحاثه خلال النصف الأول من القرن الثاني الميلادي (١٢١ ـ ١٥٠م)، وقد أخرج كتابه في «الجغرافيا» حوالى عام ١٥٠م، والمعروف باسم «جغرافية بطليموس»[٤]، غير أن الأجزاء التي تناولت بلاد الشام قصيرة.

ثالثاً: المصادر الأجنبية المعاصرة

وأما ثالث المصادر الرئيسية لتاريخ فينيقيا ـ أو المدن الفينيقية ـ القديم، فهو المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، ذلك أن فينيقيا إنما كانت على علاقات ببلدان هذه المنطقة في فترات من تاريخها.

(١) بلوتارخوس: إيزيس وأوزريس ـ ترجمة حسن صبحي البكري، ومراجعة محمد صقر خفاجة ـ القاهرة ١٩٥٨، محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الأول ـ العلوم والآداب ـ الإسكندرية ١٩٨٩ ـ ص ٢٠ ـ ٢٨، وكذا

Plutarch, Isis and Osiris, Trans. by F.C. Babbitt, London, 1963.
I. Spence, The myths and Legends of Ancient Egypt, London, 1915.

(٢) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤٠.

(٣) بطلمية: ثاني مدينة إغريقية أقيمت في مصر بعد غزو الإسكندر عام ٣٣٢ق. م، (نقراطيس ـ الإسكندرية ـ بطلمية)، وتقع أطلالها في مكان أطلال مدينة مصرية تدعى «سوى» أو «بسا»، وقد أطلق عليها في عهد البطالمة «بسي بطليموس»، وأصبحت في عهد الجغرافي «كلوديوس بتولمايوس. عاصمة مقاطعة «ثنى»، وكانت تتمتع بكافة مظاهر نظم المدن الإغريقية، وتقع أطلالها الآن تحت مدينة «المنشاة» على مبعدة ٦ كيلاً جنوبي مدينة سوهاج (Ptolemy, II, G, 66).

(٤) Ptolemy, Geographia, Edited by C.F. Nobble, 3 vols, 1843-1845.

ففي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، لدينا «رسائل العمارنة[1] - ثم هناك النصوص المكتشفة في «رأس شمرا»[2] - على مبعدة ٧ كيلاً شمالي أوجاريت - وترجع إلى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد - أو إلى منتصفه - وهي - في معظمها - ذات صبغة دينية، ومن ثم فهي تعكس المعتقدات السائدة في العصور القديمة جداً.

وفي الألف الأول قبل الميلاد، هناك التوراة - كتاب اليهود المقدس - وهناك النصوص المصرية والآشورية والفارسية، وكان المصريون والآشوريون على علاقة مستمرة بفينيقيا، ثم هناك نصوص فينيقية كشفت عنها الحفائر[3].

---

(١) رسائل العمارنة: عثر على هذه الرسائل في مدينة العمارنة، عاصمة الامبراطورية، المصرية على أيام الملك «أمنحتب الرابع» (إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ق. م) - وتقع على مبعدة ٣٠٤ كيلاً جنوبي القاهرة، ٤١٦ كيلاً شمالي الأقصر، ٤ كيلاً شمالي مدينة دير مواس - بمحافظة المنيا، عبر النهر - هذا وقد تم الكشف على رسائل العمارنة هذه في الفترة فيما بين عامي ١٨٨٧م، ١٨٩٢م، وفيما بين عامي ١٩١٣م، ١٩٢١م، وعددها ٣٧٧ رسالة، تتحدث عن أحوال الامبراطورية المصرية في أخريات أيام «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ق. م)، وطوال عهد ولده «اخناتون» (١٣٦٧ - ١٣٥٠ق. م).

وهي مجموعة رسائل متبادلة بين فرعون مصر (أمنحتب الثالث أو الرابع)، وبين ملوك الشرق وأمرائه، ومن ثم فهي تبين الحالة السياسية في سورية وفلسطين ولبنان وبابل وآشور وميتاني وخيتا، في أخريات أيام أمنحتب الثالث، وطوال عهد أخناتون، كما توضح الكثير من أساليب السياسة الدولية في تلك الفترة، وما كان يدور بين الولايات المصرية في الشام وبين غيرها من تطاحن ومؤامرات.

وقد قدم المؤلف دراسة مفصلة عن رسائل العمارنة في كتابه أخناتون (أنظر: محمد بيومي مهران أخناتون: عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥)، وانظر:

S.A.B. Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, Toronto, 1939.

J.A. Kindtzon and O. Weber, Die El-Amarna Tafeln, 3 Vols, Liepzig, 1915.

(٢) R. Dussaud, Les decouvertes de Ras-Shamra (Ugarit) et L'Ancien Testament, 1941.

(٣) G. Contenau, La Civilisation Phenicienne, Paris, 1949.

رابعاً: المصادر اليهودية

١ ـ التوراة:

التوراة ـ أو التورة ـ كلمة عبرية تعني الهداية والإرشاد، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية)، والتي تنسب إلى موسى عليه السلام، وهي جزء من «العهد القديم»، والذي يطلق عليه تجاوزاً اسم «التوراة» (Torah) من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوارة ونسبتها إلى موسى عليه السلام(١).

والتوراة ـ أو العهد القديم، تمييزاً له عن «العهد الجديد»(٢) ـ كتاب النصارى المقدس ـ هو كتاب اليهود الذي يضم ـ إلى جانب تاريخهم ـ عقائدهم وشرائعهم، ويقسمه أحبار اليهود في فلسطين ـ وليس في الإسكندرية ـ إلى ثلاثة أقسام هي: الناموس والأنبياء والكتابات(٣).

هذا ويتفق اليهود والنصارى على قدسية العهد القديم، وإن اختلفوا في أسفاره ـ عدداً وشرعية ـ.

فاليهود يتفقون جميعاً على قدسية أسفار موسى الخمسة، ولكنهم يختلفون على بقية أسفار العهد القديم، ذلك لأن «السامريين»(٤) منهم لا يعترفون إلا بأسفار موسى الخمسة(٥)، وربما يضيفون إليهم أحياناً «سفر

---

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن التوراة، حيث خصص لها الجزء الثالث من سلسلة كتابه «إسرائيل» (انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الإسكندرية ١٩٧٩ ص ١ ـ ٣٧٩).

(٢) إنجيل متى ٢٦/٢٨، رسالة كورنثوس الثانية ٣/٦، ١٤.

(٣) I. Epstein, Judaism, A Historical Presentation (Penguin Books), 1970, P. 23.
M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, P. 1109.

(٤) انظر عن «السامريين» (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/١٠٦٨ ـ ١٠٧٥).

(٥) حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس ص ٣٥ ـ ٣٦، محمد بدر: الكنز في قواعد اللغة العبرية القاهرة ١٩٢٦ ص ٢٨ ـ ٢٩، قاموس الكتاب المقدس ١/٤٥١، وكذا M.F. Unger, op-cit, P. 1050.

يشوع» ـ تلميذ موسى وفتاه ـ ومن ثم فإن كتابهم المقدس إنما يتكون من ستة أسفار فقط[1].

وأما بقية يهود، فإنهم إنما يؤمنون بكل أسفار العهد العبري، وعددها ٣٩ سفراً[2].

ولم يكن الأمر بالنسبة للنصارى بأفضل منه بالنسبة لليهود، ذلك لأن هناك ـ على الأقل ـ طبعتين للعهد القديم، الواحدة: تستعملها الكنائس البروتستانتية، والأخرى: تستعملها الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية.

هذا وتزيد طبعة الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية بعدة أسفار عن النسخة البروتستانتية، والتي اعتبرها البروتستانت ـ الذين احتفظوا فقط بالأسفار التي ضمها العهد القديم العبري ـ أسفاراً زائفة (أبو كريفا ـ Apocrypha)، هذا فضلاً عن الاختلاف في عدد إصحاحات توراة البروتستانت عن تلك التي في توراة الكاثوليك، وأخيراً فإن هناك اختلافاً طفيفاً في بعض تسميات الأسفار[3].

هذا وهناك كذلك خلاف في الترتيب الذي وضعت به نفس الأسفار في العهد القديم النصراني، عن الترتيب الذي وضعت في العهد القديم

---

(١) حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) هناك من أحبار اليهود من يرى أنها ٢٤ سفراً ـ وليس ٣٩ ـ وذلك بضم بعض الأسفار إلى بعض على أن هناك من يرى أنها يجب أن تتفق وعدد الحروف الأبجدية العبرية، وهي ٢٢ حرفاً (فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ١٣ ـ ١٤).

(٣) انظر: الطبعة البروتستانتية (القاهرة ١٩٧٠) والطبعة الكاثوليكية (بيروت ١٩٥١)، مع ملاحظة أن الطبعة الكاثوليكية تزيد عن الطبعة البروتستانتية بسبعة أسفار، فضلاً عن ١٥٠ إصحاحاً (انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الجداول المقارنة بين الطبعتين ص ٨ ـ ١٠).

العبري، ومن هنا نشأ الخلاف في أسفار العهد القديم بين اليهود والنصارى[1].

وأما المسلمون، فلهم رأي يختلف كثيراً عن اليهود والنصارى، ذلك لأن الإسلام إنما يؤمن بموسى عليه السلام، رسولاً نبيّاً، ثم يقرر بعد ذلك أنه جاءته صحف[2]، وأنزلت عليه توراة[3].

ومن البدهي أن التوراة شيء، والعهد القديم شيء آخر، فالتوراة لا تعدو أن تكون جزءاً من العهد القديم، بل هي أسفار خمسة (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية)، من جملة أسفار العهد القديم، البالغ عددها ٣٩ سفراً، على الأقل ـ كما رأينا آنفاً ـ.

وانطلاقاً من كل هذا، وترتيباً عليه، فإن حديث القرآن الكريم عن توراة موسى، لا ينطبق أبداً على كتاب اليهود المتداول اليوم ـ والمعروف بالعهد القديم ـ والتالي فإن من يعتقدون أن القرآن الكريم يؤمن بالعهد القديم، إنما يخطئون ـ الخطأ كل الخطأ ـ.

هذا فضلاً عن أن التوراة التي يؤمن بها القرآن الكريم، إنما هي التوراة التي أنزلها الله تعالى هدى ونوراً، فهي تقرر وحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن كل مظاهر النقص، وترتكز على الاعتراف باليوم الآخر، والإيمان بما فيه من ثواب وعقاب، وجنة ونار، والتي تضمنت عظات وأفكار، وشريعة لبني إسرائيل، يحكم بها أنبياؤهم، فضلاً عن الاعتراف لهؤلاء الأنبياء بالعصمة والأسوة الحسنة.

---

(١) حبيب سعيد: المرجع السابق ص ٣٦، ٦٧ ـ ٦٨، فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفية ص ١٤ ـ ١٥، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/٦ ـ ٧، ١١).

(٢) سورة النجم: آية ٣٦، سورة الأعلى: آية ١٩.

(٣) جاءت كلمة التوراة في القرآن الكريم ١٨ مرة، في سورة آل عمران (آية ٣، ٤٨، ٥٠، ٦٥، ٩٣) وسورة المائدة (آية ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٦٦، ١١٠) وسورة الأعراف: آية ١٥٧ وسورة التوبة: آية ١١١ وسورة الصف: آية ٦ وسورة الجمعة: آية ٥.

غير أن هذه التوراة الأصلية الأصيلة ببنودها ونصوصها، وتعاليمها السماوية، وموادها الكاملة، لا وجود لها الآن بهذه الصورة الإلهية، التي كانت عليها وقت موسى عليه السلام، فلقد امتدت إليها أيد أثيمة من يهود، فحرفت وبدلت، ثم كتبت سواها، بما يتلاءم مع يهود، ويتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا ـ بعد كل هذا ـ أنها التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، «كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً»[(١)].

هذا وقد روي أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى يوماً ورقة من التوراة في يد عمر بن الخطاب، فأمره بإلقائها، لما بها من أباطيل، وما فيها من تحريف.

أخرج الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م)، و «ابن أبي شيبة (١٥٩ ـ ٢٣٥هـ/ ٧٧٥ ـ ٨٤٩م) و «البزار» (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق، فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى عليه السلام، كان حيّاً، ما وسعه إلا أن يتبعني»[(٢)].

---

(١) سورة الكهف: آية ٥، وانظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٤ (القاهرة ١٩٦٨، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٧٧ ـ ٧٨ (القاهرة ١٩٣٨)، تفسير الطبري ١٥/ ١٩٣ ـ ١٩٤ (ط الحلبي) تفسير الطبرسي ١٥/ ١١٥ ـ ١١٨ (بيروت ١٩٦١) تفسير القرطبي ص ٣٩٧٠ (ط الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠)، تفسير روح المعاني ١٥/ ٢٠٤ (بيروت ١٩٧٨)، عبد الله محمود شحاته: في نور القرآن ط ١٢٧ ـ ١٢٩ (القاهرة ١٩٧٣).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣/ ٤٠٤ (ط الخيرية)، مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٨٧، ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ١/ ١٩٨ (بيروت ١٩٦٦)، علي =

وهكذا يقرر الإسلام بمصدريه ـ الكتاب والسنة ـ أن التوراة ـ وليس العهد القديم كله ـ كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيّه الكريم، موسى عليه السلام.

ثم يقرر أن اليهود ـ من بعد موسى ـ إنما قد حرفوا هذا الكتاب وبدلوه، ثم كتبوا سواه بأيديهم، ثم زعموا ـ بعد ذلك كله ـ كذباً على الله وأنبيائه، وعلى الناس، أنه من عند الله «كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً»[1].

إن التوراة ـ ولو كره المفتتنون بها ـ ليست من التاريخ في شيء، وإن سلمنا أنها قد اشتملت على وقائع لها سند من تاريخ[2]، ولا يسعنا ـ كما فعل علماء القرن الماضي ـ أن نأخذ بتلك المعطية، من أن الوثيقة التاريخية إنما تنطوي أساساً، على ما ظن صاحبها أنه قد حدث، وربما ما ودّ أن يكون قد حدث، وأحياناً، ما يريد لغيره، أن يظنوا أن قد حدث، فإنا لو فعلنا لما وجدنا تفسيراً منطقياً، لما اشتملت عليه التوراة من تناقضات[3].

وفي الواقع: إن التوراة ليست بوثائق تاريخية، وإنما هي قد تشكلت من واقع تدوينات متعاقبة، لأصول من مأثورات قديمة، وأن المأثور ـ بوصفه أصلاً قصة محكية تناقلتها ذاكرة الناس جيلاً بعد جيل ـ ليخضع لقوانين غير تلك التي تهيمن على الكلمة، إذ تكتب تسجيلا للتاريخ.

صحيح أن التوراة قد استقرت آخر الأمر، في صورة من وثيقة

= عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧ ـ ١٨.

(١) سورة الكهف: آية ٥.

(٢) J. Bright, Modern Study of The Old Testament Literature in The Bible and The Ancient Near East New York, 1961m P. 14.
G. Mendenhall, Bible History and The Transition in The Bible and The Ancient Near East, N.Y, P. 37.

(٣) حسين ذو الفقار صبري: توراة اليهود ـ المجلة ـ العدد ١٥٧ ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢ ـ ١٣، وكذا E.A. Carr, What is History, New York, 1962, P. 15-16.

مكتوبة، فيما بين القرنين ـ الخامس والثاني قبل الميلاد ـ ولكنها أصلاً مجموعة من قصص محكية، لم يتهيأ لحرف منها أن يدون فيسجل، إلا بعد أحقاب طوال، قد بلغ ثمانية قرون في بعض الأسفار، وعشرة في أسفار أخرى.

وصحيح أن التوراة قد تمثل مصدراً تاريخياً، لا غبار عليه ـ في بعض الأحايين ـ غير أنها كانت وما تزال ـ إلى أن يمن الله علينا بمزيد من كشوف حفرية، عن أحقاب ما فتئنا نجهل الوجه الذي كانت عليه ـ ستظل ركامات من متناقضات، أو ربما عقداً منظوماً من حلقات متباينات.

صحيح أنه قد توصل عديد من باحثين إلى التحقق من عدة وقائع، ولكنه صحيح كذلك، أن الوقائع ـ في حد ذاتها ـ ليست هي التاريخ، إلا أن تتداخل وتترابط، فتتطرد[١].

ومن ثم ـ انطلاقاً مما سبق ـ لا عجب، أن يكون الطابع العام الأول، الذي يبقى في نفس قارىء التوراة ـ ككتاب تاريخ ـ أنها لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة من الخرافات والقصص التي صيغت في جو أسطوري، حافل بالإثارة، مجاف للعقل والمنطق، غاص بالمتناقضات، مشبع بالسخف، مفعم بمشاعر العدوان والتعطش إلى الدماء[٢].

وعلى أي حال، فما يهم القارىء في هذا الصدد، أن تكون التوراة بعد ذلك كتاباً مقدساً، أو لا تكون، فذلك شأن من يريدون أن يرونها في نصها الراهن، على هذا النحو أو ذاك، ولكن الذي يهم ألا تكون كتاب تاريخ، يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل، كما حاول فرضه على الماضي[٣].

---

(١) وكذا J. Bright, op-cit, P. 17-18.

(٢) صبري جرجس: التراث اليهودي الصهيوني ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٥١.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٥٨.

وإذا كان ما يعزى للتوراة من قيمة تاريخية، لا يجد له سنداً، إلا فيما يزعم لها من قداسة، فالذي لا شك فيه، أن هناك ثمة علاقة بين قيمة التوراة ككتاب تاريخ، وقيمتها ككتاب مقدس، ذلك أنه كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس، تضاءلت الريبة في صدق ما تضمنته من وقائع، وسهل وصول هذه الوقائع إلى يقين الناس، على أنها من حقائق التاريخ، التي لا ينبغي الشك فيها.

وقد أدركت الصهيونية العالمية هذه الحقيقة، فأحسنت استغلالها إعلامياً في الغرب المسيحي، لدعم ما زعمت أنه حقها في إنشاء دويلة إسرائيل.

ولكن أية قيمة موضوعية لتاريخ لا يجد له سنداً، إلا فيما يزعم لكتاب واحد من قدسية؟ وهي بعد «قدسية» توجه إليها سهام الريب من أكثر من جانب، وليس بالوسع القول أنها ترقى فوق مظان الشبهات.

وانطلاقاً من كل هذا، فإننا سنتعامل مع التوراة ـ أو العهد القديم ـ في دراساتنا، كمصدر تاريخي، دون أن نتقيد ـ كثيراً أو قليلاً ـ بتلك الهالة التي فرضتها التوراة على المؤمنين بها، ذلك لأن من كتبوا التوراة الحالية إنما كانوا بشراً مثلنا ـ كما يقول المؤرخ الإنجليزي ـ سايس ـ وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيراً عن نظائرهم من معاصريهم في الشرق(١).

هذا فضلاً عن أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة، بل لا يحتمل أن نخطئه، وما دامت التوراة كتاب تاريخ ـ كما هي كتاب دين ـ فليس هناك ما يمنع المؤرخ من أن يناقشها مناقشة حرة، دون تمييز، يتقبل ما تقوله بصدر رحب، إن كان يتفق مع الأحداث التاريخية، ويوافق المنطق والمعقول، ويرفضه حين يذهب بعيداً عن ذلك، تحيّزاً ليهود، أو جهلاً

---

(١) انظر: نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ٣/٢٧٣، وكذا
A.H. Sayce, Early History of The Hebrew.

بحقائق التاريخ، وما أكثر هذين النوعين ـ التحيز والجهل ـ من المواد التاريخية في توراة يهود[1].

٢ ـ كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن متى:

ولد «يوسف بن متى» أو «يوسفيوس فيلافيوس» في أورشليم القدس[2] في عام ٣٧م، وتوفي في روما في عام ٩٨ ـ وربما عام ١٠٠م ـ وكان قد أرسل إلى روما من قبل المحكمة العليا عند اليهود «السنهدرين»[3] للدفاع عن الأحبار، الذين سجنوا بأمر المفوض الروماني، وقد أدى مهمته بنجاح، ثم عاد إلى القدس، واشترك في ثورة ضد الرومان انتهت بأسره.

غير أن القائد الروماني «فسباسيان» أنقذه من الأسر، ثم سرعان ما نال يوسف اليهودي تقدير القائد الرومي، ثم صحب ولده «تيتوس» في عام ٧٠م إلى القدس، ثم عاد معه إلى روما، حيث حمل اسم «فيلافيوس»، باعتباره عبداً حرّره سيده «فسباسيان» ثم منح بعد ذلك حق المواطن الروماني[4].

وهناك في روما كتب «يوسف اليهودي» هذا، كتبه المعروفة، والتي من أهمها « آثار اليهود » (The Antiquitie of Jews) و «الحرب اليهودية» (The Jewish of Wars) في سبعة أجزاء بالآرامية، ترجمت فيما بعد إلى اليونانية.

---

(١) انظر عن التوراة والحقائق التاريخية (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٢٦٣ ـ ٢٩٦ ـ الإسكندرية ١٩٧٩).

(٢) انظر عن أورشليم القدس (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨١٢ ـ ٨٦٦).

(٣) انظر عن «السنهدرين» (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

(٤) باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ـ ترجمة حسن حنفي ـ القاهرة ١٩٧١ ص ١٦٧، فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ الجزء الأول ـ ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق ـ بيروت ١٩٥٨ وكذا
Harvey, The Oxford Campanton to Classical Literature, P. 228.

ثم كتب يوسف: «تاريخ اليهود القديم» في عشرين جزءاً، منذ بدء الخليقة، وحتى عام ٦٦ق. م[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه يمكن تقسيم ما جاء بكتابي يوسف اليهودي ـ من الناحية الزمنية ـ إلى فترتين، الواحدة: وتمتد منذ بدء الخليقة وحتى عام ١٧٠ق. م.

وهذه إما تعتمد على التوراة ـ كمصدر لها ـ ومن ثم نستطيع في مثل هذه المواضع أن نعتمد على التوراة مباشرة، كمصدر أول في هذا الصدد، أو على الرواية اليهودية، وهذه لا نستطيع تحقيقها في كل الأحوال.

هذا ويمكن الاعتماد على كُتّاب سابقين مثل «بيروسوس» (Berosus) البابلي ـ وأحد كهنة الإله مردوك ـ و «مانيتون» (Manethone) المصري (٣٢٣ ـ ٢٤٥ق. م)[2]، و «ديوس» (Dius) الفينيقي وغيرهم.

والأخبار التي تعتمد فيها على هؤلاء ممدودة من جهة، كما أنه يبدو ـ من جهة أخرى ـ أن المؤرخ لم يعرف نصوص هؤلاء الكتاب مباشرة، وإنما عرفها من خلال كاتب آخر هو «نيقولاس» (Nicolas) الدمشقي، ومن ثم تصبح أخباره هنا من الدرجة الثالثة.

وأما الفترة الثانية، وتقع فيما بين عامي ١٧٠ قبل الميلاد، ٧٠ بعد الميلاد، وقد عاصر يوسف اليهودي هذا تلك الفترة معاصرة مباشرة، أثناء حياته ـ إما رؤية أو سماعاً ـ وكان في بعض الأحيان في موقف من يعرف ـ بحكم مركزه الاجتماعي ـ بواطن الأمور، فقد كان الرجل من أسرة

(١) انظر: محمد بيومي مهران: مصر ١/١٠٣ ـ ١٠٦، تاريخ العرب القديم ص ٣١ ـ ٣٨ (الرياض ١٩٧٧).

(٢) انظر عن «بيرسوس» (محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ٧٦ ـ ٧٧).
انظر عن مانيتو (محمد بيومي مهران: مصر ١/ ٦٥ ـ ٦٩).

أرستقراطية، أو بحكم مركزه الرسمي، فقد كان مساعداً لحـاكم الجليل في عام ٦٦م.

وأما القسم السابق لحياته من هذه الفترة، فيمكن أن نعتمد على أخباره عنه، بصفته قسماً قريباً من المعاصر، وبخاصة إذا ما عرفنا أن يوسف إنما كان من رجال الدين، ورجال الدين اليهود يتصفون بالحرص عادة ـ إن لم يكن في الواقع دائماً ـ بتسجيل الأخبار التي تخص تاريخ شعبهم.

على أن هناك أمراً آخر يجب أن ندخله في اعتبارنا في هذا الصدد، وهو: أن اتجاه يوسف اليهودي إنما يختلف في أحد كتابيه عنه في الآخر.

ففي كتابه «حرب اليهود» نراه موالياً للإمبراطورية الرومانية، ومن ثم فهو يقف ضد التعصب القومي لليهود، كما يظهر الروم بأنهم القوة التي لا تقهر، بل إنه ـ عندما كان مساعداً للحاكم الروماني لمنطقة الجليل ـ فقد كان همه الأساسي هو كبح جماح الثورة اليهودية.

وأما كتابه الثاني «أخبار اليهود القديمة»، فلقد كتبه أثناء حكم الامبراطور «دوميتيانوس» (٨١ ـ ٩٦م) الذي اتسم عهده بتضييق الخناق على الكتابات الأدبية عموماً، وعلى الكتابات التاريخية خصوصاً، فقد كان رد «يوسف» هو الابتعاد عن الولاء للروم، والاتجاه نحو تمجيد اليهود، وبخاصة في ثقافتهم ودينهم.

هذا وكان يوسف ـ أو أولئك الذين ساعدوه في إخراج كتابيه في صيغتهما النهائية ـ لا يتحرى أو لا يتحرون الدقة العلمية في بعض الأحايين، ويبدو هذا واضحاً في كتابه عن «أخبار اليهود القديمة»[١].

---

(١) لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة ص ٢١٣ ـ ٢١٦، وكذا
H.St.J. Thackeray, Josephus, The Man and The Historian, New York, 1929.

خامساً: المصادر النصرانية

ترجع أهمية هذه الكتابات النصرانية إلى أنها إنما تؤرخ لانتشار النصرانية في بلاد الشام، هذا فضلاً عن أنها إنما تربط الأحداث بالمجامع الكنسية، وبتاريخ القديسين، ومن ثم فقد حصلنا على تواريخ ثابتة، الأمر الذي افتقدناه ـ إلى حد كبير ـ في المصادر السابقة.

على أنه يجب أن يكون واضحاً في أذهاننا، أن هذه الكتابات، إنما هي كتابات دينية ـ أكثر منها تاريخية ـ ومن ثم فقد غلبت عليها الصبغة النصرانية[(١)].

ولعل من أشهر الكتاب النصارى:

١ ـ يوسبيوس (٢٦٤ ـ ٣٤٩م):

لا ريب في أن «يوسبيوس» (٢٦٤ ـ ٣٤٩م) إنما كان واحداً من آباء الكنيسة البارزين في عصره، وأول مؤرخ كنسي يعتد به، حتى لقب بلقب «أبو التاريخ الكنسي» وبلقب «هيرودوت النصارى»[(٢)].

هذا وقد ولد «يوسبيوس» في فلسطين، وربما في «قيصرية»[(٣)] التي

---

(١) جواد علي: المفصل من تاريخ العرب قبل الإسلام ١/٦١ (بيروت ١٩٦٨).

(٢) جواد علي: المرجع السابق ص ٦١، وكذا

W. Smith, A Dictionary of The Bible, III, P. 107.

(٣) قيصرية: ينسب بناء قيصرية إلى «هيرودوس الكبير» (٣٧ ـ ٤ق. م)، وقد قدّر لها أن تكون عاصمة فلسطين على أيام الرومان، وتقع قيصرية على ساحل البحر المتوسط، وعلى مبعدة ٧٥ كيلاً شمال غرب القدس، وقد بنيت في عام ١٠ قبل الميلاد، وسميت «قيصرية» نسبة إلى «أوغسطس قيصر» (٢٧ق. م ـ ١٤م)، وفيها انتخب «فسباسيان» امبراطوراً، وكان فيها ملعب كبير، وهيكل كرس لقيصر روما، وهي الآن خراب، وإن كانت ما تزال تدعى قيصرية (Caesarea).

ولعل من الأهمية بمكان أن هناك «قيصرية» أخرى، تدعى «قيصرية فيلبس»، وهي «بانياس» الحالية ـ عند جبل الشيخ (جبل حرمون) على مقربة من الحدود اللبنانية الفلسطينية الحالية، وعلى مبعدة ٣٢ كيلاً شمالي بحر الجليل، ٧٠ كيلاً =

كان أسقفاً لها في عام ٣١١م، هذا وقد ساعدته صلته بالإمبراطور «قسطنطين» (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) ـ وكذا برؤساء الكنيسة، فضلاً عن كبار رجال الدولة، في أن يعرف الكثير من الأسرار، وفي أن يطلع على المخطوطات والوثائق الثمينة، ومن ثم فقد أفاد منها فائدة كبيرة، في مؤلفاته التاريخية، ومن أهمها «التاريخ الكنسي» (Ekklesiatikes Historias) (Ecclesitacal History) وقد وصف فيه ـ بالتفصيل ـ ظهور المسيحية، وعلاقاتها بالإمبراطورية، هذا وقد توفي «يوسبيوس» (Eusebios) في عام ٣٤٩ بعد الميلاد[١].

هذا وقد ألف «يوسبيوس» كتاباً عن أحداث تاريخ اليونان والرومان، تحت اسم «الحوليات» (Chronita)، جاءت فيه إشارات كثيرة عن بلاد الشام[٢].

٢ ـ إميانوس ماركلينوس:

ولد «اميانوس ماركلينوس» (Ammianus Marcellnus) في أنطاكية[٣] ـ وهو من أصل سوري ـ في عام ٣٣٠م، وعاش في القرن الرابع الميلادي، وكان يمثل آخر المؤرخين الرومان العظام.

= شمال غرب دمشق، وكان اسمها القديم «بعل جاد» ـ بمعنى رب الحظ ـ وعرفها الأغارقة باسم «بانيون»، نسبة إلى معبود وثني يدعونه «بان»، ومنه أخذ اسمها الحالي «بانياس» (محمد بيومي مهران: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الثاني).

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٣٩٧/١ (بيروت ١٩٥٨)، يوسبيوس القيصري: تاريخ الكنيسة ـ ترجمة مرقص داود ـ القاهرة ١٩٦٠.

(٢) لطفي عبد الوهاب: المرجع السابق ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) انطاكية: تقع انطاكية على نهر العاصي، وعلى مبعدة ٢٤ كيلاً من ساحل البحر المتوسط، وقد أسسها «سلوقس نيكاتور (ت ٢٨٠ق. م) ـ أحد قواد الإسكندر المقدوني ـ في عام ٣٠٠ قبل الميلاد، ودعاها «أنطاكية» نسبة إلى أبيه «أنطيوخس» وقد صارت عاصمة السلوقيين (محمد بيومي مهران: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الثاني ـ قاموس الكتاب المقدس ١٢٤/١ ـ ١٢٥).

هذا وقد ألف «إميانوس» كتاباً باللاتينية ـ وهي لغة مكتسبة بالنسبة إليه ـ أسماه «التواريخ» (Historiae) أرخ فيه للفترة، فيما بين عامي ٩٦م، ٣٧٨م، وقد اندثرت الأبواب الثلاث عشرة الأولى من هذا الكتاب، وتبقى منه الجزء الذي يبدأ بالباب الرابع عشر، وينتهي بالباب الحادي والثلاثين، وقد أرخ فيه للفترة فيما بين عامي ٣٥٣م، ٣٧٨م.

ويستمد كتاب «إميانوس» هذا قيمته العلمية من معاصرته للأحداث التي كتب عنها ـ على الأقل في الجزء المتبقي من كتابه ـ وفي بعض الأحيان من رؤيته لها أثناء الحملات التي اشترك فيها كرجل عسكري ـ ومن ذلك حملات روما ضد الامبراطورية الفارسية في الشرق.

ويزيد من قيمة الكتاب كذلك اهتمامه بملامح الشخصية الجماعية لمن يتعرض لوصفهم، وهو أمر ربما اكتسبه من رحلاته المتعددة التي جعلته يحتك بعديد من المجتمعات.

ثم هناك طريقته الموضوعية في الكتابة، حتى قال عنه المؤرخ المشهور «إدوارد جيبون» (Edward Gibbon) (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤م): «إنه يكتب بلا أحكام مسبقة، وبلا انفعال، وهما صفتان عادة ما تؤثران على من يكتب عن مواقف يعاصرها»[١].

٣ ـ بروكوبيوس:

ولد «بروكوبيوس» (Prokopios) في فلسطين، وكان أحد رجال الحاشية في عهد الامبراطور «جستنيان» (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، كما أصبح أميناً ومستشاراً قانونياً للقائد الروماني «بليساريوس»، وصحبه في حملاته في آسيا وأفريقيا وإيطاليا، كما عين عضواً في مجلس الشيوخ الروماني، ثم عين محافظاً للقسطنطينية، في عام ٥٦٢م، وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات ـ أي في عام ٥٦٥م ـ.

---

(١) لطفي عبد الوهاب: المرجع السابق ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

هذا وكانت التجربة التي اكتسبها ـ سواء من خلال عمله العسكري أو مركزه المدني أو من رحلاته المتعددة ـ عاملاً هاماً أعطى قيمة للكتب التي كتبها.

وعلى أية حال، فإن «بروكبيوس» إنما يعد المؤرخ الكنسي لعصر «جستنيان» المليء بالأحداث، ولا ريب في أن مادته التاريخية ـ والمستقاة من الروايات الشفوية، بل إن أغلبها نتيجة معلوماته الشخصية، إنما هي موضع ثقة، دونما ريب[1].

---

(١) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ١/ ٣٨ (القاهرة ١٩٦٧)، فيليب حتي: المرجع السابق ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨، لطفي عبد الوهاب: المرجع السابق ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

الفصل الثالث

الدراسات الفينيقية القديمة في العصر الحديث

منذ قرن ونصف القرن من الزمان، كانت معلوماتنا عن التاريخ الفينيقي القديم، إنما تعتمد ـ شأنها في ذلك شأن معظم تاريخ دول الشرق الأدنى القديم ـ على ما جاء في التوراة ـ وربما التلمود[1] ـ وعلى ما كتبه القدامى من الكُتاب الأغارقة والرومان، وليس هناك إلى سبيل من ريب في أن هذا إنما كان شيئاً قليلاً، لا يشفي غليل العلماء، فضلاً عن أن يقدم صورة صحيحة لتاريخ المدن الفينيقية في العصور القديمة.

ثم سرعان ما بدأت الآثار تدخل الميدان في هذا العصر الحديث، والآثار ـ كما هو معروف ـ إنما نعني بها كل الآثار المادية الباقية، والتي تبدأ بما خلفه الإنسان البدائي القديم في دهوره الحجرية، وحتى نهاية العصور القديمة[2].

ولا ريب كذلك في أن دور الحفائر في العلم بالحضارات العتيقة، إنما هو دور رئيسي، وكان باكورة العمل الآثاري في لبنان، إنما هو الكشف عن قبر «أشمونزو» في عام ١٨٥٦م.

---

(١) انظر عن «التلمود» (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٣٨٠ ـ ٤٥٧، مجلة الأسطول ـ العدد ٧٠ ـ الإسكندرية ١٩٧٢).

(٢) انظر: الفصل السابق أعلاه عن الآثار ـ كمصدر رئيسي، لدراسة تاريخ الفينيقيين القديم.

وقد بدأت القصة في جنوبي مدينة «صيدا»، حيث يوجد تل صغير قائم عند التقاء طريقين من الطرق المؤدية من صيدا إلى الريف، وقد لاحظ أحد الفلاحين انهياراً في أحد أركان التل، فلما اقترب منه، رأى بمستوى الأرض، قبراً أعراه انهيار التل، ورأى به تابوتاً، على هيئة توابيت المومياات المصرية، مصنوعاً من الحجر الأسود، وعلى غطائه نقش من اثنين وعشرين سطراً، ظهر أنه فينيقي، وأنه أطول نقش عثر عليه حتى ذلك الوقت، وأول نقش وجد في مكانه بأرض فينيقيا نفسها، على حين وجدت النقوش الأخرى في المستعمرات الفينيقية.

هذا وقد ترجم العلماء النقش، وعرفوا أن القبر، إنما هو قبر ملك من ملوك صيدا، وأن النقش جنائزي، يذكر ألقاب الملك ونسبه، ثم ينتهي باستنزال اللعنات التقليدية في العصر القديم، على كل من ينتهك حرمة المدفن.

وهذا التابوت ـ تابوت الملك «أشمونزو» ملك صيدا، محفوظ الآن بمتحف اللوفر في باريس[1].

وقد آثار هذا الكشف الآثاري اهتمام الدوائر العلمية، وكان الوقت مهيأ للدراسات الآثارية، خاصة وكان «جان فرانسوا شامبليون» (١٧٩٠ ـ ١٨٣٢م) قد نجح في قراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية، في عام ١٨٢٢م، ١٨٢٤م[2].

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ـ ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة الدكتور طه حسين ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ١٠ وكذا الأصل:

G. Contenau, La Civilisation Phenicienne, Paris, 1949.

(٢) بذل كبار العلماء جهودهم في فك رموز الهيروغليفية المصرية، وذلك منذ عثور الفرنسيين على حجر رشيد في أغسطس ١٧٩٩م، إبان الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١م)، وأشهر هؤلاء العلماء البارون «سلفستر دي ساسي» والدبلوماسي السويدي «أكربلاد»، والعالم الإنجليزي «توماس يونج»، ثم العبقري «جان فرانسوا شاميلون» في عامي ١٨٢١، ١٨٢٤م.

١ ـ بعثة رينان:

في أكتوبر من عام ١٨٦٠م، وصل «إرنست رينان»[١] (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م) إلى بيروت، مع الحملة التي أرسلها «نابليون الثالث» (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣م) امبراطور فرنسا، للمساهمة في إحلال السلام بين الموارنة[٢] والدروز[٣].

هذا وقد اختار «إرنست رينان» أن يقيم الحفائر، عند المراكز الأربعة

= ثم تابع العلماء دراسة اللغة المصرية القديمة على الآثار وصفحات البردى، جيلاً بعد جيل، مما أدى إلى تقديم الدراسات اللغوية، حتى أصبحت اللغة المصرية القديمة الآن تعرف بما لم تعرف به لغة قديمة أخرى من الصحة والوضوح.

ثم تتابع علماء اللغة المصرية القديمة بعد ذلك، من أمثال «كارل رتشارد لبسيوس» و «صموئيل بروش» و «إدوارد هنكس» و «جودوين»، و «دي روجيه» و «شابات» و «بروجش» و «أدولف إرمان» و «هينرس زيته» و «جريفث» و «جاردنر» وغيرهم كثير.

(١) أرنست رينان: مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسي، أتم دراسته في باريس، واهتم بالتأريخ للدين، وكتب «تاريخ نشأة المسيحية» (١٨٦٣ ـ ١٨٨٣م) و «تاريخ شعب إسرائيل» (١٨٨٧ ـ ١٨٩٢م)، وكتب عن اللغات السامية.

E. Renan, Histoire du Peuple d'Israel, Paris, 1887-1983.

E. Renan, Histoire et systeme Compare des Langues Semetique, Paris, 1855.

هذا وقد انتخب رينان عضواً بالأكاديمية الفرنسية في عام ١٨٨٣م، ثم مديراً «للكوليج دي فرانس»، وكان من أوائل المستشرقين، وقد ألف رسالة عن «ابن رشد والرشدية».

(٢) تنسب هذه الطائفة إلى القديس «مارون» ويعرفون باسم «الموارنة»، ومركزهم لبنان (انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٤٣٧ ـ ٤٤٥ ـ الرياض ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

(٣) الدروز: فرقة باطنية تقدس الخليفة الفاطمي «الحاكم بأمر الله». أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية، وتنسب إلى «نشتكين الدرزي»، نشأت في مصر، لكنها سرعان ما انتقلت إلى الشام، تؤمن بسرية أفكارها، ولا تعلمها، حتى لأبنائها، إلا إذا بلغوا سن الأربعين (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٢٢١ ـ ٢٢٧).

الرئيسية التي كانت معروفة وقت ذاك، في تاريخ الحضارة الفينيقية، وهي من الشمال إلى الجنوب:

١ ـ أرواد ـ طراطوس ـ عمريت (على مبعدة ٧ كيلاً جنوبي طرطوس).
٢ ـ جبيل.
٣ ـ صيدا.
٤ ـ صور.

وكان من نتائج حفريات «رينان» أن معظم المجموعة الفينيقية الموجودة الآن بمتحف اللوفر في باريس، إنما يرجع إلى هذه البعثة ـ والتي ينسب إليها كذلك، وضع أسس علم الآثار الفينيقي[١].

هذا ويعتبر الجدول الذي وضعه «رينان» وقت ذاك، جدولاً تاماً، لا يحتاج إلا إلى قليل من التحوير، كما نجح «رينان» ـ عن طريق حفائره المختلفة التي استمرت حتى عام ١٨٦١م ـ أن يتبين نموذج الأحرام السامية في أطلال «عمريت»، وأن يتعرف على طرق الدفن المختلفة، وأن يحدد لكل طريقة تاريخها، كما حرص «رينان» على أن يحدد الفن الفينيقي تحديداً متميزاً، ولم يكن هذا الفن محدداً وقتئذٍ.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد أصبح درس النقوش الفينيقية سهلاً، بفضل «مجموعة النقوش السامية» (Corpus Inscriptionum Semiticearum) والتي يرمز لها في الهوامش (C.I.S).

ويرجع ظهور هذه المجموعة من النقوش السامية إلى همة «أرنست رينان»، بل كانت هذه المجموعة ـ كما يقول هو نفسه ـ «إن أحب عمل إلى نفسي من كل ما عملت، إنما هو مجموعة النقوش».

وكان رينان يهدف من هذا العمل هو جمع النقوش السامية في

---

(١) انظر: E. Renan, Mission en Phenicie, Paris, 1864.

مجموعة مستمرة، بحيث تشمل النقوش التي يتزايد عددها بالكشف دون انقطاع، ثم إخراج صور لها، ثم قراءتها، وترجمتها، والتعليق عليها.

هذا وقد تقدم «رينان» بخطته هذه إلى «أكاديمية النقوش»، فقبلتها، وتولت بنفسها منذئذٍ طبع المجموعة، وقد ظهرت ـ من عام ١٨٨٠م ـ أول مجموعة من صور النقوش، وظل «أرنست رينان» طيلة خمسة وعشرين عاماً، يوجه جهوده للقسم الخاص بالنقوش الفينيقية.

هذا وقد ظهر لمجموعة النقوش هذه ملحق سمي «سجل النقوش السامية» (Repertoire des Inscription Semitiques)، وكان الهدف من هذا السجل تبويب النصوص المكتشفة حديثاً، قبل أن تتخذ مكانها النهائي ضمن نصوص المجموعة.

بقيت الإشارة إلى أن أعوان «رينان» لم يكونوا على مستواه، ومن ثم فلم يقدروا قيمة الآثار التي كانوا يعثرون عليها، فيهملون الكثير منها، وخاصة الفخار، مع أنه ـ أي الفخار ـ من أهم ما يعتمد عليه الباحثون في التوصل إلى كثير من الحقائق عن تاريخ المناطق التي يعثر عليه فيها، بصفة عامة[١].

٢ ـ حفائر صيدا:

وفي عام ١٨٨٧م ، كشف في نواحي صيدا ـ وفي مكان يدعى « إيا » (Ayaa)، شرقي صيدا وعلى مقربة من قرية الهلالية ـ عن مقبرة تتألف من طابقين، يمكن الوصول إلى الأول منهما، عن طريق بئر يبلغ ١٠م عمقاً، ٤م جانبيه، وقد وجد به ١٧ تابوتاً، منها سبعة لا تحمل أية زخرفة.

وأما الطابق الثاني فقد وجد سليماً، وقد عثر فيه على أقدم مجموعة من المكتشفات، وهناك نقش عليه اسم صاحب القبر، وهو «الملك تابنيت» أبو «إشمونزر»، وقد كشف عن قبره قبل قبر أبيه بثلاثين سنة، وتابوتيهما

(١) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ١٢ ـ ١٤.

من أصل مصري، كما أن توابيت الطبقة العليا مصرية كذلك، وأما معظم بقية التوابيت الأخرى، فمن رخام أبيض، ذات صنعة فائقة، وطابع متأثر بالأثر اليوناني.

وعلى أية حال، فسرعان ما اتخذت هذه التوابيت طريقها إلى القسطنطينية، وقد اهتمت الحكومة العثمانية بها، وقدرت قيمتها، فبنت لها ملحقاً خاصاً بمتحفها، وأودعتها فيه، ثم وصف هذا الاكتشاف «حمدي بك» ـ أمين متحف القسطنطينية ـ و«تيودور رانياك» الفرنسي[1].

وفي عام ١٩٠١م، كشفت بعثة ألمانية عن معبد فينيقي، مكرس للمعبود «إشمون» وهو «أدونيس» الفينيقي، وهو نفس المعبد الذي رممه الملك «بودعشتارت»، من سلالة «تابنيت» و«إشمونزر».

وفي عام ١٩١٤ م، كلفت الحكومة الفرنسية « ج. كونتنو » (G. Contenau)، مؤلف كتاب «الحضارة الفينيقية» بالحفر في صيدا ـ بالاشتراك مع المتحف الامبراطوري العثماني، ممثلاً في شخص «مكريدي بك»، غير أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) قطعت البحث الذي بدأ في المدينة وضواحيها، ثم كان الاحتلال الفرنسي للبنان، فلما انتظم الوضع السياسي، رغب المندوب السامي الفرنسي في سورية ولبنان في استمرار الحفائر، وفعلاً بدأ العمل من جديد في آخر صيف عام ١٩٢٠م.

وفي عام ١٩٢١م، أوفدت الحكومة الفرنسية الأستاذ «أ. دي لوري» «في أم العمد ـ أو أم العواميد ـ جنوبي صور، وكشف عن بعض مواقع المدن التي كانت مزدهرة في العصر اليوناني الروماني، ثم هجرت.

ثم جاءت مدام «دنيز لي لاسور» فقامت ببعثتين في عامي ٢١/ ١٩٢٢م، وقد لزمت الحفر في إقليم صور، فقامت بمجسات فوق رابية «تل المشعوق» ـ حيث كانت تقع على الأرجح معابد مدينة صور البرية

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٥، وانظر: Une Necropole royale a Sidon.

ـ وقد أزاحت التراب عن قبر بجبل العمد، ووجدت به آثار ذات قيمة هامة لدراسة التصوير السوري في العصر اليوناني الروماني ـ ثم وضع «م. يوبيل» ـ وكان يشارك مدام دنيز لي لاسور في الحفائر ـ رسماً طبوغرافياً كروكياً.

هذا وقد قام الأستاذ «بيير مونتيه» بزيارة مدينة «جبيل» (بيبلوس) ـ على مبعدة ٤٥ كيلاً شمالي بيروت ـ في عام ١٩١٩م، ثم قام ابتداءً من عام ١٩٢١م بأربع بعثات، ففي الأولى أزال التراب عن أنقاض معبد محروق، ومسوى بالأرض، بعد حرقه، لتبليطه بفرش من البلاط، وعثر في الأنقاض على مجموعة قرابين، أصلها مصري، وعليها تواريخ متضمنة في خراطيش فرعونية.

ولعل من أهم ما كشف عنه زهريات كثيرة، عليها أسماء ملكية مصرية، مثل الملك «من كاورع» (منكاورع) ـ من الأسرة الرابعة ـ والملك «وناس» ـ من الأسرة الخامسة ـ، والملك «ببي الثاني» ـ من الأسرة السادسة ـ.

هذا فضلاً عن العثور عن أسطوانة لختم اللوحات من عصر الأسرة الثالثة المصرية، وهي ـ أي الأسطوانة ـ على هيئة إلهة من جبيل، في زي إلهة مصرية، هذا فضلاً عن بقايا أعمدة ضخمة، شبيهة بتلك التي كان يقيمها المصريون أمام معابدهم[١].

وهذه الاكتشافات، ومثلها كثير، ذات أهمية سياسية لتاريخ فينيقيا، فكما نعلم من أخبار «بلوتارك» أن اسم مدينة «بيبلوس» إنما قد اقترن بأقدم الأساطير الدينية المصرية، ومثل هذه الاكتشافات التي قام بها «مونتيه» إنما تثبت العلاقة بين مصر وفينيقيا منذ أقدم العصور التاريخية، وأن هذه العلاقة منذ أقدم العصور[٢].

---

(١) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ١٥ ـ ٢٢.
(٢) انظر: محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الأول ص ٢٠ ـ ٢٨.

ثم استمرت علاقة مصر بجبيل على أيام الدولة الوسطى، حيث عثر على قبر من عصر الملك «أمنمحات الثالث» (١٨٤٣ ـ ١٧٩٧ق. م) به أثاث جنازي أرسله الفرعون لملك بيبلوس، كما اكتشف «مونتيه» ثلاث مقابر فينيقية، ترجع إلى نفس العصر، وقبر رابع به أشياء تحمل اسم «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ق. م) ـ من الأسرة التاسعة عشرة، وقد عثر في نفس القبر على تابوت عليه رسوم آدمية، ونقش فينيقي محفور.

هذا وقد تابع «دونان» العمل ـ بعد مونتيه ـ حيث أثبتت الحفريات تأييد الصلة الوثيقة، والتبعية التامة بين بيبلوس ومصر، حتى العام الألف قبل الميلاد.

وقد أظهرت الحفائر أن جبيل قد نكبت في آخر الألف الثالث قبل الميلاد بحريق على شيء من القوة، بحيث تكلست بسببه أحجار معبد يرجع إلى أول الألف الثالث، كانت مدفونة تحت حرم آخر، مزدان بمسلات ذات أحجام تتراوح بين ٣٠ سم، ٣,٥م، وقد عثر فيه على كميات من القرابين وفأس وخنجر ذهبي، وتماثيل جصية مطلية بالميناء(١).

٣ ـ حفائر صور:

كانت حفائر «رينان» في عام ١٨٦٠م، أولى المحاولات الجدية للكشف الآثاري في مدينة «صور»، بعد أن كانت الحفريات من قبل، لا تتعدى البحث عن الذهب والكنوز المدفونة، من قبل بعض الهواة ـ أو لصوص الآثار ـ.

وكان رينان قد قام بعدة حفريات في صور ـ في وسط السوق، وقرب العين، وقرب قصر إبراهيم باشا، وفي تل المعشوق، وقرب القنوات الرومانية(٢).

---

(١) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) انظر: E. Renan, Mission en Phenicie, Paris, 1864, P. 527-814.

وفي عام ١٨٧٤م، كلف المستشار الألماني «بسمارك» (١٨١٥ ـ ١٨٩٨م) «سب» (J.N. Sepp)[١] ـ «عضو البرلمان البافاري»، والأستاذ «بروتز»[٢] (H.Prutz) ـ وهو متخصص في تاريخ العصور الوسطى ـ بالذهاب إلى مدينة صور، للبحث في كنيستها الصليبية ـ التي قامت على أنقاض كاتدرائية صور الكبرى ـ عن عظام الامبراطور «فردريك الأول» (فردرك بارباروسا ١١٢٢ ـ ١١٩٠م) المدفونة فيها، بجوار المعلم الكنسي «أوريجين» (١٨٥ ـ ٢٥٤م) ـ وذلك لإرجاعها إلى ألمانيا، باعتبارها إرثاً قومياً للأمة الألمانية جمعاء.

غير أن حفائرهما بمنطقة المنارة في صور ـ موضع كنيسة مرقس الصليبية ـ لم تؤد إلى الغاية المنشودة[٣].

وفي عام ١٨٨٥م، عثر على أول كتابة فينيقية من صور، ترجع إلى القرن الثالث ق. م[٤].

وفي عام ١٨٩٨م، عثر في منطقة الصليب في صور، على قطعة رخامية، مكتوب عليها «من عبد بعل، رأس المئة»، والذين كان يتألف منهم مجلس الشعب في صور[٥].

هذا ـ وكما أشرنا من قبل ـ أن الحكومة الفرنسية قد أوفدت عالمة

---

(١) معن عرب: صور ـ حاضرة فينيقيا ـ بيروت ١٩٧٠ ص ١٨٧ ـ ١٨٩، وكذا

J.N. Sepp, Meerfahrt Nach Tyrus, sur Ausgrabung der Kathedrale, Leipzig, 1879.

(٢) H. Prutz, Aus Phonizien Geographische Stizzen und Literarische Studien, Leipzig, 1876.

(٣) معن عرب: المرجع السابق ص ١٨٨، وكذا

F.W. Deichman, Monuments Chretiens de Tyr, Jahrbuch der Preussichen Kunstsamml - Ungen, Berlin, 1935, P. 48-55.

(٤) Clermont - Ganneau, Une Inscription Phenicienne de Tyre, Recueil d'Archeologie Orientale, I, Paris, 1888, P. 87-93.

(٥) Clermont - Ganneau, Une Nouvelle Inscription Phenicienne de Tyre, Recueil d'Archeologie, II, Paris, 1898, P. 294-297.

الآثار «دنيز لو لاسور» (D. Le Lasseur)، لإجراء حفريات في صور، حاولت فيها أن تقتفي أثر خطوات «رينان»، ولكنها اقتصرت ـ آخر الأمر ـ على الحفر في المعشوق وتل العمد، وقد عثرت في تل العمد ـ على مبعدة ٣ كيلاً من صور ـ على كتابة يونانية على قطعة من عمود رخامي، كما عثرت في المعشوق على بقايا فخارية، وبعض الفسيفساء والزجاج والنقود، ترجع إلى الفترة فيما بين القرن الخامس قبل الميلاد، والقرن السادس الميلادي[١].

وفي عام ١٩٢٧م، عثر في صور على مذبح حجري، كثير الشبه بمذبح في متحف السويداء يعبر عن الثالوث الإلهي (ملقارت ـ عشتارت ـ بعل شميم)[٢].

وفي الفترة (١٩٣٤ ـ ١٩٣٦م) انتدبت الأكاديمية الفرنسية «الأب أنطوان بوادبار اليسوعي» للبحث عن المرفأ المصري، وقد انتهت أبحاثه إلى أن المرفأ المصري إنما يقع في القسم الجنوبي من شبه جزيرة صور[٣].

وفي عام ١٩٣٧م، عثر على مقربة من صور، على معبد فينيقي تحت الأرض، ومساحته ٣٠م، وعلى جدرانه صور ملونة، ترجع إلى القرن الثاني الميلادي، وتتعرض لموضوع البعث وخلود الروح في العالم الثاني[٤].

---

(١) معن عرب: المرجع السابق ص ١٨٨ ـ ١٨٩، وكذا

D. Le Lasseur, Mission Archeologique a tyr, Syria, III, 1922, P. 14 - 26.

(٢) F. Cumont, Deux autels de Phenicie, Syria, 8, 1927, P. 163-167.

وكذا

M. Dunand, Le Musee de Soueida, Paris, 1938, Pl. VI, 19.

(٣) معن عرب: المرجع السابق ص ١٨٩، وكذا

A. Poidebard, AFO, XI, 1936, p. 194 F.

(٤) معن عرب: المرجع السابق ص ١٨٩، وكذا

M. Dunand, Tombe Peinte dans La Campagne de Tyr, in BMB 18, 1956, = P. 5-49.

ومنذ عام ١٩٤٧م، تقوم مديرية الآثار اللبنانية ـ بإشراف الأمير موريس شهاب ـ بحفريات في مناطق المنارة (الكنيسة الصليبية) والخراب المجاور لها (المدينة الرومانية) والبص (منطقة المدافن).

هذا وقد تم الكشف عن شارع معبد بالفسيفساء، وعلى جانبيه أعمدة من الرخام الأبيض، المطعم بالأخضر، وفي طرفه مبنى كبير مربع الشكل، كان محاطاً من ثلاث من جهاته الأربع، بأعمدة من الجرانيت[(١)].

وهناك ـ على مبعدة ٣٠ متراً من الشارع ـ شيد ملعب (Arena)، مربع الشكل تقريباً (٤٥ × ٤٣)، تحيط به مقاعد حجرية، في خمسة صفوف، وعلى جوانبه كانت خزانات المياه، وغير بعيد من الملعب كانت الحمامات.

هذا وقد عثر ـ على مقربة من الكنيسة الصليبية ـ على مذبح حجري، مكرس لإله المدينة «ملقارت ـ هرقل»، مع عبارات التقدمة[(٢)].

وقد أدت حفريات «البص» ـ حيث يتصل سد الإسكندر بالبر الصوري ـ إلى العثور على قوس نصر ـ إرتفاعه ٢٠م ـ في أول الشارع المؤدي إلى صور الرومانية، والذي رصف بمربعات حجرية، لا تزال آثار العجلات ظاهرة عليها[(٣)].

وكان هذا الشارع محاطاً من جانبيه بالأعمدة والدكاكين ـ كما كانت قناة المياه تسير على محاذاته، فتزود سكان المدينة بمياه الشرب من برك رأس العين.

= وكذا E. Will, Une Sarcophage romain de Sujet eschatologique au Musee de Beyrouth, BMB, 8m P. 109-127.

(١) M. Chehab, Tyr a lepoque Romaine, Melanges de L'Universite Saint-Joseph, 38, 1962, P. 13.

(٢) M. Chehab, op-cit, P. 16-17

(٣). M. Chehab, BMB, 18, 1965, P. 113

هذا وقد عثر في هذه المنطقة على كمية كبيرة من النواويس ـ وترجع إلى منتصف القرن الثاني وأول الثالث ق. م ـ يقارب عددها ٣٠٠ ناؤوساً، منها عشرة عليها نقوش من الإلياذة والأساطير الإغريقية.

وفي منطقة المدافن في البص عثر على ساحة سباق للعربات، من القرن الثاني م، كانت مغطاة تحت طبقة كثيفة من الرمال، تعد أكبر ما عرف في العصر الروماني من ساحات (٤٨٠ × ١٦٠م)، وتمتد على شكل حدوة الحصان، تحيط بها مقاعد تتسع لآلاف المتفرجين، وتتسع الحلقة نفسها لاثنتي عشرة عربة، يمكنها أن تشترك دفعة واحدة في السباق[١].

٣ ـ حفائر رأس شمرا:

يقع تل «رأس شمرا» على مبعدة ٨٠٠ متراً من ميناء البيضاء، على مبعدة ١١ كيلاً شمالي مدينة اللاذقية.

و «رأس شمرا» هي مدينة «أوجاريت»، واسم «أوجاريت» هذا، مشتق من اسم «أوجار» في السومرية، وهي «أوكار» بالفارسية، و «عقار» بالعربية، وتعني: رقعة الأرض، أو حيث كشفت الحفريات عن «تل» يبعد عن شاطىء البحر المتوسط، بأقل من كيلومتر واحد، ويقوم بين فرعي نهر «الغد»، وأن هذا التل إنما يغطي بقايا مدينة قريبة، وأنه اسمه العربي «رأس شمرا»، ربما كان بسبب كثرة ما ينمو عليه من نبات الشمرة (السمار)، ثم لم يلبث العلماء أن اكتشفوا أن هذا التل، إنما يغطي خرائب مدينة «أوجاريت»، وهي مدينة ذكرتها الوثائق المصرية والعراقية والحيثية.

وفي الواقع، فلقد قامت حفائر رأس شمرا، على إثر صدفة، عرضت على يد أحد الفلاحين، ومن ثم فقد تم الحفر تحت إشراف الأستاذ «شيفر» ومساعدة الأستاذ «شينييه»، ابتداءً من عام ١٩٢٩م، واستمر حتى عام ١٩٣٩م، وسجلت نتائج كل بعثة في تقريرات سنوية، نشرت في مجلة «سورية» (Syria).

---

(١) معن عرب: المرجع السابق ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

هذا وقد كشفت حفائر رأس الشمرا ـ بجانب القبور والفخار والتماثيل الصغيرة والعظام الحيوانية ـ عن نصوص كتبت بلغات عدة (الأكادية والمصرية والحيثية والحورية وغيرها) ـ هذا فضلاً عن مئات الألواح والكسر، أحدثت شبه ثورة في معلوماتنا عن الأدب الكنعاني.

وفي عام ١٩٥٣م، كشفت وثائق ملوك «أوجاريت» (رأس الشمرا)، وتشتمل على رسائلهم للملوك الحيثيين وغيرهم، وتؤرخ بالفترة (١٥٠٠ ـ ١٤٠٠ ق. م) ـ أي قبل تخريب المدينة على أيدي شعوب البحر، حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ـ.

وعلى أية حال، فلقد كانت «أوجاريت» ـ بحكم موقعها ـ أكثر تأثراً بقبرص والحيثيين والحوريين، منها بالمصريين.

ومع ذلك، فإن الحفريات إنما تشير إلى أن تفاعل المؤثرات الخارجية، أظهر هنا في أوجاريت، منه في جبيل (بيبلوس)، وأن أول هذه التأثيرات إنما كان تأثير مصر، وإن كان ـ كما أشرنا آنفاً ـ أضعف هنا منه في الجنوب، لبعد المسافة[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن المندوب السامي الفرنسي الجنرال «جورو»، إنما قد ساعد الآثاريين الفرنسيين، على إتمام حفائرهم بكل طمأنينة وأمان، وهذا أمر هام في مجال الكشوف الأثارية.

---

(١) محمد بيومي مهران: بلاد الشام ص ٩٠ ـ ٩٤، ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ـ ص ٤٤، ٤٥، ١٠٣ وما بعدها، سبتينو موسكاني: الحضارات السامية القديمة ص ١١٧، ١١٨، ٢٧٢، وكذا

R, Dussaud, Les Decouvertes de Ras - Shamra (Ugarit) et L'Ancien Testament, 1941.

F.A. Schaeffer, Les Fauilles de Minet-el-Beida et de Ras-Shamra, Syria, X, 1929, P. 285-297.

وكذا R. Dussaud, Egypte et Egee dans les Textes de Ras-Shamra, Chronique d'Egypte, XIV, P. 309-312.

وكذا R. de Vaux, Les textes de Ras-Shamra et L'Ancien Testament, Revue Biblique, September, 1937, P. 526-555.

وكذا L. Albenese, Note sur Ras-Shamra, Syria, X, 1929, P. 16-20.

ثم سرعان ما اقترن هذا النشاط بتنظيم البحث الأثري في لبنان، فأنشأ الأستاذ «شامونا» مدير إدارة الآثار، وخليفتاه من بعده ـ الأستاذ فيرلو، والأستاذ سيرج ـ داراً للآثار في بيروت، وتقع هذه الدار (المتحف) في «حي الصنوبر» الذي كان يرأسه الأمير شهاب، وكان يرسل إليه كل ما يكشف عنه من الآثار الفينيقية.

وفي قرطاج قام بأعمال الحفر، الأستاذ «ديلاتر» ـ كما قام عدد كبير من العلماء بالحفر ـ تحت إدارة الآثار التونسية ـ في بعثات رسمية.

هذا وتتوزع الآن أهم آثار الفن الفينيقي على متاحف أربعة:

١ ـ متحف اللوفر في باريس: ومجموعته مما حملته بعثة رينان.

٢ ـ متحف استانبول: وكان يرسل إليه كل ما يوجد في سورية ولبنان من آثار قيمة، وحتى قيام الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م.

٣ ـ متحف باردو في تونس.

٤ ـ متحف قرطاجنة[١].

بقيت الإشارة إلى أن تاريخ البحث العلمي الأثاري الفينيقي في العصر الحديث، إنما يسجل بكل الامتنان جهود العلماء الأوائل، من أمثال «صمويل بوكارت» (١٥٩٩ ـ ١٦٦٧م) من مدينة «كان» ـ وكان عالماً عظيماً في عصره، وبلغ من شهرته أن «كيرستين» (أو كرستيان) ملكة السويد، استدعته إلى بلاطها، هو، وتلميذه «دانييل هويت» (١٦٣٠ ـ ١٧٢١م).

وهناك علماء اهتموا بدراسة الديانة الفينيقية، وعلى رأسهم «سانت كروا» (١٧٤٦ ـ ١٨٠٩م)، وهناك «ف.ج. موفيرس» الأستاذ في «بريسلاو» (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦م)، وقد أحدثت كتبه صدى بعيداً.

وهناك علماء اهتموا بدراسة اللغة الفينيقية، من أمثال «جيزينيوس»

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٢٣ ـ ٢٦.

(١٧٨٥ ـ ١٨٤٢م) من «هال» و «شمبليون» و «سالفولني» (Salvolini) و «لينورمان» (Lenormant) و «فان دريفال» (Van Drival).

وهناك العالم الإنجليزي «ج. سوينتون» (١٧٠٣ ـ ١٧٧٧م)، فلقد نازع الراهب الفرنسي «برتيلمي» في الأسبقية إلى حل الرموز، ولكن محاولاته أدت إلى نتائج غير سليمة في بعض أجزائها.

وفي الواقع نحن مدينون بقراءة الفينيقية للراهب الفرنسي «برتيلمي» في آخر القرن الثامن عشر الميلادي، وكان «برتيلمي» ملحقاً بمكتب الميداليات، وكان على علم باللغة العبرية، وخبرة بالعملات الشرقية.

وكان من بين العملات التي بين يديه نقود فينيقية ـ وكتابتها ـ في معظم الحالات ـ إنما تشمل اسم المدينة التي ضربت العملة فيها، مكتوباً بحروف فينيقية، فاستطاع ـ عن طريق الفروض ـ تحديد بعض حروف الأبجدية.

وكان هناك قاعدتان من قواعد التماثيل ـ ترجعان إلى القرن الثاني قبل الميلاد ـ في «مالطة»، وعلى كل منهما نقش مزدوج باللغتين ـ الفينيقية واليونانية ـ وبينما بقيت إحدى القاعدتين في مالطة، أرسلت الأخرى إلى «أكاديمية النقوش والآداب الجميلة»، ثم انتقلت إلى متحف اللوفر في منتصف القرن التاسع عشر.

واستطاع «برتيلمي» ـ بمعونة النص اليوناني، وعن طريق المقارنة بالمفردات العبرية ـ أن يحدد قيمة العلامات الأبجدية، وفيما يلي نص النقش:

«إلى مولانا ملقارت، بعل صور، هذا ما يهديه إليك، عبدك «أبدوسير»، وأخوه «أوسيرشمر»، ابنا «أوسيرشمر بن أبدوسير»، لأنه استجاب لدعائهم، فليباركهم»[1].

---

(١) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ١٠ ـ ١١، وكذا
Corpus Inscriptionum Semiticearun, 122, 1-B.

وهناك من علماء اللغة الفينيقية وأجروميتها «ز. هاريس»[١].

وفي الحضارة الفينيقية إنما يسجل تاريخ البحث العلمي بالامتنان أسماء كثير من العلماء، على رأسهم المستشرق الفرنسي البارز «كليرمون جانو»، والأب «جيلبير»، وأساتذة جامعة «سان جوزيف» في بيروت، وعلى رأسهم «ب. سن. رونزيفال»، وكتبه مطبوعة في دوريات هذه الجامعة[٢].

وفي التاريخ «رنيه ديسو»[٣] وغيره كثير من أمثال «إيسفلت»[٤] و «رولنسون»[٥] و «أولبرايت»[٦] وغيرهم.

---

(١) Z. Harris, A Grammar of The Phoenician Language, New Haven, 1936.

(٢) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٣٥٦، وكذا

(٣) انظر:

R. Dussaud, Les Pheniciens au Negeb et en Arabie, Revue de L'Histoire des Religions, Paris, 1935.

R. Dussaud, Le Commerce des Anciens Pheniciens. a la Lumiere des Poemes des dieux gracieux et Beaux, Syrai, XVII, 1936.

R. Dussaud, Notices sur le Commerce, Phenicien, Comptes rendus, Paris, 1935.

R. Dussaud, La religion des pheniciens, Paris, 1935.

R. Dussaud, Melquart, Syria, XXV, 1946.

R. Dussaud, Heracles et Astronoe a Tyr, Revue d'Histoire des Religions, Paris, 1911.

R. Dussaud, Les origines Cananeennes du Sacrifice Israelite, Paris, 1921.

(٤) O. Eeissfeldt, Tyros, 1948

(٥) G. Rawlinson, History of Phoenicia, London, 1889

(٦) W.F. Albright, The Correspondance of Abimilki, Prince of Tyre, JEA, 23, 1937.

الباب الثاني

عصور ما قبل التاريخ

الفصل الأول

العصر الحجري القديم والأوسط

مرت سورية ـ بمعناها الواسع، وتشمل سورية وفلسطين ولبنان والأردن ـ شأنها في ذلك شأن بقية دول الشرق الأدنى القديم، بعصور حجرية مختلفة. ولعل أهم الكشوف التي قام العلماء بدراستها في لبنان وفلسطين، إنما هي: كهوف عدلون وجبل الكرمل وأم قطفة والزطية، وقد عثر فيها على فؤوس يدوية، ومكاشط وبلط.

وعلى أية حال، فلقد سكن الإنسان فينيقيا منذ أقدم العصور الأولى، وآية ذلك مواقع الآثار التي ترجع إلى ما قبل التاريخ، وأكثر هذه المواقع الأثرية اكتشفت اتفاقاً[1]، غير أنها إنما تمثل عصور ما قبل التاريخ جميعاً.

ولعل السبب في ذلك أن غربي آسيا ـ بسبب موقعه الجغرافي، وجودة مناخه، ووفرة غلاته ـ كان منذ القدم موطناً ممتازاً، لتقدم الإنسانية ورقيّها، ففي هذه المنطقة تنمو حشائش برية ـ منها الحنطة والشعير ـ وتعيش فيها حيوانات ـ منها الغنم والبقر والماعز ـ وجيمعها من حيوان أو نبات صالحة للتأنيس والتدجين.

هذا ويكثر في هذه المنطقة حجر الصوان الصلب، ومعدن الحديد، وخلافهما من المواد الصلبة الميسورة، التي يمكن الانتفاع بها في الصناعات الأولية، وهكذا كانت هذه المنطقة، هي المنطقة الملائمة لحياة

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية (مترجم) ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٩ ـ ٤٠.

الإنسان، وهو يصطرع بعد مع الطبيعة في سبيل التقدم والرقي.

وهكذا، في هذه المنطقة الجغرافية - حيث تلتقي القارات الثلاث التي صنعت التاريخ - وضع الإنسان القديم الأسس البدائية في حقل الزراعة والصناعة والحياة الفكرية، وهنا بدأ سيره صعداً نحو توكيد إنسانيته وتحقيقها، وقد سمى أحد علماء الآثار هذه المنطقة باسم «مهد الإنسان العاقل» يعني منطقة الشرق الأدنى القديم - ومنها لبنان بطبيعة الحال[1] -.

ولا ريب في أن الآثار التي عثر عليها في هذه المنطقة، لا تدع مجالاً لريبة في أنها إنما كانت منطقة مأهولة باستمرار، منذ وجد الإنسان على الأرض، فإن الأدوات الحجرية المبعثرة بكثرة - بما في ذلك من أدوات حجرية تمثل أقدم العصور الحجرية، تشير بوضوح، إلى وجود الإنسان بشكل جماعات صغيرة في هذه المنطقة، ومنها تفرق - على مدى عصور، لا يُعرف لها عدد - إلى مناطق أخرى من الأرض[2].

ومن ثم فيمكننا الحديث عن عصور ما قبل التاريخ، وتشمل: ١ - العصر الحجري القديم، ٢ - العصر الحجري ٣ - العصر الحجري الحديث، ٤ - العصر الحجري النحاسي.

١ - العصر الحجري القديم (Paleolithic Age):

عثر الأثاريون على آثار العصر الحجري القديم الأسفل في كهوف عدلون - فيما بين صيدا وصور - فضلاً عن تلك التي في منطقة نهر إبراهيم،

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان - ترجمة أنيس فريحة ونقولا زيادة - بيروت ١٩٨٥ ص ٥١ وكذا

Henry Field, in studies Presented to David Moore Robinson ed. George E. Mylonas, Vol, I, St. Louis, 1951, P. 236.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٥١.

ونهر الكلب وأنطلياس[١]، وجبل الكرمل[٢] ـ حيث أبحاث «دوروثي جارود» والدكتور «بيت»[٣]، و «أم قطفة»[٤]، شمالي غربي البحر الميت، و «الزطية»[٥] ـ وتقع شمال غربي بحيرة طبرية.

هذا فضلاً عما عثر عليه من بلطات يدوية، من نفس الفترة في مجرى نهر الأدرن (جنوبي جسر بنات يعقوب)[٦]، وفي «رأس شمرا» «أوجاريت القديمة»[٧].

هذا ولم يعثر على بقايا بشرية تمثل سكان هذا الإنسان، وإن كان «فيليب حتي» يميل إلى أن سكان سورية في هذه الفترة، إنما كانوا نوعاً من

---

(١) G. Zumoffen, L'Age de la Pierre en Phenicie, in Anthropos, III, 1908, P. 431-455.

وكذا G. Zumoffen, La Phenicie avant les Phencins, Beirut, 1900, P. 4-16.

(٢) جبل الكرمل: سلسلة جال طولها ٢٤ كيلاً، تتصل بسلسلة أقل منها ارتفاعاً في القسم الجبلي من أواسط فلسطين، وتنتهي بجوف ينحدر إلى البحر المتوسط، وقد اشتهر الكرمل كثيراً أيام النبي «إيليا» (حوالى عام ٨٥٠ق. م) بسبب مخاصمته لأنبياء «البعل» هناك، حيث يسمى نهر «قيشون» الذي يجري بقربه نهر «المقطع»، تذكاراً لذبح أنبياء البعل هناك، وفي جبل الكرمل كثير من المغارات، منها تلك التي سكنها «إيليا»، وقد كشفت فيه كهوف وبقايا ترجع إلى العصر الحجري القديم (قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٧٧٧ ـ ٧٧٨، إرمياء ٤٦/١٨، ١٩/٥٠، ملوك أول ١٨ ـ ١٧ ـ ٤٢، ملوك ثان ٢/ ٢٥، ٤/ ٢٥، أشعياء ٣٣/ ٩، ميخا ٧/ ١٤، نشيد الإنشاد ٧/ ٥).

(٣) Dorothy. A.E. Garrod et D.M.A. Bate The Stone Age of Mount Carmel, I, Oxford, 1937, ch. 8.

(٤) Rene Nouville, L'Acheuleen Superieur de la grotte d'Oumm Qatafa, in L'Anthropologie, XLi, 1931, P. 13-51, 249-263.
Rene Nouville, Le Prehistorique de Palestine, Revue liblique, Vol, XLiii, 1934, P. 237-259.

(٥) F. Turville-Petre, Researches in Prehistoire Galilee, P. 113-115

(٦) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ بيروت ١٩٥٨ ص ٩، وكذا
Jisr Banat Jaqueb, The Quarterly of The Department of Antiquities in Palestine, Vol, VI, 1936, P. 214-215.

(٧) Claude F.A. Schaeffer, The Cuneiform Telts of Ras Shamra - Ugarit, London, 1939, P. 1.

الإنسان البدائي، غير متميز عن الإنسان الأبيض، وما تزال حضارته مجهولة، وإن كان يعيش - في بعض الأحايين في الكهوف، لوقاية نفسه من أعدائه، فضلاً عن الأمطار والحيوانات المفترسة.

هذا وقد دفنت الجثث دون اتجاه محدد، فلقد دفن البعض على الظهر أو الجانب أو الوجه، وإن كانت الأرجل دائماً منثنية، هذا وقد عثر على جثة، يمسك صاحبها بخطاف في ذراعه، بعظام فك خنزير، وربما كانت تلك تمثل نوعاً من القرابين.

هذا وتشير دراسة الهياكل إلى أن إنسان هذا العصر، إنما كان خليطاً من سلالات يمثل بعضها إنسان «نياندرتال»، ويمثل بعضها الآخر أنواعاً أرقى منه، تكاد تشبه الإنسان الحديث.

ومن ثم فهي تشكل حلقة في تطور الإنسان، وتجعل من منطقة الشرق الأدنى القديم مسرحاً يمثل انتقال الإنسان فيه من المرحلة البدائية إلى المرحلة الحديثة في التطور، وربما تمثل هذه المرحلة ذلك الإنسان آكل اللحوم، إذ تشير العظام البشرية إلى وجود عادات تتصل بهذا الأمر، وربما كان الضحايا من الأعداء أو من أولئك الدين أصبح وجودهم غير مرغوب فيه، وربما يكون بعضهم ممن ماتوا ميتة طبيعية[١].

وهناك من العصر الحجري القديم الأعلى - وتقابل حضارته الفترة «الأورجناسية» (Aurignacian) في أوروبا، ويمثلها ما كشف عنه في كهوف «أنطلياس»، ونهر الكلب[٢]، وفي مغارة الأمير[٣]، على مقربة من بحيرة طبرية[٤].

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٠ - ١١، وكذا

D.A.E. Garrod and D.M.A. Bate, op-cit, ch. 4-7.

وكذا Jabal Qafze, in QDAP, IV, 1934, P. 202

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٢، وكذا G. Zumoffen, op-cit, P. 29-48

(٣) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٢.

(٤) بحيرة طبرية - أو بحر الجليل - بحيرة في فلسطين، تقع عليها مدينة طبرية، التي =

هذا وقد كشف في عام ١٩٣٩م في «كسار عقيل» ـ على مقربة من أنطلياس ـ عن هيكل بشري لطفل في الثامنة من عمره، فضلاً عن هياكل عظمية لحيوانات كالضبع والكركدن والثعلب والماعز(١).

هذا وتحتل بقايا «الغزلان» مكانة رئيسية بين البقايا الحيوانية، هذا إلى أن الأدوات الحجرية إنما بدأت تميل إلى التضاؤل في الحجم، وتصبح أدوات حجرية صغيرة (ميكروليثية)، الأمر الذي يشير إلى أن الإنسان إنما قد بدأ في تركيب أدواته أو أسلحته في مقابض خشبية أو عظمية، حتى أصبحت قسماً من آلة مركبة، ولم نكتشف شيئاً من الخشب، لأنه سريع العطب، بينما كشف عن العظام التي كانت ـ أكبر الظن ـ تستعمل لهذا الغرض(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أقدم قطع الفحم المكتشفة حتى الآن، إنما جاءت من مغارة الطابون من كهوف الكرمل، وترجع إلى

= بناها «هيرودوس انتيباس» ـ ابن هيرودوس الكبير، وحاكم الجليل ـ في عام ٢٦م، وسماها على اسم الامبراطور الحاكم وقت ذاك (تيبريوس ١٤ ـ ٣٧م)، وقد أصبحت ـ بعد ثورة باركوخيا (١٣٢ ـ ١٣٥م) ـ وطرد اليهود من أورشليم ـ مركزاً يهودياً، فنقل إليها السنهدرين، وقامت بها مدرسة كان من نتاجها عام ١٩٠م «المشنا» (أحد قسمي التلمود)، وهكذا من طبرية خرج التلمود الفلسطيني، ومن ثم فقد نظر اليهود إلى طبرية كإحدى المدن المقدسة الأربع (أورشليم ـ وحبرون وصفد وطبرية)، وتقع طبرية على مبعدة ١٩ كيلاً من مدخل الأردن، ١٠ كيلاً من مخرجه. وأما بحيرة طبرية فتقع في وادي الغور، على انخفاض يزيد ٢٠٠م عن سطح البحر، وطول البحيرة ٢٠ كيلاً، وعرضها ١٠ كيلاً، ويخترقها نهر الأردن، وأشهر المدن على هذه البحيرة طبرية وكفر ناحوم وبيت صيدا والناصرة ومجدلة (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٣٩٧ ـ ٤١١، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٥٧٤، معجم الحضارات القديمة ص ٣٢٠).

(١) J. franklin Ewing, Aurignacian Man in syria, American Journal of Physical Anthropology, Vol., IV, 1949, P. 252-253.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٣.

نهاية الدور الأول للعصر «الباليوليتي» ـ أي إلى نحو ١٥٠ ألف سنة[١] ـ وهناك التي ترجع إلى الدور الأخير من العصر الحجري القديم (الدور الأورجناسي)، وكشف عنه في مغارة الوادي، على مقربة من الطرف الغربـي للكرمل[٢]، وعلى أية حال فإلى هذا الدور يرجع اكتشاف النار[٣].

بقيت الإشارة إلى أن الأستاذ «شيفر» (F. A. Schdeffer) قد عثر ـ علي مبعدة بضعة كيلومترات من رأس الشمرا ـ على بقايا عمران من العصر الحجري القديم من النوع المعروف في الفترة الشيلية ـ أو في الفنرة الشيلية الأولى ـ هذا وقد درس «هاللر» محجر الشقة ـ على مبعدة ٢٥ كيلاً جنوبـي غرب طرابلس ـ وهو ذو طبقات أفقية، وقد توصل إلى ترابط الصناعات والمناخ في فلسطين ولبنان.

وفي «عمريت» ـ على مبعدة ٧ كيلا جنوبـي طرابلس، وجد «هاللر» مأوى من عصر «اللڤلوازية»، كما عثر «هاللر» أيضاً في «أبو حلقة» ـ في الطرف الجنوبـي من طرابلس ـ في أثناء تنقيبه، مأوى كان مستعملاً في العصر الحجري الأعلى ـ (يعني في الأورينياسية الأسفل)، ثم في عصر الأورينياسية الأوسط السوري[٤].

هذا وقد أسفرت التنقيبات في مغاور: أنطلياس ومنبع نهر الكلب، عن وجود أدوات حجرية تتميز بها الحقبة المتأخرة من العصر الحجري القديم ـ ويعرف هذا العصر في أوروبا «بالعصر الأوريني» (Aurignacian)، هذا فضلاً من حفائر أخرى متعددة في مغاور نهر الكلب ـ والتي تشبه في تكوينها خلايا قرص الشهد ـ ووجد أنها كانت مساكن للإنسان القديم ـ والحديث نسبياً ـ كما أجريت حفائر شمالي هذه المنطقة ـ عند نهر الجوز

(١) D.A.E. Garrod and D.M.A. Bate, op-cit, P. 129.

(٢) Ibid, P. 129

(٣) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٣.

(٤) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٤٠ ـ ٤١، مجلة متحف بيروت ٤/ ٥٥ وما بعدها (١٩٤٠) ٥/ ٣١ وما بعدها (١٩٤١)، ٦/ ١ أو ما بعدها (١٩٤٢).

قرب البترون، وعند نهر أبو علي قرب طرابلس، وان هذه الأخيرة (أي قرب طرابلس) إنما تعود إلى العصر الحجري المتأخر، كما عثر إلى جانبها على عظام الوعل المتحجرة والغزال والذئب[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد عثر على هيكل عظمي بشري، في كهف في «كسار عقيل» فوق أنطلياس ـ وعلى مبعدة ١٠ كيلاً شمالي بيروت، وهو هيكل صبي ـ كما أشرنا من قبل ـ في الثامنة من عمره، وقد عاش من قبل فيما بين ٢٥، ٣٠ ألف سنة، وهو أقدم هيكل بشري وجد على الأرض اللبنانية، ولا يختلف عن أي صبي يعيش في أيامنا هذه.

هذا وقد وجد في مغاور أنطلياس عظام حيوانات أخرى ـ كالغزال والضبع والثعلب والماعز والبقر ـ وأقدم البقايا الحيوانية عظام «الكركدن»، وعظام حيوانات أخرى أكثر بدائية[2].

ولعل من الجدير بالإشارة أن إنسان العصر الحجري القديم، إنما كان يعيش على الشاطىء اللبناني ـ الفلسطيني، في الكهوف والمغاور، وكان النظام الاجتماعي بدائياً، يقوم على تجمع وحدات صغيرة من الناس، كما كان يعيش على الصيد، أو على جمع قوته من مصادر نباتية ويأكلها على حالتها الطبيعية، ولم يكن أبداً من آكلة لحوم البشر.

وكانت صناعة الأدوات الحجرية تميل إلى الصغر، حتى أصبحت فيما بعد قطعاً من الحجارة الصغيرة الرشيقة، التي تمثل نهاية الصناعة في

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٥٤، وكذا

Alfred E. Day, Al-Kulliyah, XII, 1926, P. 496-499.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٥٤ ـ ٥٥، وكذا

J. Franklin Ewing, in Thought, XXIV, 1949, P.255-288.

وكذا in AJPA, IV, 1946, P. 252-253

وانظر: مجلة المشرق ـ العدد ٤١ لعام ١٩٤٧ ص ٢١٨ ـ ٢٤٨.

الحضارة الأورينية المتأخرة، وبداية العصر الحجري المتوسط، ثم سرعان ما بدأ الإنسان يصنع الأسلحة الحادة مقبضاً يسهل عليه القبض والقتل، وعلى أية حال، فإن هذه الأدوات التي صنعها الإنسان في هذا العصر، إنما تدل على أنه أصبح إنساناً حضارياً عاقلاً، الأمر الذي ما كان ليتم لولا وجود وسيلة للتفاهم، أي اللغة، فضلاً عن اكتشافه قابلية الاحتراق في الخشب الذي يستخدمه[(1)].

٢ ـ العصر الحجري الأوسط:

يمثل العصر الحجري الأوسط مرحلة الانتقال بين العصرين ـ الحجري القديم والحجري الحديث ـ وقد دامت هذه الفترة نحو ستة آلاف سنة، وذلك اعتباراً من عام ١٢ ألف قبل الميلاد (١٢٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ق م) قام الإنسان فيها بصقل أدواته الحجرية وتهذيبها.

هذا وقد قام عالم الآثار «زوموفن» في مستهل هذا القرن بحفريات في مغاور عدلون وأنطلياس ونهر الكلب ونهر إبراهيم[(2)]، وقد وجد أن الأدوات الحجرية التي كان يستعملها الصيادون الذين عاشوا في العصور السابقة للتاريخ، هي الأدوات التي يتميز بها العصر الحجري الأوسط، وهو العصر الذي تعود إليه آثار المغاور المشهورة التي عثر عليها في جبل الكرمل[(3)].

هذا وتشير حفريات الكرمل (١٩٢٩ ـ ١٩٣٤م) أن الإنسان الذي

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٥٥ ـ ٥٧، وانظر
D.A.E. Garrod and D.M.A. Bate, op-cit, I, P. 126

(٢) G. Zumoffen, La Phenicie avant Les Pheniciens, Beirut, 1900, P. 104-6.
Zumoffen, in Anthropos, III, P. 431-455.

(٣) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٥٣، وكذا
Philip K. Hitti, History of syria, New York, 1951, P. 9 F
وكذا Dorothy A.E. Garrod and D.M.A. Bate, The Stone Age of Mount Carmel, I, Oxford, 1937, shs 4-8.

سكن شواطىء البحر المتوسط الشرقية في العصر الحجري المتوسط (يسميه الأوروبيون الموستري نسبة إلى كهف Le Moustier) إنما يشبه إنسان «النيندرتال»، وإن لم يعثر على أي أثر لهذا الإنسان في لبنان، وإن عثر على بقايا الحيوانات التي كان يقتات بلحومها، ومن هذه البقايا أسنان وعظام متحجرة للخنزير البري والجاموس البري والغزال والماعز والدب والكركدن، وحيوانات أخرى منقرضة، كما وجدت على مقربة من طرابلس عظام الوعل المتحجرة والغزال والذئب[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد أطلق على الفترة الأخيرة من العصر الحجري الوسيط في فلسطين اسم «الحضارة النطوفية»[2] ـ نسبة إلى وادي النطوف شمالي غربـي مدينة القدس، حيث أجريت عام ١٩٢٨م حفريات هناك من مغارة «الشقبة»[3].

هذا وقد عثر في طبقات هذا الموقع على آثار في غاية الأهمية تمثل مرحلة النقلة، فهي تشمل مرحلة جمع الطعام من ناحية ـ أي آثار الصيد ـ وآثار بداية الاستقرار، من ناحية أخرى، فهناك الأدوات الحجرية ورؤوس السهام وغيرها من آثار العصر الحجري القديم الأعلى.

هذا فضلاً عن المناجل والأجران التي تمثل عنصراً حضارياً جديداً، يقترب بالإنسان إلى إنتاج الطعام والاستقرار، أكثر من انتمائه إلى مرحلة

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٥٣ ـ ٥٤، وكذا
Alfred E. Day, in Al-Kulltyah, XII, 1926, P. 496-499

(٢) انظر عن الحضارة النطوفية (رشيد الناضوري: جنوب غربـي آسيا وشمال أفريقيا ـ الكتاب ـ الأول ـ بيروت ١٩٧٧ ص ١١٣ ـ ١١٦، فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٦٠، نجيب ميخائيل سورية ص ٤٠ ـ ٤٢، عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.
أحمد سليم: سورية وبلاد العرب ص ٨ ـ ١٣.

(٣) D.A.E. Garrod, in Palestine Exploration fund Quarterly Statement, 1928, 1928, P. 182-185.
وكذا D.A.E. Garrod and D.M.A. Bate, op-cit, P. 114

الجمع والالتقاط، فالمنجل وظيفته قطع النباتات البرية أو المزروعة، ومن الممكن استخدامه في أحد الوظيفتين أو هما معاً.

ومن ناحية أخرى، يلاحظ أن بعض عظام الحيوانات المتخلفة عن تلك الحضارة، قد دل فحصها على اتفاقها مع الحيوانات المستأنسة أكثر من الحيوانات البرية، مما يدعم الاتجاه إلى الانتقال إلى بداية الاستقرار، مع استمرار أفراد مجتمع تلك المرحلة في حياة الجمع والصيد، بما يتضمنه من صيد الأسماك والحيوانات والطيور، غير أن هناك من يذهب إلى عدم توصل الحضارة النطوفية إلى استئناس الحيوان[1].

هذا وقد أطلق الباحثون هذه التسمية ـ الحضارة النطوفية ـ على الحضارة المعاصرة لها في المنطقة بكاملها، فقد وجدت أدوات حجرية قرب طرابلس وفي «كسار عقيل» (فوق انطلياس)، فظهر أنها مثل أدوات سكان وادي النطوف، وهي من النوع المعروف باسم «الشفرة الحجرية»، لأنها تشبه ـ في شكلها ـ الشفرة أو المدية المعدة للقطع، وهي عبارة عن قطعة صوانية ذات طرفين متوازيين حادين، يشبهان حدّى السكين[2].

هذا وقد وجدت هذه الأدوات الحجرية جنباً إلى جنب، مع عظام حيوانات تشبه حيواناتنا اليوم، ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن بقايا الغزال كثيرة في هذه الحقبة، بينما بقايا الوعل ذي القرون الكبيرة المتشابكة نادرة، مما يدل على فترة جفاف، وكان الضبع من ذلك النوع المرقط، والذي يوجد شبيهه في جنوبي الصحراء الكبرى من افريقيا، وكان القنفذ يختلف تماماً عما هو موجود الآن في لبنان[3].

وهناك اختلاف في الرأي بالنسبة إلى «الكلب النطوفي»، فبينما يراه

---

(١) رشيد الناضوري: جنو غربي آسيا وشمال أفريقيا ـ بيروت ١٩٧٧ ص ١١٣.

(٢) Dorothy Mackay, A guide to The Archeological Museum, in The university Museum, Beirut, 1951, P. 3.

(٣) D.A.E. Garrod and D.M.A. Bate, op-cit, P. 153

البعض ذئباً، يراه آخرون كلباً[1]، وعلى أية حال، فلقد جمعت الحضارة النطوفية في مواقعها الأثرية بين الكهوف والساحات الممتدة أمامها ـ وخاصة في نواحي جبل الكرمل ـ وبين مواقع القرى في وادي نهر الأردن، حيث يلاحظ وضوح التطور الحضاري.

وقد اختلف العلماء في التأريخ للحضارة النطوفية ـ بأقسامها الثلاثة: المبكرة والمتوسطة والمتأخرة ـ واعتماد على التأريخ بطريق «الكربون المشع»، فإنها تؤرخ بحوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، وإن تأخر البعض بها إلى مابعد هذا التأريخ.

وينتمي إنسان هذه الحضارة إلى عنصر البحر المتوسط المختلط بنسبة زنجية محدودة[2]، ذلك لأن إنسان النياندرتال ـ أو شبيهه ـ كان قد انقرض، وظهر بدله نوع آخر، أقصر قامة، مستطيل الرأس، نحيف البنية، يشبه جسمانياً «الإنسان البرونزي»، الذي عاش ـ فيما بعد ـ في بلدة «جبيل»، والإنسان الذي عاش في وادي النيل، قبل قيام الملكية المصرية (حوالي عام ٣٢٠٠ق.م)[3]، وكل هذه الأجناس تنتمي إلى عنصر البحر المتوسط من العرق الأبيض، الذي تحدرت منه ـ فيما بعد ـ الشعوب الحامية والسامية[4].

وهناك ما يشير إلى نوع من العقيدة في العالم الآخر في هذه الحضارة، حيث عثر على عدد من المقابر الفردية والجماعية التي تؤكد اعتقاد القوم في الحياة الأخرى، حيث لوحظ تغطية الهيكل العظمي

---

(١) J. Mellart, Earliest Civilizations of The Near East, London, 1965, P. 23.

(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٣) انظر عن قيام الملكية المصرية (محمد بيومي مهران: مصر ٢/ ٩ ـ ٢٨).

(٤) W.F. Albright, in Haverford Symposium on Archeology and The Bible, New Haven, 1938, P. 7.

وكذا W.F. Albright, The Archeology of Palestine and The Bible, New York, 1933, P. 61-231.

للمتوفى بالكتل الحجرية، وتلك ظاهرة مبكرة جداً من مراحل المحافظة على جسد المتوفى، ثم تطورت إلى بناء علوي للمقبرة، فيما بعد.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى ظاهرة «ذر التراب الأحمر في المقابر»، تلك الظاهرة التي نراها في بعض الحضارة الأخرى ـ وخاصة في إيران ـ ربما لإرتباط التراب الأحمر بموضوع الخلود، واستمرار الحياة في العالم الآخر، في نظر القوم وقت ذاك[1]. وعلى أية حال، فإن هذه المرحلة الحضارية، إنما تقدم أقدم دليل على تأنيس الحيوان، حيث اكتشفت جمجمة كلب كبير، كاملة وسليمة، في مغارة جبل الكرمل، ثم تلا تأنيس الكلب تأنيس الماشية الأمر الذي أوجد نوعاً جديداً من أساليب الحياة، يعتمد على رعاية الماشية، كمصدر ثابت للقوت، عوضاً عن القنص، الذي قد يكون ثابتاً، وقد لا يكون[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الحضارة النطوفية، قد شهدت في أخريات العصر الحجري الوسيط ـ أو ربما في أوائل العصر الحجري الحديث ـ بدء مرحلة أخرى، اتجهت نحو حياة الاستقرار وكان تأثيرها على الإنسان كبيراً، إلا وهي ممارسة الزراعة[3].

هذا وقد وجد في حفريات وادي النطوف مناجل للحصاد، مصنوعة من الصوان، أو من شفرات صوانية مركزة في قبضة خشبية، شكلها شكل المنجل، وربما كانت تستعمل لحصاد القمح، كما جُرب الثور الذي الذي تم تأنيسه في العصر الحجري الحديث على جر المحراث، وقد زرع القوم القمح والشعير، ثم الذرة، ثم الأشجار المثمرة، كالزيتونة والكرمة والتينة، ثم الخضروات، وهكذا أصبح الإنسان ـ بعد أن كان يجمع الحب والفاكهة من الطبيعة ـ أصبح يزرعها هو بنفسه، ويستغلها لمصلحته[4].

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ١١٦.

(٢) D.A.E. Garrod and D.M.A. Bate, op-cit, P. 175-177

(٣) فيليب حتي: تاريخ سورية وفلسطين ولبنان ص ١٦ ـ ١٧.

(٤) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٦٣.

هذا ويتفق المؤرخون - أو يكادون - على أن منطقة الشرق الأدنى هو الموطن الأصلي للزراعة، ومنها انتقلت إلى المناطق الأوروبية[1].

غير أن العلماء ما يزالون مختلفين حول الموطن الأول للزراعة في منطقة الشرق الأدنى القديم، فلقد قام - وما يزال - جدل بين علماء عصور ما قبل التاريخ خاصة - والمؤرخين عامة - حول الموطن الأول للزراعة.

وهكذا ذهب فريق إلى أن الموطن الأول للزراعة، إنما كان في جنوب غربي آسيا، - وخاصة في سورية وفلسطين ولبنان وميزوبوتاميا (العراق القديم أو بلاد النهرين)، وغربي إيران[2].

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن مصر، إنما كانت هي الموطن الأول للزراعة، ذلك لأن وادي النيل، إنما كان - دونما ريب - هو المكان الوحيد الذي نشأت فيه حضارة متميزة، خارج منطقة غربي آسيا[3].

وفي الواقع، فإنه على الرغم من صعوبة التوصل إلى مكان وزمان نشأة الزراعة - على وجه اليقين - ورغم أن ظروف الجفاف جعلت المجتمعات التي تعيش نفس الظروف، تستجيب استجابة تلقائية سريعة إلى هذا الاكتشاف منذ بداية ظهوره.

ومن ثم، فربما قد اكتشفت الزراعة في عدة مناطق في وقت واحد تقريباً - في وادي النيل، وفي جنوب غربي آسيا - فإن كثيراً من الباحثين إنما يذهبون إلى أن جميع شعوب الشرق الأدنى القديم - فضلاً عن الشرق

---

(١) Robert J. Braidwood, Prehistoric Men, Chicago, 1948, P. 80-96

(٢) J. De Morgan, La Prehistoire Orientale, II, Paris, 1926, P. 76

وكذا H.J.E. Peake, The origines o Agriculture, London, 1928, P. 22.

(٣) G. Clark, PrehistoryofTheWorld,Cambridge,1962,P.99.

الأقصى ـ إنما قد نسبت إلى شخصيات خرافية في تاريخها، شرف التوصل إلى معرفة القمح[1].

وهكذا نسب المصريون إلى معبودهم «أوزير»[2] أنه علم الناس الضرع والزرع ومن ثم فقد ربطوا بين «أوزير»، وبين كل التطورات التي تحدث على سطح الأرض، طوال العام، وتؤثر في إنتاجهم الزراعي.

ومن هنا كانت الإشارات التي تقرن أوزير بحياة النبات، أو توحده معها أو بها، ومن ثم فقد كان تمثيله باعتباره «إلها للخضرة» سائداً في مصر، في كل العصور المتأخرة، وربما ساد منذ العصور المبكرة، عندما نقابل اسمه ـ لأول مرة ـ في الوثائق المكتوبة[3].

وأياً ما كان الأمر، فليس هناك من سبيل إلى ريب، في أن البيئة المصرية، إنما قد ساعدت على معرفة الزراعة، فالنيل بفيضانه المنتظم، وإخصابه للتربة، فضلاً عن دور الشمس في البيئة المصرية، كل ذلك قد ساعد في الوصول إلى مرحلة الزراعة والاستقرار، قبل أمم أخرى.

وفي الواقع، فإن أرض مصر، إنما قد انفردت بميزة خاصة، ذلك أن فيضان النيل، إنما كان يأتي في أواخر الصيف، وأوائل الخريف، حتى إذا ما تقدم هذا الفصل الأخير في السنة، بدأت مياه الفيضان تنحسر عن جوانب الوادي ودلتاه، وهنا نلاحظ أن منتصف الخريف أو أواخره إنما هو الوقت الملائم لزراعة نباتات الحبوب الشتوية، وأهمها القمح والشعير، وبعبارة أخرى، كان الفيضان يأتي فيمد أرض مصر بالطمى والماء، ثم ينحسر عنها في أصلح وقت لزراعة تلك النباتات، حتى إذا ما زرعت

---

(1) F. Hartmann, L'Agriculture dans L'Ancienne Epypte, Paris, 1923, P. 48.

(2) انظر عن «أوزير» (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الثاني ـ الإسكندرية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩ ص ٣٤٩ ـ ٣٦٢).

(3) انظر عن «أسطورة أوزير» (محمد بيومي مهران ـ الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الأول ـ الآداب والعلوم ـ الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٠ ـ ٢٨).

ونبتت، كان فصل الأمطار الشتوية في مصر قد بدا.

والظاهر أن تلك الأمطار، كانت في العصر الحجري الحديث ـ وما بعده ـ أوفر منها الآن، فكانت تغذي النباتات، وتمدها بالحياة في أشهر الشتاء، حتى إذا ما جاء آخر الربيع، وأول الصيف، وكانت نباتات الشتاء قد أكملت نموها، انقطع المطر، وحل فصل الحصاد، وهكذا تكامل عنصران في مصر ـ هما عنصر الفيضان، وعنصر الأمطار الشتوية ـ وكان من ثمرات ذلك التكامل أن أصبحت أرض النيل صالحة ـ كل الصلاحية ـ لتكون مهداً من مهاد الزراعات الشتوية القديمة.

على أن التكامل بين عناصر البيئة الطبيعية في مصر، لا يقف عند ذلك، فبعد أن يتم الحصاد، يحل أول الصيف، وهو فصل شديد الحرارة، فتجف التربة، وتتشقق الأرض، وتموت الحشائش الضارة، والتي تمتص خير الأرض، ولا تفيد شيئاً، ويؤدي التشقق إلى تفتح التربة، ودخول غازات الهواء التي تجدد خصبها، حتى إذا ما جاء الفيضان من جديد في آخر الصيف، عاد فغطى الأرض، وكساها بطبقة من الطمى، حتى ينحسر النهر، ويجيء الإنسان، ليزرع الأرض من جديد.

وهكذا أصبحت دورة الطبيعة متكاملة العناصر والعوامل، وتلك ظاهرة لا نكاد نجدها في نهر آخر من أنهار العالم الكبرى، بل تلك ظاهرة ميزت أرض مصر، منذ فجر التاريخ، وربما كانت هي العامل الأساسي فيما عرفناه من استمرار الحياة والحضارة، وتجددهما في أرض مصر، على مرّ السنين[1].

وأياً ما كان الأمر، فلا ريب في أن الزراعة إنما كانت عملاً انقلابياً بالنسة لتقدم الإنسان، أكثر من تربية الماشية، وبتطور الزراعة، أخذ الإنسان

(١) سليمان حزين: تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الأول ـ العصر الفرعوني ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ١٦، محمد بيومي مهران: مصر ـ الجزء الأول ـ الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢١٢ ـ ٢١٤).

يعيش في أكواخ مبنية من الطين، أو في بيوت من اللبن، هذا وقد عثر على بقايا المساكن البدائية في أقدم الطبقات التي سكنها الإنسان في «أريحا»[(١)]، وترجع إلى نحو ٥٠٠٠ عام قل الميلاد، وفي طبقات «تل الجديدة»[(٢)] ـ فيما بين حلب وأنطاكية ـ وفي «رأس الشمرا»[(٣)]، وفي جبيل (بيبلوس)[(٤)].

وهكذا أصبح إنسان العصر الحجري الوسيط ـ والذي كان حتى الآن متنقلاً ـ أصبح يمارس الزراعة وتربية الماشية، ويسيطر على موارد غذائه، وأخذت الكهوف والملاجيء الصخرية في الأماكن المرتفعة تهجر بالتدريج، وتستبدل بالمساكن في السهول، وظهرت ملكية الأرض، وغيرها من مستلزمات الاستقرار[(٥)].

---

(١) أريحا: ومعناها مدينة القمر ـ أو مكان الروائح العطرية ـ وتقع على مبعدة ٨ كيلاً غربي نهر الأردن، وعلى مبعدة ٢٧ كيلاً شمال شرقي أورشليم القدس، أما أريحا التي ذكرت في التوراة، فموضعها «تل السلطان» على مبعدة حوالى ١,٥ كيلاً غربي أريحا الحديثة، وتدعى «الريحا» و «تلول أبو العليق» التي تقع على مبعدة ١,٥ كيلاً غربي أريحا الحديثة، وقد أثبتت الحفريات التي أجريت في «تل السلطان» على أن «أريحا» (جريكو ـ Jericho) واحدة من أقدم مدن العالم، وكشف فيها عن فخار من أقدم فخار العالم (قاموس الكتاب المقدس ٥٩/١)، وكان أول من حفر فيها «أرنست سيللين» و «كارل فتزنجر» (١٩٠٧ ـ ١٩٠٩م) ثم أعاد «جون جارستانج» الحفر في الفترة (١٩٣٠ ـ ١٩٣٦م)، ثم «مس كاثلين كنيون» منذ عام ١٩٥٢م.

انظر: E. Sellin and C. Watzinger, Jericho, 1913

وكذا Jand J.B.E. Garstang, The story of Jericho, 1940

وكذا K.M. Kenyon, in PEQ, 1952, P. 62-82, 1953, P. 18-95, 1954, P. 45-63, 1955, P. 108-117, 1956, P. 67-82.

وكذا K. M. Kenyon, in Scientific American, 190, 1954, P. 76-82

(٢) R. Braidwood, Mounds in The Prehistoric Man, Chicago, 1948, P. 92-93.

(٣) Claude F. Shaeffer, Ugaritica. Paris, 1939, P. 3-4.

(٤) Maurice Dunand, Fouilles de Byblos, Paris, 1939, P. 295-296

(٥) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ بيروت ١٩٥٨ ص ١٨.

الفصل الثاني

العصر الحجري الحديث والنحاسي

١ ـ العصر الحجري الحديث ـ (Neolithic Age):

ينظر علماء عصور ما قبل التاريخ إلى مرحلة «العصر الحجري الحديث» ـ بصفة عامة ـ على أنها نقلة هامة وحاسمة في تاريخ الإنسان، ففي هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ الإنسانية، ينتقل الإنسان من مرحلة الجمع والالتقاط، والتجوال وعدم الاستقرار، إلى مرحلة الإنتاج والاستقرار المادي والفكري، ولأول مرة في حياته.

ومن هنا كانت أهمية المرحلة السابقة مباشرة لهذا العصر، والتي نظر إليها علماء عصور ما قبل التاريخ، على أنها بمثابة «ثورة» ـ أو تغيير حاسم في تاريخ حياة الإنسان ـ شأنها في ذلك شأن غيرها من المراحل الحاسمة في تاريخ البشرية، كمرحلة استخدام القوة التجارية في القرن الثامن عشر الميلادي، ومرحلة استخدام الطاقة الذرية في القرن العشرين الميلادي[1].

وهكذا بدأ الإنسان في هذا العصر الحجري الحديث، يستقر في جماعات، قريباً من موارد المياه، ثم سرعان ما ألجأته الضرورة إلى ضمان غذائه، فاستأنس الحيوان، وعرف الزراعة، التي أصبحت حرفته الرئيسية، ومن ثم فقد تحول من حياة الجمع والالتقاط والصيد، إلى إنتاج الطعام،

---

(١) رشيد الناضوري: المغرب القديم ص ١٢٣.

وكان من الضروري ـ وقد عرف الزراعة ـ أن يختزن محصوله، فعرف صناعة الأواني، وبذلك أقام حياته على أسس اقتصادية ثابتة.

وهكذا بدأ الإنسان في هذا العصر ـ الذي شهد تحوله إلى إنتاج الطعام عن طريق التوصل إلى معرفة الزراعة ـ في إقامة القرى التي تضم عدداً أكبر من المساكن والأفراد، والتي تعبر عن استقرار دائم، ولم تعد مجرد استقرار موسمي، كما كان عليه الحال من قبل.

وهكذا قامت المجتمعات المستقرة التي أخذت تنمو، حتى بلغ سكان قرية «مرمدة بني سلامة» ـ على مبعدة ٥١ كيلاً شمال غرب القاهرة ـ وتمثل أكبر قرية في مصر من العصر الحجري الحديث، بلغ ـ فيما يرى بعض الباحثين ـ نحواً من ١٦ ألف نسمة، وهو عدد لا يستهان به في ذلك الزمن، الموغل في القدم، بل إننا نراه نوعاً من المبالغة غير المقبولة[١].

وأياً ما كان الأمر، فإن مرحلة العصر الحجري الحديث (Neolithic Age)، إنما تعتبر بمثابة تغيير جذري في حياة الإنسان وقت ذاك، أو هي في بعض مراحله بمثابة ثورة ـ ثورة إنتاج الطعام ـ غَيَّرت من نظم حياة الإنسان وانتقلت إلى مرحلة جديدة، سرعان ما تقفز بحياته إلى مجتمع جديد، ذلك لأن العصر الحجري الحديث إنما قد تميز بعملية إنتاج الطعام، بعد الجمع والالتقاط، والاستقرار، عند التجوال والترحال، وزيادة قدراته في مجال صنع الأدوات الحجرية، فضلاً عن التوصل إلى صناعة الفخار.

وهكذا كان لهذا العصر سمات خاصة، أصبحت بمثابة علامات استدلال على هذه المرحلة الهامة من حياة بني الإنسان، فهو عصر حجري حديث، حينما يمارس الإنسان صقل الآلة الحجرية، أو يقوم بتشذيب الأداة

---

(١) محمد بيومي مهران: مصر ٢١٢/١ (الإسكندرية ١٩٨٨)، المغرب القديم ص ٣٤ ـ ٣٥ (الإسكندرية ١٩٩٠) وكذا

R. Braidwood and C. Reed, The Archievement and Early Consequences Food-Production, in SOB, XXII, 1907, P. 19-31.

من وجهيها تشذيباً كثيفاً، غير الذي مارسه من قبل، أو حينما يصنع رؤوس السهام، أو الأواني الفخارية، أو يمارس الزراعة، أو يقوم بتربية الحيوان.

هذا ومن البدهي، ألا نتوقع أن يتوصل الإنسان إلى معرفة كل هذه الأمور في وقت واحد، أو أنها جميعاً يجب أن توجد في مجتمع من المجتمعات، ومن ثم فقد يعرف إنسان هذه المرحلة بعضها، ويغيب عن إدراكه بعضها الآخر، غير أنها في مجملها، إنما يتكون منها ذلك التقدم الهائل، الذي يكون «الثورة النيوليتية» (Neolithic).

على أن تحديد العصر الحجري الحديث لا يتم بمعرفة المنجزات التي أشرنا إليها آنفاً فحسب، ذلك لأن صقل الأداة الحجرية ـ مثلاً ـ قد عرفته بعض المجتمعات في مرحلة تسبق مرحلة «العصر الحجري الحديث» ـ كما حدث في المغرب القديم، حين عرف أصحاب مرحلة (Epipaleolithique) هذه التقنية ومارسوها في نطاق محدود ـ هذا فضلاً عن أن الزراعة وحدها ليست بكافية، كدليل أثري على العصر الحجري الحديث، فوجود المناجل بكثرة في مرحلة سابقة للعصر الحجري الحديث (ما قبل النيوليتية ـ Proto-Neolithic)، ربما تشير إلى زراعة أولية، كما أن عدم وجود الفخار، لا يعتبر دليل نفي لوجود العصر الحجري الحديث، ذلك لأن هناك مجتمعات وصلت إلى العصر الحجري الحديث، قبل أن تعرف الفخار.

غير أنه من غير المقبول أن يصل مجتمع ما، إلى مرحلة العصر الحجري الحديث ، دون الوصول إلى درجة من « الحضارة النيوليتية » (Neolithic Civilization)، هذا فضلاً عن أننا لا نستطيع القول أن مجتمعات العصر الحجري الحديث عرفت جميعها الحضارة النيوليتية كلها، ذلك لأن هناك قلة من هذه المجتمعات ـ ولأسباب محلية ـ لم تمارس بعض جوانب هذه الحضارة[١].

(١) انظر: L. Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1955, P. 451.

وعلى أية حال، فلقد أثبتت الأبحاث أن منطقة الشرق الأدنى القديم ـ وخاصة في مصر والعراق وفلسطين ولبنان ـ إنما كان لها السبق على غيرها من مناطق العالم الأخرى في التوصل إلى مرحلة إنتاج الطعام والزراعة والاستقرار ـ ولأول مرة في تاريخ البشرية ـ وذلك لأسباب، لا ريب في أن العامل البيئي إنما كان من أهمها، وقد قدمت لنا الحفريات الأثارية مئات الأدلة على سبق المنطقة في هذا المضمار[1].

وهكذا رأينا قرية «أريحا» في فلسطين، إنما تعد من أهم مواقع العصر الحجري الحديث، وفي سورية (بمعناها الجغرافي الواسع، وتشمل دول: سورية ولبنان وفلسطين والأردن) توجد منطقة «العمق ـ وتقع في شمال سورية، على مقربة من مصب نهر العاصي ـ وفي لبنان: مناطق: جبيل وحراجل وبركة راما وعين آبل، ونهر الكلب ونهر الزهراني وغيرها، هذا وتعد «جبيل» من أهم مواقع العصر الحجري الحديث، وذلك لوفرة آثارها المنتمية إلى تلك المرحلة[2].

هذا وقد توصل إنسان العصر الحجري الحديث إلى الاعتقاد في العالم الآخر، وهناك الكثير من الأدلة في العصر الحجري الحديث في لبنان التي تشير إلى ذلك.

ولعل من أهم آثار جبيل بقايا القرن التي تتمثل في آثار المنازل المستطيلة، ذات الأسس الحجرية التي طليت أرضيتها بالملاط، وقد عثر على آثار المواقد، وكافة الأدلة الأثرية المتصلة بالاستقرار والإنتاج الزراعي ـ كالأدوات الحجرية، وخاصة المناجل والأدوات العظمية والفخارية والمغازل وغيرها، هذا فضلاً عن بعض التماثيل الفنية المصنوعة من الحجر

---

(١) محمد بيومي مهران: المغرب القديم ص ٣٦.
(٢) رشيد الناضوري: جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا ص ١٣٠ ـ ١٥٢.

الجيري التي تتصل بعقيدة خصوبة الإنتاج.

هذا وقد اتسعت دائرة نشاط حضارة جبيل (بيبلوس) في تلك المرحلة، كما تشير الدراسات المقارنة للمادة الأثرية، ويبدو هذا واضحاً في الحضارة اليرموكية في وادي الأردن، حيث لاحظ الأثاريون وجه شبه وترابط في الإنتاج الحضاري بينها وبين حضارة جبيل، مما يشير إلى أن الحضارة اليرموكية في أصولها، إنما هي بمثابة شعبة جنوبية شرقية لحضارة جبيل[١].

وأما الخزف اللبناني، فمعلوماتنا عنه قليلة ـ سواء أكان ذلك في منطقة البقاع أم في الشاطىء ـ رغم ما أسفرت عنه الحفريات في جبيل وصيدا، وعلى أية حال، فالخزف في لبنان مقتبس من جيرانهم في الشمال والجنوب، وما أكثر النماذج الخزفية التي شاعت في سورية أو فلسطين، ثم سرعان ما تظهر في لبنان، الأمر الذي يشير على اقتباس هذه الصناعة[٢].

ولعل أقدم قطع خزفية عثر عليها في لبنان، إنما يعود عهدها إلى العصر الحجري الحديث، وقد كشف عنها في «جبيل»[٣] ـ أقدم بلدة لبنانية ذات تاريخ مدون[٤] ـ.

٢ ـ عصر الحجر النحاسي:

كان النحاس أول معدن انتفع به الإنسان، وقد استخدم النحاس في بلاد الشام حوالى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، وقد استخدم الإنسان في هذا

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) انظر: C.L. Woolley, Guide to The Museum of Archeology, Beirut, 1921, P. 2.

(٣) Maurice Dunand, Fouilles de Byblos, I, Text, Paris, 1939, P. 390 atlas, Paris, 1937, Pl. CXCII, do. in Revue biblique, Vol, 57, 1950, P. 582-603.

(٤) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٦٨.

العصر الحجر والنحاس معاً، ومن ثم يطلق العلماء على هذا العصر، اسم «العصر الحجري النحاسي»، وكان ذلك في الفترة (٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ق. م).

وقد ظهرت الصناعات النحاسية الحجرية في «أوجاريت» (رأس الشمرا)، وبعض المراكز الحضارية الأخرى في شمال سورية، وفي «تليلات الغسول» في فلسطين، وغيرها. هذا وقد اكتشف النحاس صدفة عندما أخذ شخص ما يحرك النيران صدفة، معدن النحاس الخام، فذاب بعضه، وترك بريقاً أصفر اللون[1].

ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن استخدام البرونز في الصناعة، إنما جاء عقب استخدام النحاس، ثم اكتشاف الحديد والفولاذ، هذا وقد بدأ عصر البرونز حوالى عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد ـ وإن ذهب البعض إلى تحديد عام ٣٠٠٠ق. م، لبداية عصر البرونز ـ ثم انتهى حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، عندما أخذ الحديد يحتل مكانه في الصناعة، واستمر عهد الحديد إلى حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد.

وفي الواقع، فلقد استمر العصر المعدني إلى زمن اكتشاف الكهرباء، ثم الطاقة الذرية[2].

هذا ويذهب الدكتور فيليب حتي، إلى أن اكتشاف النحاس، والتعرف على منافعه، إنما كان في سورية الشمالية ـ ولا سيما المنطقة المحصورة بين خليج الإسكندرونة، وبين منابع الفرات ـ ثم انتقل من هذه المنطقة شرقاً إلى إيران، وجنوباً إلى فلسطين ومصر[3].

---

(١) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٢٣٣.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٧٠ ـ ٧١.

(٣) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٢٤ ـ ٢٥.

والأمر كذلك بالنسبة إلى منطقة «نينوى»[١]، والتي ربما اكتسبت هذه المعرفة من جاراتها في الغرب[٢].

على أن هناك ما يشير إلى أن إيران ـ وكذا السومريون كما أشرنا ـ قد اكتشفوا النحاس، قبل أن يكشف في سورية، وذلك في نهاية العصر الحجري الحديث ـ حيث بدأ الإنسان يفهم خواص المعدن، ومن ثم فقد تعرف على طرْق النحاس، ولكنه ظل جاهلاً بفن صبّه[٣].

وعلى أية حال، فإن آثار الإنسان في شرق حوض البحر المتوسط، إنما تدل على استخدام النحاس أولاً في صنع أسلحة الحرب، قبل أن يستخدمها في صنع الأدوات المنزلية، وقد اقتصر استخدامه لصنع الأسلحة على أنواع صغيرة، قليلة العدد، لفئة قليلة من الناس، والأمر كذلك بالنسبة للأدوات المنزلية، حيث بدأ بصنع أشياء بسيطة، أكثرها للزينة، كالخرز والدبابيس.

ثم سرعان ما استخدمه في الزراعة، وفي دولاب صنع الخزف، ثم

---

(١) نينوى: (NiNeveh) ـ وتقع اليوم تحت تلي قوينجق والنبي يونس، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر» (الخوصر)، على مبعدة ٤٠ كيلاً من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى ـ قبالة الموصل ـ وقد اتخذ «سنحريب» الآشوري (٧٠٥ ـ ٦٨١ق. م) «نينوى» عاصمة له، غير أنها لم تعمر طويلاً، حيث سقطت في أيدي الميديين في عام ٦١٢ق. م، وقد كشف عنها في عام ١٨٤٧م (انظر: محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٢) يذهب البعض إلى أن السومريين في جنوب العراق قد اكتشفوا معدن النحاس في زمن أقدم وبصورة مستقلة، حيث تلقوا ما يلزمهم من عمان.

P. Hitti, History The Arabs, P. 36.

Sumerian Copper, Report British Association for advancement of Science, 1928, London, 1929, P. 437-441.

(٣) أحمد أمين سليم: إيران ص ١١٣ (بيروت ١٩٨٨)، وانظر:

R. Ghirshman, Iran, From The Earliest Times to the Islamic Conquest, Transform The French by M. Mum-Rankin, London, 1978, P. 29.

في فن العمارة، حيث أصبحت البيوت أكبر وأحسن، وأقدم نماذج للبناء تلك الأبنية المستطيلة، ثم المستديرة، خاصة إذا كانت أماكن للعبادة أو مزارات[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى «الحضارة الغسولية»[٢]، نسبة إلى «تليلات الغسول» ـ وهي موقع في فلسطين في سهول الأردن وعلى مبعدة ١٠ كيلاً شمال شرق البحر الميت ـ يعود إلى هذا العصر ـ العصر الحجري النحاسي ـ حيث كشفت التنقيبات عن استيطان يعود إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، ويتميز بوجود بيوت من الطوب، فوق أساس حجري، وتحمل جدرانها المجصصة رسوم متعددة الألوان لمواضيع بشرية أو حيوانية، أو هندسية، ذات مواضيع دينية[٣].

هذا وتكاد تنفرد الحضارة الغسولية باستخدام بعض الأواني الفخارية، التي تتخذ شكل منازل، لها أسقف دائرية، وذلك لحفظ عظام الموتى، هذا فضلاً عن المقابر المغطاة بالكتل الحجرية، وقد عثر على معبد كبير ينتمي إلى الحضارة الغسولية، ويتكون من ساحة تحيط بها المباني الرئيسية الخاصة به، ويتشابه مع معبد مجدو[٤].

هذا وقد عثر في أرض البيت على جرار خزفية مدفونة في الأرض، تحتوي على هياكل عظمية لأطفال صغار، ويظن البعض أن بعض الموتى

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٧١.

(٢) انظر عن الحضارة الغسولية:

R. Koeppel, Teleilat Ghassul, II, (1932-1936), Rome, 1940.
A. Mallon, R. Koeppel and R, Neuville, Teleitet Ghassul, I, Rome, 1934.
J. Perrot, A Propos du Ghassouliem, in syria, 29, 1952, P. 403 F.

(٣) هنري عبودي: المرجع السابق ص ٢٨٢.

(٤) رشيد الناضوري: جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا ص ١٧٥ ـ ١٧٦، وكذا

J. Mellar, The Chalcolithie and Early Bronze Age in The Near East and Anatolia, Beirut, 1960, P. 35.

إنما كانوا يحرقون، ومن المعروف أن حرق جثث الموتى عادة غير معروفة عند الشعوب السامية[١].

هذا وقد وجد كذلك في «جبيل» جرار خزفية كانوا يضعون فيها الموتى، تحت أرض غرف البيوت - التي ترجع إلى العصر النحاسي أو الحجري الحديث - وكانوا يضعون جثة الميت، وكأنه جالس على مؤخرته، وركبتاه مطويتان ومرتفعتان[٢].

هذا وقد عثر على الجرار التي تحتوي على الموتى - دون أن يحرقوا - ثم تدفن تحت منازل القوم في «أوجاريت» (رأس الشمرا)[٣]، وفي «قرقميش» (جرابلس) - عند انحناءة الفرات، في نقطة العبور من سورية إلى بلاد النهرين - من عصر متأخر[٤]، وفي «جزر»[٥] - وهي تل الجزر الحالية، على مبعدة ٢٩ كيلاً شمال غرب القدس، ٩ كيلاً شرقي عقرون، ٢٧ كيلاً جنوب شرق حيفا[٦] - هذا مع ملاحظة أن جميع هذه المواقع، إنما ترجع إلى العصر النحاسي، وتشبه حضارتها الحضارة الغسولية[٧].

ويذهب البعض إلى أن الأبنية التي عثر عليها في «جبيل» إنما يعود تاريخها إلى حوالى ٣٢٠٠ق. م، وأنها أقدم نماذج لبناء بالحجر في الشرق كله - إن لم يكن في العالم كله[٨] - فإن المقبرة التي عثر عليها هناك، إنما

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٧٢.

(٢) Claude F.A. Shaeffer, Les Fouilles de Ras-Chamra, in syrie XV, 1934, P. 111-112, Pl.XI, No. 2.

(٣) Ibid,

(٤) C.L. Woolley, Hittite Burial Customs, in AAA, VI, 1914, P. 88

(٥) R.A.S. Macalister, The Excavations of Gezer, 3 vols, London, 1912.

(٦) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦١٤، وكذا M.F. Unger, op-cit, P. 401.

(٧) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٧٣.

(٨) قارن: معبد حور في «نخن» (البصيلية - مركز ادفو - محافظة أسوان) حيث شيدت واجهته بالجرانيت، ولأول مرة في العمارة المصرية (محمد بيومي مهران: مصر ٢/ ٦١).

ترجع إلى حوالى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد[1].

هذا وقد أجريت حفائر أخرى في مواقع أخرى، ترجع إلى العصر الحجري النحاسي، الذي يشبه الحضارة الغسولية ـ كما في أريحا، ومجدو[2]، والعفولة، وبيت شان ولاخيش[3] وأوجاريت وجبيل.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الحضارة الغسولية، إنما يقابلها في سورية الشمالية وبلاد الرافدين «حضارة تل حلف»[4]، وإن أتت بعدها بقليل[5].

هذا وقد اعتمد الإنسان في هذه المرحلة كثيراً على الحيوانات التي دجّنها في العصر الحجري الحديث ـ كالبقر والغنم والماعز ـ كما اعتمد في الزراعة على الري، الأمر الذي ساعده على أن يزرع أنواعاً مختلفة من الخضروات ـ كالخس والبصل والثوم ـ والحمص والفول، فضلاً عن الحشائش التي كان يستعملها كتوابل في طعامه.

هذا ويظهر أثر وفرة الطعام، واختلاف أنواعه، في معدل طول قامة إنسان العصر الحجري النحاسي، هذا وقد اعتمد القوم في الزراعة على الري، ذلك لأن معظم الناس في العصر الحجري النحاسي إنما كانوا

---

(١) M. Dunand, op-cit, P. 295-296

(٢) R.M. Engberg and G.M. Shipton, Notes on The chalcolithic and Early Bronze Age Pottery, Chicago, 1948.

وأما «مجدو» فهي «تل المتسلم» الحالية، غربي بحيرة طبرية، وعلى مبعدة ٣٢ كيلاً جنوب شرقي حيفا.

(٣) لاخيش: كان يظن أنها «تل الحصى» على مبعدة ٢٥ كيلاً شمال شرق غزة، ولكن ثبت الآن أنها «تل الدوير» على مبعدة ٨ كيلاً جنوب غرب بيت جبرين.

وأما «بيت شان» وهي «بيسان الحالية»، على مبعدة ٨ كيلاً غربي نهر الأردن.

(٤) انظر عن «حضارة تل حلف» (محمد بيومي مهران: العراق القديم ـ الإسكندرية ١٩٩٠ ص ٢٠ ـ ٢٣).

(٥) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٢٧.

يسكنون أودية الأنهار والسهول، التي تكثر فيها التربة الغرينية الرسوبية[1].

بقيت الإشارة إلى أن الفن ـ وخاصة التشكيلي ـ إنما تقدم كثيراً، كما كثرت الأختام والحلى والأواني المصنوعة من النحاس.

وفي أخريات الألف الرابعة قبل الميلاد ظهر الطلاء الزجاجي ـ كما ظهر في «تل الجديدة» تماثيل صغيرة مصنوعة من النحاس، وبينها إله، وآلهة للخصب، يظن أنها أول لون من التمثيل البشري صنع من النحاس[2].

٥ ـ السكـان:

كان العنصر السائد للسكان في العصر الحجري النحاسي ـ فيما يبدو ـ ليس سامياً، ذلك لأن الساميين إنما سيأتون فيما بعد، وسيحتلون شمال سورية وجنوبيها، وأن ظهورهم إنما كان ـ فيما يرى البعض ـ في حوالى نهاية العصر الحجري النحاسي.

هذا ويمكن القول أن الجنس الذي سكن سورية وفلسطين ولبنان في العصر الحجري الحديث إنما هو جنس حوض البحر المتوسط، حيث كشفت آثار هذا الجنس في حفريات الشقبة في وادي النطوف، وفي مغارة الوادي (قبل ٥٠٠٠ ق. م)، وفي تل الجديدة (قبل ٤٠٠٠ ق. م)، وفي جبيل (٣٥٠٠ ـ ٣٢٥٠ ق. م)، مما يدل على أنه أقدم شعب سكن لبنان، وفي نفس الوقت هو نفس الجنس الذي تنتمي إليه جميع الشعوب البيضاء القديمة التي كانت تعيش في شمال أفريقيا (الشعب المصري القديم) وجنوب أوربا (أسبانيا والبرتغال) وفرنسا وإيطاليا وبلاد اليونان والجزر القريبة منها، والتي تغلبت عليها ـ فيما بعد ـ الشعوب «الهندو ـ أوربية».

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٧٣.

(٢) عبد الحميد زايد الشرق الخالد ص ٢٣٤.

هذا ويختلف هذا الجنس ـ الذي نحن بصدده ـ عن إنسان مغارة الكرمل، وإنسان أنطلياس، وإنما ينتمي إلى نفس الجنس الذي نعرفه الآن في حوض البحر المتوسط، وينتمي إلى العرق الأبيض القوقازي، وكان قصير القامة أو معتدلها، نحيفاً قوياً، وذا ساقين طويلتين، إذ قيستا بجذع جسمه ـ وكان شعره طويلاً يميل إلى السواد، وإلى هذا الجنس تنتمي «الشعوب السامية»، غير أنها لم تكن قد ظهرت بعد.

هذا وقد أثبتت الآثار التي عثر عليها في تل جازر القديمة ـ تل الجزر، ويعرف باسم خربة أبو شوشة ـ ومواقع أخرى في فلسطين، فضلاً عن تلك التي عثر عليها في «قرقميش» ـ وهي جرابلس الحالية على الفرات ـ ومواقع أخرى في شمال فلسطين، أثبتت جميعها أن شكل الإنسان في هذه البقعة إنما يتفق مع الأوصاف التي ذكرت آنفاً[1].

ولعل من الجدير بالإشارة أن بعضاً من جماعاً ت بشرية، تنتمي إلى الجنس الأرمني قد هبطت من مواطنها في الأرضين المرتفعة في أواسط آسيا، أثناء العصر الحجري النحاسي، وفرضت نفسها على سكان حوض البحر المتوسط، واختلطت بهم على مر الزمان.

هذا ولم تكن هذه الهجرة هي الوحيدة من أواسط آسيا إلى حوض البحر المتوسط، وإنما هناك هجرات أخرى جاءت في العصور التالية التاريخية، وتشير بعض أسماء المدن والقرى في هذه المنطقة إلى أنها أسماء غير سامية الأصل، مثل: دمشق، وأرواد، التي لم يرد ذكرها في النقوش، إلا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وربما كانت هذه التسميات سابقة لعهود الساميين في المنطقة.

وتظهر مميزات الجنس الأرمني بارزة في جبال لبنان، فإن هجرات

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٧٣ ـ ٧٤، وكذا

R.H. Macalister, The Excavation of Geser, Vol, I, London, 1912, P. 58-59.

متتالية ـ كالهجرة الحيثية مثلاً ـ قد استقرت في هذه المنطقة، وقد أثبتت دراسة عدد كبير من رؤوس الموارنة والدروز، أن شكل الجمجمة ـ بوجه عام ـ قصير ومستدير، وأن معدل النسبة بين طول الجمجمة وعرضها، يتراوح فيما ين ٨٠، ٨٧، وأن مؤخرة الجمجمة مفلطح بصورة بارزة[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هجرة الساميين في الفترة الأخيرة من العصر الحجري النحاسي إلى «الهلال الخصيب»[٢] إنما كانت بداية عصر حضاري في المنطقة، فقد كانت في وقت وضعت فيه حروف الهجاء، وبدأت الكتابة، ثم التأريخ المدون، وهو التأريخ الثابت.

هذا وقد انتقل الإرث الحضاري من الشعوب التي عاشت في المنطقة قبل الساميين إلى أوربا ـ كما انتقلت إلى الساميين ـ ومن ثم فما يسمى الآن «حضارة أوربا القديمة» لم يكن سوى انعكاس للحضارة الشرقية.

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٧٥،

وكذا W.M. Shanklin, in ANESM, 9, 1949, P. 3.

وكذا C.S. Coon, Caravan, The Story of The Middle East, New York, 1951, P. 158-163.

(٢) الهلال الخصيب: كان المؤرخ الأمريكي الكبير «جيمس هنري برستد» (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) أول من أطلق عام ١٩١٦م على منطقة غربي آسيا، والمحصورة بين الجبال في الشمال، والصحراء في الجنوب، اسم «الهلال الخصيب»، وعلل ذلك بأنها تكون شكل نصف دائرة، على وجه التقريب، يرتكز طرفه الغربي في جنوب شرق البحر المتوسط، ووسطه فوق شبه جزيرة العرب، وطرفه الآخر عند الخليج الفارسي (العربي).

وخلف ظهر هذا تقوم الجبال المرتفعة، وبذا تقع فلسطين عند نهاية الجزء الغربي، وبلاد بابل (العراق) في الجزء الشرقي، بينما تكون بلاد آشور (العراق) جزءاً كبيراً من وسطه، هذا وقد تداول الباحثون هذه التسمية، مثنين عليها، فذكر «جون سارتر» أنه اسم يليق كل اللياقة (برستد: انتصار الحضارة ص ١٥١، جون سارتر: تاريخ العلم ص ١٤٣،

وكذا J.H. Breasted, Ancient Times, Boston, 1916.

ويقول عالم الآثار البريطاني (V. Gordon Child): «إن تاريخ أوربا، السابق للتاريخ المدون، ليس سوى تقليد، لما قام به الشرقيون من أعمال حضارية[1].

وفي كتاب آخر ـ يقول نفس المؤلف ـ «لا أتردد في القول، أن الغرب مدين للشرق بفضل تقدماته الأولية، من أدوات وصنائع وفنون، حررت الإنسان، ووضعت بين يديه سلاحاً يعتق به نفسه من كابوس محيطه الطبيعي، وهو مدين للشرق أيضاً بفضل الروابط الروحية التي وحدت الإنسان في سعيه نحو الحضارة والتقدم[2].

ويقول عالم أمريكي: ليس في الأرض بقعة قدمت للبشرية من المنافع والخدمات ما قدمته منطقة جنوبي غربي آسيا، فإن المعارف الزراعية الأولية، وتدجين الحيوانات، واختراع الدولاب والكتابة ومبادىء علم الفلك والبحث العلمي، وجمع الشراءع وتدوينها وفق العمارة والري وغيرها، إنما هي مما قدمته لخير الببشرية، وتوحيدها ظهر أول ما ظهر في هذه البقعة من الأرض[3].

---

(١) V. Gordon Childe, New Light, on The Mast Ancien East, London, 1952, P. 2.

(٢) V. Gordon Childe, The Dawn of European Civilization, London, 1950, P. XIII.
وكذا D.A.E. Garrod, in JWH, I, 1953, P. 13 F.

(٣) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٧٦.

البَابُ الثالث

دوَيلاتُ المدن الفينيقيّة

الفصل الأول

الفينيقيون والأصل السامي

١ ـ الكنعانيون الفينيقيون:

قدم الكنعانيون ـ الفينيقيون إلى سورية ـ أو بلاد الشام ـ مع الأموريين، أو في أعقابهم مباشرة ـ فهم الجماعة السامية الثانية التي قامت بدور رئيسي في تاريخ بلاد الشام، بعد الأموريين، هذا وتنتمي المجموعتان ـ الكنعانية والأمورية ـ إلى أصل واحد، وتتحدثان بلغتين تتشابهان في الكثير، حتى أدى ذلك التشابه إلى أن يطلق على «لغة الأموريين»، اسم «الكنعانية الشرقية»، تمييزاً لها عن لغة الكنعانيين التي عرفت باسم «الكنعانية الغربية ـ أو الفينيقية»، وذلك على أساس أن هاتين اللغتين تنتميان إلى أصل واحد.

وتطلق وثائق العهد القديم اليهودية على السكان السابقين للعبريين في سكنى فلسطين اسم «الأموريين» (العموريين)، بينما يسميهم النص الألوهيمي[1] «الكنعانيين»، ومن الواضح أن هناك صلة قوية بين هذين

---

(١) المصدر الألوهيمي: ويرز له بالحرف (E) وهو الحرف الأول من كلمة (Elohist)، وربما ألف حوالى عام ٧٧٠ق. م في إسرائيل، لأنه يستعمل اسم العلم «الوهيم» علماً على «الله» وقد أدمج مع المصدر اليهوي ـ والذي يستعمل كلمة «يهوه» علماً على الله ـ (والذي يرمز له بالحرف (J) وهو الحرف الأول من كلمة (Jahwist) وربما ألف حوالى عام ٨٥٠ ق. م، في يهوذا) وقد أدمج المصدران في مجموعة واحدة (JE) حوالى عام ٦٥٠ ق. م، ويقول «الوسيان جوتيية» إن هذين المصدرين القديمين كانا قد امتزجا قبل أن تنبثق بقية المصادر الأربعة (وهما المصدر الكهوتي والمصدر التثنوي).

الشعبين، فلغتاهما لا تختلفان إلا في اختلاف لهجة الواحد منهما عن الأخرى، بل ربما يبدو أن الأموريين (السوريين) اسم أطلقه العهد القديم على سكان المنطقة الجبلية في فلسطين (هضبة يهوذا)، بينما أطلق اسم الكنعانيين على سكان السهول، بالرغم من أن كليهما شعب واحد، ويؤيد هذا الاحتمال أن الأصل العبري لكلمة كنعان (ك. ن. ع)، إنما يعني انخفض أو منخفض، فالكنعانيون إذن اسم يعني سكان المنخفض[1]. وقد ظل اسم كنعان وأرض كنعان يطلق على ساحل فلسطين وسورية حتى بعد هجرة العبريين الذين قنعوا باحتلال هضبة يهوذا بفلسطين، أما أرض العموريين فهي الجانب السوري المتاخم للصحراء حتى أعالي الفرات[2].

٢ ـ تاريخ دخولهم سورية:

هذا وقد اختلف المؤرخون في تاريخ دخول الكنعانيين الفينيقيين إلى المنطقة، وفي المواطن التي قدموا منها، وأما عن تاريخ الدخول، فإن «هيرودوت» (حوالى ٤٨٤ ـ ٤٣٠ق. م) إنما يروي ـ على لسان علماء صور ـ أنهم قدموا إلى فلسطين في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، بل لقد أثبتت الحفائر أن هذه الهجرة الكنعانية أقدم من هذا التاريخ بكثير، ذلك لأن مدن أريحا وبيسان ومجدو، أسماء سامية، وأنها كانت موجودة قبل عام ٣٠٠٠ق. م، هذا فضلاً عن أن هناك مدناً أخرى قد كشف عنها، وهي مدن كنعانية ترجع إلى نفس العهد، وربما قبله بنصف قرن وإن كان هناك من يرجعها إلى عام ٢٥٠٠ق. م.

٣ ـ موطن الكنعانيين الفينيقيين الأصلي:

وأما عن الموطن الذي قدموا منه، فإن «هيرودوت» يروي ـ نقلاً عن الفينيقيين ـ أنهم مهاجرون من أرتيريا، سواء قصد هذه العبارة الجنوب العربي وساحل الحبشة، أم منطقة الخليج في الشمال الشرقي للهضبة

---

(١) G.A. Barton, Semitic and Hamitic Origins, London, 1934, P. 80.

(٢) محمد السيد غلاب: الهجرات البشرية الكبرى ـ مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٥.

العربية[١]، وأنهم قد وصلوا أولاً إلى بلاد العرب الصخرية[٢]، شمال الحجاز، ومنها دخلوا إقليم «النقب» ليأخذوا طريقهم بمحاذاة الساحل إلى لبنان وسورية، وهناك حقيقة تاريخية قيمة نقف عليها من ملاحم «رأس الشمرا»، إذ يفهم منها أن الكنعانيين الفينيقيين عاشوا ردحاً من الدهر في صحراء النقب جنوبي فلسطين، وأن الفضل يرجع إليهم في تخطيط أهم المدن في تلك المنطقة مثل «بئر سبع» وأشدود[٣].

ويشير الجغرافي الروماني «سترابو» (٦٦ ـ ٢٤ق. م) في الكتاب السادس عشر من مؤلفه Geogrphica[٤] ـ إلى أن مقابر البحرين في الخليج الإسلامي العربي، إنما تتشابه ومقابر الفينيقيين، وأن سكان جزر البحرين يذكرون أن أسماء جزائرهم إنما هي أسماء فينيقية، وأن في مدنهم هياكل تشبه الهياكل الفينيقية[٥]، هذا فضلاً عن أن «جيمس تيودور بنت» قد أجرى في عام ١٨٨٩م تنقيباً في مقابر البحرين، وبعث بشيء منها إلى المتحف البريطاني، فظهر أنها من مقابر الفينيقيين قبل هجرتهم إلى سواحل سورية[٦]، هذا إلى جانب أن «جيمس تيودور بنت» (١٨٥٣ ـ ١٨٩٧) إنما كان متأثراً برأي هيرودوت القائل بأن الفينيقيين إنما كانوا يدعون في عهده بأن أسلافهم من البحرين[٧].

هذا وقد عثر الرحالة «هاري سان جون بريدجر فلبي» (١٨٨٥

---

(١) ثروت الأسيوطي: المرجع السابق ص ١٢٥.

(٢) انظر عن بلاد العرب الصخرية: محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم ١/ ٢٣٦ (الإسكندرية ١٩٩٤).

وكذا Diodorus Siculns, II, 48.
W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, P. 91.

(٣) حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٤) The Geography of Strabo, Translated by Hamiltons, London 1912. The Geography of Strabo, Translated by H. L. Jones, London, 1949.

(٥) Strabo, 16-2

(٦) A Grohmann, Arabien, Manchen, 1963, P. 251

(٧) G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 29

ـ ١٩٦٠) على مثل هذه المقابر في الخرج والإفلاج من أعمال نجد، وهو يرى أن الفينيقيين ربما جاءوا من هاتين المنطقتين، ثم هاجروا منهما إلى منطقة الخليج العربي (الإسلامي)، كما أن هناك أسماء في شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التي أنشأها الفينيقيون على الساحل الشامي، مثل «صور» على ساحل عمان، و «جبيل» على ساحل الإحساء، و «أرواد» وهو الاسم القديم لجزيرة «المحرق»، هذا فضلاً عن أن هناك من رأى أن الفينيقيين قد انطلقوا من البحرين إلى البصرة، سالكين طريق الهلال الخصيب إلى الساحل السوري، حيث بنوا مدنهم هناك[١].

وهكذا يرى «أمين الريحاني» أن المؤرخين والأثريين يجمعون على أن الفينيقيين ساميون، كالعرب تماماً، بل إنهم عرب الأصل، نزحوا من الشواطىء العربية الشرقية ومن البحرين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط في قديم الزمان[٢]، إلا أن هذه النظرية إنما تحيط بها هواتف الريبة، ذلك لأن شواطىء الخليج العربي البابلية لا تصلح أمواهها للتربية الملاحية بالنسبة إلى ندرة الأخشاب هناك، وهي الناحية التي برز فيها الفينيقيون وبزوا غيرهم.

وأياً ما كان الأمر، فإن التعبير التوراتي «أرض كنعان» إنما يغطي كل فلسطين غرب الأردن[٣]، وأن الكنعانيين قوم ساميون وليسوا حاميين، كما أراد سفر التكوين أن يجعلهم[٤]، وأنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية، سواء من شرقها أو شمالها أو حتى من جنوبها، وسكنوا فلسطين، وأقاموا بها حضارة راقية، كذلك فإن جزءاً من الكنعانيين إنما قد انتقلوا إلى

---

(١) جواد علي ١/٥٢٩، عز الدين إسماعيل: تاريخ فلسطين القديم ص ٢٧ وكذا
H. St. J. B. Philby, Shaba's Daughtars, London, 1939, P. 373.

(٢) أمين الريحاني: قلب لبنان، بيروت ١٩٥٨ ص ٤٢٣.

(٣) عدد ٣٤: ٢ ـ ٦٢
وكذا M.F. Unger, Op. cit., P. 171

(٤) تكوين ١٠: ٦.

الساحل السوري للبحر المتوسط، حيث عرفوا هناك بالفينيقيين، وهم بهذا إنما يمثلون ـ على هذه الصورة ـ امتداداً كنعانياً نحو الساحل.

وهكذا حتى إذا ما أتى الإسرائيليون إلى فلسطين، كان الكنعانيون مستقرين فيها منذ أجيال وأجيال، وفي العهد القديم فإن القوم الذين سكنوا البلاد ـ فيما قبل الإسرائيليين ـ كان يطلق عليهم «الكنعانيون» دون النظر إلى الاختلافات الجنسية بينهم، وقد تركز الكنعانيون في عدد من المدن المحصنة، ولكنها لم تكن موزعة على طول البلاد، كما هو المفترض دائماً، وإنما كانت في معظم الأحايين في السهول التي هيأتها الطبيعة، بينما كانت هناك احياناً مدن في اكثر الجهات القاحلة والجبلية من البلاد وهذه المدن كانت في الواقع قلاعاً محاطة بأسوار، ذات منازل متلاصقة بجوار بعضها، ولها مناطق ملحقة بها تزودها بالأرض الزراعية الضرورية[1].

وأياً ما كان الأمر، فقد بقي الكنعانيون في بلادهم حتى القرن السابع قبل الميلاد[2]، حيث يرد ذكرهم في سفر صفنيا[3]، رغم المحاولات الإسرائيلية العنيفة أحياناً، والهمجية أحياناً أخرى، بل وعمليات الإبادة في أغلب الأحايين.

٤ ـ أصل كلمة كنعان وفينيقيا:

وقد اختلف المؤرخون في أصل كلمة «كنعان»، فهناك من رأى أن الكلمة سامية، وأنهم سموا بالكنعانيين، نسبة إلى جدهم الأول «كنعان» على عادة العرب في تسمية قبائلهم، وأن بني كنعان إنما كانوا يقيمون في أرضهم السهلة على ساحل الخليج العربي (الإسلامي)، وقد نست إليهم

---

(١) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 114

(٢) كتب سفر صفنيا في عهد ملك يهوذا «يوشيا» (٦٤٠ ـ ٦٠٩ق. م) على قول ثقات الشراح، وإن رأى البعض أنه كتب في الجزء الأخير من عهد «يهوياقيم» (٦٠٩ ـ ٥٩٨ق. م).

(٣) صفنيا ١٠٢ ـ ٧.

وسميت بأرض كنعان، وعند نزولهم حملوا معهم اسمهم واسم بلادهم الذي أعطوه لوطنهم الجديد[1]، ومنهم من رأى أن كلمة كنعان مشتقة من أصل سامي (خنع ـ قنع ـ كنع) إشارة إلى الصفة، ومنها مجازاً، الأرض الخفيضة، على عكس مرتفعات لبنان، فسمي هؤلاء الساميون بالكنعانيين، أي سكان المنخفض، لانفرادهم بسكنى هذه السهول الساحلية التي تحف بشرق البحر المتوسط.

هذا وقد ذهب فريق ثالث إلى أن أصل كلمة «كنعان» إنما هو مشتق من كلمة حورية، هي «كناجي»، وتعني الصباغة القرمزية التي اشتهروا بها، عندما اتصل الحوريون بهذه البلاد في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد، ومنها اشتقت الكلمة الآكدية، «كناخي» أو «كيناخي» ـ كما في رسائل العمارنة ـ وبالفينيقية «كنع» وبالعبرية كنعان»، وكلها مسميات تدل على الحمرة الأرجوانية، ثم جاء الإغريق واتصلوا بهذه الشعوب السامية واتجروا معها، واحتكوا بهذه المجتمعات المدنية المتناثرة على الساحل، فأطلقوا عليها اسم «فينكس»[2]، وهي كلمة تعني في بعض الآراء نوعاً من النخيل ينمو على شواطىء هذه النواحي، ويقابلها عند الرومان Palmyra التي أطلقت على مدينة «تمر» أو «تدمر»[3] في شرق البقاع.

وكلمة «تمر» هي الكلمة السامية التي تقابل كلمة palm بمعنى النخيل في بعض اللغات الأوربية حتى اليوم، وأن أصحاب هذا الرأي يرجحون أن الفينيقيين إنما نشأوا عند الخليج العربـي، في بلاد النخيل، وتحولوا منه

---

(١) عز الدين إسماعيل: المرجع السابق ص ٣١.
(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٤٧.
(٣) تقع تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلو متراً من حمص، ١٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من دمشق، في منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات، وكانت عاصمة التدمر بين (انظر عن تدمر بالتفصيل: محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٣ (الإسكندرية ١٩٩٤).

إلى فلسطين يوم أن كانت وطناً مشهوراً بكثرة ما فيه من النخيل[١]، ولكن هناك من يرى أن «فينكس» كلمة تعني اللون الأحمر كذلك.

وعلى أي حال، فلقد اشتقت من هذه الكلمة، كلمة «فينيقيا» وبالتالي أصبحت ترادف كلمة «كنعان» وأن الكلمتين أصبحتا تعنيان، على الأغلب، شيئاً واحداً، وهكذا اتفقت التسمية السامية القديمة، والتسمية اليونانية الحديثة في أن تربط بين هذه الشعوب وبين اللون الأحمر، والواقع أن هذه المدن الساحلية على شواطىء شرق البحر المتوسط تخصصت منذ عرفت في صناعة نوع من الصبغة الأرجوانية كانت تستخرج من حيوانات بحرية رخوة تكثر قرب شواطئها، ومن هنا جاءت نسبتها إلى اللون الأحمر[٢]، وهكذا كانت تسميتهم السامية القديمة بالكنعانيين، وبالإغريقية الفينيقيين، وكلاهما علم على شعب سامي واحد، ينزل بسهول فلسطين الساحلية.

هذا وقد تغير اسم كنعان بتغير العصور، فهو ـ بادىء ذي بدء ـ اسم أطلق على الساحل السوري وغرب فلسطين، ثم سرعان ما أصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين، وقسم كبير من سورية، وكان هذا أول اسم لفلسطين، وجميع الأسماء الأخرى أقل أهمية، وفي وثائق العهد القديم الأول أطلق اسم كنعان بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد في غرب الأردن، أي مدلول جنسي[٣] هذا وقد كان تعبير «لغة كنعان»[٤] يطلق بصفة عامة على لغة فلسطين السامية[٥].

---

(١) عباس العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٢٢.

(٢) نجيب ميخائيل المرجع السابق ص ١٨، فيليب حتي: المرجع السابق ص ٨٥ ـ ٨٧،

وكذا: W.R. Ablright, Op. Cit., pP. 87.

وكذا M.F. Unger, Op. Cit., P. 170-171.

(٣) عدد ٣٤: ٣ ـ ١٢.

(٤) اشعياء ١٩ : ١٨.

(٥) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٨٧،

وكذا: M.F. Unger, Op. Cit., P. 171.

الفصل الثاني

دويلات المدن الفينيقية

تقديم:

تعد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم، وهي تشغل من الناحية الجغرافية شريطاً ساحلياً ضيقاً كان يمتد من جبل الأقرع (كاسيوس) شمالاً، إلى جبل الكرمل جنوباً، ومن أرواد (وتسمى خرائبها اليوم طرطوس شمال عمريت) إلى عكا (عكو بمعنى الرمال الحارة) ولا يزيد طوله على ٣٢٠ كيلاً، كما لا يزيد عرضه على ٥٦ كيلاً، وهو غني بالخلجان، وبه عدد من الثغور، وترتفع إلى جانبه من ناحية الشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من أشجار الأرز والصنوبر والسرو، وتفصل الخلجان الرؤوس البارزة في البحر عن بعضها البعض.

وتظهر بالقرب من الشاطىء بعض الجزر التي كان لها كذلك شأن في تاريخ هذه البقعة، ذلك لأنها كانت عامرة بالقرى والمدائن، شأنها في ذلك شأن الساحل نفسه، بل إن أهميتها تفوق الساحل في أحايين كثيرة[1].

وعلى أية حال، فلقد كان الفينيقيون محصورين في شريط من الأرض على شيء كثير من الضيق، ذلك لأن جبال لبنان لا تبعد عن البحر أكثر من ٥٠ كيلاً، بل يقترب الجبل من البحر في بعض المواضع فيصير على بعد ما

---

(١) نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الثالث ـ سورية ـ الإسكندرية ١٩٦٦ ص ٤٨.

بين ١٩، ٢٤ كيلاً، وفي بعض المواضع يلاصق الجبل البحر.

هذا فضلاً عن أن هذا الشريط الضيق من الأرض مقسم طولاً إلى عدة أقسام منفصلة بعضها عن بعض بامتدادات جبلية ناتئة من جبل لبنان، وواصلة إلى ساحل البحر، وهذا الامتداد الفاصل حاجز حقيقي تنشأ عنه أقاليم مختلفة، ثم أكثر هذه الامتدادات الناتئة عند الجبل تنتهي عند البحر بانحدار عمودي لا يدع مكاناً لطريق يوصل بين جانبيها، وهكذا كان الحال قديماً، أو كان ما وجد على أكثر تقدير، طريق ضيق منحوت في جنب النتوء.

ولعل من خير الأمثلة على ذلك، رأس الكلب، وهو رأس يقع شمال بيروت (وهي بئرونا في رسائل العمارنة، بمعنى الآبار)، ويوجد قرب قمته آثار طريق ضيق، وفي أسفله الطريق الذي سلكه الفاتحون المصريون والآشوريون والروم، وكل منهم قد ترك على الطريق نقوشاً تخلد ذكراه. وكان البحر أسهل طريق للمواصلات بين كل بلد وآخر، وهذا الانقسام إنما كان أحد الأسباب التي جعلت فينيقيا لا تصلح أن تكون دولة حقيقية، فصارت عبارة عن دويلات صغيرة، يسود بعضها البعض الآخر، طبقاً للزمان والظروف السياسية والاقتصادية.

هذا وتعتبر فينيقيا بمثابة ممر ضيق بين أفريقيا وآسيا، لأن صحراء سورية الكبرى الواقعة وراء جبال لبنان إقليم لا يمكن اجتيازه عملياً، وعكس ذلك من ناحية فلسطين في الجنوب، إذ تتصل فينيقيا بشبه جزيرة سيناء ثم إلى داخل مصر نفسها، أما في الشمال فالاتصال ممكن بأعالي وادي دجلة والفرات.

ومن هذا الوضع ندرك كيف كانت فينيقيا غير قادرة على أن تبقى منعزلة محايدة إزاء المنافسات التي تجاذبت العالم القديم، وكان عليها أن تصطلي بها، أو أن تنحاز إلى فريق منها، وكان ضمها ضرورة من الضرورات التي تحرص على تأمينها كل امبراطورية كبيرة، لعظم الموارد

التي تنتج من تجارتها، ولمنفعة الأسطول الذي يجده الفاتح بها.

وكان انحيازها إلى فريق من الفريقين المتحاربين ذا فائدة حربية أيضاً، فهي لمن ملكها باب مفتوح على أفريقية وعلى آسيا على السواء، وهي ثغر يحتمي من وراءه به، ويتخذه في نفس الوقت قاعدة لما يقدر من الغزو والتوسع(١).

وهكذا تأثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا بها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ذلك لأن الوطن الفينيقي الممتد على سواحل الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب، والصحراء من الشرق، أصبح بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة الآسيويون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادي النيل، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادي تتعقب الغزاة، وهم في طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر.

وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار، تحاصر مدنهم وتدك قلاعهم، وتحملهم أسرى إلى مصر يسخرهم فرعون في الأعمال التي يريد، وقد سجلت الآثار المصرية والوثائق المصرية هذه الصلة الوثيقة بين فينيقيا ومصر، وما كادت الشعوب السامية النازلة في وادي الدجلة والفرات تفيق وتتطلع إلى السيادة على الشرق الأدنى حتى اتجهت صوب فلسطين، وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه القنطرة الساحلية، وتفعل بها مثل ما فعله المصريون من قبل.

وهكذا أصبح الوطن الكنعاني الفينيقي في مهب التيارات العالمية، بين قوى عالمية كبرى، قامت في وادي النيل، وفي وادي الدجلة والفرات، وفي آسيا الصغرى، وترتب على هذا الوضع نتائج بعيدة الأثر، إذ لم

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ـ ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة د. طه حسين ـ القاهرة ـ ص ٢٨ ـ ٢٩، ٣٤.

يستطع الكنعانيون أن يقيموا دولة موحدة، تصد هذه التيارات وتضع حداً لهذا النفوذ الأجنبي[1].

وهكذا حددت خصائص المنطقة الجغرافية مصيرها التاريخي، فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات في هذا القطاع الضيق من الأرض إنما كان يعني أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحاً لسلسلة من الهجرات والغزوات، دون أية فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية، فقد كانت فينيقيا أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبرى والتي كانت تقع بينها، وكانت الشعوب المهاجرة تتدفق عليها مرة بعد أخرى، لأنها كانت منطقة جذابة في حد ذاتها لخصبها، ويمكن دخولها من كل جانب، وكانت مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط، فضلاً عن الصحراء التي جاء منها البدو الساميون[2].

وانطلاقاً من كل هذا، وتخريجاً عليه، لم يستطع الفينيقيون، بل لم يستطع السوريون جميعاً، أن يشكلوا وحدة سياسية واحدة، كمصر، وإنما وحدات صغيرة تعيش في مدن محصنة ذات أسوار عالية، وأبراج كبيرة، يلجأ إليها السكان وقت الخطر، ويحتمون بأسوارها، ويتخذونها وقت السلم أسواقاً لتجارتهم.

على أن قيام هذه المدن المحصنة، وإن كان أحسن وسيلة التجأ إليها الفينيقيون لصد غارات الدول المجاورة أو غارات البدو المجاورين، إلا أن تقسيم البلاد إلى مدن صغرى يحارب بعضها البعض الآخر، ولا يسود بينها أي نوع من الاستقرار، جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة، وخاصة الكبرى منها.

هذا ونظراً لأن الفينيقيين لا يميلون بطبيعتهم إلى النواحي السياسية،

(١) حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ـ القاهرة ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.
(٢) سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ـ ترجمة وزاد عليه السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٦٨ ص ١٢٢.

بقدر اهتمامهم بالشؤون الاقتصادية، فإنهم إنما كانوا يفضلون الأمان والاستقرار السياسي، حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح في المجالات التجارية بصفة عامة[1].

وقد أدت هذه الأوضاع مجتمعة إلى ظهور ما يسمى بدويلات المدن حيث كان لكل مدينة حكومتها الخاصة بها، وعلى رأسها حاكم بالوراثة، قد ينتقل الملك منه إلى أسرة أخرى، أو تنتزع الإمارة وتسلب، نتيجة ثورة من عناصر تصبح لها الغلبة، ولم يكن سلطان الأمير أو الحاكم أو الملك استبدادياً مطلقاً، ذلك لأن التجارة تتطلب مغامرة وألواناً من النشاط لا يتفق وهذا اللون من الحكم.

وكانت تقوم، إلى جانب الحاكم، هيئة من المشرعين، كما كانت تعقد أحياناً مؤتمرات من المدن الكبرى للتداول في الشؤون العامة المشتركة، وكانت طرابلس مقر الاجتماع العام للمدن الثلاث الرئيسية. وكان للدين نصيبه في الإدارة، فهو يحدد سلطة الحاكم، وللكهنة نفوذ يلي نفوذ الحاكم، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة، وإن كنا لا ندري على وجه التحقيق، أكان بيت المال يعتمد على المكوس أو على الاحتكار أو على الأمرين معاً[2].

وهكذا انتظم الفينيقيون في جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك، ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها، وكانت هذه المدن هي العواصم التي يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر.

على أن النزاع كثيراً ما كان يحدث بين هذه المدن، وكانت أكثرها

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ـ بيروت ١٩٥٨ ص ٨٨، محمد بيومي مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم ـ القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٣، حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٠ ـ ٥١.

تفوقاً تلك التي كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، هذا إلى أن بعضاً من تلك المدن إنما كان يشغل موقعين، الواحد: على الساحل، والآخر: يمثل جزراً صغيرة في مواجهته يلجأ إليها القوم عند اشتداد الخطر، وقد أدى هذا الوضع إلى أن يهيأ لكل مدينة مرفأين، أحدهما شمالي، والآخر جنوبي، فتلجأ السفن لهذا المرفأ أو ذاك بحسب الفصول واتجاه الريح، ومثال ذلك صيدا وصور، فكانت المسافة بينهما ملاحة يوم واحد[1].

وبدهي أن المدن المنيعة كانت أقدر من غيرها على البقاء والازدهار، كما أن هذه المدن الفينيقية المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة لم تترك الأمر هكذا، وإنما حاولت جاهدة إيجاد نوع من الترابط يؤلف بينها، ويجمع كلمتها، وخاصة في وقت الأخطار الخارجية، ومن ثم فقد عمدت إلى إنشاء تحالف قوي بين عدة مدن، بزعامة أوفرها قوة، تحالف كان دائماً يمليه الخطر المشترك، وأحياناً المصالح المشتركة.

وكانت مدينة «أوجاريت» في القرن السادس عشر قبل الميلاد، و «جبيل» في القرن الرابع عشر، و «وصيدا» بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر، و «صور» بعد هذا القرن الأخير، ثم «طرابلس» في القرن الخامس قبل الميلاد، تتزعم هذه الأحلاف[2].

ولعل من أشهر هذه المحالفات، ذلك الحلف المشهور الذي قضى عليه فرعون العظيم تحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق. م) في «مجدو» في عام ١٤٦٨ ق. م، وقد تجمع هذا الحلف، الذي كان يتزعمه أمير قادش[3]، عند مدينة «مجدو» (وهي تل المتسلم الحالية غربي بحيرة

---

(١) كونتنو: المرجع السابق ص ٢٩، محمد أبو المحاسن عصفور: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ـ الإسكندرية ١٩٦٩ ص ١٥٩.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٩٢.

(٣) قادش: وتقع مكان تل نبي مند، على الشاطىء الأيسر لنهر العاصي عند اتصاله بنهر الموقادية، وعلى مبعدة ٧ كيلاً جنوبي بحيرة حمص، وإن رأى البعض أنها =

طبرية، وعلى مبعدة ٣٢ كيلاً جنوب شرقي حيفا) حيث جمع هذا الأمير حوله «ثلاثمائة وثلاثين أميراً، كل منهم معه جيشه الخاص»، لكي يوقفوا تقدم فرعون عند «مجدو»، وبدهي أن عدد الأمراء (٣٣٠ أميراً) إنما يشير بوضوح إلى أن سورية وفلسطين وفينيقيا، إنما كانت مجزأة بصورة غريبة، فهؤلاء الأمراء لم يكونوا في الواقع إلا زعماء لدويلات صغيرة جداً، كما كانوا على درجة من الاستقلال، تحول دون تكوين جيش موحد، بحال من الأحوال[1].

هذا ويبدو واضحاً من رسائل العمارنة، من عصر الملك أمنحتب الثالث (١٤٠٥ ـ ١٣٧٦ق. م) وأمنحتب الرابع (اخناتون ١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ق. م) أن القوم لم يفقدوا العمل المشترك بينهم فحسب، وإنما حاول الملوك الفينيقيون جميعاً الحصول على الفوائد من سيدهم المصري، بعضهم على حساب بعض، وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم بصفة شخصية[2]، ولعل السبب في ذلك طغيان إحدى المدن، أو حتى إحدى الوحدات، على جاراتها التي تتزعمهن، الأمر الذي كان يؤدي أحياناً بخروجهن عليها، والانضمام إلى أعدائها، كما حدث حين ثارت صيدا وباليتروس وعكا ضد صور، وأعلنت خضوعها لآشور، بل ووجهت جميعاً أسطولاً يستهدف تدميرها فباء بالهزيمة.

= «قادش» التي تقع شمال فلسطين، على مبعدة ٧ كيلاً شمال بحيرة الحولة:

انظر J.H. Breasted, The Battle of Kadesh, P. 13.

وكذا A.H. Gardiner, Onom., I, P. 137-141.

(١) انظر عن معركة مجدو، والمراجع الخاصة بها (محمد بيومي مهران: مصر ـ الكتاب الثالث ـ الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠٣ ـ ٢١٥ انظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومي مهران: اخناتون: عصره ودعوته ـ الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٣ ـ ٢٤٥،

وكذا J.A. Kundtzon Die El-Amarn Tafeln, 2 Vols, Leipzig, 1908, 1915.
S.A.B. Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, Tornto, 1939.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٩٢.

وانطلاقاً من كل هذا نستطيع أن نقرر أن لوناً من الاتحاد قام بين الولايات الفينيقية أحياناً، تزعمته صور، وفينيقيا في أوج مجدها، وأما حين دانت بالسيادة لآشور وفارس انحلت عرى الرابطة التي ألفت بين الولايات[1].

وأما أهم المدن الفينيقية من الناحيتين السياسية والدينية فكانت مدن: جبيل: وكانت مركزاً مقدساً للعبادة، ثم «صيدا» وقد لقبت «بالمدينة الأم في كنعان»، ثم صور»، وكان لها إلى جانب ازدهارها التجاري دور عظيم في تأسيس العقائد في الدين الفينيقي، ثم «أوجاريت»، وكانت مع انضمامها في بعض الأوقات إلى «بيروت» تعيش بسبب بعدها عيشة أكثر استقلالاً من مدن فينيقيا الوسطى[2].

وكانت تتوسط هذه الثغور والمدن الكبيرة، قرى أقل شأناً، تنتشر بينها ولها شهرتها الخاصة في بعض نواحي الصناعة والفنون.

وقد تحكمت الطبيعة في تحديد مواقع هذه المدن، إذ كان العامل في اختيارها وقوعها على نهر، أو على مقربة من جبل يسهل معه الدفاع عنها، وكانت بعض هذه المدن تقام على البر، وعلى جزر متناثرة قريبة من الساحل، ويتعاون البر والجزيرة في حماية المدينة والدفاع عنها، ولنشر الآن إلى بعض هذه المدن:

١ ـ أوجاريت:

كان موقع أوجاريت آهلاً بالسكان قبل ابتداء التاريخ بزمن طويل، ودليل ذلك أن الأستاذ «شيفر» كشف على مبعدة ٧ كيلاً شمالي أوجاريت على الشاطىء الأيمن لنهر العرب عن آثار عمران من العصر الحجري القديم، مع أدوات شيلية، أو أدوات من العصر الشيلي الأول[3].

---

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٠.
(٢) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٣٣.
(٣) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٤٤.

ويشير تاريخ الأبحاث الأثرية إلى أنه في ابريل من عام ١٩٢٨م، وعلى مقربة من ميناء البيضاء (الميناء الأبيض) على مبعدة ١٦ كيلاً إلى الشمال من ميناء اللاذقية، كان أحد الفلاحين يحرث حقله فاصصدم حد المحراث بشيء صلب في باطن الأرض، فنظر الرجل فرأى جزءاً من قبر خرب، وأخطرت إدارة الآثار في بيروت، وعلم أن مخلفات أثرية مختلفة كشفت من قبل، وبدأت الحفائر في بداية عام ١٩٢٩م، واكتشف الباحثون أن تلاّ يبعد نحو نصف ميل عن الشاطىء ويقوم بين فرعي نهر الفد اللذين يلتقيان بعد ذلك ويصبان في البحر، أن هذا التل يغطي بقايا مدينة قديمة، واسمه العربي «رأس الشمرة» (ربما لكثرة ما ينمو عليه من نبات الشمر ـ الشمار).

ثم لم يلبث علماء الآثار آن اكتشفوا أن هذا التل إنما يغطي خرائب «أوجاريت»، وهي مدينة قديمة ذكرتها وثائق مصر وأرض الرفدين والحيثيين، وباستمرار الحفائر كشفت قبور وأوان فخارية وتماثيل صغيرة وحلى وعظام حيوانية، ثم ألواح عليها نقوش مسمارية، وكان التوفيق عظيماً إلى حد دعا إلى تنظيم بعثة للحفر عاماً بعد عام تحت إدارة الأثرى الفرنسي (شيفر)، وقد توقف العمل عام ١٩٣٩م لاندلاع الحرب العالمية الثانية، ولكنه استؤنف مرة أخرى عام ١٩٥٠م.

هذا وقد كشف في رأس الشمرة عن نصوص مكتوبة بلغات عدة: الآكدية والمصرية والحيثية والحورية ثم لغات أخرى كانت مجهولة حتى ذلك الوقت، ومن ثم نشأت مشكلة حل رموز هذه اللغة، وقد تم ذلك في خلال عام واحد، وعلى يد ثلاثة علماء عملوا مستقلين هم: «هانز اور» الألماني، و «ادوارد دروم» و «شارل فيرولو» الفرنسيين، وقد شغل ثالثهم بنشر النصوص وترجمتها وشرحها منذ عام ١٩٢٩م.

وقد كشفت في رأس الشمرة عدة مئات من الألواح والكسر، أحدثت ثورة في معلوماتنا عن الأدب الكنعاني، والمجموعة الأساسية فيها هي

مجموعة الملاحم وشعر الأساطير، وإن وصلت إلينا للأسف في حالة بعيدة عن الكمال، ولهذا كانت في ترجمتها عدة فجوات، هذا إلى أن ترتيب الألواح ليس أكيداً في كثير من الأحيان، وكذا ترتيب الأحداث في دورات الملاحم.

وفي عام ١٩٥٣م كشفت وثائق ملوك أوجاريت، وهي تشتمل على رسائلهم إلى ملوك الحيثيين وغيرهم من الدول، ولا بد أن هذه الوثائق كتبت كلها قبل تخريب المدينة حوالى عام ١٣٥٠ق. م (وإن كان الرأي السائد أن المدينة خربت حوالى عام ١٢٠٠ق. م، على يد شعوب البحر الذين جاءوا من سواحل الأناضول وجزر بحر ايجه، وأغاروا على الشرق الأدنى القديم)[١] وترجع هذه الوثائق إلى ما بين عامي ١٥٠٠، ١٤٠٠ق. م، على وجه التقريب[٢].

وعلى أية حال، ففي منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد حدث زلزال في المنطقة أعقبه طغيان البحر، فخربت أوجاريت، ولكنها مع ذلك نهضت من جديد، ثم ما لبثت أن وقعت سريعاً في قبضة الحيثيين في عهد أحد ملوكها ويدعى «نقمان»، وأصبح هذا تابعاً لملك الحيثيين «شوبيلوليوما» (١٣٧٥ ـ ١٣٣٥ق. م)، وعند قيام رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ق. م) ثاني ملوك الأسرة التاسعة عشر المصرية، بمحاولة استرداد الامبراطورية المصرية في غربي آسيا، وحدثت بينه وبين ملك الحيثيين «مواتيلا» وحلفائه من ملوك وأمراء سورية وفينيقيا معركة «قادش» انضمت أوجاريت لهؤلاء الأحلاف، راغبة أو كارهة، بحكم تبعيتها للحيثيين[٣].

---

(١) انظر عن «شعوب البحر وغزوهم لمصر وامبراطوريتها في غربي آسيا (محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ـ الإسكندرية ١٩٦٩ (رسالة دكتوراة).

(٢) سبتينوموسكاتي: المرجع السابق ص ١١٧ ـ ١١٨، ٢٧٢.

(٣) انظر عن معركة قادش (محمد بيومي مهران: مصر: الكتاب الثالث ـ الإسكندرية =

وانتهت معركة قادش (حوالى عام ١٢٨٥ق. م) بنصر شبه مؤزر للفرعون، وإن اضطر الفرعون حوالى عام ١٢٨٢ق. م إلى أن يخرج مرة أخرى إلى غربـي آسيا، للقضاء على الثورات التي قامت فيها بتحريض من الحيثيين، وأن يلتقي مرة ثانية بالحيثيين في «توينب»، حيث أوقع بهم هزيمة ثانية، فضلاً عن تلقين ملوكها درساً قاسياً أجبرهم على احترام مصر، وعدم التدخل في أمر ولاياتها الآسيوية(١).

وفي حوالى عام ١٢٦٩ق. م، أبرمت معاهدة تحالف بين مصر وحاتي(٢)، وظل سكان أوجاريت كما كانوا من قبل، وزادت عليهم عناصر جديدة (من أهل مكيني ببلاد اليونان ومن قبرص) لعبت دوراً كبيراً فيما بعد، وانتعشت أوجاريت للمرة الأخيرة حيث أنها خربت حوالى عام ١٧٧٤ق. م، أثناء غزو شعوب البحر لمصر وامبراطوريتها الآسيوية، بعد أن أسقطت دولة الحيثيين، ولكن رعمسيس الثالث (١١٨٢ ـ ١١٥١ق. م) ثاني ملوك الأسرة العشرين، كتب له نجاحاً بعيد المدى في هزيمة شعوب الحر في موقعتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، ومن ثم فقد نجح في

= ١٩٨٨ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٦، وكذا

A.H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, P. 5-10.
H. Goedick, JEA, 52, 1966, P. 72-80.
A. Burn, JEA, 7, 1921, P. 194-196.
A. Gotze, LDZ, 32, 1929, P. 832-840.
J. Kuentz, BIFAO, 55, 1928, P. 14 F.

(١) انظر (محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ـ الإسكندرية ١٩٦٩ ص ٩٠ ـ ٩٥،

وكذا K.A. Kitchen, JEA, 50, 1964, P. 68-70.
G. Gaballa, JEA, 55, 1969, P. 82-88.

(٢) انظر عن معاهدة التحالف بين مصر وحاتي (محمد بيومي مهران: مصر ـ الكتاب الثالث ص ٣٥٦ ـ ٣٦٠،

وكذا S. Langdon and A.H. Gardiner, JEA, 6, 1920, P. 179-205.
M.B. Rowton, JCS, 13, 1959, P. 1 F.

القضاء على الأخطار التي هددت مملكته الآسيوية، فضلاً عن مصر نفسها[1].

وأخيراً فيمكن القول بأن أوجاريت بحكم موقعها، إنما كانت أكثر تأثراً بقبرص والحيثيين، فضلاً عن الحوريين، أكثر من تأثرها بمصر[2].

٢ ـ أرواد (أرادوس):

قامت أرواد في شمال فينيقيا على إحدى الجزر، وتقابلها على الشاطىء أرواد الداخلية، وقد وصف «استرابو» هذه الجزيرة التي قامت عليها أرواد بأنها كانت (في العصر اليوناني الروماني) مغطاة بالمباني بارتفاعات شاهقة ذات طوابق متعددة.

وكانت تسمى أرواد في العصر الهلينستي «أنتارادس» (Antaradus) وقد أطلق عليها الصليبيون (Tortosa) وهي اليوم «طرطوس» شمالي عمريت، حيث لا تزال تشاهد بعض الآثار الفينيقية الهامة، وهي معبد وعدة قبور.

هذا وكان أهل أرواد يتجمعون في جزيرتهم الصخرية ـ كما يفعل الناس الآن في جزيرة منهاتن في نيويورك ـ في ناطحات سحاب مصغرة، وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه لأجل جزيرتهم، وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج، وتضاف إليها مياه ينبوع تحت البحر، يحصلون عليها بوضع قمع ضخم مقلوب على الينبوع، بحيث

---

(١) انظر عن غزوات شعوب البحر (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٥٧ ـ ٢٦٤، مصر ٣ ص ٣٧٣ ـ ٣٨٥،
وكذا H. Nelson, JNES, 2, 1943, P. 45. F.
W.F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramsses, III, Chicago, 1936, P. 35-55.

(٢) محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية ـ بيروت ١٩٨١ ص ٢٧.

يتصل القمع بأنبوب جلدي، وربما كان هذا أقدم ما سجله التاريخ من وجود نبع مياه عذب تحت البحر[١].

هذا وعلى الرغم من صغر مساحة أرواد، فقد سجل التاريخ أنها كانت تسيطر على كثير من المدن المجاورة، مثل «سيميرا» و «مارثوس»، على أننا لا نعرف الكثير عن تفاصيل تخطيطها، وربما كانت حاناتها، وكذا ضواحيها، تمتد إلى الأرض الرئيسية، وقد اشتهر أهل أرواد بأنهم ملاحون مهرة، وكانت لهم فرق كيرة في الأسطول الفينيقي، وقد رسم على ظهر عملتهم الأولى «سفينة» هي شعار المدينة[٢].

هذا وقد تعرضت أرواد، شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الفينيقية الرئيسية، لكثير من أطماع الشعوب المجاورة، وانتهى أمرها بأن دمرها أقوام البحر، كما تشير إلى ذلك مظاهر التخريب التي ترجع إلى القرن الثاني عشر، وإن عادت مرة أخرى إلى الحياة، حيث قاست الكثير من غزوات الآشوريين المتكررة.

بقيت الإشارة إلى أن اسم «أرواد» ـ فيما يبدو ـ ليس اسماً سامياً، ورما أطلق عليها في «عصور ما قبل السامية»، وقد اشتهرت «أرواد» بدرجة كبيرة، منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وعلى أيام السلوقيين[٣].

هذا ولم يستول المصريون على أرواد ـ وتقع على مبعدة ٤٨ كيلاً شمالي طرابلس ـ إلا على أيام «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق. م)، وفي حملته الخامسة (حوالى عام ١٤٥٨ق. م)، وفي نقوش الكرنك ما يشير إلى أن الفرعون قد هدم «أرواد»[٤].

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق،
وكذا Strabo, XVI, 2, 13.

(٢) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤٧.

(٣) هنري عبودي: معجم الحضارات السامية ص ٧٠ ـ ٧١.

(٤) انظر عن حملات تحوتمس الثالث على غربي آسيا (محمد بيومي مهران: مصر ٣/٢٠٣ ـ ٢٢٠).

وقد ورد اسم «أرواد» في الإلياذة، كما نقرأ في التوراة أن الأرواديين من نسل كنعان[1]، وفي سفر حزقيال: أن أرواد أرسلت ملاحين ومحاربين للدفاع عن «صور»[2]، كما تشير السجلات الآشورية أن أرواد، اشتركت ـ مع دمشق وإسرائيل ـ في موقعة «قرقر» عام ٨٥٣ قبل الميلاد، ضد الآشوريين[3].

وعندما استولى الفرس على فينيقيا قسموها إلى أربع مقاطعات (أرواد ـ صور ـ صيدا ـ جبيل) وعندما انتصر الإسكندر المقدوني على الفرس في موقعة «إيسوس» في عام ٣٣٣ق. م، وزحف بجيوشه نحو الجنوب، وأخذت مدن فينيقيا تفتح أبوابها للغازي الجديد، أرسل ملك أرواد ابنه ـ على رأس وفد ـ للترحيب بالإسكندر[4].

٣ ـ جبيل:

تدعى «جبيل» باللغة الفينيقية «بَعَلَت جبَال» ـ أي صاحبة الحدود ـ لأنه ـ فيما يبدو ـ أنها كانت النقطة التي ينتهي فيها النفوذ الكنعاني الشمالي، المتأثر بالحضارة البابلية والآشورية والحيثية، ويبدأ الشطر الجنوبي الفينيقي، الذي يتميز بتأثره بالحضارة المصرية الفرعونية.

وتقع «جبيل» على مبعدة ٤٠ كيلاً شمالي بيروت ـ العاصمة اللبنانية الحالية، ويرجع تخطيطها إلى عصر البرونز، وتقع المدينة على صقع جبل، ومنها طريق يتصل بالمينا، وأهل جبيل يعتبرون مدينتهم أقدم مدن العالم قاطبة، وقد بناها الإله «ايل»، فيما تزعم أساطيرهم، هذا وقد كشفت الحفائر في جبيل عن آثار ترجع إلى عصر Chalcolithic وربما كانت هناك مخلفات ترجع إلى عصور أقدم، كما أن جبيل ربما كانت كذلك من المراكز الهامة والقديمة لعبادة الآلهة (عشتار)[2].

---

(١) تكوين ١٠/١٨.   (٢) حزقيال ٢٧/٨، ١١.

(٣) انظر عن معركة قرقر، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/٩٠٦ ـ ٩٠٨، بلاد الشام ص ٣٦٧ ـ ٣٧٠.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٤٧.

وعلى أي حال، فلقد ظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية لفينيقيا، وكان البردى من أهم سلعها التجارية، ومن ثم فقد اشتق اليونان، فيما يرى ول ديورانت، من اسمها اسم الكتاب في لغتهم ببلوس (Biblo)، ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة (Bible) اسماً للكتاب المقدس (التوراة والانجيل)[1].

وكان اسم المدينة عند المصريين القدامى يكتب حتى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ـ ١٧٨٦ق. م) «كبن»، ولعله تحريف للاسم الفينيقي «جبل»، ثم أصبح بعد ذلك يكتب «كبين» (Kepen) بالباء الثقيلة، ثم أطلق اليونان عليها اسم «بيبلوس»، ثم أصبحت في العربية «جبيل».

هذا وقد أقام المصريون علاقات مع جبيل منذ عصور ما قبل التاريخ، وتشير دراسة الخشب الموجود في مقابر الأسرة الأولى إلى أنه وارد من سورية ولبنان، وأنهم عملوا على إحضار خشب الأرز من هنا، كما يشير إلى ذلك «حجر بالرمو»، منذ عهد «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل في فصل العلاقات الخارجية.

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى أن «جبيل» إنما كانت آهلة بالسكان منذ أقدم العصور، وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجاري هام، فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة، ويذهب كثير من الباحثين إلى أن جبيل إنما قد خضعت للنفوذ المصري في أغلب عهودها.

٢ ـ صيدا:

تقع «صيدا» خلف رأس ممتد في ساحل البحر المتوسط الشرقي، على خط عرض ٣٣، ٣٥، وخط طول ٢٣، ٣٥.

هذا وتبلغ مساحة المدينة الحالية ٧ كيلاً، وتربتها مزيج من الفخار

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ـ الجزء الثاني ـ ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

والكلس، فالمناطق المرتفعة منها ـ كالهلالية والبرامية ودرب السيم ـ هي مارونية بكر، وأما المناطق الساحلية المنخفضة، فهي مارونية ـ رسوبية (تربة تكونت من الأتربة المجروفة من الأعالي عن طريق السيول، والطمي الناتج عن طغيان مياه المجاري المائية والأنهار)، وأكثرها مزيج من أتربة مختلفة ـ كلسية وعضوية ـ ويمكننا تسميتها بالتربة الحديثة التكوين، من الناحية الجيولوجية، ومن أقدم الأرضين التي أخصبها الإنسان على الساحل اللبناني(١).

هذا وقد ذكرت «صيدا» في العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) كثيراً، وكانت «صيدا» شقيقة «صور»، بل لعل صيدا إنما كانت في فترة ما ملكة المدائن الفينيقية وتقع صيدا على مبعدة ٤٥ كيلاً إلى الجنوب من بيروت، ٤٠ كيلاً شمالي صور (أي في مكان وسط تقريباً بين بيروت وصور) في سهل ساحلي شديد الخصوبة، وافر المياه، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر، يصل اتساعه إلى ما يقرب من ميلين(٣).

هذا وقد أنشئت المدينة، في بادىء أمرها، على رأس جبلي، اختاره القوم، في أكبر الظن، بسبب المرفأ الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها بالبعض الآخر بأرصفة صناعية، وكان هذا

---

(١) منير الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ ـ بيروت ١٩٦٦ ص ١٨ ـ ١٩.
(٢) انظر التوراة (تكوين ١٠/ ١٥، ١٩، يشوع ١٩/ ٢٨، قضاة ١٠/ ١٢، ١٥/ ٣١، ملوك أول ١١/ ٥، ٣٣، ١٦/ ٣١، ملوك ثاني ٢٣/ ١٣، أخبار أيام أول ١/ ١٣، إشعياء ٢٣/ ٢، ٤، ١٢، إرمياء ٢٥/ ٢٢، ٢٧/ ٣، ٦، ٤٧/ ٤، حزقيال ٢٧/ ٨، ٢٨/ ٢١ ـ ٢٤، ٣٢/ ٣٠، زكريا ٩/ ٢، يوئيل ٣/ ١٤ ـ ١٦، عزرا ٣/ ٧).
وفي الإنجيل (إنجيل متى ١٥/ ٢١، إنجيل مرقس ٣/ ٨، ٣١، إنجيل لوقا ٦/ ١٧).
(٣) انظر: F.C. Eislen, a study in Oriental history, New York, 1907, P. 1.
Dictionnaire de la Bible, Pub. Vigouroux, T.V, Paris, 1928, P. 1704.

المرفأ يقع إلى جهة الشمال، وكان هناك، من ناحية الجنوب، مرفأ آخر يسمى «المرفأ المصري» وهو أكبر من الشمالي، وإن كان أقل منه أمناً، كما كان هناك، من ناحية البر، سور لحماية المدينة، وأما قلعة صيدا الحالية، وتسمى «قلعة البحر»، فترجع إلى أيام الحروب الصليبية، وتقع على أكبر الجزر التي قامت عليها المدينة[1].

هذا ويذهب «الأب هنري لامانس» إلى أن مدينة صيدا القديمة إنما كانت جزيرة[2]، وهو أمر، فيما يرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم، نستبعده اليوم، ذلك لأن كل الآثار القديمة التي تم العثور عليها إنما كشف عنها في البر[3].

وتقوم المدينة الحديثة في نفس مكان صيدا القديمة على وجه التقريب، أي على قلعة البر الذي أقيمت عليه قلعة البر الصليبية، مع ملاحظة أن المدينة الحديثة امتدت في فترة لاحقة للاسترداد الإسلامي نحو الشمال الشرقي بحذاء الساحل، وأصبحت لا تتعمق كثيراً في الداخل[4].

هذا وقد اشتق اسم «صيدا» من الصيد، أي صيد السمك، وإليها ينتسب الإله الفينيقي الوثني «صيدون»، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها كانت محلة صغيرة لصائدي الأسماك، على النحو الذي كانت عليه قرية

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٩١،

وكذا Poidebard et Lauffray, Sidon, Amenagements Antiques du Port de Saidan, Beyrouth, 1951, P. 84.

(٢) هنري لامانس: السواحل اللبنانية ـ مجلة المشرق ـ السنة السابعة ـ العدد ٢٠ ص ٩٤٨.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: دراسة في تاريخ صيدا في العصر الإسلامي ـ بيروت ١٩٧٠ ص ١٠.

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٠،

وكذا D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, P. 28.

Schwarz, Encyclopaedia of Islam, P. 422.

«راقودة» (راكوتيس) التي أقيمت عليها مدينة الإسكندرية، وقد أشار «هومير» إلى أن السمك في صيدون أوفر من الرمال، كذلك فسر «جستان» في القرن الأول اسم صيدا بكثرة السمك فيها، على أساس أن الفينيقيين كانوا يسمون السمك «صيدون»، كما أشار الإدريسي إلى عين في صيدا كان ينشأ فيها في الربيع سميكات على طول الاصبع، منها ذكور وإناث، وأن لها أيد وأرجل صغار، وعلى أية حال، فما زالت صيدا حتى اليوم تشتهر بأسماكها وما زال القوم يعتبرون صيد الأسماك من أهم حرفهم، بل إن ميناءها الحالي، ما يزال في نظر البعض، لا يعدو أن يكون مرسى لزوارق السفن[١].

هذا وقد عرفت صيدا في الآشورية باسم «صيدونا»، وفي اللاتينية «صيدون» أو «صيدونيا» وفي رسائل تل العمارنة المصرية «صيدونو»، وفي العبرية «صيدون» أو حتى «زيدون»، وعند الصليبيين «ساجيتا»[٢].

وأما في العربية فقد عرفت باسم «صيدا»، وكذا باسم «اربل»، يقول ياقوت الحموي في معجمه «اربل اسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام، ولعلها سميت «اربل» عند العرب من الربل أي كثرة الشجر، وقد أشار ابن فضل الله العمري إلى أن كورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار[٣].

---

(١) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٨، منير الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ ـ بيروت ١٩٦٦ ص ٢٤، الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ١٥، وكذا F.C. Eislen, Op. Cit., P. 11.

(٢) أنيس فريحة: أسماء المدن والقرى اللبنانية ـ بيروت ١٩٥٦ ص ٢٠٣، منير الخوري: المرجع السابق ص ٢٤، وكذا F.C. Eislen, Op. Cit., P. 10.

(٣) معجم ياقوت ١٤٠/١، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١١١/٤، عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ١٦.

هذا وتنسب التوراة مدينة «صيدا» إلى صيدون الابن الأكبر لكنعان بن حام بن نوح، ومن ثم فهي تربط بين تأسيس صيدا وبين الكنعانيين الذين عرفوا أيضاً باسم الصيدونيين[١]، وهكذا تنسب التوراة «الكنعانيين ـ الفينيقيين»، كما أشرنا من قبل، إلى الحاميين، وليس إلى الساميين، مع أنهم يتكلمون لغة سامية، بل هم أنفسهم ساميون، والأمر كذلك بالنسبة إلى المصريين الذين جعلهم التوراة حاميين، تقول التوراة[٢] في سفر التكوين «بنوحام: كوش ومصرايم وفوط وكنعان»[٣]، والمصريون ساميون، ما في ذلك من ريب، وكذا الكنعانيون الفينيقيون.

وهكذا تعمد العبرانيون في توراتهم، إقصاء الكنعانيين ـ الفينيقيين عن الانتساب إلى سام بن نوح، لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية، وقد أرجع الأصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبئيين إلى «حام» جد الكوشيين، ذي البشرة السوداء، مع أنهم (أي الفينيقيين والسبئيين) من الساميين، وقد يكون ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية في أفريقية، فعد كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين[٤].

ومن عجب أن يأخذ مؤرخو العرب وجغرافيوهم بالتفسير التوراتي لنسب الفينيقيين، ومن ثم فقد أجمعوا على نسبة الصيدونيين إلى «صيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح»[٥].

---

(١) تكوين ١٠/ ١٥، أخبار أيام أول ١/ ١٣، يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ١/ ١١، وكذا Schulim Ochser, The Jewish Encyclopaedia, N.Y., 1903, Article, Sidon.

(٢) انظر: عن التوراة، ومدى الشك الذي يحيط بوثاقة نصها وصحته (محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الكتاب الثالث ـ الإسكندرية ١٩٧٩ ص ١ ـ ٣٧٩).

(٣) تكوين ١٠/ ١٥.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ بيروت ١٩٦٨ ـ الجزء الأول ص ٢٢٤، وكذا R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1935, P. XV.

(٥) انظر: معجم ياقوت ٣/ ٤٣٧، القلقشندي: المرجع السابق ص ٤/ ١١١، ابن =

هذا ويذهب «ايوستاثيوس» إلى أن صيدون القديمة من بناء «بيلوس»، وأنها سميت باسم ابنته «صيد»، ولكن الكتاب الإغريق أجروا تعديلاً على هذه الأسطورة، فابدلوا «صيد» بـ«صيدوس بن ايجيبتوس» الذي بنى صيدون وسماها باسم «صيدوس»، ويذهب «فردريك كارل ايسلين» إلى أن هذا التفسير الأخير إنما يشبه إلى حد ما تفسير التوراة، وأنه يربط المدينة واسمها باسم «صيدون»، ويعترض، وهو على حق في هذا، على الأخذ بهذا التفسير الخيالي(١).

ومن ثم فإن «ايسلين» إنما يرجح أن صيدون القديمة سميت باسم إله يحمل هذا الاسم، ومنه اشتقت التسمية الصليبية «ساجيتا» أو «ساجيت»، وإن كان يميل إلى ربط اسم «ساجيتا» باللفظة اللاتينية sagitta بمعنى السهم، بدليل أن السهم كان شعار مدينة صيدا في العهد الصليبي، وكانت العملات التي سكت في صيدا في ذلك العهد تحمل هذا الشعار(٢).

ويذهب الأستاذ أنيس فريحة إلى أن يكون «صيد» هو الجذر الذي اشتقت منه صيدون، وصيدا، إلهاً سامياً قديماً يمثل الصيد، ويعلل تسمية أهل صيدا للمزار الواقع في الجنوب الشرقي منها، والذي يسميه الأهالي «مزار النبي صيدون»، بأنه مكان هيكل فينيقي قديم للإله السامي «صيد» إله الصيد(٣).

ويعتقد أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم أن اسم «صيدا» مشتق من الجذر السامي صيد، ويقصد به صيد السمك، وهو الحرفة الرئيسية لسكان هذه المدينة منذ نشأتها، ولا نستبعد تمجيد الأهالي لهذه الحرفة فأطلقوا

= شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء دمشق والجزيرة ـ دمشق ١٩٥٦ ص ١٨.

(١) F.C. Eislen, Op. Cit., P. 9

(٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ١٨ ـ ١٩،
وكذا F.C. Eislen, Op. Cit., P. 14.

(٣) أنيس فريحة: المرجع السابق ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤، عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص ١٩.

على مدينتهم اسمها، بحيث أصبح اسم صيدون يعني مدينة صيد الأسماك، ولعل هذا التمجيد كانت له علاقة بالفكر الديني القديم عند سكان صيدون، أو لعله كان يرتبط بالطوطمية التي كان من مظاهرها أن يتسمى بها الأفراد تعبيراً عن تفاؤلهم بها، كما كان يفعل العرب في العصر الجاهلي عندما كانوا يتفاءلون بالطير كالحمامة مثلاً، ومن المعروف أن كثيراً من الأسماء السامية القديمة للمواضع أو للقبائل كانت لها صلات وثيقة بأسماء الآلهة، وليس ضرورياً أن تكون حرفة الصيد التي كان يمارسها القوم كانت مقصورة على صيد السمك، فمن المعروف أن أهل صيدا احترفوا أيضاً صيد نوع من القواقع أو الأصداف كانوا يستخرجون منها الأصباغ الأرجوانية المشهورة، وكانت هذه الحرفة من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية[١].

ويقول «جاك نانتي» ـ المؤرخ الفرنسي ـ في كتابه «تاريخ لبنان»: إن أول مدينة أسسها الفينيقيون إنما هي «صيدا» حوالى عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد، ثم بنيت جبيل فأرواد فطرابلس، وقد بنى الصيدونيون مدناً أخرى على طول الساحل، أشهرها «صور»، وقد بنيت حوالى عام ٧٥٠م قبل الميلاد[٢].

هذا ويذهب «نانتي» إلى ما ذهب إليه العهد القديم، من أن مؤسس صيد، إنما هو «صيدون، بكر كنعان»[٣].

ويقول العلامة الشيخ أحمد عارف الزين (١٣٠١ ـ ١٣٠٨هـ/ ١٨٨١ ـ ١٩٦٠م)[٤] في مؤلفه «تاريخ صيدا»: أن صيدا من أقدم مدن العالم،

---

(١) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص١٩، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ـ بيروت ١٩٧٠ ص٤٠٨، وانظر: محمد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ ـ بيروت ١٩٦٩ ص٣٥٩.

(٢) Jacues Nantet, Histoire du Liban, Paris, 1963, P. 22.

وكذا

Schulim, Oshser, The Jewish Encyclopedia, P. 664.

(٣) تكوين ١٠/١٥.

(٤) انظر عن «أحمد عارف الزين» (منير الخوري: صيدا ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

واسمها مأخوذ من بكر كنعان، حفيد نوح، وكان ذلك في عام ٢٢١٨ق. م، أو قبل ذلك، وكانت على أيام «يشوع بن نون» ـ خليفة موسى وفتاه ـ[١] (عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد)[٢] «أم المدن الفينيقية»، كما كانت حداً لتخم سبط أشير، غير أن الإسرائيليين لم يمتلكوها[٣].

هذا ويؤكد القديس «أوغسطينوس»: «أن أقدم وأشهر الممالك الكنعانية إنما هي مملكة صيدون، التي وضع أساساتها بكر كنعان «صيدونيوس»، ودعيت مدينة الصيادين، إشارة إلى سلطانه الأبوي وشجاعته، وأن هذا الاسم إنما يدل على القوة والحذاقة في صيد الحيوان، كما يدل على الشجاعة والمهارة في التسلط على الناس واسترقاقهم».

«وهكذا رفع هذا البطل ـ صيدون ـ مقام عشيرته بشهامته، وحسن سياسته في صدر الأجيال الأولى، فجاء شعباً مقداماً، سعى وراء المنافع، ونال قصبات السبق في التسلط على البحار، ولقب شعب صيدون، وكل الشعب الكنعاني بالصيدوني، غير أن هذه المملكة لم تكن متسعة، لأن العشائر المتسللة منها، إنما قد أخذت استقلالاً منفرداً عنها، وإن كانوا جميعاً مشتركين في اللغة والدين والعادات، يضافرون بعضهم بعضاً إبان الشدة ويدعون الخارجين عنهم «أميين» ـ كراهة وتحقيراً ـ كما روى هيرودوت[٤].

وحكومة صيدا ـ شأنها شأن غيرها من المدن الفينيقية ـ إنما تتكون

---

(١) انظر عن «يشوع بن نون» (قاموس الكتاب المقدس ١٠٦٨/٢ ـ ١٠٧٠، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٦٠١/٢ ـ ٦١٥).

(٢) انظر عن تاريخ يشوع، وخروجه من مصر مع موسى عليه السلام، والآراء التي دارت حول هذا التاريخ (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣٥٧/١ ـ ٤٥٥).

(٣) أحمد عارف الزين: تاريخ صيدا ـ مطبعة العرفان ـ صيدا ـ ١٩١٣م.

(٤) منير الخوري: صيدا ص ٢٥ ـ ٢٦ (بيروت ١٩٦٦).

من جماعة الأعيان الذين كانوا يعضدون السيادة الارستقراطية، وهي قريبة في تشكيلها من مجالس الإدارة في العهد العثماني، أو مجالس المحافظات في عهد الانتداب الفرنسي، يجتمعون في دار الندوة، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، برياسة زعيم المدينة الذي كانوا يسمونه «ملكاً»(١).

هذا وقد نمت صيدا نمواً هائلاً، وازدادت مواردها، فأضحت كعبة التجار والمغامرين، وتضاعف عدد سكانها، حتى بلغ الخيال بالبعض أن يصل بهم ـ بعد القرن العشرين قبل الميلاد ـ إلى مليونين ونيف(٢)، مع أن المدن الكبرى في التاريخ القديم ـ مثل منف وطيبة وبابل وغيرها ـ لم تعرف رقم المليون أبداً، لعدد السكان(٣).

والواقع أن المدن المليونية ـ أو المليونيرة ـ إنما تعد أوضح الظاهرات في التوزيع العمراني في العصر الحديث، ولا يسجل لنا التاريخ ـ فيما قبل القرن التاسع عشر الميلادي ـ باستثناء الصين ربما، وجود مدن مليونية.

ومن ثم فلم تصل «لندن» إلى هذا الحجم، إلا حوالى عام ١٨٠٠م، ثم تبعتها «باريس» عام ١٨٥٠م، واستمرت هذه الظاهرة، وإن كانت محدودة على المستوى العالمي، فلم يتجاوز عددها عشرين مدينة عام ١٩٢٠م، ووصلت إلى نحو خمسين مدينة عام ١٩٤٠م(٤).

هذا وكانت مملكة صيدون ـ بعد تأسيسها ـ إنما تمتد من «الدامور» شمالاً، وحتى «جبل الكرمل» جنوباً، وإلى منحدرات الجبال شرقاً.

وأما مدينة صيدا نفسها، فكانت منقسمة إلى محلتين، الواحدة: صيدون الكبرى، وهي الرابضة على شاطىء البحر، والأخرى: صيدون

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٧.
(٢) منير الخوري: المرجع السابق ص ٢٧ ـ ٢٩.
(٣) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٤٤٥.
(٤) فتحي محمد أبو عيانة: جغرافية العمران ـ الإسكندرية ١٩٩١ ص ١٠٧.

الصغرى، وهي التي تقع على مقربة منها، قريباً من الجبل[1].

وكانت ديانة صيدا، هي الديانة الفينيقية الوثنية بوجه عام، وكان لكل مدينة فينيقية معبودها الخاص بها، به تفتخر وتعتز، وله تقدم الأضاحي والقرابين، فمثلاً الإله «شمون» إنما هو إله خاص بمدينة صيدا، والإله «ملقارت» خاص بصور، والمعبودة «عشتاروت» خاصة ببيروت، و «أدونيس» بجبيل، وبشاطىء نهر إبراهيم المقدس، هذا فضلاً عن الإلهين الرئيسيين «إيل» و «بعل»، حيث كان أتباع كل منهما ينتصر لآلهته، فيجادل ويناقش خصمه بالحجج والبراهين، على تفوق آلهته وعظمتها، مما قد يدفع الأمر ـ حين احتدام النقاش بين المتنازعين ـ إلى حد الاقتتال.

وكانت الشمس تعبد، على أنها الإله الأكبر، باعتبار أنها مصدر النور والحرارة، والحياة، ولأنها مقياس الزمن، هذا فضلاً عن عقيدة القوم أن مرجع جميع الآلهة إلى الشمس، وهكذا تطرق القوم إلى عبادة الأسر الفلكية.

وكانت «الحية» عند القوم مثالاً لهذه الكواكب، فكانت الحيات في هياكل «أشمون» تلحس جراح المؤمنين بها، فيبرأون، لأن أشمون ـ فيما يعتقدون ـ إنما هو الذي أوجد عقاقير الطب[2].

هذا وقد اشتهرت صيدا بصناعة الصباغ الأرجواني والزجاج وبناء السفن والتعدين، فأما صناعة «البرفير» أو «الأرجوان» المنسوب إلى صور، فليس هناك من دليل على أنها سبقت صيدا إلى اكتشافه، اللهم إلا تلك الرواية المتداولة عن: أن كلب ابنة ملك صور، قد تلوث فمه بلون أحمر بنفسجي، يوم كانت تتنزه على شاطىء البحر، وعندما بحثت عن سبب تلوثه بهذا اللون الجميل، اكتشفت ـ ومن معها ـ أن ذلك إنما كان بسبب

---

(١) منير الخوري: المرجع السابق ص ٢٩.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩ ـ ٣٠.

صدف «الموريكس» الموجود بكثرة على الشواطىء.

غير أن وجود جبل كامل في صيدا ـ عند أباروح ـ من هذه الأصداف، والتي يعود تاريخها إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، إنما يدل بوضوح على أن صيدا، إنما كانت هي السابقة إلى اكتشافه، هذا فضلاً عن أن آثار مصانع الأرجوان حول مدينة صور، إنما تعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ومن ثم فصيدا هي الأسبق في اكتشاف الصباغ الأرجواني.

وعلى أية حال، فلقد اكتشفت مادة «صباغ الأرجوان» في حيوانات بحرية، ذات أصداف تسمى «الموريكس»، وكان لونها أحمر بنفسجياً، وعمد أهل صور وصيدا إلى استعماله في صباغة الحرير والقطن والصوف الناعم، ثم تفنن الصوريون بعد ذلك في استعماله، فكان لهم قصب التفوق في صناعته.

هذا وقد عمل أهل صيدا كذلك في نسج الصوف والكتان، وصبغهما بعد ذلك، وهم أول من اصطنع الزجاج ـ ولا سيما الشفاف منه ـ وأنشأوا لصناعته المعامل المهمة، وكانت مصانعهم في «صيدون» و «الصرفند»، أشهر معامل من نوعها في العالم المعروف وقت ذاك، وفي متاحف أوربا الآن الكثير من مصنوعات صيدا الزجاجية الملونة الجميلة.

وبرع أهل صيدا كذلك في صنع الأواني الخزفية، فكانت من أخص أصناف تجارتهم، وهم أول من نقل هذه الصناعة إلى بلاد اليونان، كما تفوقوا في صناعة الحفر والنقش وصب الذهب والفضة، ومختلف المصنوعات المعدنية، كما امتازوا بالمصنوعات النحاسية، وصنع الأسلحة، وحلى العاج، وزراعة الكروم، واستخراج الخمور منها، وكان للخمر الصيدوني شهرة، لا سيما في بلاد اليونان، ثم هم صنعوا الآن الحراثة، ومهروا في هندسة البناء، وهم أول من عنوا بتبليط الشوارع،

واحرزوا في صناعة السفن نصيباً وافراً من المجد والشهرة، وكانوا أسبق الأمم إلى ركوب البحر والتوغل فيه[1].

ويقول «وليم لانجر»: الفينيقيون، المعروفون بالصيداويين في أشعار هوميروس، وفي التوراة، فرع من الكنعانيين، إذا ما حكمنا عليهم بلغتهم ـ وهي لهجة من اللهجات السامية، تقترب من العبرية ـ كانت لغة كنعان.

هذا وأعظم عمل قام به الفينيقيون للحضارة، إنما هو اختراع الأبجدية الهجائية، في القرب الرابع عشر ق. م، أو قبل ذلك بقرنين، وتتكون هذه الأبجدية من ٢٢ حرفاً ساكناً، وليست بها حروف متحركة، وقد اشتقت الأبجديات القديمة والحديثة من الأبجدية الفينيقية ـ الأمر الذي سنناقشه في مكانه من هذه الدراسة ـ.

وقد ذهبت روايات المؤرخين اليونان إلى أنهم قد عرفوا الهجائية عن طريق الصيدونيين، الذين قدموا إلى بلادهم في صحبة «قدم» (قدموس) حوالى عام ١٥٨٠ق. م، الذي حمل معه الحروف الهجائية، وبنى مدينة «تيبة»[2].

هذا وكانت صيدا ـ في معظم تاريخها القديم ـ تتبع مصر، منذ عهد «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق. م).

وفي عصر العمارنة، كان «زيمردا» حاكم صيدا، خائناً لفرعون ـ كما اتهمه بذلك «ربعدى» حاكم جبيل، و «أبيملكي» حاكم صور ـ فقد كان «زيمردا» متهماً بمساعدة «عزيرو» الأموري، والثائر ضد فرعون، كما كان «زيمردا» على نزاع مع «أبيملكي» الذي اتهمه بأنه قد أخذ منه مدينته «صور»[3].

---

(١) منير الخوري: المرجع السابق ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) وليم لانجر: موسوعة تاريخ الإنسانية ١/ ٧٢، وانظر: عيسى أسعد الخوري: تاريخ حمص ـ الجزء الأول ـ حمص ١٩٤٠.

(٣) محمد بيومي مهران: اخناتون: عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، =

ومن ثم فهناك من يذهب إلى أن «زيمردا» ملك صيدا، إنما قد أعلن الثورة ضد المصريين، متحالفاً مع الحيثيين، وبادر نحو صور في عام ١٣٥٤ق. م، فتمكن من دخولها، وإخضاعها لحكمه، مزيلاً عنها تبعيتها لمصر[١].

وفي العام الخامس من عهد «رعمسيس الثاني» ١٤٩٠ ـ ١٢٢٤ق. م) ـ أي في حوالى عام ١٢٨٥ق. م ـ خرج الفرعون على رأس جيشه ـ والذي كان قد نظم في أربعة فيالق، أمون ورع وبتاح وست[٢] ـ فضلاً عن التجنيد الإجباري، الذي كان قد فرض على رعايا الفرعون في فلسطين[٣] ـ وما أن وصل إلى «صور» حتى هبت لاستقباله، مرحبة ومعلنة ابتهاجها بقدومه، وخلاصها من تسلط مدينة «صيدا».

وما أن وصلت أنباء هذا الزحف المصري إلى صيدا وملكها، حتى دب الهلع إلى فؤاده، وعرف أنه ليس في قدرته مجابهة جيوش مصر الجرارة، ومن ثم فقد تقدم هو ـ وأعيان صور ـ إلى فرعون، يعلنون خضوعهم وولاءهم، وقد قبل الفرعون هذا الرجاء، ودخل صيدا سلماً، بعد أن أخذ منها جزية ثقيلة[٤].

هذا وقد نجح «رعمسيس الثاني» في القضاء على النفوذ الحيثي في فينيقيا، ويذهب الأستاذ الخوري إلى أن الفينيقيين لم يأبهوا، خلال القرى

= وكذا F.H. Giles, Ikhnaton, Legend and History, London, 1970, P. 176.
S.A.B. Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, I. Tornto, 1939, P. 489.
W.F. Albright, The Correspondance of Ablimilki, Prince of Tyre, JEA, 23, 1937.

(١) منير الخوري: المرجع السابق ص ٤٩.

(٢) انظر عن هذه المعبودات المصرية (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الثاني ـ الإسكندرية ١٩٨٩، ست ص ٣٤١ ـ ٣٤٨، رع ص ٣٦٢ ـ ٣٦٧، بتاح ص ٣٦٧ ـ ٣٧١، أمون ص ٣٧١ ـ ٣٧٨).

(٣) H. Gaedicke, JEA, 52, 1966, P. 72-79

(٤) منير الخوري: المرجع السابق ص ٥٠.

الثالث عشر، وبعد فرض الحماية المصرية عليهم من النواحي السياسية، حتى فيما تعلق منها بأمر استقلالهم أو الدفاع عن وطنهم ضد المغيرين، الأمر الذي لاحظه المؤرخون عند دراستهم لأسباب الحروب المستقلة بين المصريين والحيثيين، وذلك لأن الفينيقيين إنما كانوا يسيرون في ركاب الدولة المحتلة، ويقدمون لها مختلف الخدمات، لقاء احتفاظهم بحق العمل التجاري، ووسائل الربح المادي، كما ظهر بوضوح تفسخ الصلات بين المدن الفينيقية المختلفة، بأحلى مظاهره، فقد أخذت كل مدينة تسعى وراء نجاح تجارتها، ورفع نسبة أرباحها، حتى وإن كان ذلك على حساب شقيقتها المدينة الفينيقية الثانية وهلاكها[1].

وعلى أية حال، فلقد سجلت حروب «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ ـ ١١٥١ق. م) آخر انتصارات مصرية في فينيقية[2]، إلى حين، أو قل حتى عهد «شيشنق الأول» (٩٤٥ ـ ٩٢٤ق. م) حيث قام بحملته المشهورة التي أعاد بها السيطرة المصرية في فلسطين وفينيقيا[3].

وعلى أية حال، فلقد أخذت صيدا بعد ذلك تكافح ضد الآشوريين

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٥١.

(٢) محمد بيومي مهران: مصر ٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤

وكذا J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 259.

وكذا W.F. Edgerton and J.A. Wilson, Historical Records of Romsses, III, Chicago, 1936, P. 22-32.

(٣) محمد بيومي مهران: مصر ٣/ ٦١١ ـ ٦١٥، إسرائيل ٢/ ٩٥١ ـ ٩٥٦،

وكذا K. Kenyon, Archaoelogy in The Holy Land, Lond, 1970, P. 272-274.

A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 229-230.

وكذا G.E. Wright, BA, 1957, P. 148-149.

وكذا Y. Aharoni, The Land of The Bible, 1966, P. 288-289.

وكذا M. Noth, ZDPV, 61, 1938, P. 278-280.

وكذا J. Bright, A History of Israel, London, 1959, P. 213.

وكذا K. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, (1100-650), Warminster, 1986, P. 294-300.

والبابليين والفرس واليونان والرومان ـ الأمر الذي سنناقشه في علاقات فينيقيا الخارجية.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن هناك في الأناجيل، ما يشير إلى مجيء السيد المسيح عليه السلام إلى صيدا[1].

وقد أخذت النصرانية تنتشر في صيدا ومجاوراتها، حتى أنها أصبحت في أوائل القرن الرابع المسيحي مقر أسقفية.

وفي نفس الوقت، فلقد ظلت صيدا ـ مع بقية المدن الفينيقية ـ تحتفظ بامتيازاتها السياسية ـ كمستعمرة رومانية ـ إلى عهد الامبراطور الروماني «سبتميوس سيفيروس» ١٩٣ ـ ٢١١ق. م)، حيث قسم في عام ١٩٣ق. م، فينيقيا إلى قسمين، الواحد: فينيقيا الساحلية: وتشمل المدن الساحلية، والآخر: فينيقيا اللبنانية: وتشمل الجبل اللبناني، وسهل البقاع، ومدينة حمص.

ويحدثنا المؤرخون أن «سبتميوس سيفيروس»، عندما استتب له الأمر في روما عام ١٩٣ق. م، قام بوضع فئة من الجنود في صور بصفة مستمرة، وألغى الامتيازات التي كانت ممنوحة للمدن الفينيقية، بعد أن قسمها إلى ساحلية، وداخلية، ضمن الولاية السورية.

وفي عام ٢٠١ قبل الميلاد جاء إلى أنطاكية، حيث بايع لابنه «كراكلا» (٢١١ ـ ٢١٧م) من زوجته السورية النشأة، والحمصية المولد «جوليا دمنه» التي تزوجها عندما كان قائداً للجيش الروماني في سورية عام ١٨٠م.

وعلى أية حال، فلقد ظلت فينيقيا وسورية تتمتعان بشبه استقلال داخلي في أمورهما حتى قيام الدولة الساسانية الفارسية في عام ٢٢٦م، بقيادة «أردشير بن بابك بن سان» (٢٢٦ ـ ٢٤١م)، وبدأت قواته تتوغل في

(١) انظر أناجيل (متى ٢١/١٥، لوقا ٢٦/٤، مرقس ٨/٣).

أملاك الرومان في فينيقيا وسورية، وجاء من بعده ولده «سابور» (٢٤١ ـ ٢٧٢م) الذي وصل حتى أنطاكية في عام ٢٥٨م، فدمرها، وأعمل في سكانها السلب والنهب[١].

وفي عهد «الزباء»[٢] ملكة تدمر (٢٦٧ ـ ٢٧٣م)، وكانت قد فتحت مصر، واستولت على الإسكندرية ـ أهم مدن الامراطورية الرومانية قاطبة، بعد روما ـ فضلاً عن بلاد الشام وآسيا الصغرى، وبدهي أن صيدا أصبحت كذلك من أملاك الزباء[٣].

وفي عام ٣٢٨م، قام الامبراطور «قسطنطين الأول» (٣١١ ـ ٣٣٧م) بزيارة سورية، وأقام لأمه «هيلانة» (توفيت عام ٣٢٧م) تمثالاً في «دفنة» على مقرب من أنطاكية، وأباح للسوريين اعتناق النصرانية ـ بعد أن كانت محرمة عليهم، فكان ذلك بداية لعهد تزعزعت فيه الوثنية في سورية ولبنان، ومنها صيدا[٤].

ومن المعروف أن «قسطنطين» وشريكه «ليسينيوس» (ليكيتيوس) (٣١١ ـ ٣٢٤م) ـ وزوج شقيقته كونستاس ـ قد أصدرا في عام ٣١٣م براءة «ميلانو» وقد جاء فيها: «نحن قسطنطين أوغسطس، وليكينوس أوغسطس ـ بعد تبادل الرأي في ميلان، تبين لنا أن مصلحة الدولة، تقضي بتنظيم أمور التعبد، ومنح المسيحيين جميع الرومانيين، حق اتباع الدِّين الذي يؤثرونه،

---

(١) منير الخوري: المرجع السابق ص ٩٤ ـ ٩٥، محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم ٢/ ٥٤٢.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٤٧ ـ ٥٥٩.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/ ١١٥ ـ ١١٦،

وكذا Encyclopaedia Biblica, 17, P. 163.

وكذا W. Wright, op. Cit., P. 137.

F. Altheim and. Stiehl, Die Araber inder Alten Welt, Berlin 1964, P. 254.

وكذا J. Starcky, Palmyre, Paris, 1952, P. 64.

(٤) منير الخوري: المرجع السابق ص ١٠٣.

وذلك ليرضي الإله ـ أياً كان ـ عنا، عن جميع الخاضعين لنا، وبعد التبصر في هذا الأمر، قررنا عدم التعرض لحرية المعتقد، وهكذا فإننا لا نمنع أحداً من الناس عن اتباع دين المسيحيين، أو أي دين آخر، يختاره هو لنفسه، آملين أن ننال بذلك رضي الإله الأعلى (Summa Divinitas) وبركته»[1].

وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض، من أن قسطنطين قد رسم محل النسور الرومانية إشارة الصليب على أعلامه، فإنه بذلك إنما يكون في نفس الوقت، قد أرضى الوثنيين في الامبراطورية، بإعادة تشييد «هيكل الكونكورد» (الوئام) في روما[2].

غير أن الوثنية سرعان ما تعود مرة أخرى في عهد «جوليان» (٣٦١ ـ ٣٦٣م)، ولكنها فشلت، لأن جذور النصرانية كانت قد تأصلت في نفوس غالبية الناس.

وفي عهد الامبراطور «جوفيان» (٣٦٣ ـ ٣٦٤م) أصبحت النصرانية دين الدولة الرسمي كما أباحت الدولة حرية العقيدة[3].

وفي عام ٥١١م عقد في صيدا ـ بأمر الأمبراطور «أنسطاسيوس» (٤٩١ ـ ٥١٨م) ـ مجمعاً كنسياً، كان الهدف منه إبطال أعمال المجلس المسكوني الرابع، غير أنه لم يحقق العرض منه.

هذا وكان انتصار المسلمين في موقعة اليرموك (١٣هـ ـ ٦٣٤م)[4]

(١) أسد رستم: مدينة الله أنطاكية العظمى ـ الجزء الأول ص ١٨٠، فؤاد قازان: لبنان ـ بيروت ١٩٧٢ ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) فؤاد قازان: المرجع السابق ص ٨٣.
(٣) منير الخوري: المرجع السابق ص ١٠٥.
(٤) انظر عن معركة اليرموك: (تاريخ الطبري ٣/ ٣٩٤ ـ ٤١٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٤١٠ ـ ٤١٥، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلامي السياسي ١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٨).

انتصاراً ساحقاً، إنما قد أدى بعد ذلك إلى فتح بقية البلاد في الشام.

وأما عن صيدا، فطبقاً لرواية المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، أن الصحابي الجليل «أبا عبيدة بن الجراح»(١) قد استخلف «يزيد بن أبي سفيان» على دمشق، ثم سار يزيد إلى صيدا وجبيل وبيروت، وفتحها في عام ٦٣٧م، ثم فتحت صور في عام ٦٣٨م.

وفي الواقع أن هناك اختلافاً في تحديد تاريخ فتح «صيدا»، فذهب «ابن الأثير» في كامله، إلى أنها فتحت في عام ١٣هـ ـ ٦٣٤م، بينما يرى «البلاذري» أنها فتحت بعد دمشق، والمعروف أن دمشق إنما فتحت في رجب عام ١٤هـ (٦٣٥م).

هذا ومن المعروف أن فتح سواحل دمشق ـ باستثناء طرابلس ـ إنما تم في آخر عام ١٦هـ ـ أوائل عام ١٧هـ ـ لأن طاعون «عمواس» (نيكوبوليس، على أيام تيتوس ٧٩ ـ ٨١م) شمال غربي القدس إنما كان في عام ١٨هـ/ ٦٣٩م، وقد توفي فيه نحو خمس وعشرين ألفاً من المسلمين، ومن ثم فلا يستبعد أن تكون صيدا قد فتحت في عام ١٥هـ (٦٣٦م)(٢).

وأياً ما كان الأمر، فهناك ما يشير إلى أن الروم في عهد «قنستانز الثاني» (٦٤١ ـ ٦٦٨م)، إنما قد تغلبوا في أوائل خلافة «عثمان بن عفان» (٢٣ ـ ٣٥هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦م) على سواحل الشام، غير أن المسلمين سرعان ما ردوهم على أعقابهم خاسرين، ثم رمموا القلاع، وشحنوها بالمقاتلة(٣).

---

(١) انظر عن «أبو عبيدة بن الجراح» (ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ١٣١، ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤/ ١٢١ ـ ١٢٢، ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ٦/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٤٠، صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٢.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٥٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٤٣١.

٥ ـ صـــور:

تقع «صور» (أي الصخرة) على مبعدة ٤٠ كيلاً جنوب صيدا، وتعتبر أعظم المدن الفينيقية جميعاً، دونما ريب، وطبقاً لرواية «هيرودوت» (عن كهنة ملقارت)، فلقد أنشئت صور قبل قدوم هيرودوت إليها، حوالى عام ٤٥٠ق. م، بألفين وثلاثمائة سنة، ومن ثم تكون قد ظهرت إلى الوجود، حوالى عام ٢٧٥٠ق. م(١).

وهذا وقد بنيت، في الأصل، على جزيرة تبعد عدة أميال من البر، وقد كانت، فيما يرى استرابو(٢)، «مبنية بنفس الشكل الذي بنيت به أرادس»، هذا وقد كانت الجزيرة متصلة بالبـر بسد طوله نصف ميل، بناه الإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ق. م) أثناء حصاره لها عام ٣٣٢ق. م، والذي دام سبعة أشهر من البر والبحر(٣).

وهذا وقد أطلق الصوريون على مدينتهم «صور» اسم «صُر» (Sr) والذي يمكن إرجاعه إلى الأصل «طر» ـ والذي يعني في أكثر اللهجات السامية: الصوان، أو الحجر الحاد، دالاً بذلك على طبيعة الجزيرة الصخرية القاسية، التي بنيت عليها المدينة، ومن ثم فإن «صور» إنما تعني في الفينيقية «الصخرة»(٤).

يقول «كونتنو» في كتابه «الحضارة الفينيقية»: أن جزيرة صور ـ كما جاء في بعض الأساطير ـ كانت طافية في البحر، وأن «زيتونه عشتار» كانت

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ٢/٥٥٩ (بيروت ١٩٦٧)، وكذا Herodotus, II, 44.

(٢) Strabo, XVI, 2, 23.

(٣) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٥٤، وكذا Arrian, II, 18-24. Diodorus, XVII, 41-46.

(٤) معن عرب: صور: حاضرة فينيقيا ـ بيروت ١٩٦٩ ص ٥، وفي «المنجد» ص ٤٦٢: طرّ السكين: أي حددها.

بها تحت حراسة نسر وثعبان، ولم يكن للجزيرة أن تقف عن الطوفان، إلا إذا استطاع بعض الناس، أن يقدم النسر قرباناً للآلهة.

وكان «أوزوس» ـ وهو شبيه هرقل في الأساطير اليونانية ـ هو الذي استطاع ذلك، ومنذ ذلك الوقت سكن الآلهة صور، وبها كان ميلاد عشتارت.

هذا وكان الفرعون العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ق. م) أول من ذكر «صور» في نقوش الكرنك، على شكل «ض ر» (d r) حيث يحل حرف (d) محل الصاد السامية[1].

وتذكر حوليات الفرعون «سيتي الأول» (١٣٠٩ ـ ١٢٩١ق. م) في معبد الكرنك في الأقصر، صور على نفس الشكل، الذي ذكرتها به حوليات تحوتمس الثالث.

ولعل من الجدير بالإشارة أن حوليات سيتي الأول هذه، لا تذكر أية مدينة من المدن الفينيقية، باستثناء صور، وقد أشارت إلى بقية المدن بكلمة كنعان[2].

وأما «بردية أنستاسي» ـ وترجع إلى أيام رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ق. م) ـ فتروى عن «مدينة وسط البحر، اسمها صور الميناء، تنقل المياه إليها بالقوارب، وهي أغنى بالسمك منها بحبات الرمل»[3].

وفي رسائل تل العمارنة[4]، من عصر «أمنحتب الرابع» (إخناتون ١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ق. م) تظهر المدينة على هيئة «صورى» (Surri)، وفي نفس العصر (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) يتكرر نفس الاسم في الوثائق

---

(١) K. Sethe, Urkenden der 18 Dynasty, 1907, 779

(٢) معن عرب: المرجع السابق ص ٥.

(٣) H. Gressman, Altorientalische Texte zum Alten Testament, 1926, P. 103.

(٤) انظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومي مهران: اخناتون: عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٣٣ ـ ٢٤٥.

الآشورية والكلدانية، هذا فضلاً عن ورود نفس الاسم في أحد نصوص رأس الشمرا ـ وترجع إلى القرنين، الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد[١].

وفي العهد القديم (التوراة) يتردد اسم «صور» منذ القرن العاشر قبل الميلاد[٢]، كما يتردد أيضاً في العهد الجديد (الإنجيل)[٣].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المصادر إنما تجمع على وجود مدينة على البر المقابل لجزيرة صور، ففي حوليات «سيتي الأول» مدينة «إت» بين عكا وصور، ويذهب المؤرخون إلى أنها «أوزو» (Usu) التي جاءت في رسائل العمارنة (أرقام ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠)، وتسمى في الكتابات الآشورية «أوشو»، وهي المدينة التي عبر عنها الكتاب الكلاسيكيون باسم «باليتروس» (Palaityros) أو «صور القديمة» (Tyrus Vectus)، وتقع الآن في مكان «تل المعشوق» شرقي صور[٤].

ومن عجب أن «صور» البرية هذه وحدها ـ من بين كل مدن فينيقيا الساحلية ـ إنما تحمل إسماً غير سامي، واختلاف اللفظ في الوثائق المتقدمة يجعل هذا الرأي أقرب إلى التصديق[٥].

---

(١) معن عرب: المرجع السابق ص ٦،
وكذا A. Jirku, Mythem aus Ras-Schamra, Tubingen, 1962.

(٢) التوراة (يشوع ١٩/٢٩، صموئيل ثان ٥/١١، ملوك أول ٥/١، ٧/١٣، ١٤، ٤٠، ٤٥، ٩/١٠ ـ ١٤، ٢٨، أخبار أيام أول ١٤/١، أخبار أيام ثان ٢/٣ ـ ١١ أشعياء ٢٣/٢، ٤، ١٢، إرمياء ٢٥/٢٢، ٢٧/٣، ٦، ٤٧/٤، حزقيال ٢٧/٨، ٢٨/٢١ ـ ٢٤، ٣٢/٣٠، زكريا ٩/٢، يوئيل ٣/٤ ـ ١٦، عزرا ٣/٧).٪

(٣) الأناجيل (متى ١١/٢١ ـ ٢٢، ١٥/٢١ ـ ٢٨، مرقس ٣/٨، ٧/٢٤ ـ ٣١، لوقا ٦/١٧، ١٠/١٣ ـ ١٤، أعمال الرسل ٢١/٣ ـ ٤).

(٤) معن عرب: المرجع السابق ص ٥ ـ ٩
وكذا M. Noth, ZDPV, 1938, P. 183 F.

(٥) M. Noth, Die Welt des Orients, 1947, P. 21-27

وسكان صور ـ شأنهم شأن غيرهم من سكان المدن الفينيقية ـ إنما هم مهاجرون إلى فينيقيا، فهيرودوت يرى أن الفينيقيين كانوا يقطنون شواطىء البحر الأحمر ـ كما أشرنا من قبل ـ ثم قدموا إلى شواطىء لبنان وسورية، ويعلل «جوستين» ذلك بأنه كان بسبب زلازل، في أوطانهم الأولى، وكان خليج العقبة ـ فيما يرى سترابو ـ والبحر الميت ـ فيما يرى جوستين ـ محطات عبور لهم(١).

ولعل من الجدير بالإشارة أن وثائق «رأس الشمرا ـ أوجاريت» التي ترى أن الفينيقيين إنما أتوا من شبه جزيرة سيناء، أو من النقب، نحو الشمال(٢)، إنما تجعل رواية هيرودوت وغيره من المؤرخين أقرب إلى التصديق.

وعلى أية حال، فإن النقوش المصرية إنما تشير إلى شعب سامي، سكن الشاطىء الفينيقي في حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد، هذا إلى استعمال لغة سامية حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، إنما هو أمر لا ريب فيه، ومن ثم فإن هجرة الفينيقيين إنما حدثت في الألف الثالث ـ أي عند تأسيس مدينة صور، كما روى كهنة «ملقارت» لهيرودوت، هذا وقد نسب الفينيقيون في الكتاب المقدس ـ توراة وإنجيل ـ إلى كنعان بن نوح(٣).

ويعتبر الصوريون مدينتهم «صور» أقدم المدن الفينيقية وأكبرها، «والمفتخرة التي منذ الأيام القديمة قدمها»، وأنها أم المدن الفينيقية(٤)، ومن

---

(١) Justin, XVIII, 3
وكذا Herodotus, VII, 89.
(٢) R. Dussaud, Syria, XVII, 1936, P. 59
(٣) تكوين ١٠/١٥، ملوك أول ٥/٢٠، ٦/٣١، متى ١٥/٢١ ـ ٢٢، يوسفيوس: التاريخ اليهودي ـ الكتاب الخامس، ص ٥.
(٤) أشعياء ٢٣/٧،
وكذا Justin, III.
وكذا Strabo, XVI, 1, 3.

ثم فليس صحيحاً أن الصيدونيين أسسوا صور، بعد سقوط طروادة عام ١٢٠٠ق. م، وذلك لأن النزاع بين المدينتين يفترض أن إحدى المدينتين لم تكن ربيبة للأخرى أو مستعمرتها، هذا فضلاً عن اختلاف الآلهة في المدينتين، كما أن الأساطير تشير إلى أن الآلهة اختارت صور، منذ فجر التاريخ، لتكون مقراً لها، ففيها ولدت عشتارت، وفيها مات «ملقارت»، وفيها اختبأت «إيزيس» عند هربها من «تيفون» وفيها أرضعت ولدها حور، وفيها منزل «آجنور» وغرفة زفاف قدموس وهارمونيا، وفيها كانت المقدسات والأماكن الحرام، ومن ثم فقد دعيت «صور المقدسة»(١).

هذا وقد بدأت المدينة تاريخها، في بادىء الأمر، كحصن، إلا أن ميناءها الآمن، وسلامتها من الغزو، سرعان ما جعلاها حاضرة البلاد الفينيقية كلها، ومأوى لخليط من التجار والعبيد قدموا إليها من جميع بلاد البحر المتوسط(٢).

وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد، حتى كانت صور مدينة غنية في عهد ملكها «حيرام» (٩٨٠ ـ ٩٣٦ق. م) الذي عاصر الملك النبي سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠ ـ ٩٢٢ق. م)(٣).

---

(١) معن عرب: المرجع السابق ص ١٣ ـ ١٥،
وكذا O. Eissfeldt, Ras-Schamara und Sanchunyathon, Halle, 1939, P. 137.
(٢) ول ديورانت: المرجع السابق ص ٣١٤.
(٣) يتفق المؤرخون على أن سليمان عليه السلام قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنهم يختلفون في تحديد هذه الفترة من هذا القرن العاشر، فهناك من يراها في الفترة (٩٧٤ ـ ٩٣٢ق. م) (فضلو حوراني: المرجع السابق ص ٣٤)، ومن يراها في الفترة ٩٧٣ ـ ٩٣٦ق. م (حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ٨٤)، ومن يراها في الفترة ٩٦٣ ـ ٩٢٣ق. م (فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٠٥) ومن يراها في الفترة ٩٦١ ـ ٩٢٣ق. م (موسكاتي: المرجع السابق ص ١٤٣،
وكذا E.W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, P. 172.
ومن يراها في الفترة ٩٧١ ـ ٩٣١ق. م.
(Epstein, Jedaism, 1970, P. 36).
ومن يراها في الفترة ٩٦٣ ـ ٩٢٩ق. م

وفي أيام زكريا (حوالى عام ٥٢٠ق. م)[1] كانت الفضة التي تجمعت فيها كأنها التراب، وكان الذهب كأنه «وحل الطرقات»[2]، ويقول عنها «استرابو»: إن بيوتها من طبقات كثيرة، بل إنها أكثر طبقات من بيوت روما»[3]، غير أن هذا الرخاء إنما كان قائماً في ذلك العصر، وفي جميع العصور، على التجارة والغنى، وليس على الأراضي والفتح[4].

وعلى أية حال، فلقد ظلت صور، نتيجة ثرائها، فضلاً عن بسالة أهلها، مستقلة حتى أيام الإسكندر الأكبر والذي رأى في استقلالها تحديداً لعظمته وعبقريته الحربية، ومن ثم فقد أخضعها، كما أشرنا آنفاً، عام ٣٣٢ق. م، ثم قضى عليها نهائياً ازدهار مدينة الإسكندرية العظيمة[5].

وأخيراً، فلعل من الجدير بالإشارة أن الحفائر التي أجريت تحت سطح البحر، فضلاً عن الخرائط الجوية، قد أثبتت أن حاجز الماء الذي كان يحمي مدينة صور، إنما يقع اليوم تحت سطح البحر بنحو ٥٠ قدماً، وكان طوله ٧٥٠ متراً، وعرضه ثمانية أمتار، وكانت تشرف عليه أسوار المدينة العالية وأبراجها الشامخة، وقد بنيت هذه الحصون في عهد ملك

= (Historical Altas of The Holy Land, 1959, P. 81).

ومن يراها في الفترة ٩٦٠ ـ ٩٢٢ق.م

(W. Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, P. 120).

(١) لا ريب في أن زكريا هذا، إنما هو غير زكريا الذي جاء في القرآن الكريم، والد النبي يحيى عليهما السلام، واللذين عاصر السيد المسيح عليه السلام (انظر عن زكريا القرآن: سورة آل عمران: آية ٣٣ ـ ٥٩، مريم: آية ٢ ـ ١٥)، وأما زكريا المذكور هنا فهو صاحب سفر زكريا، وهو السفر قبل الأخير في العهد القديم، وقد عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ق. م على الأرجح (محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ص ٥٩).

(٢) ول ديورانت: المرجع السابق ص ٣١٤.

(٣) Strabo, XV, 2, 23

(٤) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٩١.

(٥) نفس المرجع السابق ص ٢٥٤، ول ديورانت: المرجع السابق ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

صور «حيرام» (٩٨٠ ـ ٩٢٦ق. م)، وبذلك أصبحت صور من أعظم موانىء حوض البحر الأبيض الشرقي[١].

هذا وربما امتدت صور، حتى «تل المعشوق»[٢]، وإذا كانت رواية «سترابون»[٣] عن امتداد صور البرية إلى أبعد من ٦ كيلاً عن صور الجزيرة، فإن حدودها تكون في «الرشيدية» ـ على مبعدة ٣ كيلاً جنوبي صور ـ حيث عثر في مطلع هذا القرن على نواويس ومدافن، ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد[٤].

وعلى أية حال، فلقد كانت صور حتى عهد «حيرام الأول» ـ من القرن العاشر ق. م ـ تتكون من جزيرتين: الواحدة: الجزيرة الشمالية الرئيسية التي كانت تشكل المدينة. والثانية: الجزيرة الصغرى إلى الجنوب الغربي[٥].

هذا وقد سدّ «حيرام» القناة المائية التي كانت تفصل بين الجزيرتين، ووسع مساحة المدينة، وجلب كمية كبيرة من الصخور إلى شرق الجزيرة الرئيسية، ومن ثم فقد أصبحت صور في عهد «حيرام الأول» تتكون من ثلاثة أقسام:

١ ـ **الحي الأمامي**: وقد نتج عن توسيع الجزيرة إلى الشرق.

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٩١، حسن أحمد محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ص ٣٩٠،

وكذا A. Poidebard, un Grand Port disparu: Tyr, Paris, 1939, P. 25-26.

(٢) تل المعشوق: ويقع على معدة ٢ كيلاً شرقي صور، ومكان هيكل لأشمون أو أدونيس، حيث لا يزال المكان يسمى «المعشوق» امتداداً لما تبقى في الأذهان من صفات هذين المعبودين المتشابهين في شبابهما وفي كثير من صفاتهما.

(٣) Strabo, XVI, 2, 24

(٤) معن عرب: المرجع السابق ص ١٨ ـ ٢٠.

(٥) تكاد مصادر الأنباء عن صور في القرن العاشر قبل الميلاد تنحصر فيما ترويه التوراة، ويوسف اليهودي ـ عن المؤرخ الصوري مناندر ـ.

٢ ـ **المدينة الجديدة**: وقد نشأت على الجزيرة الصغيرة، بعد وصلها بالجزيرة الكبيرة.

وكان بهذا الجزء ـ من قبل ـ «هيكل بعل السماء» (بعل شميم ـ أوزفس الأولمبي) وقد دعيت صور بسببه «الجزيرة المقدسة» والتي كانت تعتبر سكن الآلهة، ومحل إقامتها، ومكاناً حراماً لا يدخله ـ سوى الكهنة والحجاج ـ أحد[1].

٣ ـ **المدينة المقدسة**: وكانت على الجزء الغربي من شبه الجزيرة الحالية، وتشتمل على أكبر مساحتها، وهي أول ما أنشى من المدينة، كما كان بها القصر الملكي، وإلى الشمال منه «الاجنو ريوم» (حرم أجنور)[2]، ومعبد عشتارت وملقارت[3].

هذا وقد تميزت صور بالتحصينات القوية التي جعلت الجزيرة كلها قلعة لا تقهر، فقد كانت المدينة محاطة على دائرها ـ باستثناء الميناءين، الصيدوني والمصري ـ بأسوار ضخمة عالية مبنية في البحر، أو على صخور فيه، حتى لا يبقى للمحاصرين للمدينة مكان أو ركيزة يثبتون عليها سلالم الهجوم، وآلات الحصار، ولم تعرف طبيعة هذه التحصينات وقوتها، إلا بعد سقوط صور على أيدي الإسكندر المقدوني في عام ٣٣٣ق. م.

وكانت أسوار صور مبنية بحجارة ضخمة، وعلى ارتفاع شاهق، حتى أنها بلغت من جهة الشرق ١٥٠ قدماً، بينما كانت التحصينات في الجنوب أضعف، ومن ثم فقد اتجه إليها المقدونيون، لينفذوا فيها إلى المدينة المحاصرة[4].

---

(١) F.C. Movers, Die Phonizier, II, Bonn, (1841-1849), P. 196.

(٢) يرى «أريان» (الكتاب الثاني: ٣٣): أن المقدونيين دخلوا المدينة من جهتها الجنوبية الغربية، وتبعوا الصوريين حتى «الأجنوريوم».

(٣) معن عرب: المرجع السابق ص ٢٠، وانظر: «هيرودون (الكتاب الثاني: ٤٤).

(٤) J. Kromayer und G. Veith, Heerwesen und Kriegfuhrung der Griechen und Romer, Munchen, 1928, P. 218.

هذا وكان لصور ميناءان كبيران، الواحد: الميناء الصيدوني، لوقه أمام الجزيرة الصغيرة، في الجهة المقابلة لمدينة صيدا، أو صيدون.

والثاني: الميناء المصري، من ناحية الجنوب، وقد أودت به عوامل جيولوجية، وهزات أرضية، تعاقبت على صور، وقد كشف عنه في عام ١٩٣٤م، «الأب بوادبار»، وأظهر الكشف رصيفاً تحت سطح البحر (طوله ٧٥٠م، وعرضه ٨ أمتار)، مع مدخل حصين قوي في وسطه، مما يشير إلى أن المرفأ المصري هذا، إنما كان عملاً جباراً تضافرت جهود أهل المدينة على إنجازه[١].

هذا وكانت المياه تأتي إلى المدينة عن طريق قنوات تحت الأرض من ينابيع رأس العين، هذا وتشير برك رأس العين والرشيدية، وبقايا قنوات الماء، أنها ترجع إلى العصر الروماني، بينما كانت صور في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إنما كانت المياه تصلها عن طريق القوارب، ولم يكن بها في القرن الثامن ق. م، ينابيع مياه عذبة، حتى أن القوم قد اضطروا ـ في حصار دام خمس سنوات ـ إلى شرب مياه الخزانات والآبار، لأن العدو منع وصول مياه رأس العين إلى صور[٢].

هذا وليس هناك مدينة في العالم القديم قاست من الزلازل، ما قاسته صور، ومن ذلك الزلزال الذي حدث في عهد «ديوكليسان» (٨١ ـ ٩٦م) فهدم المنازل في صور وصيدا، وأهلك الآلاف من سكانهما، ثم هناك زلزال منتصف القرن الخامس الميلادي، الذي ألحق أضراراً كثيرة بمدن الشاطىء الفينيقي، ثم زلزال عام ٥٥١م، الذي أدى إلى طوفان مياه البحر على صور وبيروت وجبيل، بل لقد وصل حتى قرى الجليل، ثم زلزال عام ٦٨٥م، الذي خرب صور، وكثيراً من مدن فينيقيا وسورية.

---

(١) A. Poidebard, Forschungen Unter Wasser in Bereich Von Tyrus, AFO, XI, (1936-1937), P. 194; Comptes rendus de L'Academie, 1935, 58, 1936, P. 20, 262, Syrie, 18, 1937, P. 355-368.

(٢) معن عرب: المرجع السابق ص ٢٢ ـ ٢٣.

ثم هناك زلزال عام ١٠٣٤م، حيث غطت مياه البحر صور، وبعض مدن فينيقيا، ثم زلزال عام ١١١٤م ثم زلازل أعوام ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٤م، حيث قضت على كثير من السكان والمباني[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن صور، قد خضعت ـ كغيرها من المدن الفينيقية ـ للسيطرة المصرية في النصف الأول من عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ق. م).

وتقدم لنا رسائل العمارنة التي كتبها أمراء فينيقيا إلى فرعون ـ وخاصة رسائل صور، وهي الرسائل من ١٤٦ إلى ١٥٥ ـ وكان أمراء لبنان قد انقسموا إلى فريقين، الواحد: ضد فرعون، ويمثله زيمردا أمير صيدا، وعبدي شرتا وولده عزيرو، أمراء الأموريين، والثاني: مع فرعون، ويمثله «ربعدى» أمير جبيل، وأبيملكي أمير صور.

وفي الواقع، فلقد كان «عبدي شرتا» أمير أمور، وقد تمكن من بسط نفوذه عنوة على حساب جيرانه، فاحتل «عرقة» ـ على مبعدة ٢٢ كيلاً شرقي طرابلس ـ و «قطنة» ـ وهي تل المشرفة الحالية، على مبعدة ١٨ كيلاً شمال شرق حمص[2] ـ و «حماة»[3] و «ني» في الداخل.

ثم احتل «أرواد»، وهاجم «سيميرا» (Simyra) شمالي أرواد، على الساحل، وفي الواقع، فلقد كان «عبدي شرتا» وأولاده ـ وخاصة عزيرو ـ إنما كانوا أعداء مزمنين لمصر، ربطوا أنفسهم بأعداء فرعون المعروفين

(١) J.N. Sepp, Meerfahrt Nach Tyrus, zur Ausgrabung der Kathedrale, Leipzig, 1879, P. 145.

(٢) A.H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, P. 166.

(٣) حماة: مدينة على نهر العاصي، شمالي حمص، دمرها الهكسوس في القرن ١٨ق. م، واحتلها الميتانيون في حوالى عام ١٥٥٠ق. م، ثم الآراميون حوالى عام ١١٠٠ق. م، ثم الحيثيون، فالآشوريون عام ٧٢٠ق. م، وأطلق عليها السلوقيون باسم «إيبفانيا»، واحتلها الروم عام ٦٤ قبل الميلاد.

باسم «الخايرو» أو «ساجاز» (قاطعوا الرقاب)، ثم فيما بعد بالحيثيين[1].

وفي نفس الوقت، فقد كان هناك «ربعدي» (رب آدي) أمير جبيل، وقد ظل موالياً لمصر طوال حياته ـ رغم توسلاته اليائسة إلى فرعون، يطلب فيها العون ضد «عبدي شرتا» «عبدي عشرتا» وولده «عزيرو»[2].

وفي الواقع لم يكن «ربعدي» وحده هو الذي اتهم «عزيرو» بنشاط معادٍ لمصر، فهناك «أبيملكي» (Abimiliki) أمير صور[3]، و «إكزي» حاكم قطنه[4].

هذا وتشير رسائل العمارنة كذلك إلى أن «أبيميلكي» ـ حاكم صور ـ إنما كان في نزاع طال أمده مع «زيمردا» حاكم صيدا، على مدينة ادعى أن الأخير قد أخذها منه[5]، وهذا ـ على وجه اليقين ـ هو سبب العداوة بين الرجلين[6].

وعلى أية حال، فلقد كتب «أبيملكي» أمير صور، يشكو أمير صيدا لفرعون فيقول: «إن زيمردا ـ حاكم صيدا ـ و «عزيرو» عدو الملك، وشعب أرواد، قد أقسموا، وأعادوا القسم فيما بينهم، وجمعوا سفنهم وعرباتهم ومشاتهم، لغزو صور، خادمة الملك، غير أن يد الملك القوية قد وصلت، فهزمتهم صور، وضربتهم، ولم يستطيعوا غزوها، ولكنهم هزموا سيميريا،

---

(١) محمد بيومي مهران: اخناتون ص ٢٥٦، أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ٣٢٠، عبد العزيز صالح: مصر والعراق ص ٢١٨، وكذا

A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, P. 231.

K.A. Kitchen, Suppiluliuma and The Amarna Pharaobs, Liverpool, 1962.

(٢) S.A. Mercer, The Tell-Amarna Tablets, P. 279, 303, 311.

(٣) W.F. Albright, The Egyptian Correspondence of Abimilki, Prince of Tyre, JEA, 23, 1937, P. 190 F.

(٤) S.A.B. Mercer, The Tell-Amarna Tablets, I, Toronto, 1930 No. 55.

(٥) Ibid, No. 162

(٦) F.J. Giles, Ikhnatonl Legend and History, London, 1970, P. 174.

بنصيحة زيمردا، الذي أتى بكلمة الملك إلى عزيرو»[1].

وكتب «أبيميلكي» في رسالة أخرى يقول: «لقد أدار الملك وجهه ناحية خادمه، وأعطاه جنوداً لحماية مدينة الملك سيدي»[2].

وفي رسالة ثالثة يقول: «فمنذ أن سمعوا اسم الملك، واسم جيشه، فإنهم يشعرون بخوف عظيم، حتى الذين لا يتبعون الملك»[3].

وكتب «أبيميلكي» في رسالة رابعة لفرعون يقول: «إلى الملك مولاي وسيدي، هكذا يقول أبيميلكي خادمك، سبع مرات، وسبع مرات، أسقط على قدميك، إن الذي قاله الملك مولاي قد نفذ، إن كل الأرض قد ارتعدت من جنود الملك مولاي، لقد سمحت لشعبي بأن يبحروا بالسفن لمقابلة جنود الملك مولاي»[4].

وفي رسالة خامسة يطلب «أبيميلكي» من فرعون إمداده بالمياه والأخشاب، ويخبره أن صيدا قد انضمت إلى الجهة المضادة، وبإمكانه تقدير حالة صور الصعبة، في هذا الظرف، وتبدأ الرسالة على الشكل التالي:

«إلى الملك سيدي وشمسي وإلهي، هذا ما يقوله أبيميلكي، سبع مرات، ثم سبع مرات، أمرغ نفسي على أقدام الملك سيدي، أنا التراب بين أقدام الملك، وعليه يطأ، يا مليكي وسيدي، أنت صنو الإله شمس، والإله رمون في السماء»[5].

---

(١) S.A.B. Mercer, op-cit, II, 1939, P. 489 F, L. 59-68.

(٢) S.A.B. Mercer, Op-cit, II, No 150

(٣) S.A. Mercer, Op-cit, II, No. 153

وكذا J.A. Kundtzon, Die El-Amarna Tafeln, 1915, P. 615.

(٤) S.A.B. Mercer, op-cit, No 153

وانظر (محمد بيومي مهران: اخناتون ص ٢٦٨ ٢٦٩)، ثم انظر رسائل العمارنة أرقام: ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١ في

S.A.B. Mercer, op-cit.

(٥) معن عرب: صور ص ٢٨،

وعلى أية حال، فلقد كتب لفراعين الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٩ ـ ١١٨٤ق. م) ـ وخاصة «سيتي الأول» (١٣٠٩ ـ ١٢٩١ق. م) و «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ق. م) من إيقاف تفكك الإمبراطورية المصرية في غربي آسيا، وإعادة السيطرة المصرية على سورية وفينيقيا وفلسطين[١].

ثم تمكن رعمسيس الثالث (١١٨٢ ـ ١١٥١ق. م) من الأسرة العشرين (١١٨٢ ـ ١٠٨٧ق. م) من القضاء على «شعوب البحر» في مصر وبلاد الشام[٢].

٦ ـ طربلس:

تقع طرابلس على مبعدة ٩٠ كيلاً شمالي بيروت، ويخترقها نهر «قاديشا» من الجنوب إلى الشمال، بحيث يقسمها إلى مركزين عمرانيين متميزين، يتدرجان في الارتفاع، أحدهما على الضفة اليسرى من النهر، ويعرف اليوم باسم «تل أبي سمرة»، الذي كان يسمى على أيام الصليبيين باسم «تل الحجاج»، وقد أقيم على هذا التل قلعة صليبية، ما زالت تعرف

= وكذا A. Jirtu, Geschichte Von Palastina-Syrien in Orientalischen Altertum Sluttgart 63.

(١) انظر (محمد بيومي مهران: مصر ٣/ ٣٤٩ ـ ٣٦٠،

وكذا A.H. Gardiner, Egypt og The Pharaohs, P. 253-264.
PM, VII, 383, 393.

وكذا A. Gardiner, JEA, 6, 1920, P. 99-116.
JEA, 52, 1966, P. 72-97.

وكذا R. Faulkner, JEA, 32, 1947, P. 37-39.

(٢) انظر (محمد بيومي مهران: مصر ٣/ ٣٧٣ ـ ٣٨٥،

وكذا W.F. Edgerton and J.A. Wilson, Historical Records of Ramsses, III, Chicago, 1936, P. 22-52.
A. Gardiner, op-cit, P. 281 F.

وكذا H. Nelson, JNES, II, 1943, P. 45.

حتى اليوم باسم «قلعة سنجيل»، نسبة إلى مؤسسها «ريموند دي سان جيل كونت دي تولوز».

وأما القسم العمراني الثاني: فيقع على ضفة نهر أبو علي اليمني، ويطلق عليه «تل القبة»، وتصل مياه نهر أبو علي (حيث يعرف نهر قاديشا في قسمه الأدنى باسم نهر أبو علي، ونهر قاديشا في القسم الأعلى» إلى الطبقات العليا من دور طرابلس المرتفعة التي يرقى إليها بدرج[1].

وكان من أثار اختراق نهر أبو علي لمدينة طرابلس أن كثرت بساتينها ومزارعها في العصور التاريخية المختلفة، وازدادت بسبب ذلك ثروتها الزراعية والتجارية.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مدينة طرابلس الحالية إنما هي من عمل السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون» (١٢٢٣ ـ ١٢٩٠م)، الذي فتح طرابلس في عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، في الموضع الذي كان يقوم فيه الربض الصليبي بأدنى قلعة صنجيل.

وأما طرابلس التي كانت على أيام الصليبيين، فقد خربتها جيوش قلاوون.

وأما طرابلس القديمة ـ وكانت تعرف بالميناء ـ فهي شبه جزيرة، يحيط بها البحر من ثلاث جهات، وتبعد عن طرابلس المحدثة بنحو ٣ كيلاً، وما زالت حتى اليوم مركزاً عمرانياً قائماً بذاته[2].

هذا وقد ورد اسم «طرابلس» في بعض المصادر العربية، بإضافة ألف

---

(١) جورجي يني: تاريخ سوريا ـ بيروت ١٨٨١م ص ٣٧٢، ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ـ بيروت ١٩٠٩م ص ٢٦٣، السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي الإسكندرية ١٩٦٦، ص ١٠ ـ ١١، وكذا R. Boulanger, Liban, Paris, 1955, P. 117.

(٢) السيد عبد العزيز: المرجع السابق ص ١٢ ـ ١٣، وكذا Van Berchem et Fatio, Vogyage dans Memoires, IFAO, 1914, P. 116.

مهموزة، «أطرابلس»، ويشير «السمعاني» إلى أنه قد تسقط «الألف» منها، لتميزها عن «أطرابلس» المغرب.

غير أن «ياقوت الحموي» (٥٧٤ ـ ٦٢٦هـ/١١٧٨ ـ ١١٢٧م)، إنما ينكر سقوط الألف من طرابلس الشام، ويعيب على «المتنبي» (أبو الطيب أحمد بن الحسين ٩١٥ ـ ٩٦٥م) حذفها منها في قوله:

أكارم حسد الأرض السماء بهم   وقصرت عن كل مصر طرابلس

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن لفظة «طرابلس» إغريقية، بمعنى «ثلاثة مدن» وهو تفسير شاع بين المؤرخين الذين يرجعون هذا الاسم إلى الإغريق، اعتماداً على أن طرابلس، إنما كانت ـ بادىء ذي بدء ـ تتكون من أحياء ثلاثة (حي الصوريين، وحي الصيداويين، وحي الأرواديين)[٢].

غير أن طرابلس مدينة فينيقية، أسست ربما في القرن السابع قبل الميلاد، ومن ثم فإن لها اسماً فينيقياً أقدم من أسمها السامي، وهو «أثر»، وقد عرفت منذ العصر الفارسي (السادس قبل الميلاد)، بعد أن أصبحت تمثل اتحاد المدن الفينيقية، في السنة الأولى من عهد الملك الفارسي «أرتكز راكسيس ٣» (٣٥٨ ـ ٣٣٨ق. م) ـ والمعروف باسم «أخوس» ـ وتطالع هذا الاسم على العملات التي يرجع تاريخها إلى عام ١٨٩/١٨٨ق. م، هذا وقد أطلق الإغريق على المدينة اسم «تريبوليس» (طرابلس ـ بمعنى ثلاث مدن) ـ بجوار اسمها الفينيقي السامي «أثر».

وكانت المدن الفينيقية تتمتع بالاستقلال في العهد الفارسي، وقد

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ـ بيروت ١٩٥٥ ـ الجزء الأول ـ مادة طرابلس.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١٤٢/٤ (القاهرة ١٩١٣)، ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣٢٢/٧ (القاهرة ١٩٣٨).

حاولت هذه المدن إنشاء اتحاد بينها، ترأسه مدينة طرابلس، والتي كانت تتألف من ثلاث جاليات (صيداوية وصورية وأروادية) ـ كما أشرنا آنفاً ـ وكانت المدن الفينيقية الأربع (صيدا وصور وأرواد وطرابلس) تعقد مؤتمراً سنوياً في مدينة طرابلس يحضره حوالى ٣٠٠ معتمد، يبحثون فيه كل المشاكل والشؤون التي لها علاقة بمصالح البلاد عامة.

هذا وقد انعقد في عام ٣٥١ قبل الميلاد، أحد هذه المؤتمرات في شكل مؤتمر عام، أعلن فيه المؤتمرون عن عزمهم على إعلان الاستقلال التام[١].

ومع ذلك فإن اسم طرابلس الفينيقي غير معروف، ويرجح «أنيس فريحة» أن يكون اسم «تربيل» (Tur-Bil) ـ أي جبل الإله بيل ـ هو الاسم الفينيقي للمدينة وقد عرفت به منذ تأسيسها، ثم أضيفت إليه اللاحقة الإغريقية (S)، ويعتمد الدكتور فريحة في ذلك على حقيقة جغرافية هامة، وهي أنه ـ على مقربة من طرابلس ـ يوجد جبل يدعى «تربل» ـ أي جبل الإله أو الله[٢] ـ.

وبدهي أنه ليس من المستبعد أن يكون «تربيل» هو الاسم الفينيقي القديم لمدينة طرابلس، وذلك لأن لفظة «تر» لفظة فينيقية بمعنى «الجبل»، وتقابلها في العربية لفظة «طور» بمعنى الجبل، الذي يكسوه الشجر ـ كما

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ١٨٨ ـ ١٨٩،
وكذا Diodorus, XVI, Ch. 41.
وكذا Strabo, XVI, Ch. 2, 15.
G.F. Hill, Catalogue of Greek Coins o Phoenicia, London, 1910, P. 48.
R. Dussaud, Topographie historique de la syria antique et medievale Publication du Haut Commissariat de la Republique Francaise en Syrie et au Liban Bibliotheque archaologique et historique, IV, Paris, 1927, P. 75.

(٢) أنيس فريحة: أسماء المدن والقرى اللبنانية، وتفسير معانيها ص ٢٠٧ (منشورات الجامعة الأمريكية في بيروت ـ بيروت ١٩٥٦).

في طور سيناء ـ هذا ويقع جبل «تربل» ـ الذي أشار إليه الدكتور فريحة ـ شرقي طرابلس[1].

ولعل اسم «تريل» ـ أو حتى طوربيل ـ قد حرف فيما بعد على أيدي الأغارقة، بعد أن أضيفت اللاحقة الإغريقية إلى «تربيل» فأصبح «تريبوليس»، تأكيداً لوجود ثلاثة أحياء في المدينة، تمثل المدن الفينيقية الثلاثة ـ صور وصيدا وأرواد ـ فأصبحت لفظة «تريبوليس» (Tripolis) اليونانية، التي تتشابه في نطقها مع «تربيل»، تعني المدينة ذات الأحياء الثلاثة، ثم عربت اللفظة الإغريقية إلى «طرابلس»، على نحو ما حدث في تسمية «طرابلس الغرب» في ليبيا[2].

والواقع أن هذا التحريف كثيراً ما حدث في المدن العربية، مثل الفسطاط[3]، والبصرة[4]، ....

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ـ الجزء الرابع ص ٤٧، السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ـ ص ٤ ـ ٦.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦ ـ ٧.

(٣) انظر (محمد بيومي مهران: معجم المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الأول ص ١٠٠، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٨) ـ والفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية، اختطت عام ٦٤١م، وظلت كذلك حتى اختط العباسيون ـ بعد قيام دولتهم في عام ١٣٢هـ، وقتل مروان بن محمد في أبوصير، عام ١٣٣هـ (٧٥٠م) ـ مدينة «العسكر»، ثم خلفتها «القطائع» التي بناها «أحمد بن طولون»، على سفح جبل المقطم، شرقي العسكر، في شعبان عام ٣٥٦هـ (أغسطس ٨٧٠م)، ثم «القاهرة» التي بناها الفاطميون (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ ـ ١١٧١م)، وأصبحت عاصمة لمصر ـ وما تزال ـ عند وصول المعز لدين الله الفاطمي مصر في ٧ رمضان عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م.

(٤) البصرة: أول مدينة إسلامية أسست في العراق عام ١٦هـ/ ٦٣٧م، وتقع على مبعدة ٢٢ كيلاً من «الأبلة» على الخليج العربي، وإن كان هناك اختلاف في تاريخ تأسيسها فيما بين أعوام ١٤، ١٥، ١٦هـ، وذلك في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م).

وبغداد[1]، وسامراء[2].

وعلى أية حال، فإن أهمية طرابلس إنما بدأت منذ اختيرت مركزاً للاتحاد الفينيقي الذي يضم مدن: صور وصيدا وأرواد وطرابلس، وكانت طرابلس قبل ذلك مجرد قرية صغيرة.

وأطلق على مدينة «طوربيل» اسم سامي هو «أثر»، ثم بدل فيما بعد إلى اسم «تريبوليس»، وهي لفظة إغريقية، تعني «المدينة الثلاثية» أو «الثلاث مدن»، تعبيراً عن الأحياء الثلاثة التي كانت تتكون منها المدينة، وكان يحيط بكل من هذه الأحياء سور قائم بذاته[3].

هذا وقد وردت أسماء هذه الأحياء في حوليات العاهل الأشوري «أشور ناصر بال الثاني» (٨٨٣ ـ ٨٥٩ق. م) على هذه الصورة: «مخلات ومايز وكايير»[4].

---

(١) بغداد: عاصمة الخلافة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ/ ٧٥٠ ـ ١٢٥٨م) بناها الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م)، وقد بدأ بناؤها في عام ١٤٥هـ، وتم البناء عام ١٤٧هـ في منطقة في وسط العراق، حيث العواصم القديمة ـ مثل «أكد» عاصمة سرجون الأول، و «بابل» عاصمة الأموريين والكلدانيين والأخمينيين، و «سلوقية عاصمة السلوقيين»، و «طيسفون» (المدائن) عاصمة الفرثيين والساسانيين، وفي أطراف المنطقة، كانت الحيرة عاصمة المناذرة شمالاً، والكوفة المركز الرئيسي الأول للعرب المسلمين في العراق (انظر محمد بيومي مهران: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الثاني).

(٢) سامراء: تقع سامراء على الضفة اليسرى لنهر الدجلة، وعلى مبعدة ١٠٠ كيلاً شمالي بغداد، وقد بنى الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م)، عاصمته «سامرا» في نفس الموقع في عام ٢٢٠هـ، ثم انتقل إليها من بغداد بجيشه وكبار رجال دولته، ثم ظل الخفاء العباسيون يقيمون في «سامرا» حتى نهاية عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ)، ثم عادوا إلى بغداد، وحتى نهاية دولتهم في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ١٨ ـ ٢٠،
وكذا Bruce Conde, Tripoli of Lebanon, Beirouth, 1961, P. 9.

(٤) R.Dussaud, op-cit, P. 75

ولما نجح الإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ق. م) في سحق الفرس في موقعة «إيسوس» في عام ٣٣٣ قبل الميلاد، سرعان ما زحف إلى فينيقيا، واستقبله القوم هناك في لهفة وفرح، ورحبوا به ترحيباً بالغاً، على أنه المخلص لهم من حكم الفرس واستبدادهم، وما لبثت طرابلس أن استسلمت لقواته المظفرة في عام ٣٣٣ قبل الميلاد ـ وفعلت نفس الأمر، مدن الساحل الفينيقي ـ مثل ماراتوس وأرواد وجبيل وصيدا ـ وإن استعصت عليه صور كثيراً ـ كما رأينا من قبل ـ.

وبموت الإسكندر في بابل في ١٣ يونية من عام ٣١٢٣ق. م، أصبحت طرابلس من ممتلكات «أنتيجونوس»، وقد أقيمت في طرابلس ـ كما أقيمت في جبيل وصيدا ـ دوراً لصناعة السفن، وظلت فينيقيا كلها ممزقة بين القوتين الجديدتين ـ قوة البطالمة في مصر، وقوة السلوقيين في سورية.

وعلى الرغم من الطابع الهليني، الذي أخذ يشمل كل مناحي الحياة الفينيقية ـ مادية وأدبية ـ فإن الجوهر الفينيقي بقي سليماً، واحتفظ الساميون بعاداتهم الموروثة[١]، وكانت حركة التاغرق حركة ظاهرية، أكثر منها واقعية، فسرعان ما أخذت المدن السورية القديمة التي تأغرقت، تسترد شخصيتها السامية من جديد، وإن احتفظت مدينة «تريبوليس» باسمها الإغريقي، وهو الإسم (تريبوليس) الذي عربه الفاتحون العرب إلى «طرابلس»[٢].

هذا وقد أصيبت طرابلس في عهد الامبراطور الروماني «مارشيان» (٤٥٠ ـ ٤٥٧م) بزلزال عنيف، دمر كثيراً من منشآتها، ودك مانيها[٣]، غير

(١) Jacques Nantet, Histoire du Liban, Paris, 1963, P. 27-29.
وانظر: جورجي يني: تاريخ سورية ص ٣٧٦.

(٢) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢٧٨/١ (بيروت ١٩٥٨).

(٣) لويس لورته: مشاهدات في لبنان ص ٩ (بيروت ١٩٥١).

أن المقاومة العنيفة التي قابلت بها طرابلس الجيوش العربية الإسلامية الفاتحة، إنما تدل على أن المدينة قد أعيد بناؤها من جديد، قبل الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي[١].

وعلى أية حال، ففي عام ١٧هـ، كان يزيد بن أبي سفيان قد فتح صيدا وعرقة[٢] وجبيل وبيروت، ولم يلق مقاومة تذكر.

وأما طرابلس فقد كان فتحها يستلزم حصاراً ـ براً وبحراً في آن واحد ـ قد يطول أمده، ومن ثم فلم يتم فتحها، إلا بعد ناء الأسطول الإسلامي في خلافة الخليفة الراشد «عثمان بن عفان»، رضوان الله عليه، ثم أصبحت طرابلس بعد ذلك قاعدة بحرية، وداراً للصناعة، وذلك بسبب توفر الخشب اللبناني ـ خشب الأرز ـ وذلك حوال عهد الدولة الأموية[٣].

وهناك ما يشير إلى أن الروم تمكنوا على أيام معاوية بن أبي سفيان من ذبح عامله على طرابلس، وإحراق قطع من الأسطول الإسلامي الراسي في مينائها، وقد تمكن معاوية من القضاء على هذه الحركة، ثم قام بنقل جماعة من الفرس، وكذا الأساورة، إلى سواحل الشام في عام ٤٢هـ، ومن بينها «طرابلس»[٤].

---

(١) تقرير بعثة اليونسكو إلى لبنان ص ١٠،
وكذا Bruce Conde, op-cit, P. 10.
وكذا Sobernheim, Corpus Inscriptionum Arabicarum, II, 1909, P. 38.

(٢) ورد اسم عرقه في رسائل العمارنة باسم «أركاتا»، وفي النصوص الآشورية باسم «أركة» وكانت على أيام الرومان مركزاً هاماً، كما قامت بدور هام في الحروب الصليبية (انظر: R. Dussaud, op-cit, P. 80).

(٣) السيد عبد العزيز سالم: طرابلس ص ٣١ ـ ٣٢، البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٥٠ ـ ١٥٢ (نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ـ القاهرة ١٩٥٦).

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٥١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ـ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ـ بيروت ١٩٣٩، ٨/ ٧٦، جورجي يني: المرجع السابق ص ٣٧٨، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٣٧ (ليدن ١٨٩١م).

٧ ـ بيـروت:

بيروت (Beyrouth) (وهي بثرونا في رسائل العمارنة بمعنى الآبار) مدينة فينيقية قديمة، على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط، هي اليوم عاصمة الجمهورية العربية اللبنانية، واسمها القديم «بيروتا» ـ وهي لفظة سامية بمعنى الآبار والينابيع، وفي الأكدية «بورتو»، من نفس جذر لفظة «بير» العربية ـ.

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن مدينتي «بيروت» و «جبيل»، إنما هما أقدم مدن الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ومما يشير إلى ذلك، العثور على أحجار صوانية مشغولة، ترجع إلى أزمنة مترامية في القدم[١].

هذا وقد عثر في «بيروت» على تمثال صغير لأبـى الهول، هذا فضلاً عـن قلادة للملك «أمنمحات الرابع» (١٩٩١ ـ ١٧٨٦ ق. م)[٢]، مما يشير إلى أن بيروت ـ شأنها في ذلك شأن جبيل ـ إنما كانت على علاقات تجارية متطورة، منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

هذا وقد تردد اسم «بيروت»، وأميرها «خامونيري» كثيراً في رسائل العمارنة، ففي الرسالة ١٣٦، نرى «ربعدي» أمير جبيل، تقوم ضده ثورة ـ بقيادة أخيه ـ وهو في زيارة لمدينة بيروت[٣].

وفي الرسالة ١١٨، يصف «ربعدي» أمير جبيل، مدينة بيروت[٤] ـ وكذا صور[٥] وحكامهما ـ بأنهم أعداء فرعون في أكثر من مناسبة، على الرغم من أن «ربعدي» إنما قد ذهب لمساعدة «خامونيري» (أمونيري ـ Ammuniru) ـ أمير بيروت ـ ولعقد حلف معه، قبيل سقوطه[٦].

---

(١) هنري عبودي: معجم الحضارات السامية ـ بيروت ١٩٨٨ ص ٢٥٦.

(٢) جان يويون: مصر الفرعونية ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٩٩، وكذا

W.S. Smith, Interconnection in The Ancient Near East, London, 1965, P. 14.

(٣) S.A.B. Mercer, The Thell-El-Amarna Tablets, Toronto, 1939, No. 136.

(٤) Ibid., No. 118

(٥) Ibid., N. 89

(٦) Ibid., No. 136-137

وعلى أية حال، فما يفهم من رسائل العمارنة، أن «عبد شرتا» وأولاده ـ وخاصة عزيرو ـ و «قوم ساجاز»، إنما هم ـ كما يذكر ربعدي ـ الأعداء الأساسيون للملك، بينما كان أمراء صيدا وبيروت وصور، والموظف المصري في غربي آسيا «إيبادي»، هم الأقل عداوة[1].

هذا وقد كتب «خامونيري» أمير بيروت إلى الفرعون رسالة يقول فيها:

«إلى الملك مولاي، إلهي، نسمة حياتي، أقول، هكذا يقول خامونيري، رجل بيروت، خادمك، تراب قدميك، على قدمي مولاي الملك، شمسي وإلهي ونسمة حياتي، سبع مرات، وسبع مرات أسجد، وأكثر من هذا، إنني سمعت كلمات مولاي، الملك، شمسي وإلهي ونسمة حياتي، إن قلب خادمك قد فرح، وتراب قدمي الملك، سيدي وشمسي وإلهي ونسمة حياتي، لأن نسمة الملك، سيدي وإلهي وشمسي، قد ذهبت إلى خادمك، وتراب قدميك، وأكثر من هذا، إن الملك مولاي وشمسي قد كتب إلى خادمه، وتراب قدميه، استعد لاستقبال حملة أقواس الملك مولاك، لقد سمعت، وحقيقة لقد استقبلتهم بخيلي وعرباتي، وكل ما يتعلق بي، أنا خادم الملك، فهو لحملة أقواس مولاتي، لعل فرق مولاي الملك، سيدي وإلهي ونسمة حياتي، تحطم جباه أعدائه»[2].

وهناك الكثير من هذا النوع من الرسائل، التي نرى فيها أصحابها، يفخر الواحد منهم بوصول رسائل إليه من الفرعون، تتعلق بوصول جيوش فرعون، فضلاً عن تقديم كل وسائل الخضوع والخنوع، إلى جانب أن صاحب الرسالة إنما قد أعد كل شيء لاستقبال جنود الملك[3].

(١) محمد بيومي مهران: أخناتون: عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣،
وكذا F.J. Giles, Ikhnaton, Legend and History, London, 1970, P. 171-172.

(٢) J.A. Kundtzon, oo-cit, P. 579.
وكذا S.A.B. Mercer, op-cit, II, P. 457.

(٣) محمد بيومي مهران: اخناتون ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨
وكذا S.A.B. Mercer, op-cit, No. 191, 193, 195, 199.

هذا وقد كتبت رسائل «خامونيري» (أمونيري) أمير بيروت ـ على وجه التقريب ـ في الوقت الذي سقطت فيه جبيل (جبلة ـ بيبلوس)، وربما كتب غيره كذلك في نفس الوقت[1].

وهناك ما يشير إلى أن بيروت قد دمرت في عام ١٤٠م، بأيدي الإغريق، ثم أعيد بناؤها على أيدي قوات «ماركوس أجريبا» غرب المدينة القديمة في عهد الامبراطور «أغسطس» (٢٧ق. م ـ ١٤م)، وعرفت باسم «مستعمرة جوليا أوغسطا السعيدة، بيروت» Colonia Julia Augusta) (Felix, Berytus، على اسم جوليا ابنة اغسطس[2].

هذا وكانت «بيروت» المدينة الوحيدة من مدن الساحل، التي كان لها مقام ثقافي، كما كانت أقدم مستعمرة رومانية في فينيقيا، ففي عام ١٧ قبل الميلاد، أقام بها جنود متقاعدون من الجيشين ـ المقدوني والغالي، بقيادة أحد قواد أغسطس قيصر، فكانت أشبه بحصن يمد حاكم الولاية بمزيد من الجنود، عند الحاجة، فمثلاً أمدت بيروت حاكم سورية ـ على أيام أغسطس قيصر ـ بألف وخمسمائة جندي، وهو في طريق لمحاربة اليهودية[3].

هذا فضلاً عن أن بيروت إنما كانت قاعدة الأسطول الروماني في الجزء الجنوبي الشرقي من البحر المتوسط، كما كان أهلها ـ باعتبارها مستعمرة رومانية ـ إنما كانوا يتمتعون بامتيازات الحكم الذاتي، والإعفاء من ضريبتي الرؤوس والخراج، ثم ألغيت هذه الامتيازات عندما أصدر «كركلا» (٢١١ ـ ٢١٧م) قانوناً بمنح المواطنة لجميع المواطنين الأحرار في

---

(١) محمد بيومي مهران: اخناتون ص ٢٦٨،
وكذا F.J Giles, op-cit, P. 170.

(٢) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ٢٧١،
وكذا Pliny, BK,V, ch. 17, 20.

(٣) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٧١،
وكذا Jasephus, Antiquities, XVIII, 10, 9.

امبراطوريته، ومع ذلك فقد أصبحت بيروت ـ وبعلبك ـ مركزاً للحياة الرومانية في بلاد هلينية الحضارة..

وكان الولاة اليهود الذين كانوا يحكمون كملوك في اليهودية ـ تحت إمرة الامبراطور الروماني ـ يغدقون العطاء على بيروت في شكل أبنية عامة فخمة ـ إرضاً للروم ـ كما فعل «هيرودوس الكبير» (٣٧ ـ ٤ق. م)[١] ـ مؤسس الأسرة الأدومية (٣٧ ق. م ـ ١٣٥ م) ـ وكما فعل غيره من حكام هذه الأسرة[٢]، وكما فعل «أغريبا الأول» (٤١ ـ ٤٤ م) ـ حفيد هيرودوس ـ فلقد كرم بيروت وجملها، ببناء مسرح فيها غاية في الجمال والعظمة، كما بنى ملعباً مستديراً للرياضة، وحمامات عامة، فضلاً عن أبنية عامة، ذات أروقة مسقوفة، وقد أنفق على كل ذلك بسخاء وإسراف.

وفي حفل تدشين هذه الأبنية، ورغبة منه في إثارة الناس، فلقد أطلق في الملعب المستدير، ألفاً وأربعمائة من المسجونين، زوجاً زوجاً، لكي يتقاتلا حتى الموت[٤].

وفي أثناء حروب الامبراطور «فسباسيان» (٦٩ ـ ٧٩م) ضد اليهود، نصّبه جنوده امبراطوراً في مدينة «قيصرية»[٥] في عام ٦٩م، وعندما قفل

---

(١) انظر: Josphus, Antiquities, BK, XVI, ch. 11, 2.

(٢) انظر عن الأسرة الآدومية (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ١١٤٠ ـ ١١٥٨).

(٣) Josephus, Antiquities, BK, XIX, ch 7, 5

(٤) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٧٢.

(٥) قيصرية: بناها «هيرودوس الكبير» (٣٧ ـ ٤ق. م) على ساحل البحر المتوسط، وعلى مبعدة ٧٢ كيلاً جنوبي عكا، ٧٥ كيلاً، شمال غرب أورشليم القدس، وذلك في عام ١٠ قبل الميلاد، وأسماها «قيصرية» تكريماً للامبراطور «أغسطس قيصر» (٢٧ ق. م ـ ١٤م)، وقد أصبحت عاصمة فلسطين الرومانية (انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ١٤٤،

وكذا Strabo, XVI, 2, 27.

وكذا M.F. Unger, op-cit, P. 470-471.

وكذا Pliny, V, 14. =

عائداً إلى روما، عرج على بيروت، وظل فيها مدة يتلقى تهاني الوفود التي جاءته من سورية وغيرها من الولايات، وكان على رأس الوفود «موسيانوس» (Mucianus) ـ حاكم سورية، ليؤكد للامبراطور الجديد أن كل السكان قد أقسموا له يمين الطاعة والولاء[1].

ثم عين «فسباسيان» ولده «تيتوس» قائداً، لمتابعة الحرب ضد اليهود، وبدأ تيتوس في مهاجمة أورشليم (القدس)، ونجحت جيوشه في دخول المدينة المقدسة في سبتمبر عام ٧٠م، وأضرمت النار فيها، وهدم المعبد الذي بناه «هيرودوس الكبير» فوق أبنية متعاقبة في نفس الموقع، وأشعلت النار في قدس الأقداس، ويقدر المؤرخ اليهودي المعاصر للأحداث «يوسف بن متى» عدد القتلى بمليون وثلاثمائة وخمسين ألفاً، هذا فضلاً عن تسعمائة ألف آخرين، أسروا ـ أو بيعوا كرقيق، كما مات مئات الألوف غيرهم من المجاعة والأوبئة والمذابح، ورغم أن الأرقام مبالغ فيها إلى حد كبير، إلا أن المدينة قد خربت تماماً، وهدم كل شيء فيها[2].

ثم ذهب «تيتوس» إلى بيروت ـ بعد سقوط القدس ـ وهناك أقام حفلات وأعياد بهذه المناسبة، لم تشهد لها بيروت مثيلاً، ومثال ذلك حفلاً أقامه «تيتوس» في ملعب «أغريبا» المستدير، حيث قذف بالأسرى اليهود إلى الوحوش الجارحة، ومشاهدة اقتتالهم حتى يفني بعضهم بعضاً[3].

= وكذا Josephus, Antiquities, XV, 9, 6.

(١) انظر: Josephus, Jewish Sar, BK, IV, ch. 10, sec 6.

(٢) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/١١٥٢ ـ ١١٥٥، جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيا ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩ ـ ٢٠.

W. Keller, The Bible as History, 1967, P. 388.

C. Roth, Ashort History of The Uewish People, London, 1969, P. 103-107.

وكذا E. Hintington, Palestine and its Transformation, Baston, 1911.

(٣) فيليب حتي: تاريخ لبنان ـ بيروت ١٩٨٥ ص ٢٧٣،

وكذا Josephus, Jewish War, BK, VII, ch, 3, 1.

هذا وقد أقام «أغريبا الثاني» (ت حوالى ١٠٠م) قصراً لإقامته في بيروت، ومسرحاً فخماً، تقام فيه الحفلات التمثيلية السنوية، وتفرق أثناءها الهدايا والعطايا على الفقراء من الناس.

ويقول «يوسفيوس فلافيوس» أو «يوسف بن متى» (٣٧ ـ ٩٨ أو ١٠٠م) ـ المؤرخ اليهودي ـ «إنه جمل المدينة كلها بإقامة التماثيل، التي أنفق عليها من ماله الخاص، ورفع الصور التي رسمتها أيدي الفنانين القدامى[١].

وقد ظلت الحفلات التمثيلية، والألعاب الرياضية ـ التي عرفت بها بيروت ـ شائعة حتى القرن الرابع الميلادي.

وما يزال الذين يحفرون في أنقاض المدينة الرومانية القديمة، إنما يعثرون دائماً على أعمدة من الجرانيت ـ أو أجزاء منها ـ لا ريب في أن مصدرها إنما كان صعيد مصر، الأمر الذي يشير إلى عظمة المباني العامة التي كانت تزين مدينة بيروت[٢].

وكان معبود بيروت «بوسيدون» (أو نبتون) ـ إله البحر ـ وتظهر صورته على نقود بيروت، حاملاً رمحاً أو حربة مثلثة الرأس على يده، أو قد يظهر على بعض هذه النقود راكباً مركبة تجرها خيول البحر.

هذا وقد عبد القوم في بيروت كذلك الإله البعلبكي «جوبيتر» (المشتري)، وله هيكل في «دير القلعة» في ضواحي لدة «بيت مري»، وتقع على هضبة جميلة تطل على بيروت.

هذا ويقول على أطلال هيكل «جوبيتر» هذا، دير للطائفة المارونية، وقد بنيت كنيسة الدير باحجار الهيكل الروماني القديم.

---

(١) انظر: Josephus, Antiquities, BK, XX, ch. 9, 4.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٧٣،
وكذا Harvey Porter, History of Beirut, Beirut, 1912, P. 26-27.

هذا وقد عبد هناك كذلك ـ وقبل عبادة جوبيتر البعلبكي ـ «بعل مرقود» ـ واسمه اللاتيني (Balmarcords) ومعناه «إله الرقص»، وقد ظل القوم في بيروت يفدون إلى هيكله، حاملين القرابين حتى بعد أن شاعت هناك عبادة جوبيتر ـ وكان الرقص خاصاً بعبادته، وقد عثر في أحد النقوش اللاتينية على اسم امرأة من «بني تيم الله».

وأما الدير الماروني الحالي، فقد بنى على أنقاض هيكل روماني، والذي ـ بدوره ـ بُني على أنقاض هيكل فينيقي أسبق منه زمنياً[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن بيروت قد اشتهرت بأنها إحدى مدن ثلاثة يدرس فيها القانون الروماني[٢]، بل لقد كان في بيروت أشهر معهد روماني للقانون في الامبراطورية ـ خارج إيطاليا ـ ومن ثم فقد أصبحت بيروت قبلة أنظار طلاب القانون من جميع أنحاء المشرق.

ولا ريب في أن مؤسس هذا المعهد الروماني للقانون في بيروت، إنما هو الامبراطور «سبتميوس سيفيروس» (١٩٣ ـ ٢١١م)، وقد أنشىء له في بيروت هيكل، تخليداً لذكراه، كما أقيم له تمثال تذكاري[٣].

هذا وقد أصيبت مدينة بيروت بهزات أرضية كثيرة، منها الهزة التي حدثت في عام ٣٤٩م، تهدم بسببها بعض أجزاء المدينة.

هذا وقد شعر الناس بهزات أخرى في عامي ٤٩٤، ٥٠٢م، تسبب عنها بعض الأضرار، وإن كان أثرهما الخطير في صيدا وصور.

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦،

وكذا L. Jalabert, in Melanges de la Faculte Orientale, universite Saint-Joseph, I, Beirut, 1920, P. 181 F.

(٢) Emile Yanni, Beyrouth, dans Physionomies du Liban, P. 10

(٣) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٧٦ ـ ٢٨٣،

وكذا Paul Collinet, Histoire de l'Ecole de Droit de Beyrouth Paris, 1925, P. 16-25.

Lammens, La Vie universitaire a Beyrouth sous les Romains et le Bas-Empire, Cairo, 1921, P. 4.

وفي الفترة فيما بين عامي ٥٥١، ٥٥٥م، وقعت سلسلة من الزلازل العنيفة التي ضربت المدن اللبنانية الساحلية، تخريباً يكاد يكون كاملاً ـ ولا سيما مدينة بيروت ـ.

وفي زلزال عام ٥٥١م، طغت موجة عارمة من البحر، إثر حدوث الزلزال، سببت خسائر في الأرواح والممتلكات، أكثر مما سببه الزلزال نفسه، فقد قيل إن البحر ارتد إلى الوراء مسافة تقرب من الميل، ثم إنه عاد بشكل موجة عالية غمرت المدينة كلها، فأغرقت المباني وهدمتها، كما غرقت المراكب، أو تحطمت على الشاطئ، وقد تهدمت مباني المعهد الروماني للقانون ـ على الأرجح ـ في هذا الزلزال.

وقد مات في هذا الزلزال أكثر من ٣٠ ألف نسمة من سكان بيروت، وهرب الباقون من المدينة، تاركينها قفراً، وأما الذين نجوا فقد ارتحلوا إلى صيدا.

وفي أثناء إعادة بناء المدينة، وقع حريق هائل، قضى على كل المباني الجديدة وقد رثاها محام إغريقي من آسيا الصغرى، كان معاصر للأحداث، فقال: «بيروت أجمل المدن، الدرة في تاج فينيقيا، فقدت لألأها ورونقها، بناياتها التي تعد آيات في فن العمارة، تداعت وسقطت، ولم يبق فيها جدار واقفاً، لم يثبت منها سوى الأساسات»، وقد رثاها أيضاً شاعر إغريقي معاصر من أسبانيا.

وعلى أية حال، فلقد كان آخر زلزال حل ببيروت، إنما كان في ١٦ من شهر مارس عام ١٩٥٦، وقد نجت منه بيروت بأعجوبة، وإن أصاب قرى كثيرة في مجاوراتها[1].

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤،

وكذا Zacharias, P. 51-73 Barbucallus in Anthologia Graeca Palatina, BK, IX, Secs, 425-427.

Harbey porter, op-cit, P. 45-46.

بقيت الإشارة إلى أن الإسلام إنما دخل بيروت في عام ٦٣٥م[١]، في عهد الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) ـ رضوان الله عليه ـ

٨ ـ بعلبك:

بعلبك مدينة فينيقية قديمة، تقع على الساحل الغربي لسلسلة جبال لبنان الشرقية وعلى مبعدة ٦٧ كيلاً، شمال غرب دمشق، وعلى ارتفاع ٣٨٠٠ قدماً فوق مستوى سطح الحر.

ورغم أن معلوماتنا عن تاريخ مدينة «بعلبك» ليست كثيرة، وإن كنا ـ على يقين ـ من أن شهرتها إنما تقوم على عظمة أبنيتها الفاخرة، حتى أن هيكلها الكبير كان يُعدّ في يوم من الأيام من عجائب الدنيا السبع، هذا فضلاً عن أنها كانت أهم المدن الفينيقية في سهل البقاع[٢].

هذا وقد احتلت «بعلبك» ـ شأنها في ذلك شأن مدينة بيروت ـ مركزاً مرموقاً في العصر الروماني، فلقد أصبحتا في عهد «أغسطس قيصر» (٢٧ق. م ـ ١٤م) مستعمرتين رومانيتين، وكلتا المستعمرتين أصبحتا مركزين ممتازين للحضارة الرومانية فكانت الأولى (بعلبك ـ Baalbek) مركزاً للحياة الدينية، وكانت الأخرى (بيروت) مركز إشعاع حضاري.

هذا وقد أطلق الإغريق على المدينة اسم «مدينة الشمس» (هليوبوليس).

هذا ويرجح البعض أن اسم «بعلبك» في شكله السامي القديم «بعل بقاع»، والبقاع ـ كما هو معروف ـ هو السهل الواقع بين سلسلتي جبال لبنان الغربي والشرقي، وقد أبقى العرب على الإسم السامي القديم ـ مع بعض التحريف ـ «بعلبّك»، وفي العامية «بعْلبْك».

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٢٦.

(٢) قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣، معجم الحضارات السامية ص ٢٣٢.

هذا وقد احتلت بعض الفرق العسكرية، التي استخدمها «أوغسطس قيصر» في الاستيلاء على بيروت، مدينة بعلبك هذا ويظهر اسم هذه المستعمرة على النقود التي صكها «أوغسطس»، وقد دعاها مستعمرة «جوليا أوغسطا هليوبوليس».

ولعل من الجدير بالإشارة أن بعلبك ـ كمركز للعبادة الفينيقية القديمة ـ لم تتأثر بالحضارة الرومانية، بالقدر الذي تأثرت به بيروت، كما أنها لم تتأثر بالإغريقية، بالقدر الذي تأثرت به أنطاكية، وإنما ظلت «بعلبك» تحتفظ بالعناصر السامية، بدرجة أكثر مما احتفظت بها بيروت وأنطاكية[1].

هذا وقد وصلت «بعلبك» إلى أوج ازدهارها في الفترة (٩٦ ـ ١٩٢م)[2]، حيث بنيت في المدينة في هذه الفترة ثلاثة معابد للثالوث الهليوبوليتاني (جوبيتر ـ فينوس ـ ميركور)[3].

وكان معبد بعلبك الكبير مكرساً للمعبود الأرامي (هدد» (حدد) ـ إله البرق والرعد والعواصف ـ الإله الذي إذا أشفق ورضي، أمطرت السماء، لتسقي الأرض، فتنتج غلالاً، وإذا غضب واهتاج جاء الفيضان والسيل فيهلكان الزرع والضرع، ومن ثم فقد أقام له القوم في سورية ولبنان معابد وهياكل في كل مكان.

وبمرور الأيام، اختلطت عبادة «هدد» بعبادة الشمس، وأصبح رأسه في التماثيل محاطاً بهالة ينبثق عنه الشعاع ـ كما في بعلبك ـ.

هذا وقد تقمص الإله «هدد» ـ في الحقبة الهلينية ـ هيئة إله إغريقي روماني، «المشتري ـ أو جوبيتر ـ البعلبكي» (جوبيتر الهليوبوليتاني)

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٦٢.

(٢) حكم في هذه الفترة الأباطرة: نرفا (٩٦ ـ ٩٨م) و«تراجان» (٩٨ ـ ١١٧م) و«هادريان» (١١٧ ـ ١٣٨م) و«انطونيوس بيوس» (١٣٨ ـ ١٦١م) و«ماركوس أوريليوس» (١٦١ ـ ١٨٠م) و«كمودوس» (١٨٠ ـ ١٩٢م).

(٣) هنري عبودي: المرجع السابق ص ٢٢٣.

(Jupiter Heliopolitanus) ثم بعد ذلك «المشتري الدمشقي» (جوبيتر الدمشقي) (Jupiter Damascenus).

وهناك «المعبد الفينيقي» ـ ويرجع إلى ما قبل عصر السلوقيين ـ والذي لم يبق له الآن أثر، غير أنه من غير المقبول أن تكون «بعلبك» ـ فيما قبل عصر السلوقيين ـ خالية من المعابد، وإنما المقبول أن يكون هناك هيكل فينيقي في مدينة بعلبك الفينيقية، قبل أن يكون فيها هيكل روماني.

وهناك ما يشير إلى أن هذا الهيكل الفينيقي إنما كان له شهرة واسعة، ومقام مرموق، ويروى أن الامبراطور «تراجان» (٩٨ ـ ١١٧م)، أراد امتحان عراف الهيكل الفينيقي ـ قبل أن يقوم بحملته الثانية ضد أعدائه من الفرس الفريثيين ـ في عام ١١٦م ـ فقدم إليه ـ في ظرف مختوم ـ صحيفة بيضاء، لا كتابة عليها، فكان جواب العراف أن أرسل إليه صحيفة بيضاء لا كتابة عليها، فعظم مقامه في عيني الامبراطور لأنه أدرك أن العراف قد فهم قصده.

وهنا تقدم الامبراطور طالباً المشورة، بطريقة جدّية، فكان جواب العراف أن سلمه رمزاً: حزمة قضبان ملفوفة بقطعة من قماش[1].

وفي السنة التالية (عام ١١٧م) قضى «تراجان» نحبه في «قليقيا»، ففسر الناس معنى الرمز، وإن جاء تفسيرهم متأخراً.

وعلى أية حال، فإن الامبراطور «انطونيوس بيوس» (١٣٨ ـ ١٦١م) ـ خليفة هدريان (١١٧ ـ ١٣٨م)، إنما كان أول امبراطور روماني يشرع في بناء الهيكل، ثم استمر العمل في عهد خلفائه، حتى أسفر أخيراً عن بناء مجموعة من الهياكل في تلك البقعة التي كانت تعبد فيها «أترجاتس» (عشتروت الزهرة) ـ زوج المعبود «هدد» ـ.

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤،
وانظر: Macrobius, Saturnaborum, BK, I, ch. 23, secs, 14-16.

ثم أكمل «كراكلا» (أنطونينوس كراكلا ٢١١ ـ ٢١٧م)[١]، وخلفاؤه الهيكل، على مستوى غير معهود من قبل.

وفي عهد الامبراطور «أنطونينوس» (الأجابالوس ـ Elagabalus) (٢١٨ ـ ٢٢٢م) فتحت روما أبوابها على مصراعيها أمام الهجرات السورية اللبنانية، هذا فضلاً عن أولئك الجنود من سورية ولبنان، والذين كانوا ـ فيما يرى البعض ـ إنما يحتلون الدرجة الثانية بين جنود روما الممتازين، كما كان لهم أثر بعيد في توجيه السياسة الرومية[٢].

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن «كراكلا»، وأمه «جوليا دومنا» (أوغسطا المعظمة) إنما كانا يأمران بكتابة اسم «هليوبوليس» (اسم بعلبك الإغريقي) على النقود التي كانا يصكانها.

وما تزال حتى اليوم في «بعلبك» كتابة النذور المنقوشة على مصاطب الأعمدة الضخمة، المرفوعة إلى «جوليا دومنا» (أوغسطا المعظمة)، تكريماً لها، وتبركاً بها. وجاء في نقش لاتيني: أن الأعمدة المغطاة بالنحاس، ورؤوس الأعمدة المذهبة هي تقدمة من جندي، وقفهما على شرفهما[٣].

هذا ويظهر كذلك اسم «هيكل بعلبك» على النقود التي صكها الامبراطور الروماني «فيليب العربي» (٢٤٤ ـ ٢٤٩م).

---

(١) كانت أم كراكلا، وتدعى «جوليا دومنا» ـ ابنة كاهن إله الجبل (Elagabal) ـ من مدينة حمص، وكانت امرأة على جانب كبير من الجمال والذكاء، وقد لقبت بلقب «أوغسطا المعظمة»، وكانت تشارك زوجها تدبير أمور الدولة.
وكان لها أخت أصغر منها تدعى «جوليا ميزا» كانت تفوقها ذكاء ومقدرة، تزوجت قائداً رومانياً، وانتقلت للسكن معه في العاصمة، وعندما اغتيل ابن اختها «كراكلا» نجحت في تنصيب حفيدها «الاجابالوس» (Elagabalus) (٢١٨ ـ ٢٢٢م) أي «إله الجبل»، على عرش الامبراطورية الرومانية.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦، وكذا Rostovtzeff, Social and Economic History of The Romen Empire, P. 617.

(٣) Corpus Inscriptionum Latinarum, III, No. 138.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التقاليد الوطنية إنما كانت تصور إله بعلبك هذا، في هيئة شاب أمرد، يرتدي رداء فارس يقود مركبة، وبيده اليمنى سوط، رمزاً للصاعقة، وفي يده اليسرى رمز البرق، ثم مجموعة من لفائف القمح(١).

وكان أشراف القوم يحملون تمثال الإله على أكتافهم ويطوفون به ـ في أعياد دينية معينة ـ وكان لحمل التمثال استعداد ديني خاص، فكانوا يحلقون رؤوسهم، ويأخذون على أنفسهم عهداً، ألا يشربوا مسكراً، وألا يقربوا امرأة.

وعلى أية حال، فقد جعلت هذه الهياكل من بعلبك مدينة مشهورة ـ بعد أنطاكية ـ وكان لهذه الهياكل حمى مقدساً، وكان من حقها امتلاك الأراضي، وجمع الضرائب.

هذا وقد نجح القوم في نشر عبادة إلههم هذا في الغرب، وكان يعرف باسمه الروماني «جوبتر الهليبووليتاني» (Jupiter Optinus Maximus Heliopoeitanus) أي «جوبتر (المشتري) الهليوبوليتاني (نسبة إلى هليوبوليس الإسم الإغريقي لبعلبك) صاحب المقام الأول والمعظم(٢).

هذا وقد أسهمت حروب العصور الوسطى والزلازل في تدمير كثير من آثار بعلبك وإن كان «الأكروبول» ما يزال يحتفظ بالأعمدة الستة لمعبد جوبتر الهليوبوليتاني(٣) فضلاً عن بقايا معبد «باخوس» (هيكل اترجاتس)

---

(١) Macrobius, BK, I, ch. 23, secs, 11-13

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧،

وانظر: Herman Thiersch, Zu den Tempeln und Zur Basilika Von Vaalbek.., Belin, 1926, P. I F.

وانظر: Le Temple de la deese syrinne a Baalbek, Revue Biblique, XXXV, 1926, P. 461.

(٣) انظر: Robert Wood, The Ruines of Baalbec, London, 1757 P. 2, 22-24.

ـ جنوبي هيكل «هدد» ـ وهو مزخرف على الأسلوب الهلينستي والروح الشرقية[1].

وهناك ـ على مقربة من حرم الهيكل الكبير ـ يقوم هيكل صغير مستدير، جميل الصنع، وكان مكرساً لعبادة «الزهرة» أو ـ «إلهة الحظ» (Foutuna)، وقد حول إلى كنيسة في العصور الوسطى، الأمر الذي ساعد على حفظه من الخراب[2].

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٦٧،
وكذا Herman Thiersch, op-cit, P. 1 F

(٢) معجم الحضارات القديمة ص ٢٣٣، فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

البَابُ الرابع

العِلاقَاتُ الخَارجيَّة

الفصل الأول

علاقات فينيقيا بمصر

١ ـ في عصر الدولة القديمة:

يذهب كثير من الباحثين إلى أن علاقات فينيقيا بمصر إنما ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وليس إلى العصر التاريخي فحسب[١]، ويعتمدون في ذلك ليس على الميثلولوجيا والأساطير فحسب، وإنما على بعض الآثار كذلك.

---

(١) كانت لمصر علاقات منذ أقدم العصور بالأقطار الآسيوية بوجه عام، وكذا بجزر البحر المتوسط، فقد عثر على آثار فرعونية بوسط هضبة الأناضول، وبلاد ما بين النهرين وأوجاريت، فهناك على صفحة أحد الأواني المرمرية من قصر أوجاريت، أميرة مصرية تسكب أمام عريسها، وأمامها نقش بالهيروغليفية من عهد أخناتون، وتزوج بعض ملوك مصر أميرات أسيويات، وقد كثرت آثار المصريين في كثير من المواقع من لوحات وتماثيل وأوان، ولا زال متحف بغداد ودمشق وبيروت والقدس يحتفظ بنماذج كثيرة من مخلفات المصريين عثر عليها في باطن أرض هذه الأقطار، كما لا زالت توجد أطلال لدور عبادة، وبعض المعبودات المصرية التي عبدت في آسيا، فوجد معبد لامون في غزة من عهد الرعامسة، وآخر لبتاح في عسقلون، ولكن أغلب هذه المقاصير كانت لموظفين يؤدون طقوس العبادة المصرية هناك، كما أقام المصريون لوحات لبعض الآلهة المحلية مثل «ميكال» بيت شان، و «بعل سيفون» أوجاريت، كما وجد، بالمثل، بعض التأثيرات الآسيوية في رسوم الأواني الفخارية منذ أقدم العصور في مصر، وكذا في الأختام الأسطوانية وبعض الأواني الحجرية والمعدنية، غير أن الحضارات الآسيوية (السومرية والأكدية والآشورية والبابلية والحبشية والحورية والفينيقية والآرامية وغيرها) لم تستطع أن تؤثر على الحضارة المصرية تأثيراً واضحاً، وظلت الحضارة المصرية طوال التاريخ المصري =

ومن النوع الأول ما رواه «بلوتارك» من أن «أوزير»[1] حين قتله أخوه «ست» وضعه في صندوق، ثم ألقى بالصندوق في أليم، فجرفه التيار وأرساه على شاطىء مدينة بيبلوس (جبيل)، وثبته بين فرعي شجرة من شجرات الآثل، ونمت الشجرة واحتوت بين طياتها جثمان أوزير، إلا أن ملك بيبلوس كان قد أعجب بضخامة الشجرة فأمر بقطعها لتكون عموداً في قصره، وتقوم إيزة بالبحث عن أخيها وزوجها حتى تصل إلى بيبلوس وتعرف مكانه، فتحتال حتى تدخل القصر في زي خادمة، وينتهي أمرها بكشف حقيقتها، فيأذن لها ملك بيبلوس بحمل العمود الذي يحوي جسد زوجها، فتأخذه وتعود به إلى مصر[2].

هذا ويذهب البعض إلى أن قصة أوزير هذه، ليست أسطورة نشأت في عصر متأخر، وإنما هي قصة تبلورت فيها ذكرى حادثة تاريخية، وهي قدم العلاقات بين مصر وفينيقيا إلى أقصى حدود القدم، وأن هذه العلاقات لم تكن تجارية فقط، وإنما كانت دينية أيضاً[3].

= القديم لها طابعها الخاص المميز عن غيره من الحضارات الأخرى، ذلك لأنها بنيت على أسس قوية، وظلت أكثر من أربعة آلاف سنة لها طابعها المصري الأصيل، رغم تعرضها في بعض الفترات القصيرة من عمر التاريخ لمحن، استطاعت أن تخرج منها بعافية، فالبيئة والإنسان المصري هما العاملان الرئيسان في بناء الحضارة المصرية، وقد تفاعل الإنسان مع البيئة وقدم للإنسانية أعرق حضارة عرفها التاريخ، واستطاع أن يتفاعل مع جيرانه، فأعطى وأخذ ما رآه ملائماً، دون أن يبتعد عن الإطار المصري الأصيل (انظر: عبد الحميد زايد: العلاقات بين مصر وبيبلوس من خلال الآثار الفرعونية ـ مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت ـ العدد السادس ـ ١٩٧٤).

(١) انظر عن «أوزير» (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية ـ الإسكندرية ١٩٨٤ ص ٢٨٦ ـ ٢٩٨).

(٢) انظر عن هذه الأسطورة (كونتنو: المرجع السابق ص ٤٥، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢٨٢.

وكذا: P. Montet, in Syrie, 4, 1923, P. 190 F.

(٣) كونتنو: المرجع السابق ص ٤٥.

وعلى أية حال، فهناك من الباحثين من يذهب إلى أن هناك ما يشير إلى صلات، ربما كانت بطريق غير مباشر، بين مصر وفينيقيا[١]، منذ عصور ما قبل التاريخ، اعتماداً على دراسة بعض أنواع الفخار، فضلاً عن استخدام البدرايين في العصر الحجري النحاسي لأشجار الصنوبر[٢]، هذا فضلاً عن قطعتين من أدوات اللعب، يحتمل أنهما مؤرخان من العصر السابق مباشرة لعصر الأسرات، كما عثر هناك أيضاً على لوحة من الإردواز على هيئة طائر، أغلب الظن أنها لإنسان عصر ما قبل الأسرات[٣].

هذا، ونظراً لأن جميع هذه المقتنيات التي كشف عنها تحت أرضية معبد من الدولة الوسطى، فمن المحتمل، فيما يرى الدكتور عبدالحميد زايد، أنها كانت موجودة في مقصورة أقدم من الدولة الوسطى وأعيد

---

(١) اتصلت مصر ببيبلوس عن طريق البحر المتوسط، وهو الطريق الرئيسي الذي مخرت السفن المصرية عبابه، وربما استخدم الطريق البري أيضاً، وكان يبدأ من الدلتا بمحاذاة شاطىء سيناء، ويتشعب منه طريق إلى قلب سيناء حيث مناجم النحاس والفيروز، ومنه طريق يمتد إلى الجزيرة العربية، أما الطريق الشمالي فيستمر في محاذاة شاطىء فلسطين إلى لبنان، وهناك في جنب لبنان طريقان رئيسان، أحدهما يستمر بمحاذاة الشاطىء، ماراً بصور وصيدا وبيبلوس، والثاني يسير في محاذاة وادي الليطاني وإلى البقاع فدمشق، ويلتقي الطريقان في سهل البقاع عند قادش ثم إلى وادي النهر الكبير ثم شمالاً إلى مضايق كليكية إلى آسيا الصغرى، أو شرقاً إلى وادي الفرات ثم إلى الخليج العربي وأما الطريق البحري فكان لزاماً على البحار المصري أن يختار الوقت المناسب، فيتجه إلى بيبلوس أو غيرها من موانىء الساحل الفينيقي في شهري مايو ويونيه حيث تساعده الرياح الجنوبية أو الجنوبية الغربية، فيصل بيبلوس في مدى أربعة أيام، في مسافة ٥٥٠ كيلاً، أما رحلة العودة فكانت صعبة لأن الرياح لم تكن في الغالب ملائمة، ولذلك كان يعتمد البحار على المجاديف وكانت رحلة العودة تستغرق ضعف مدة رحلة الذهاب (عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١١ ـ ١١٢).

(٢) G. Wainwright, in JEA, 20, 1934, P. 3.

(٣) عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١٣.

M. Dunand, Fauilles de Byblos, I, Paris, 1939-1958, P. 26-27.
P. Montet, Byblos et L'Egypte, I, P. 90-91, 98, 103, II, Pls. LV, LVI.

بناؤها بعد ذلك، ومن الجائز أن التجار الذين كانوا يترددون على تلك المنطقة جاءوا بها ليقدموها لسيدة بيبلوس المحلية الآلهة «حاتحور»، وسوف نرى أن هؤلاء التجار كانوا يتجهون إلى بيبلوس من أجل الحصول على الخشب من لبنان[١].

وأياً ما كان الأمر، فإن «جبيل»، فيما يبدو، إنما كانت على اتصال تجاري بالدلتا (مصر السفلى) منذ عصور ما قبل الأسرات، حيث وجدت جسور من جذوع الأرز يعود تاريخها إلى ما قبل الأسرة الأولى (أي إلى عصر البداري)[٢]، مما يدل على أن الخشب إنما كان يستورد من لبنان من ذلك العصر السحيق، هذا فضلاً عن أنه قد عثر كذلك في جبيل (بيبلوس) على بعض اللوحات الحجرية المرمرية المصرية وبعض التمائم الحيوانية الصغيرة التي ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ[٣].

وعلى أي حال، فهناك ما يشير إلى أن المصريين قد استوردوا من فينيقيا أخشاب الأرز والصنوبر التي استخدمت في مقابر الملوك في أبيدوس[٤]، وفي صناعة السفن الكبيرة، ربما من عهد الملك «عحا» مؤسس الأسرة الأولى، فضلاً عن استيراد الزيوت والخمور في أوان فخارية من جنوب سورية، وقد ذهب البعض إلى أن هذه الواردات إنما كانت بمثابة جزي، قدمتها المناطق الخاضعة لمصر في سورية وفلسطين وفينيقيا.

وهناك من يذهب إلى أن التجار الأوائل كانوا يهتمون بإحضار زيت شجر الأرز الذي جاء ذكره في نص من عهد «عبرح إيب» من الأسرة الأولى، كما عثر في مقابر ما قبل الأسرات في مصر على أوان لها نفس الأشكال السورية أو عليها رسوم تمثل الأواني السورية، وكانت غالباً مملوءة

---

(١) عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١٣.

(٢) انظر عصر البداري (محمد بيومي مهران: مصر ـ الكتاب الأول ص ١٦٤ ـ ١٧٥).

(٣) G. Brunton and Caton Thompson, The Badarain Civilization, 1928, P. 627.
. R. K. Glanville, The Legacy of Egypt, Oxford, 1947, P. 6."

(٤) انظر عن أبيدوس (محمد بيومي مهران: مصر ١/٣٢٣ ـ ٣٢٧).

بالزيت، والراجح أنه جيء بها من سورية عن طريق البحر، أما عن طريق ميناء بيبلوس أو غيره من الموانيء.

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن مصر إنما كانت لها حصون وعمليات دفاعية في غربي آسيا منذ أيام الملك «نعرمر» مؤسس الأسرة الأولى، وخلفائه من أمثال «جر» و «دن» و «قاعا»، اعتماداً على صورة حصن نقشت على صلاية نعرمر، وغيرها، والأمر بهذه الصورة غير مؤكد، إلا أن هناك في نقوش الملك، وفي حوليات حجر بالرمو، ما يشير إلى ذلك[١].

هذا وقد عثر في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد على نسبة كبيرة من التمائم الحيوانية المصرية، وبعض الأواني الحجرية في بيبلوس، ومن أهمها قطعة حجرية مصرية تحمل «سرخ» ملكي، ينتمي إلى الأسرة الثانية، فضلاً عن إناء صغير من الحجر المصقول يحمل اسم الملك «خع سخموي» آخر ملوك هذه الأسرة[٢].

وكانت السياسة الخارجية لمصر في عهد الأسرات: الرابعة والخامسة والسادسة، تنحصر في سلسلة من الحملات والغزوات والبعثات الاقتصادية التي كانت تنطلق من العاصمة أو من قواعد على الحدود، لتعود مرة ثانية إلى نقطة الانطلاق محملة بالثروات، ولم تكن تتضمن دورات من الكر والفر، الأمر الذي تتسم به سياسة التوسع الاستعماري.

وهكذا، وفي الأسرة الرابعة، وطبقاً لما جاء في حجر بالرمو[٣] (وقد

---

(١) عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١٣، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩، عبدالعزيز صالح: المرجع السابق ص ٨٩،

وكذا: W. M. F. Petire, The Royal Tombs of The First Dynasty, I, London, 1900, P. 16-18, II, 1901, P. 30.

Y. Yadin, un IEJ, 1955, P. 1-16.

H. Kantor, in JNES, 2, 1942, P. 174 F, 201 F.

(٢) رشيد الناضوري: جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا ص ١٢٠ ـ ٢١١.

(٣) انظر عن حجر بالرمون (محمد بيومي مهران: مصر ١/ ٤٤ ـ ٤٧).

دونت عليه حوليات الملوك منذ أقدم العصور وحتى عهد نفر إير كارع، ثالث ملوك الأسرة الخامسة، فإن الملك «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، يرسل أسطولاً بحرياً مكوناً من أربعين سفينة لإحضار كتل من أخشاب الأرز من لبنان[١]، وأن كثيراً من تلك الأخشاب قد عثر عليها في هرمه القبلي في دهشور، وما زالت تلك الأخشاب في حالة جيدة حتى الآن، وما زالت تؤدي مهمتها التي أقيمت من أجلها، مثل تثبيت بعض الأحجار أو سندها في أماكنها، رغم مضي أكثر من أربعة آلاف وستمائة سنة عليها[٢].

وفي عهد ولده وخليفته «خوفو»، صاحب الهرم الأكبر، تزداد أهمية ميناء «جبيل»، ذلك الميناء الذي كانت تقيم فيه جالية مصرية منذ أيام الأسرة الثانية على الأقل، والذي أصبح أكبر ميناء تجاري بين مصر وغربي آسيا، كما أصبحت السفن التي تتعامل مع «جبيل» أو المصنوعة من أخشابها تسمى «الجبيلية» أحياناً[٣].

هذا وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن ميناء جبيل إنما كان يقوم كذلك بدور الوسيط بين تجارة مصر وكريت[٤]، ورغم أن الأمر بهذه الصورة غير مؤكد، إلا أن الاتصال بكريت إنما كان قائماً منذ زمن بعيد، ذلك لأن الثقافة المينووية إنما تقدم دلائل قوية على التأثير المصري[٥]، هذا فضلاً عن أن هناك من يذهب إلى أن المصريين إنما قد وصلوا إلى كريت رأساً بوسائلهم الخاصة[٦].

---

(١) جان يويوت: مصر الفرعونية ص ٥١.

(٢) A. FAkhry, The Bent Pyramid at Dahshur, Cairo, 1951, Pl. 38, P. 559.

(٣) عبد العزيز صالح: مصر والعراق ص ٨٩.

(٤) رشيد الناضوري: أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ص ٢١.

وكذا: W. M. F. Petrie, Op. Cit., II, P. 46.

A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 36.

(٥) Ibid., P. 36.

(٦) ألكسندر شارف: تاريخ مصر ـ القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٨.

وأياً ما كان الأمر، ففي عهد «خوفو» قام وسط «جبيل»[1] معبد مصري، أضاف إليه من جاء بعده كما تشهد بذلك عدة أحجار من هذا المعبد، تحمل اسم خوفو، بل وأسماء بعض من سبقوه على عرش الكنانة ومن لحقوا به على هذا العرش من ملوك الدولة القديمة.

هذا وليس هناك ما يعرف حتى الآن عن الصورة الأولى التي نشأ عليها هذا المعبد، فقد يكون معبداً آموري الأصل، أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه، وأهدوه هدايا ثمينة تحمل أسماءهم، ولم يمنعهم تمسكهم بدينهم المصري من أن يتسامحوا مع معبودات جيرانهم، ويعملوا على إثراء معابدها، وقد يكون معبداً مصري الأصل شادته جالية مصرية تجارية أقامت في جبيل، وعكفت على عبادة أربابها وربما كان معبداً مصرياً أقامه أمراء جبيل أنفسهم مجاملة للمصريين، وتقبلوا فيه بعض العقائد المصرية، كما تقبلوا له هدايا الملوك المصريين[2].

هذا وقد أسفرت الحفائر عن اكتشاف معبد للآلهة المصرية «إيزة»، بجانب معبد «بعلة» جبيل، وأن الآلهتين قد أصبحتا بمرور الزمن آلهة واحدة[3]، وعلى أية حال، فهناك الكثير مما يشير إلى ازدهار التجارة بين

---

(١) كانت تكتب في الدولة القديمة «كبن»، وفي الدولة الوسطى «كبني»، وفي الدولة الحديثة «كبنا»، وذكرها الآشوريين باسم «جوبلا»، والإغريق «بيبلوس»، والعرب «جبيل»، وتقع على مبعدة ٤٠ كيلاً شمالي بيروت (انظر: كونتنو: المرجع السابق ص ٤٦،
وكذا: A. Gardiner, Onom., I, 1947, P. 257).

(٢) عبد العزيز صلح: المرجع السابق ص ١٠٦.

W. A. Ward, Egypt and The Mediterranean, from Predynastic Times to The End of The Old Kingdom, JESHO, VI, Part, I, 1963, P. 24.
P. Montet, Byblos et Egypte, Paris, 1928, P. 29 F.
H. Nelson, Fragments of Egyptian Old Kingdom Stone Vessels from Byblps, in Beyrtus, I, 1934, P. 19-20.

(٣) فيليب حتي: تاريخ لبنان ـ ترجمة أنيس فريحة (ونقولا) زيادة ـ بيروت ١٩٧٢ =

مصر وفينيقيا على أيام الملك «خوفو»[1].

ولم يكن ملوك الأسرة الخامسة أقل نشاطاً من أسلافهم ملوك الأسرة الرابعة، فهناك في المعبد الجنازي للملك «ساحورع» ما يدل على نشاط خارجي عظيم، خرجت فيه مصر عن عزلتها واحتكت بجيرانها بدرجة أكثر من عصور سبقت، فهناك منظر رائع للسفن العائدة من سورية بالتجارة، والآسيويون على ظهورها، وأسلحتهم مرفوعة ولاء لفرعون، وربما كان ذلك بمناسبة حملة إلى لبنان للبحث عن الخشب القديم جداً من غاباتها[2].

وقد اختلفت الآراء حول هذه الحملة، فذهب رأي إلى أن مناظر الأسطول وعودته لا تدل على أنهما حملة حربية، وإن كنا لا نستطيع أن نتبين الغرض منها على وجه اليقين، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن المناظر إنما تدل على شيء أكثر من إقلاع الأسطول وعودته، ثم استقبال الملك وقد حف به كبار موظفيه، ومن ثم فهي حملة ودية، وربما عادت بأميرة من هناك لتصبح إحدى زوجات الفرعون.

= ص ٨، (ويذهب جاردنر: إلى أن الآلهة المصرية هنا «حاتحور»، وليست إيزه، وأنها اقترنت بالإلهة عشتار، هذا وقد جاء ذكر «حاتحور» على خاتم أسطواني لأحد حكام بيبلوس، وقد صحبه إلهين ذكرين: «رع» الخاص بالبلاد الأجنبية، و «خاي تاو»، والذي وصف في مكان آخر بأنه «الموجود في نيجاو»، وهو الإله الخاص بمنطقة غابات لبنان حيث تقطع الأشجار، وإذا صح النص الهيروغليفي على هذا الخاتم الأسطواني، فإن ذلك يعطينا فكرة عن ثالوث بيبلوس القديم (حاتحور ـ رع خاي تاو) ومن الجائز أن ذلك لا يبعد كثيراً عن الأسرة الخامسة.

(انظر: عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١٢١،

وكذا: W. Helck, Die Beziehungen Agyptens Zu Vorderasien in 3 und 2. Jahriausend V. Chr. (Ag. Abh. 5) 1962, P. 21.

(١) انظر: محمد بيومي مهران: مصر ـ الكتاب الأول ص ٤٦٢ ـ ٤٦٦.

(٢) Urk., I, 1932, P. 169.
W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, Camgridge, 1971, P. 182.

على أن هناك وجهاً ثالثاً للنظر يذهب إلى أن جبيل إنما كانت مستعمرة مصرية، وإن رأي «سير ألن جاردنر» أن في ذلك مبالغة إلى حد ما، ولكننا ندرك على الأقل أن الرسل المصريين إنما كانوا يقابلون هناك بكل الترحاب والتبجيل[١].

وتروي النصوص المصرية أن «ني وسر رع» قد قام بعدة حروب في سورية (بمعناها الواسع)، كما يبدو ذلك من المناظر التي كانت في معبده، كما نجح «وناس» في الحفاظ على «جبيل» بواسطة أسطوله، وربما كانت المدينة وقت ذاك، فيما يرى كثير من الباحثين، من مستعمرات التاج المصري، وقد عثر هناك على آنية تحمل اسمه في البقايا الأثرية التي كشف عنها في بيبلوس[٢].

وعلى أية حال، فلقد عثر في جبيل على أجزاء من أوان عليها أسماء كثير من ملوك الدولة القديمة من أمثال: خوفو وخفرع من الأسرة الرابعة، وأوناس من الأسرة الخامسة، وكذا أغلب ملوك الأسرة السادسة، مثل الملك تيتي، رأس هذه الأسرة، وأما الذين لم يعثر حتى الآن على أسمائهم كالملك «وسر كاف» رأس الأسرة الخامسة، فربما كان ذلك لحدث عارض، أو أن شيئاً من مخلفاته لم تكتشف بعد، أو أنها بليت وضاعت، وعلى أية حال، فإن الصلات بين مصر وفينيقيا إنما كانت بوجه عام وطيدة في الدولة القديمة[٣].

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير ص ٤٤، مصر الفرعونية ص ١٣٣،
وكذا: A. Weigall, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, P. 43.
A. Gardiner, Op. Cit., P. 89.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٣٧،
وكذا: P. Montet, Byblos et L'Egypte, Paris, 1928, P. 69.
Dunand, Fouilles des Byblos, II, Paris, 1958, P. 267.

(٣) M. Munand, Op. Cit., I, P. 267, 278, 280.
h. Nelson, Op. Cit., P. 20.
W. S. Smith, Interconnections in The Ancient Near East, London, 1965, figs, 6-8.

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى نشاط واسع من العناصر المجاورة لمصر من ناحية الشمال، ويحدثنا «وني» والذي قاد أربع حملات حربية، منها واحدة كانت برية وبحرية معاً، وقد حصر فيها عدوه بين فكي الكماشة، كتب له فيها نجحاً بعيد المدى في تأديب العصاة من سكان الرمال، فضلاً عن القضاء على تمرد عند «أنف الرئم»، وهو أقليم يظن أنه جبل الكرمل، أقصى حدود فينيقيا من ناحية الجنوب [١].

هذا وهناك ما يشير إلى أن «ببي الثاني» (والذي يسجل له التاريخ أطول فترة حكم عرفها تاريخ مصر قاطبة وهي ٩٤ عاماً) وقد سار على سياسة أسلافه بالنسبة إلى التجارة الخارجية، فهناك ما يدل على اتصال تجاري بين مصر وبلاد بونت[٢] وسواحل فينيقيا، من ذلك ما سجله الملاح المصري «خنوم حتب» من أنه قد زار جبيل وبونت إحدى عشرة مرة، كان تحت رياسة «ثني» في زيارته الأولى، وتحت رياسة «خوي» عند زيارته الثانية[٣].

وعلى أية حال، فلقد عثر في بيبلوس على فؤوس مصقولة، وسكاكين من الظران وخرز أسطواني من المرمر، وتماثيل صغيرة تشبه تلك التي عثر عليها في «هيراقونبوليس» (نخن = البصيلة مركز أدفو بمحافظة أسوان) أو غيرها مما يحمل أغلبها خراطيش الملوك، وكلها صنعت في مصر وصدرت إلى بيبلوس، ومنها أوعية صغيرة من عهد «ببي الأول» و «ببي الثاني» (من الأسرة السادسة) على هيئة قردة جالسة القرفصاء ترضع

---

(١) F. Daumas, Le Civilisation de l'Egypte Pharaonque, Paris, 1965, P. 292.
M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature California, 1973, P. 18. A. Gardiner, Op. Cit., P. 96-97.

(٢) انظر: عن بلاد بونت (محمد بيومي مهران: العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ـ الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٧ ـ ٣١٠).

(٣) K. Sethe, Irk., I, 1932, P. 140-141.
PM, VII, 1951, P. 342.
A. Gardiner, Op. Cit., P. 101.

صغارها، وغالباً أن هذه الأشياء كانت ترسل في مناسبات خاصة، مثل الاحتفالات الخاصة بعيد سد[1].

٢ ـ في عصر الثورة الاجتماعية الأولى:

يذهب «جون ويلسون»[2] إلى أن أهمية «سورية ـ فلسطين» في عصر الدولة القديمة إنما كان ينحصر في أنها طريق تجاري تسير فيه السلع، وكان يهم مصر أن يبقى هذا الطريق مفتوحاً، ولكنها لم تكن في الأحوال العادية في حاجة إلى أن ترسل الحاميات أو تستعمر تلك البلاد.

ولكن الأمر كان غير ذلك في حالة الميناء الفينيقي «جبيل» التي كانت ميناء شحن خشب الأرز ومنتجاته، كما كانت الميناء التي تصل إليها، ثم تخرج منها، السفن محملة بالنحاس والصفيح من جزر البحر المتوسط، والفضة من آسيا الصغرى، والنبيذ والزيتون من شرقي البحر المتوسط، وحجر الأوبسيديان واللازرد من الممالك الواقعة إلى الشرق منها.

وكانت تقيم في الميناء جالية مصرية من التجار، وكان عددهم كافياً لتبرير إقامة معبد هناك، وإرسال الهدايا من ملك مصر، وقد توقف إرسال هذه الهدايا المصرية التي كانت تحمل نقوشاً فنعرف منها تاريخها الصحيح، في عهد الملك «ببي الثاني» في آخريات الأسرة السادسة، وحرق المعبد المصري في جبيل[3] وهدم، كما توقفت التجارة توقفاً كاملاً[4]، وإن كان

---

(١) عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) John A. Wlison, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 100-101.
وفي الترجمة العربية ص ١٨١.

(٣) قدر الأثريون حدوث حريق في بيبلوس بعد عهد الملك ببي الثاني، فقد لاحظوا في أعمال الحفر وجود رماد يقع في مستوى الطبقة التي عثر فيها على آثار من عهد ببي الثاني، وأن طبقة الرماد كانت سميكة، وقد عثر فيها على أجزاء من إناء يحمل اسم ببي الثاني، وقد تكلست هذه الأجزاء بفعل الحريق، وأن هذه الأكوام من الرماد كافية لأن توضح ما أصاب هذه المنطقة من الدمار (عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١٤).

(٤) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 102.

هناك من يرى أن عدم وجود أشياء تحمل أسماء ملكية في بيبلوس وغيرها، فما بين الدولة القديمة والوسطى لا يعني أن التجارة قد توقفت تماماً[(١)].

وأياً ما كان الأمر، فإن الوضع الجديد، واضطراب الأمن في مصر بسبب قيام الثورة الاجتماعية كان له، دون شك، أثر سيء على ملك مصر سياسياً واقتصادياً، الأمر الذي دعا حكيم الثورة الاجتماعية إلى أن يقول «لم يعد أحد اليوم يسافر شمالاً إلى جبيل، فما الذي سنفعله عوضاً عن الأرز اللازم لمومياتنا، فقد كان النبلاء يحنطون بالزيت الآتي من هناك، وما هو أبعد منها (أي جبيل) حتى «كفتيو» (كريت) ولكن هذا لم يعد يأتي»[(٢)].

وعلى أية حال، فلقد عثر في بيبلوس على ما اصطلح على تسميته «إناء مونتيه» العديد من الأشياء، منها أساور ودبابيس لها رؤوس كبيرة، وأكثر من ٦٠٠ خرزة، ومعظم الخرز الحجري يشبه خرز الدولة القديمة والعصر المتوسط الأول في مصر (عصر الثورة الاجتماعية الأولى) والقليل منها له علاقة بخرز ما بين النهرين، أما الأنواط والتماثيل العاجية والحجرية والنحاسية والبرونزية والزجاج، فكلها لها نظائرها من العصر المتوسط الأول، ومن عجب أن يوجد في هذه المجموعة ما يقرب من مائة جعران، وغالباً ما تكون من العصر المتوسط الأول، وإن أرخها البعض بعصر الأسرة الثالثة عشرة، هذا وبالإناء أيضاً ٣٠٠ خاتم أسطواني الشكل وبعض التمائم، وأختام أخرى يمكن تمييزها عن الأختام التي على شكل أزرار، والتي اختلف في شأن نسبتها إلى مصر أو إلى بلاد ما بين النهرين[(٣)].

---

(١) عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١٢٥.

(٢) J. A. Wilson, in ANET, 1966, P. 441.

(٣) عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١٤ ـ ١١٥،

وكذا: W. f. Albright, The Excavation of Tell Merisim, The Pronze Age of the Fourth Campagn, in AASOR, 13, 1933, 24, Sect, 24.

٣ ـ في عصر الدولة الوسطى:

قامت السياسة المصرية الخارجية في عصرالدولة الوسطى بصفة عامة، والأسرة الثانية عشرة بصفة خاصة، على أساس تغليب علاقات الود مع الدول المجاورة في الشام والعراق وجزر بحر إيجة، واتخاذ الصلات التجارية معها سبيلاً إلى التأثير الحضاري فيها، كما قامت على أساس توطيد النفوذ، وتوسيع الإشراف والاستثمار على امتداد الحدود في الغرب والجنوب (ليبيا والنوبة)، مع إيثار السلام المسلح القائم على التحصين واليقظة في الناحيتين، وعدم الالتجاء إلى استخدام القوة فيها، إلا حين الضرورة[(١)].

هذا وهناك ما يشير إلى عودة النفوذ المصري إلى جبيل منذ أيام الأسرة الحادية عشرة، وقد وجدت أشياء مصرية عديدة في بيبلوس، أوضحها «دوناند»، وهي غالباً مؤرخة من الأسرة الحادية عشرة[(٢)]، هذا وقد أشار القائد «حنو» من عهد الملك «منتوحتب الثاني» إلى دور له في معاملة «الحاونبو»، أي أهل جزر البحر الأبيض المتوسط، لا سيما الكريتيين، وقد تكون هذه المعاملة ودية أو عدائية، وإن كان الاحتمال الأول هو الأرجح[(٣)].

هذا وقد جاء ذكر بيبلوس في قصة «سنوهي»[(٤)]، وذلك في الأيام الأولى من الرحلة ولولا شهرة تلك المدينة، فضلاً عن العلاقات الوثيقة

---

(١) عبد العزيز صالح: مصر والعراق ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) M. Dunand, Fouilles de Byblos, II, Paris, 1958, Pls. CXIII-CXXI.

(٣) عبدالعزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها ص ٤٣٣،

وكذا: J. H. Breasted, ARE, I, P. 209.

(٤) انظر عن قصة سنوهي (محمد بيومي مهران: مصر ١/ ٥٩٤ ـ ٥٩٧،

وكذا: a. Erman, LAE, 1929, P. 14-29.

وكذا: J. Wilson, ANET, 1966, P. 18-22.

. M. Blackman, Some Notes on The Story of Sinuhe, JEA, 22, 1936, P. 35-44.

التي تربطها بمصر، لما فكر في الالتجاء إليها، وأما عن عدم إقامته فيها، فربما خوفاً منه أن تصل أخباره إلى مسامع الملك سنوسرت الأول (١٩٧١ ـ ١٩٢٨ ق.م) وقد كان في أول ارتحاله، وما كان يجب، بل ما كان في مصلحته، أن يكتشف أمره، وهو في بداية فراره، ومن ثم، فأكبر الظن أن ذلك كان من وراء مغادرته بيبلوس إلى «قدمى»، ثم إلى قلب فلسطين، حيث طابت له الإقامة عند أحد شيوخها[١]، وأن يشترك فيما بعد بفرقة من أهل الشام في صد جماعات سمى رؤساؤهم باسم «حقاو خاسوت»، بمعنى حكام البلاد الأجنبية أو حكام البراري، وهو نفس الاسم الذي أطلقه المصريون فيما بعد على زعماء الهكسوس[٢].

هذا فضلاً عن أن زعامة مصر المادية والثقافية إنما كانت أمراً ثابتاً بالأدلة المادية، فقد كان الملوك، وربما النبلاء أيضاً، يرسلون الهدايا إلى الأمراء الفينيقيين وغيرهم من السوريين الموالين لمصر، وأن هؤلاء الأمراء إنما كانوا يحبون تلك الهدايا، وتنشرح لها صدورهم، كما كانت كافية لكسب صداقة تلك الدويلات الصغيرة في غربي آسيا[٣]، ومن هذه الهدايا أوان من الأوبسديون الأسود اللامع إلى أمير جبيل في عيد توليته إمارة مدينته، فضلاً عن تمثال صغير على هيئة أبي الهول من قطنة للأميرة «أتا» ابنة الملك «أمنمحات الثاني» (١٩٢٩ ـ ١٨٩٥ ق.م)، وهو أقدم تمثال معروف من نوعه يمثل سيدة مصرية على هيئة أبو الهول[٤].

ومع ذلك فإن لوحة «نسموت»، وتؤرخ بفترة الحكم المشترك بين أمنمحات الأول وولده سنوسرت الأول، إنما تشير إلى أن هذا القائد إنما

---

(١) عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١٤.

(٢) عبدالعزيز صالح: المرجع السابق ص ١٧٨.

(٣) J. A. Wilson, The Egyptian Mikkle Kingdom at Megiddo in AJSL, 58, 1941, fig. 14 B, P. 225-236.

(٤) عبدالعزيز صالح: المرجع السابق ص ١٧٨، وكذا: P. Montet, Byblos et L'Egypte, Paris, 1928, Pls., 88-89.

كان عليه أن يشهر الحرب على الآسيويين الرحل، وأن يدمر حصونهم، ولكننا لا نعرف إلى أي مدى بلغ نشاطه في الأقاليم الآسيوية[1].

وعلى أي حال، فهناك ما يشير إلى أن النشاط المصري في غربي آسيا لم يتوقف في تلك الفترة، حيث قدر لمصر أن تقوم بدور قيادي، ومن ثم فقد تم احتلال مدينة «جبيل» (بيبلوس) أو على الأقل فرضت عليها التبعية المباشرة[2]، وهكذا رأينا الحكام هناك يتخذون لأماراتهم شعاراً ذا طابع مصري، وربما كانوا يتطيبون عند تتويجهم بزيت، وضع في آنية تحمل اسم ملك مصر[3]، هذا فضلاً عن أنهم إنما كانوا يكتبون أسماءهم بالهيروغليفية المصرية، ويستعملون اللقب المصري «حاتي عا» الذي حمله المصريون من كبار الموظفين منذ أمد بعيد في الأقاليم المصرية نفسها[4].

ومع ذلك، فإن أستاذنا الدكتور أحمد فخري (١٩٠٥ ـ ١٩٧٣ م) ـ طيب الله ثراه ـ إنما يرى أن هؤلاء الحكام لم يكونوا من موالي مصر، أو كانوا يحكمون باسمها، أو يقدمون لها جزية مفروضة[5]، ذلك لأن مصر، لم يكن لها حتى ذلك الوقت، فيما يرى جون ويلسون، امبراطورية سياسية في آسيا إبان عهد الدولة الوسطى، ولكنها كانت تتمتع بالفوائد الروحية والاقتصادية اللتين كانتا تجنيهما، فقد كانت لها سيطرة فعلية على تلك البلاد في ميدان الحضارة والتجارة[6].

ورغم ذلك كله، فإن شواهد التاريخ إنما تشير إلى أن مصر كان لها نفوذ هناك، وأن هذا النفوذ لم يكن مقصوراً على مدينة جبيل وحدها،

---

(١) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 132. J. H. Breasted, ARE, I, Parag. 469-471, P. 227-228.

(٢) جان يويوت: مصر الفرعونية ـ ترجمة سعد زهران ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٩٨.

(٣) T. Save-Soderberghe, The Hyksos Rule in Egypt, in JEA, 37, 1951, P. 53.

(٤) جان يويوت: المرجع السابق ص ٩٩.

(٥) أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ٢٢٨ (القاهرة ١٩٧١).

(٦) J. H. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 155.

وإنما قد امتد إلى مدن أخرى مثل «أوجاريت» (رأس الشمرة) التي يحتمل أنها كانت، فيما يرى بعض الباحثين، تتبع مصر سياسياً[1]، هذا فضلاً عن أن الآثار المصرية إنما كانت قد انتشرت كثيراً في كثير من المدن السورية والفينيقية[2]، فهناك في «قطنة»، (وتقع في مكان تل المشرفة الحالية على مبعدة ١٩ كيلاً إلى الشمال الشرقي من حمص)، قد عثر على تمثال يحمل اسم الملك «أمنمحات الثاني» (١٩٢٩ ـ ١٨٩٥ ق. م)[3].

وفي عام ١٩٣٦ م، عثر في مدينة «الطود»، وتقع على مبعدة ٣ كيلاً شمالي محطة أرمنت بمحافظة قنا، على كنز ثمين من مصرعات من الذهب والفضة واللازورد، تشير بوضوح إلى يد الصانع الميزوبوتامي والإيجي، قد نقشت عليها خراطيش «أمنمحات الثاني»، وربما كانت هدايا، وربما جزية من حكام بيبلوس[4].

وعلى أية حال، فلقد اتسعت صلات مصر التجارية بمناطق سورية وفلسطين وفينيقيا على أيام الدولة الوسطى، وقد عثر في مقابر أمراء جبيل وأوجاريت على آثار مصرية وصلتهم على هيئة هدايا من الملكين أمنمحات الثالث والرابع، كما وجدت إحدى المسلات وعليها اسم «أمنمحات الثالث» (١٨٤٢ ـ ١٧٩٧ ق.م)، ومن الجائز أنها من عهد هذا الملك[5].

---

(١) T. Save-Soderbergh, Op. Cit., P. 53.

(٢) انظر: محمد بيومي مهران: أخناتون: عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٣ ـ ٦.

(٣) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 132.

(٤) انظر: R. Bisson de la Roque, Tresor de Tod, Cairo, 1950.

وكذا: R. Bisson de la Roque, Depot Asiatique Trouve a Tod, (1934-1936), Caire 1937, P. 113.

وكذا: J. Vandier, A Propas d'un Depot de Provenance Asiatique Trouve a Tod, in Syria, 18, 1937, P. 174-182.

(٥) B. Porter and R. L. B. Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphical Texts, Reliefs and Paintings, Oxford, 1957, 7, P. 386.

وكذا: J. A. Wilson, AJSL, 8, 1941, P. 235.

وأيـاً مـا كـان الأمـر، ففـي عهـد «سنـوسـرت الثـالـث» (١٨٧٨ ـ ١٨٤٣ ق.م) ارتحل الملك نفسه للقضاء على تمرد هناك، ووصل إلى إقليم «سكمم»، والذي يرى فيه بعض الباحثين ناحية «ششم» في منطقة السامرة الجبلية[١]، ولعل السبب في هذه الحملة إنما كان إغارة بعض القبائل الآسيوية، وربما بدو الصحراء المتاخمين لفلسطين، إغارة مفاجئة على حدود مصر، فوجه الملك إليهم هذه الحملة التي كسرت شوكتهم.

وعلى أي حال، فلقد عثر في «مجدو» على ختم أحد مسجلي المواشي، وعلى تمثال لأمير الأشمونين «تحوت حتب الثاني» على أيام سنوسرت الثالث، ومن ناحية أخرى، فلقد عثر في مقبرة أمير الأشمونين (خمنو في المصرية بمعنى مدينة الثمانية، أي آلهة الأشمونين الثمانية، وتقع على مبعدة ١٠ كيلاً شمال غرب ملوي، وكانت عاصمة الإقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد)[٢] في مصر على صورة ماشية واردة من غربي آسيا (من فلسطين)[٣]، كما عثر في «بيروت» على تمثال صغير لأبي الهول وقلادة للملك أمنمحات الرابع (١٧٩٨ ـ ١٧٩٠ ق.م)[٤]، وأما أقصى الأماكن إلى الشمال، والتي عثر فيها على مثل هذه الأشياء، فهي «أتخانا» التي لا تبعد كثيراً عن مصب الأورنت (العاصي)[٥].

ولعل كثرة الآثار المصرية في غربي آسيا من تلك الفترة هي التي دفعت أثرياً محنكاً مثل «سير ليونارد وولي» (١٨٨٠ ـ ١٩٦٠ م) إلى أن يؤكد أنه لا بد من أن هناك حملات أكيدة قد تمت في ذلك العصر، حتى

---

(١) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 302.

(٢) انظر: محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ص ١٦٥.

(٣) W. S. Smith, Intercommection in The Ancient Near East, London, 1965, P. 14.

(٤) انظر: محمد بيومي مهران: أخناتون ص ٤ ـ ٥، جان يويوت: المرجع السابق ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٥) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 132-133.
B. Porter and R. B. Moss, Op. Cit., P. 395.

نلتقي بمثل هذا العدد الذي عثر عليه من الأشياء التي تنتمي إلى الأسرة الثانية عشرة(١).

وعلى أية حال، فإن أهمية الصلات التجارية إنما كانت من وراء تلك الرغبة المشتركة بين مصر من ناحية، وسورية وفينيقيا من ناحية أخرى، في استمرار العلاقات الودية بين الطرفين، ذلك لأن مصر إنما كانت تبغى فتح أسواق لتصريف منتجاتها، واستيراد الأخشاب والزيوت من لبنان، وأن تستورد ما كان يتجمع في موانيها من منتجات شرق البحر المتوسط من فضة وزيوت ومعادن وأحجار كريمة، وأن تستورد ما كان يتجمع في أسواقها الداخلية من منتجات بلاد النهرين وإيران والأناضول وبلاد العرب، وأخيراً فإنها إنما كانت جد حريصة على قوة صلتها بفينيقيا وفلسطين باعتبارها العصب الرئيسي لتجارتها البرية، مع ما يليها من بلاد الشام.

والأمر كذلك بالنسبة إلى الدويلات الصغيرة في فينيقيا وفلسطين وسورية، التي وجدت في مصر خير عميل للتبادل التجاري الواسع، ومصدراً رئيسياً للتبادل الحضاري، وكان يعنيها أن تظل علاقاتها وثيقة بمصر القوية الغنية المتحضرة(٢).

هذا ورغم الاضطرابات التي تعرضت لها مصر في أعقاب الأسرة الثانية عشرة، فإن ملوك الأسرة الثالثة عشرة قد استمروا في الحفاظ على الوحدة الوطنية متماسكة، ولمدة قرن على الأقل، كانت مصر تحكم فيه بملك واحد، وإن كان ضعيفاً، وفي نفس الوقت ظلت هيبة مصر في النوبة، وفي غربي آسيا، قوية إلى حد كبير(٣).

وهكذا يذهب كثير من الباحثين إلى أن نفوذ مصر إنما ظل قوياً في

---

(١) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 132.
Sir Loenard Wooley, PM, P. 386.

(٢) عبدالعزيز صالح: المرجع السابق ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠٦ ـ ١١٧.

آسيا بعد الأسر الثانية عشرة، وهكذا، وفي أيام «سحتب ايب رع»، وهو الخلف المباشر للملك «أمنمحات سونب اف» (سخم كارع) ثاني ملوك الأسرة الثالثة عشرة، نرى أمير بيبلوس «ياكين اليوم» يعترف بنفسه بأنه «خادم ملك مصر»[1].

هذا ويبدو أن سيادة «خع سخم رع» (نفر حوتب الأول ١٧٤٠ ـ ١٧٣٠ ق.م)[2]، وهو من أهم ملوك الأسرة الثالثة عشرة، إنما كان معترفاً بها في سورية وفينيقيا، كما أن لوحة الستياتيت التي عثر عليها عند وادي حلفا إنما تؤكد أن نفوذه في النوبة قد امتد إلى هناك[3].

ولعل أكثر الآثار أهمية ذلك النقش الذي كشف عنه في بيبلوس عند الشاطىء السوري، وفيه يصور «يوناثان» أمير جبيل (بيبلوس) جالساً أمام شخص عظيم، اختفت صورته، ولكن النصوص المدونة إلى جانبه تؤكد أنه الملك المصري «نفرحوتب» (خع سخم رع) بالذات[4]، وربما كان «يوناثان» أو «يانتين» هذا، ابناً للأمير «ياكين ـ إليوم» الذي كان أميراً لمدينة بيبلوس على أيام الملك «سحتب ايب رع» الثاني[5]، وربما كان «يانتين» هو نفسه أمير بيبلوس الذي كان يدعي «يانتين خامو» الثري الذي تذكره سجلات مدينة ماري الشهيرة[6].

غير أن الغريب من الأمر، أن يأتي ذكر بيبلوس فيما اصطلح على تسميته «بنصوص اللعنة» (وهي عبارة عن مجموعة من الدمى والأواني

---

(١) W. Hayes, Egypt from The Death of Ammenemes, III, to Seqenenre, II, 1965, P. 6.

(٢) W. Albright, BASOR, 99, P. 16، ويرى «سيف سودربرج» أنها في الفترة (١٧٦٠ ـ ١٧٤٠ ق.م).

(٣) J. H. Breasted, ARE, I, Parag. 753 FF.

(٤) عبدالعزي صالح: المرجع السابق ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٥) W. C. Hayes, Op. Cit., P. 10.

(٦) W. Albright, Op. Cit., P. 9 F.
وكذا: T. Save-Sadbergh, Op. Cit., P. 54.

الفخارية التي كتبت عليها تعاويذ سحرية لسحق أصحابها من أعداء الملك، والذين كانوا في معظمهم أجانب أسيويين أو نوبيين)[1]، وذلك لأنه من المعروف ولاء أمراء بيبلوس لهذا العهد، الأمر الذي يدعو إلى الشك في بعض ما جاء بهذه النصوص، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها إنما تعبر عن آراء خاصة بمن كتبوها من الحكام، ولذلك لا نستطيع أن نشك في ولاء حكام بيبلوس لمصر، وقد قدمنا من قبل الكثير من الأدلة على ذلك، مثل استعمالهم اللقب المصري (حاتي عا) وكتابة أسمائهم بالهيروغليفية المصرية، واتخاذهم شعاراً ذا طابع مصري لإمارتهم، وإحاطة أنفسهم بمجوهرات وأشياء أخرى ذات طابع مصري، كما أنها في الغالب صناعة مصرية[2].

وأياً ما كان الأمر، فالذي لا شك فيه أن الآثار المصرية التي كشف عنها في بيبلوس قبل الوجود الهكسوسي في مصر، إنما هي جد عديدة، فقد عثر على الكثير منها فيما يسمى بمعبد المسلات[3]، وهي بدون شك تماثيل صنعت في مصر، وصدرت إلى بيبلوس، ومن الجائز أنها تقليد لصناعة مصرية، ومنها تمثال صغير لرجل من القاشاني يحمل على كتفيه حملاً، وقد كشف عنه بمعبد المسلات، وموجود الآن بمتحف بيروت[4]، وتمثال صغير لقردة من القاشاني مع وليدها، وهو أيضاً من معبد المسلات في بيبلوس، وموجود الآن بمتحف بيروت، وهناك أيضاً تمثال لكلب من

---

(١) انظر عن نصوص اللعنة:

G. Posener, Chronique d'Egypte, 27, 1939, P. 39 F.

وكذا: G. Posener, Princes et Pays d'Asie et de la Nubia, Bruxelles, 1940.

وكذا: K. Sethe, Die Achtung feindlicher Fursten, Berlin, 1926, P. 73 F.

وكذا: JAOS, 74, 1955, P. 222-33.

(٢) عبدالحميد زايد: المرجع الساق ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٣) M. Dunand, Op. Cit., II, Pls. XCVI-CVIII.

(٤) W. S. Smith, Op. Cit., figs, 61, 62, 63, 64.

القاشاني، وآخر لقطة، من القاشاني أيضاً، وأخيراً مسلة صغيرة عليها نص هيروغليفي، ربما كان من القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد[١].

وفي أيام الوجود الهكسوسي بمصر (١٧٣٠ ـ ١٥٧٥ ق.م) تنقطع العلاقات مع المصريين، وإن وجدت بين حكام الهكسوس وبين غربي آسيا، وخاصة في عهد «خيان»، والذي عثر له على آثار في خارج مصر، وإن كنا لا نوافق على أن الرجل قد أقام امبراطورية عالمية، فيما يزعم البعض، تضم المنطقة ما بين النهرين وكريت، أي سورية وفلسطين وفينيقيا ومصر، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن فينيقيا في عصر الهكسوس، ربما كانت على علاقات تجارية وثقافية بمصر، أكثر منها علاقات تبعية، شأنها في ذلك شأن بقية دويلات سورية بمعناها العام[٢].

٤ ـ في عصر الدولة الحديثة:

لم يثر غزو الهكسوس لمصر في نفوس المصريين العاطفة الوطنية فحسب، وإنما أيقظ كذلك الشعور بالخطر القائم عند الحدود الشرقية، ومن هنا أدرك المصريون أن حدودهم الطبيعية إنما تبدأ في سورية، بينما لا يقل نطاق الأمان من حولهم عن الشرق الأوسط تقريباً، ومن هنا توسعت الأمبراطورية المصرية إلى حدودها القصوى، كلما أمكن ذلك، لا كاستعمار بالمعنى المفهوم، وإنما لنشر «السلام المصري»، بل إننا يمكننا أن نزعم بقليل من خشية، أن الأمبراطورية المصرية في جوهرها، وفي معنى ما «امبراطورية دفاعية» أساساً، حتمتها ظروف الصراع الإقليمي، والاستراتيجية العريضة في الشرق الأوسط القديم[٣].

ومن هنا أدرك فراعين الأسرة الثانية عشرة (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ ق.م).

---

(١) عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ١١٦.

وكذا: W. C. Albright, Dunand's New Byblos Volume, Alycian at the byblian Court, in BASOR, 155, 1959, P. 33-34.

(٢) انظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٤٥ ـ ١٤٨.

(٣) جمال حمدان: شخصية مصر ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٥٦.

والأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ ـ ١١٨٤ ق.م)، بل وكذا الأسرة العشرين (١١٨٤ ـ ١٠٨٧ ق.م) إلى حد ما، أن السياسة الفعلية الوحيدة في مختلف العصور: هي احتلال حربي لطريق الغزو من وديان الأورنت (العاصي) والأردن ـ أو سورية وفينيقيا وفلسطين ـ ووضع قوة لمنع الاحتكاك عند مدخل ممر الغزو في إقليم حلب، بين الفرات والعاصي(١).

ورأت مصر أن الخير لكل من الطرفين ـ مصر والدويلات السورية ـ في اتباع هذه السياسة، ذلك لأن الدويلات السورية سوف تطمئن على أمنها عن هذا الطريق، بخاصة وأن الشام أو سورية بمعناها القديم، لم تكن قد عرفت بعد في تلك العصور، الكيان السياسي للدولة الموحدة ـ كما حدث في مصر ـ منذ أكثر من ستة عشر قرناً، أي منذ حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م ـ ومن ثم فهي ليست بقادرة على صد هجرات جديدة، أو كسر شوكة الهجرات الموجودة على أطرافها، دون دفع داخلي، أو عون خارجي(٢).

وأما بالنسبة لمصر، فإن احتلالها للولايات السورية، إنما يعتبر بمثابة صمام أمن لها، بخاصة وأنها كانت قريبة عهد بطرد الهكسوس، الذين ربما اتصلوا بذوي قرباهم في تلك المناطق، أو بمن كانوا لا يؤمنون بصداقة مصر، ومن ثم يصبحون، بمرور الزمن، خطراً على الولايات الموالية لمصر، وربما على مصر نفسها، هذا بالإضافة إلى أن سيطرة مصر على أبواب التجارة، ومداخل الهجرات في شمال وأطراف العراق(٣).

وانطلاقاً من كل هذا، فإن «أحمس الأول» (١٥٧٥ ـ ١٥٥٠ ق.م) عندما كتب له نجحاً بعيد المدى في الاستيلاء على «أفاريس» (تانيس، وهي صان الحجر الحالية بمحافظة الشرقية، وتقع على مبعدة ٢٠ كيلاً إلى

---

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ٢/ ١٣٠.
(٢) عبدالعزيز صالح: المرجع السابق ص ١٠٧.
(٣) أحمد فخري: المرجع السابق ص ٢٦٩، عبدالعزيز صالح: المرجع السابق ص ٢٠٥ وكذا.

الجنوب من مدينة المنزلة الحالية) ـ عاصمة الهكسوس ـ وطردهم منها[1]، ثم محاصرتهم في مدينة «شاروحين» أعواماً ثلاثة، نجح بعدها في إجلائهم عنها، ثم مطاردتهم حتى «زاهي»[2] في لبنان، وهذا يعني أن «أحمس الأول» قد أجلى الهكسوس عن المناطق التي سكنوها، والتي لجأوا إليها، أو سكنها أقوام ينتمون إلى جنسهم، وبالتالي فإنه لم يطهر مصر منهم فحسب، وإنما طهر منهم كذلك سورية وفلسطين وفينيقيا، حتى يغدو بمأمن من غدرهم ومعاودتهم العدوان[3].

وهناك نص يرجع إلى العام الثاني والعشرين من حكم أحمس الأول يشير إلى استخدام ستة ثيران مسمنة في محاجر المعصرة جلبت من بلاد «فنخو» (أي بناة السفن) وهم الفينيقيون، يقول النص: «الحجر مسحوب بماشية مما استولى عليه جلالته من أراضي الفنخو»، وإن كان هناك شك في أن هذه الثيران قد جلبت في حملة، أو قدمت كجزية من الفينيقيين أو الآسيويين[4].

وفي عهد تحوتمس الأول (١٥٢٨ ـ ١٥١٠ ق.م) اخترقت القوات المصرية منطقة الفرات إلى بلاد «نهرين» حيث يحكم ملك الميتان، في شمال شرق الشام، وقرب نهر الخابور والفرات، دون مقاومة كبيرة من

---

(١) انظر عن طرد الهكسوس من مصر (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ١٠١ ـ ٢٢٤).

(٢) زاهي: اصطلاح جغرافي استعمل في الدولة الحديثة للإشارة إلى السهل الفينيقي وفلسطين أو إلى سورية بمعناها الواسع.

(٣) J. H. James, CAH, II, Part, I, 1973, P. 289-305.

وكذا: J. H. Breasted, ARE, II, 1906, P. 1-11.

وكذا: A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 168-169, JEA, 5, 1918, P. 48 F, 37, 1951, P. 71.

(٤) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢٠٣.

وكذا: J. H. Breasted, ARE, II, No. 27.

الدويلات السورية، ثم أقام لوحة تذكارية على ضفة الفرات عند قرقميش[1].

وفي عهد حفيده العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق.م) والذي وصلت الأمبراطورية المصرية في عهده إلى أقصى اتساعها، شارك الفينيقيون في معركة «مجدو» والتي اشترك فيها ٣٣ ملكاً وأميراً من دويلات ومدن سورية وفلسطين وفينيقيا بقيادة أمير قادش[2].

وفي العام الثالث والثلاثين من الحكم، قام تحوتمس الثالث بحملته الثامنة (حوالي ١٤٥٧ ق.م) ونقرأ في لوحة «نباتا» أن جلالته قد أمر بصنع السفن في «جبيل»، وأن تنقل براً إلى قرقميش على عربات تجرها الثيران، ثم يعبر بها نهر الفرات، حيث يسجل نصراً عسكرياً على عدوه ملك الميتان، وعلى أي حال، فلئن كان الطريق من بيبلوس يمر عبر قطنة وتوينب (قرب حلب) وقرقميش، فإن معنى هذا أن نقل هذه القوات قد قطع أكثر من ٤٠٠ كيلاً ، كما أن استخدام عربات تجرها الثيران من ذوات الأربع عجلات، ظاهرة غير متوقعة تماماً، ولعلها كذلك من أقدم، إن لم تكن أقدم، المرات التي استخدمت فيها السفن الحربية في التاريخ لعبور جيش كبير على نهر واسع كنهر الفرات[3].

---

(١) محمد بيومي مهران: أخناتون ص ١٤ ـ ١٧.

وكذا: A. Gardiner, Op. Cit., P. 178-179.

J. H. Breated, ARE, II, P. 34-35, 40, 202.

(٢) انظر عن معركة مجدو (محمد بيومي مهران: مصر ـ الجزء الثالث ص ٢٠٣ ـ ٢١٥.

J. H. Breated, Op. Cit., P. 157-188.

J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 234-237-241.

Gardiner, Op. Cit., P. 189-193.

وكذا: H. H. Nelson, The Battle of Megiddo, 1915.

R. O. Faulkner, The Battle of Megiddo, JEA, 28, 1928, P. 2 F.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

وكذا: J. H. Breasted, Op. Cit., P. 202-203.

M. B. Reisner, JEA, 6, 1920, P. 28.

وتدل الحملة، دونما أي ريب، على سيطرة تحوتمس الثالث على ثغور فينيقيا بصفة خاصة، وسورية وفلسطين بصفة عامة، كما تدل في الوقت نفسه على ولاء مدينة بيبلوس للفرعون، ذلك لأنه لولا هذا الولاء من بيبلوس وما حولها من الإمارات للفرعون، لما استطاع تحوتمس الثالث تنفيذ هذا المشروع الخطير، والأول من نوعه في التاريخ.

وفي عصر العمارنة أدرك «شوبيلو ليوما» (١٣٧٥ ـ ١٣٣٥ ق.م) ملك الحيثيين، أثناء صراعه مع ميتاني، التي أنقذتها مصر منه على أيام أمنحتب الثالث (١٤٠٥ ـ ١٣٧٦ ق.م)، أنه لن يتمكن من تحقيق أغراضه في غربي آسيا (سورية وفلسطين وفينيقيا) ما دام النفوذ المصري قوياً، وما دام أمراء تلك المناطق على ولائهم لفرعون، ومن ثم فقد أخذ يؤلب هؤلاء الأمراء ليشقوا عصا الطاعة على الفرعون.

وقد استجاب لدعوة الملك الحيثي «إيتوجاما» أمير قادش، الذي بسط نفوذه على سهل سورية الشمالي وهزم الأمراء الموالين لمصر، ثم «عبدي شرتا» أمير الأموريين، الذي تمكن من بسط نفوذه عنوة على حساب جيرانه، فاحتل عرقة وقطنة وحماه ونى في الداخل، ثم احتل أرواد، وهاجم سيميريا على الساحل.

وفي نفس الوقت كان هناك «ربعدي» أمير جبيل، الموالي لمصر، والذي ظل طوال حياته يرسل توسلاته اليائسة إلى فرعون يطلب العون ضد «عبدي شرتا» وولده «عزيرو» اللذين كان الواحد منهما بعد الآخر، يحاول القضاء على النفوذ المصري في فينيقيا وسورية الشمالية، وفي نفس الوقت كان يرسل لفرعون رسائل الخضوع والعبودية، وقد نجح عزيرو بصفة خاصة في إخفاء خيانته لفرعون حيناً من الدهر(١).

---

(١) S. A. B. Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, I, Tornto, 1939, P. 21, 185, 207.

وكذا: A. C. Stanly, CAH, III, 1965, P. 312. =

وتقدم لنا رسائل العمارنة كثيراً من رسائل الأمراء الفينيقيين الموالين لمصر، والذين يحذرون فرعون من تدخل الحيثيين والأموريين في شؤون المدن الفينيقية، فها هو «أكزي» أمير قطنة، يكتب لا منحتب الثالث طالباً منه أن يرسل إليه رماة الأقواس(١)، ثم يكتب مرة ثانية إلى فرعون ينبئه بأن قطنة ورجالها قد أخذهم ملك حاتي وأمير الأموريين(٢)، وفي رسالة ثالثة يخبر الفرعون بأن جيوش الحيثيين قد توغلت في منطقة نفوذه في وادي الأورنت، واستولت على تمثال للمعبود «أمون رع» عليه اسم الفرعون، ثم أحرقت المدينة عند عودتها(٣).

ويكتب «ربعدي» أمير جبيل بأن قوم حاتي أحرقوا الأراضي، وأنهم يجمعون الجنود لفتح جبيل(٤). وعندما تزداد الأمور سوءاً على أيام «أمنحتب الرابع» (أخناتون ١٣٧٦ ـ ١٣٥٠ ق.م) يكتب «ربعدي» (رب آدي) إلى أخناتون قائلاً «فلينصت الملك مولاي إلى كلمات خادمه، ولتأت العربات ورماة الأقواس، لتحمي مدينة الملك مولاي، ومدينة خادمه، حتى يحضر الملك بنفسه»(٥)، وفي رسالة أخرى يطلب من فرعون أن يرسل إليه أربعمائة رجل وثلاثين زوجاً من الخيل(٦)، بل أنه في رسالة ثالثة يطلب فقط عشرين زوجاً من الخيل، وهو قادر بهم وحدهم على التقدم ضد أعداء الملك، لأن الشعب بأعداده الكبيرة معه «ومع الملك»(٧).

وينتهي الأمر بأن يصبح «ربعدي» محصوراً في مدينته «جبيل»، وقد حاول «ينخامو» (قائد جيوش الملك هناك) في أثناء ذلك أن يأتي بنجدة

= A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 231.
K. A. Kitchen, Suppiluliuma and The Amarana Pharaohs, Liverpool, 1962.

(١) S. A. B. Mercer, Op. Cit., I, P. 229.
(٢) Ibid., P. 237.
(٣) Ibid., P. 239.
(٤) Ibid., P. 215.
(٥) Ibid., P. 311.
(٦) Ibid., P. 303.
(٧) Ibid., P. 303.

من «سيميريا»، ولكن دون جدوى، فقد كان أولاد «عبدي شرتا» يحاصرون المدينة براً، بينما تحاصرها سفن «أرواد» بحراً، وتنتهي الأمور بقيام ثورة في جبيل ضد ربعدي، بقيادة أخيه، وهو في زيارة لمدينة بيروت، ويستولي الأموريون على المدينة[١].

وأما «زيمردا» حاكم صيدا، فقد كان خائناً لفرعون، والواقع أنه لم يكن ربعدي وحده هو الذي اتهمه بالعمل ضد مصالح الملك مولاه، وإنما هناك كذلك «أبيملكي» حاكم صور، والذي كان متهماً بمساعدة «عزيرو» عدو الفرعون، كما كان على نزاع مع «زيمردا» الذي ادعى أن ابيملكي قد أخذ منه مدينته صيدا[٢].

هذا وقد كتب «خامونيري» (أمونيري) أمير بيروت، في نفس الوقت الذي سقطت فيه جبيل تقريباً، يشكو للفرعون من أمراء مدن فينيقية أخرى كانوا يهددون مدينته بيروت[٣].

وهناك عدة رسائل من «أبيملكي» أمير صور، ومن «زيمردا» حاكم صيدا، وعزيرو الأموري عدو الفرعون، وشعب أرواد، ففي إحدى هذه الرسائل يقول لفرعون «قد أقسموا، وأعادوا القسم فيما بينهم، وجمعوا سفنهم وعرباتهم ومشاتهم، لغزو صور، خادمة الملك، غير أن يد الملك القوية قد وصلت، فهزمتهم صور وضربتهم، ولم يستطيعوا غزوها، ولكنهم هزموا سيميريا بنصيحة زيمردا، الذي أتى بكلمة الملك إلى عزيرو»[٤].

وفي رسالة أخرى كتب «أبيملكي» إلى أخناتون يقول: «فمنذ أن سمعوا اسم الملك واسم جيشه، فإنهم يشعرون بخوف عظيم، حتى الذين

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران: أخناتون ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠.

(٢) F. J. Giles, Ikhnaton, legend and history, London, 1970, P. 176.

وكذا: S. A. B. Merer, Op. Cit., 11, 1939, P. 489 F, L. 59-68.

(٣) F. J. Giles, Op. Cit., P. 176.

(٤) S. A. b. Mercer, Op. Cit., 11, P. 489.

لا يتبعون الملك»[١]، وفي رسالة رابعة يقول: «أبيملكي»: «إلى الملك مولاي وسيدي، هكذا يقول إبيملكي خادمك، سبع مرات وسبع مرات أسقط على قدميك، إن الذي قاله الملك مولاي قد نفذ، أن كل الأرض قد ارتعدت من جنود الملك مولاي، لقد سمحت لشعبي بأن يبحروا بالسفن لمقابلة جنود الملك مولاي[٢].

وأياً ما كان الأمر بالنسبة لموالي مصر في بلاد الشام، وأيهم الصادق في رسائله، وأيهم الكذوب، فضلاً عن المخلص منهم والخائن لسيده الفرعون، فليس هناك من شك في أن الضعف إنما بدأ يدب في جسم الأمبراطورية المصرية في غربي آسيا، منذ أخريات أيام أمنحتب الثالث، ثم كانت ثورة العمارنة الدينية ضربة قاسية وجهت إلى الأمبراطورية المصرية.

وأياً كان السبب في هذا الموقف الجديد، وأن سياسة أخناتون في أن يربط بلاد الشام بمصر برباط العقيدة، فالذي لا شك فيه أن الفرعون قصر في أداء واجبه كملك، تقع عليه وحده مسؤولية الحفاظ على الأمبراطورية المصرية، لأنه كان حراً في تصرفاته إزاء ممتلكاته، ولم تكن بلاد الشام تختلف عن مصر نفسها، فكلاهما من أملاك فرعون، ومن حقه أن يتصرف في الواحدة منهما كما يتصرف في الأخرى، طبقاً لمصلحة التاج المصري، فضلاً عن المصلحة العامة لكلا القطرين[٣].

وعلى أية حال، فلقد بدأت مصر تعمل على استعادة وحدة البلدين في ظل التاج المصري في أعقاب أيام أخناتون، وتحدثنا بقايا مقبرة القائد «حور محب» في منف عن حملة كللت بالنصر في غربي آسيا وأن القائد

---

(١) J. A. Kcudtzon, Op. Cit., P. 615.

(٢) F. j. Giles, Op. Cit., P. 177.

(٣) A. Weigall, The Life and Times of Akhnaton, Pharaoh of Egypt, London, 1943, P. 200-205.
James Baikie, The Amarna Age, London, 1926, P. 341.

«حور محب» كان عند قدمي سيده الفرعون في ساحة القتال في يوم ذبح الآسيويين[١].

هذا ويرجح البعض أن هذه الحملة إنما كانت في أخريات أيام أخناتون، وأن رأى آخرون أنها كانت على أيام «توت عنخ آمون» (١٣٣٩ ـ ١٣٣٥ ق.م)، وأنها كانت تهدف إلى استعادة الهيبة المصرية في غربي آسيا، والاستيلاء على الجزي الآسيوية التي بدأت تتدفق من جديد على خزائن فرعون[٢].

وفي عصر الأسرة التاسعة عشرة، وعلى أيام ثاني ملوكها «سيتي الأول» (١٣٠٩ ـ ١٢٩١ ق.م) تقوم مصر بمحاولة جديدة لاسترداد أمبراطوريتها المفقودة في غربي آسيا، وتنجح في فرض هيبة النفوذ المصري في سورية الجنوبية، وإلى حد كبير في فينيقيا، وأن تسيطر على إقليم مولى سوري من موالي الحيثيين[٣].

ويخلف رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق.م) أباه «سيتي الأول» على عرش الفراعين، ويبدأ حكمه بمتابعة الانتصارات التي حققها أبوه في فلسطين، ثم مدها إلى الشمال في سورية وفينيقيا، وفي العام الرابع من عهد الفرعون (حوالي ١٢٨٦ ق.م) يعبر الفرعون بقواته فلسطين وفينيقيا

---

(١) Wilson, ANET, 1966, P. 250.
A. Gardiner, JEA, 39, P. 4.

(٢) دريوتون وفانديه: مصر ـ ترجمة عباس بيومي ـ القاهرة ١٩٥٠ ص ٤٦٦ ـ ٣٦٧.
وكذا: J. H. Breasted, A History of Egypt, 1946, P. 407.
وكذا: ARE, III, P. 11.
W. C. Hayes, Thes Scepter of Egypt, II, N. Y., 1959, P. 303-304.
H. E. Winlock, BMMA, XVIII, 1923, P. 6.

(٣) انظر: (محمد بيومي مهران: أخناتون ص ٢٨١ ـ ٢٨٧، وكذا: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ٨٣، دريوتون وفانديه: المرجع السابق ص ٤٧٠،
وكذا: L. Cottrell, The Warrior Pharaohs, 1968, P. 111-113.
R. O. Faulkner, JEA, 33, 1947, P. 38-39.

حتى نهر الكلب شمالي بيروت، حيث أقام لوحة تذكارية، غير أن المعركة الحاسمة إنما كانت في العام التالي (١٢٨٥ ق.م) في قادش بين الفرعون وملك الحيثيين «مواتيلا» حيث انضم إليه الكثير من أمراء سورية الشمالية وفينيقيا، وتشير الأدلة إلى أن الفرعون قد تقدم بالجزء الرئيسي من جيشه من الجنوب عن طريق البقاع، بينما اتخذت إحدى فرقه (فيلق ست) طريقها في أمور، في المنطقة شمال جبيل (بيبلوس)، وإن كان الطريق الأكثر احتمالاً، إنما كان التوغل شمالاً عن طريق نهر الكلب ووادي «اليوثيروس» (الليطاني) الذي يقود مباشرة إلى قادش، والتي كانت قد اتخذت كمكان تجمع في استراتيجية المعركة، مما يشير إلى أن فينيقيا إنما كانت في قبضة الفرعون، أو على الأقل قد أعاد هيبة مصر فيها كاملة(١).

وعلى أية حال، فإن هناك ما يشير إلى أن رعمسيس الثاني إنما قد اضطر في عام حكمه الثامن (حوالي عام ١٢٨٢ ق.م) إلى الخروج إلى غربي آسيا لإخضاع المدن الثائرة، وقد كتب له نجحاً بعيد المدى في سورية وفلسطين وفينيقيا، ثم يتقدم شمالاً حيث يوقع بالحيثيين هزيمة ثانية في «توينب»، وتلقين مملكة حاتي درساً قاسياً أجبرها على احترام السيادة المصرية في غربي آسيا، وعدم التدخل في أمر ولاياتها(٢).

وجاء مرنبتاح (١٢٢٤ ـ ١٢١٤ ق.م) بعد أبيه رعمسيس الثاني، وهناك ما يشير إلى تعرض دولة الحيثيين إلى متاعب كثيرة في عهده، فانتشرت المجاعات وعمت الفوضى، مما اضطر فرعون إلى أن يرسل إلى حاتي مدداً من القمح، هذا فضلاً عن أن آسيا الصغرى وفينيقيا وشمال

---

(١) A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, P. 7-10.
H. Goedick, JEA, 52, 1966, P. 72-79.

(٢) محمد بيومي مهران: مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث ص ٩٠ ـ ٩٣.

وكذا: K. A. Kitchen, JEA, 50, 1964, P. 68-69.
J. Kuentz, BIFAO, 55, 1928, P. 14.

سورية إنما بدأت تتعرض لهجوم طلائع شعوب البحر، وهناك ما يشير إلى أن فرعون إنما قد أرسل جنوداً لمساعدة «أوجاريت» (رأس الشمرة) للدفاع عن نفسها ضد شعوب البحر.

هذا وقد ظلت مصر على أيام «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ ـ ١١٥١ ق.م) ثاني ملوك الأسرة العشرين، ما تزال تحتفظ بأمبراطوريتها الآسيوية كاملة، وكان خط الحدود المصرية عند «زاهي» في لبنان، وهناك ما يشير إلى أن الرجل قد اضطر إلى إخماد ثورة في «أمور» ربما نشبت بسبب تهديد شعوب البحر لشمال سورية وفينيقيا[١].

وكانت السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث (حوالي عام ١١٧٤ ق.م) من أقسى السنوات على مصر، فضلاً عن أمبراطوريتها الآسيوية، فلقد واجهت فيها البلاد تهديداً خطيراً، ذلك لأن شعوب البحر قد أتت في موجة كبيرة، تقدم بعضها عن طريق البحر، وتقدم البعض الآخر عن طريق البر، بغية احتلال مصر، أو سورية وفلسطين وفينيقيا على الأقل، ثم الاستقرار الدائم في تلك البلاد، ومن ثم فقد جاءوا، وفي ركابهم زوجاتهم وأطفالهم، وكثير منهم قد ركب عجلات تجرها الثيران التي تميزت بسنام يعلو رقابها، وهكذا تحركت الهجرات من شعوب البحر جنوباً في آسيا الصغرى ناشرةً الخراب في الأناضول وسيليسيا وسورية وفينيقيا، ثم اتخذت لها مركزاً في أمور، وتشير النصوص إلى أن شعوب البحر (وبخاصة البلست) قد دمروا صيدا، وربما كان الأرجح نهب وتخريب في فينيقيا، وليس تدميراً بالمعنى الحرفي للكلمة.

وعلى أية حال، فلقد كان رعمسيس الثالث على أهبة الاستعداد، فلقد سبق المهاجمين في تحصين حدوده وخاصة عند زاهي، كما جمع

---

(١) W. Edgerton and J. Wilson, historical Records of Ramsess, III, Chicago, 1936, P. 22-23.

وكذا: G. A. Wainwright, JEA, 46, 1960, P. 24-28.

أسطولاً ضخماً وزعه على المواني الشمالية، ثم خرج على رأس جيشه حتى وصل إلى زاهي، حيث دارت بينه وبين شعوب البحر معركة برية في بلاد الأموريين، هزم على أثرها المهاجمون شر هزيمة.

وتقدم لنا مناظر مدينة هابو في طيبة الغربية (الأقصر) منظراً لفرعون في عربته، وهو يهجم في قلب قوات شعوب البحر الذين ساد بينهم الارتباك وسوء النظام، ويساعده مشاة مصريون، فضلاً عن الفرسان وجنود الماريانو، ويشاهد شعوب البحر وهم يرخون لسيقانهم العنان كما يفرون في عرباتهم، كما تفر نساؤهم وأطفالهم بأمتعتهم المحملة على عربات ثقيلة تجرها ثيران ذات سنام يعلو رقابها، وهكذا نجح رعمسيس الثالث في أول لقاء بينه وبين هؤلاء المتبربرين، واستطاع أن ينال منهم وأن يهزمهم شر هزيمة، وأن ينقذ أمبراطوريته الآسيوية منهم، وبدهي أن هذا النصر المؤزر للفرعون وجيوشه إنما يمثل أحد أدوار البطولة المصرية التي يسجلها التاريخ لمصر في القضاء على هذه الموجة الغاشمة التي تتعرض لها الحضارة الإنسانية من عصر إلى عصر(١).

وهكذا استطاع رعمسيس الثالث الحفاظ على الأمبراطورية المصرية في غربي آسيا، إلا أن خلفاءه لم يستطيعوا الحفاظ عليها، صحيح أن هناك بعض الأدلة الأثرية من عهود الفراعين: رعمسيس الرابع والسادس وغيرهما، ولكنه صحيح كذلك أن مثل هذه الأشياء الصغيرة لا تدل على معان قوية لها قيمة تاريخية من ناحية سلطان مصر على غربي آسيا، بل أن العكس صحيح، فهناك ما يدل على أن العلاقات بين مصر ومستعمراتها الآسيوية إنما كانت شديدة الضعف في أخريات أيام الأسرة العشرين، حتى رأينا حاكم بيبلوس يعتقل رسلاً مصريين في عهد رعمسيس التاسع مدة سبع عشرة سنة، دون أن يسمح لهم بالعودة إلى مصر.

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران مصر ـ الجزء الثالث ص ٣٧٣ ـ ٣٨٠، حركات التحرير في مصر القديمة ص ٢٥٧ ـ ٢٦٤.

وكذا: W. Edgerton and J. Wilson, Op. Cit., P. 35-55.

هذا وتقدم لنا رحلة «ون آمون» دليلاً على اضمحلال النفوذ المصري في فينيقيا، فلقد ذهب «ون آمون» مبعوثاً من كهنة آمون، ليجري مفاوضات شراء خشب الأرز من بيبلوس في عهد رعمسيس الحادي عشر، آخر ملوك الأسرة العشرين، فسرقه ملاح في سفينة فينيقية، كما تعرض لتهديدات الثيكر المتكرر، ولم يتم مهمته إلا بعد مساومات مهينة من ملك بيبلوس(1).

٥ ـ في عهد الانتقال الثاني (الأسرات من ٢١ إلى ٢٥):

هناك ما يشير إلى أن «سمندس» (نسي بانب دد) والذي كان يحكم مصر الوسطى والدلتا بعد موت آخر ملوك الدولة الحديثة «رعمسيس الحادي عشر» حوالي عام ١٠٨٧ ق.م، من عاصمته تانيس (صان الحجر ـ مركز فاقوس) كان يأتي بالأخشاب لمصر من فينيقيا عن طريق جبيل، وليست هناك أسباب تدعو إلى الاعتقاد بتغيير هذه السياسة، وكانت سورية وفلسطين وفينيقيا قد انفصلت عن مصر وقتذاك، وسرعان ما انقسمت إلى إمارات صغيرة، مثل فينيقيا وبلستيا وإسرائيل ومؤاب وأدوم وأرام، ولكن الروابط التجارية والثقافية قد استمرت مع القوى الكبرى على ضفاف النيل والفرات.

وفي عهد الأسرة الثانية والعشرين، قام «شيشنق الأول» (٩٤٥ ـ ٩٢٤ ق.م) رأس الأسرة بحملته المشهورة على فلسطين حوالي عام ٩٣١ ق.م (وربما حوالي عام ٩٢٦ أو ٩٢٥ ق.م)، والتي أراد منها، في الدرجة الأولى، استعادة الأمبراطورية المصرية في غربي آسيا من جديد، وقد امتد نطاق هذه الحملة، حتى شرق الأردن، من ناحية الشرق، وحتى

---

(١) انظر: G. Lefebvre, Romains of Contes Egypt, P. 204-220

Leclant, les Relations entre L'Egypte et la Phenicie du Voyage d'Ounamon a L'expedition d'Alexandre, Beirut, 1968, P. 9-31.

A. Gardiner, Late Egyptian Stories, Brussels, 1952, P. 61-76.

A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, P. 306-314.

الساحل السوري من ناحية الغرب، وأما في الشمال فقد وصلت إلى سهل يزرعيل والجليل، كما امتدت جنوباً حتى عصيون جابر، على خليج العقبة، وحتى حبرون وبئر سبع، وإن كانت نقوشه التي سجلت انتصاراته على الجدران الجنوبية الخارجية لبهو الأعمدة الكبير في معبد الكرنك لا تذكر مدناً فينيقية مشهورة(١).

وعلى أية حال، فإن هناك ما يشير إلى أن «شيشنق الأول»، وخلفاءه، إنما قد أعادوا العلاقات الطيبة مع أمراء بيبلوس، والتي ترجع إلى أقدم العصور، حيث كانت مصر تستورد من هناك خشب الأرز، وإن توقفت هذه العلاقات إلى حد ما على أيام الأسرة الحادية والعشرين وهكذا فلقد أهدى «شيشنق الأول» تمثالاً جالساً له إلى معبد سيدة جبيل، وربما يشير هذا إلى عودة العلاقات التجارية والسياسية مع ملك جبيل (أبي بعل)(٢).

وفي عهد «أوسركون الثاني» (٨٧٤ ـ ٨٥٠ ق.م) اشتركت مصر بعدد رمزي من جنودها في موقعة «قرقر» (قرقار) المشهورة في عام ٨٥٣ ق.م والتي كانت تتكون من حلف يضم اثني عشر ملكاً من ملوك وأمراء سورية وفينيقيا وفلسطين والأعراب ضد العاهل الآشوري «شلمنصر الثالث» (٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق.م)(٣).

---

(١) ملوك أول ١٤/ ٢٥ ـ ٢٧، أخبار أيام ثان ١٢/ ٢ ـ ٤.

وكذا: A. Gardiner, Op. cit., P. 229-230.

K. Kenyon, Archaeology in The Holy London, 1970, P. 272-274.

K. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, P. 284-300.

A. T. Olmstead, History of Palestine and Syria, 1931, P. 355.

M. Noth, ZDPV, 61, 1938, P. 278-280, PEO, 104, 1972, P. 30

Y. Tharoni, The Land af The Bible, London, 1966, P. 288-289.

(٢) R. Dussaud, Syria, 5, 1924, P. 145-147.

(٣) انظر: J. B. Pritchard, The Ancient Near East, Princeton, 1950, P. 188.

A. L. Oppenheim, ANET, 1966, P. 278-279.

J. Finegan, Light from The Ancient Past..., Princeton, 1969, P. 24.

وفي عهد «شبتكو» (٧٠٢ ـ ٦٩٠ ق.م) من الأسرة الخامسة والعشرين، وأثناء الغزوات الآشورية على سورية وفينيقيا، تكون حلف يضم فينيقيا وفلسطين ومؤاب وأدوم وعمون ويهوذا، مع بعض القبائل البدوية، وفوق الجميع كانت مصر، ضد العاهل الآشوري «سنحريب» (٧٠٥ ـ ٦٧١ ق.م) ولكنه انسحب من الميدان فجأة، وعاد إلى عاصمته نينوى.

وجاء «طهراقا» (٦٩٠ ـ ٦٦٤ ق.م) بعد شبتكو، وبدأ ينظم المقاومة ضد الآشوريين في غربي آسيا ويتعاون مع أمرائها، وخاصة أمراء صور وصيدا في صد الآشوريين، وقد نجح «طهراقا» في هزيمة الآشوريين هزيمة منكرة حوالي عام ٦٧٤ ق.م، جعلت الأمراء السوريين، وعلى رأسهم، بعل صور، ينضمون تباعاً إلى الفرعون المصري طهراقا[١].

٦ ـ في عصر النهضة (الأسرة السادسة والعشرون):

كانت سياسة مؤسس الأسرة السادسة والعشرين «بسماتيك الأول» (٦٦٤ ـ ٦١٠ ق.م) وولده «نخاو الثاني» (٦١٠ ـ ٥٩٥ ق.م) الحفاظ على دولة آشور الضعيفة، كحاجز بين مصر وبين القوى الخطيرة في الشرق، والتي تهدد الآن آشور في المقام الأول، ولكنها على العموم ربما تتجاوز في الغد القريب كل الشرق القديم، وأخيراً لكي تسترجع مصر امبراطوريتها المفقودة في غربي آسيا، ومن ثم فقد أسرع «نخاو الثاني» بقواته لمساعدة العاهل الآشوري (أشور ـ أو بالط الثاني) القابع في «حران» أملاً في عون يأتيه من السماء عن طريق مصر، غير أن القوات المصرية لم تصل إليه إلا

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩٧٠ ـ ٩٧٨، ملوك ثان ١٩/ ٣٥، أشعياء ٣٧/ ٣٦.

وكذا:

M. Noth, Op. Cit., P. 268-269.
J. Bright, A History of Israel, 1972, P. 296-308.
B. Mozar, IEJ, 10, 1960, P. 72-77.
ANET, P. 287-288.

بعد سقوط حران تحت أقدام البابليين في عام ٦١٠ ق.م، وكانت «نينوى» قد سقطت في عام ٦١٢ ق.م، وربما في أغسطس عام ٦١٣ ق.م[١].

على أن «نخاو الثاني»، رغم أنه لم يوفق في إنقاذ آشور، إلا أن قواته ظلت تسيطر على منطقة عبر الفرات، بعد أن استولت في عام ٩٠٦/ ٩٠٥ ق.م، على معقل «كيموخو»، وهزموا البابليين في «قوراماتي» وهما موقعان على الفرات إلى جنوب قرقميش، كما أن «نخاو الثاني» نجح في أن يخضع المدن الساحلية مثل عسقلون وأشدود وغزة، وهناك نص بالهيروغليفية عثر عليه في «صيدا» يشير إلى سيطرة نخاو على الساحل الفينيقي سيطرة كاملة، وقد يسر له ذلك امتلاكه لأسطول في البحر الأبيض المتوسط[٢].

وهناك ما يشير إلى أن «نخاو الثاني» قد أنشأ ـ بجانب أسطوله في البحر المتوسط، أسطولاً آخر في البحر الأحمر، وأنه استغل قدرة الملاحين الفينيقيين وخبرتهم الملاحية، في الدوران حول إفريقيا قبل البرتغاليين بأكثر من ألفي عام، ويعد «هيرودوت» مصدرنا الأساسي عن هذه الرحلة التي بدأت من البحر الأحمر، وعادت إلى مصر عن طريق جبل طارق.

وعلى أية حال، فيكاد من المؤكد الآن أن السفن التي أرسلها «نخاو الثاني» بملاحيها الفينيقيين لتقوم بدورة ملاحية حول أفريقيا قد نجحت في

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩٨٠ ـ ٩٨١، محمد عبدالقادر: الساميون في العصور القديمة ص ٢٤٧.

وكذا: M. Noth, The History of Israel, P. 273.
A. Gardiner, Op. Cit., P. 258.

(٢) أرميا ٤٧/٨، وكذا: محمد بيومي مهران: مصر: ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨١.

وكذا: D. J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings, London, 1965. P. 23. 67.
A. Gardiner, Op. cit., P. 358.
J. Yoyotte, Nechao, P. 372.
M. Noth, Op. Cit., P. 280.
S. A. Cook, Op. Cit., P. 396-397.

هذه المهمة، حيث قضت في رحلتها ثلاث سنوات دارت فيها حول شواطىء أفريقيا، ثم عادت من بوغاز جبل طارق (أعمدة هيراكليس) محملة بجميع خيرات أفريقيا التي حصلت عليها من الموانىء التي مرت بها.

ولعل أهم الأدلة على نجاح الرحلة ما ذكره الملاحون من أنهم كانوا دائماً يسيرون على مقربة من الشاطىء، وكانت الشمس تشرق عن يسارهم، ولكنهم وصلوا إلى نقطة فإذا بهم يرون أن الشمس تحولت وأخذت تشرق عن يمينهم، وقد رفض هيرودوت تصديق ذلك، مع أن هذه النقطة بالذات تدل على صدق أنباء الرحلة، لأن ذلك حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح، وكانت المرة الأولى في التاريخ التي تمر فيها مثل هذه السفن، وكان الغرض من الرحلة الكشف والمعرفة وإظهار المهارة الملاحية، وفتح أسواق للتجارة، ولا بد وأنه قد مهدت له معارف وإرهاصات سابقة[1].

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى قيام «بسماتيك الثاني» (٥٩٥ ـ ٥٨٩ ق.م) بحملة إلى فينيقيا، وإن كان هناك من يذهب إلى أنها لم تكن لأغراض حربية، ما دام الفرعون قد استدعى كهنة كثير من المعابد للإسهام فيها، وربما لا تعدو أن تكون أكثر من زيارة تفتيشية لميناء جبيل[2].

وفي عهد «إبريس» (واح إيب رع) تحولت سياسة مصر في غربي آسيا إلى ممارسة القوة، ولعل السبب في ذلك رغبة مصر في الإفادة من إمكانات قوتها البحرية النامية في مراقبة مواني الشام لتعطيل مصالح

---

(١) محمد بيومي مهران: مصر ٣/٦٤٢ ـ ٦٤٤، أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ٤٢٥.

وكذا: A. Gardiner, Op. Cit., P. 357.
Herodotus, II, 159-160.

(٢) Kienitz, Dite Politische Geschichte Aegyptens, Berlin, 1953, P. 25.

وكذا: A. Gardiner, Op. cit., P. 360.
Vetus Testamentum, 2, 1952, P. 135-136.

البابليين فيها، وحتى لا تستغل ضدها، ثم عودة البابليين إلى التوسع الحربي في فلسطين وحصارهم لأورشليم في عام ٥٨٨ ق.م، ومن ثم فسرعان ما عقد تحالف سري بين الفرعون «إبريس» (٥٨٩ ـ ٥٧٠ ق.م) وأدوم ومؤاب وعمون وصيدا وصور بحضور صدقيا ملك يهوذا في أورشليم، وقد قام الفرعون بالدور الرئيسي في اتخاذ القرار بالثورة ضد بابل[١].

ونقرأ في التوراة أن الجيش المصري سرعان ما خرج متجهاً إلى فلسطين لمساعدة أورشليم ضد البابليين ومن أسف أن الوثائق المصرية صامتة تماماً، ويبدو أن الجيش المصري بقي حيناً من الدهر يحمي أورشليم ثم تركها بعد ذلك متجهاً نحو ساحل البحر المتوسط لاحتلال مدن الساحل الفينيقي بعد أن حول اهتمام البابليين عن أورشليم.

وهناك ما يشير إلى أن إبريس قد وجه الجيش إلى الهجوم على صيدا وصور، ثم تحرك بعد ذلك نحو قبرص فأغار على شواطئها، ودمر المحطات الفينيقية، وطرد الأهلين منها، ثم عاد دون أن يجني الكثير من وراء ذلك، وأخيراً سقطت أورشليم ودمر البابليين المدينة المقدسة تماماً، ثم اتجه «نبو خذ نصر» بعد ذلك إلى الساحل الفينيقي وفرض الحصار على صور التي صمدت له قرابة ثلاثة عشر عاماً (٥٨٥ ـ ٥٧٣ ق.م)، وربما ساعدها على ذلك سهولة اتصالها بالبحر، وقيام الأسطول المصري بتموينها، مما أثار حفيظة نبوخذ نصر على مصر وتصميمه على الانتقام المباشر منها[٢].

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩٩٧ ـ ٩٩٩، أرميا ٢٦/ ٢٢ ـ ٢٤، ٢٧/ ٣٠، ٥١/ ٥٩، خرقيال ١٧/ ١٥، ملوك ثان ٢٤/ ٢٠.

وكذا: K. Kenyon, Op. Cit., P. 294-296.

(٢) انظر: ملوك ثان ٢٤/ ٢٠، أرميا ٢٦/ ٢٢ ـ ٤، ٣٤/ ٧، ٣٧/ ٥، ٤٤/ ٣٠، محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤، وكذا: مصر ٣/ ٦٥٣ ـ ٦٥٦.

وفي عهد الأسرة الثلاثين، وعلى أيام ثاني ملوكها «جد حر» (٣٦٢ ـ ٣٦١ ق.م) قامت في مصر صحوة أخيرة لاسترداد الأمبراطورية المفقودة في غربي آسيا، ومن ثم فقد خرج الفرعون على رأس جيشه الضخم الذي لم يسبق تكوينه منذ أيام الدولة الحديثة، إلى آسيا وأحرز عدة انتصارات ساحقة، فاحتل فينيقيا، وأعاد إلى الأذهان ذكرى أيام جيوش عصر الأمبراطورية الجرارة المنتصرة، وأصبح أمر استعادة الأمبراطورية المصرية في غربي آسيا وشيك التحقيق، لولا أن أتاه الأذى من مأمنه في مصر وسورية معاً.

ففي مصر كان الأذى من وراء نزوة الحكم وشهوة السلطان التي أصيب بها أمراء الدلتا في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الكنانة، ودفعت مصر ثمنها غالياً، ذلك أن الفرعون كان قد ترك عنه أخاه نائباً عنه في مصر، وأن هذا الأخ التعس قد راودته نفسه في لحظة قد غاب فيها الضمير، أن يستخلص الحكم لذاته أو لولده «نخت حر حب»، ومن ثم فقد أرسل إليه، وكان على رأس إحدى فرق الجيش، يستدعيه من فينيقيا، وانتهز الملك الأسبرطي الأجير «أجيسلاوس» الفرصة، وكان مع مستأجره الفرعون في ميدان القتال، فعاد إلى مصر مع الابن ليلقى منه ومن أبيه جزاء تأييده لهما، وخيانته لمستأجره السابق (جد حر).

وأما في فينيقيا، فقد تسربت أخبار ذلك الانشقاق في الأسرة الملكية إلى الجنود، فضعفت عزائمهم، وفقدوا الثقة في النصر، وزاد الطين بلة، أن أثينا قد استدعت قائدها المحنك «خبرياس» من ميدان القتال.

= وكذا:

S. A. Cook, Op. Cit., P. 400-401.
W. Keller, Op. Cit., P. 281.
D. J. Wiseman, Op. Cit., P. 94-95.
W. Keller, Op. Cit., P. 280-284.
A. Gardiner, Op. Cit., P. 361-362.
Kienitz, Op. Cit., P. 29.
D. Baramdi, Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961, P. 30.
D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 54.

وهكذا ضاع الأمل، ولجأ «جد حر» (تيوس) إلى صيدا، ثم إلى عدوه ملك الفرس، حيث عاش هناك ومات في المنفى. وانتهت الحملة الكبيرة، والتي بدأت بانتصارات ساحقة، إلى لا شيء على الإطلاق[1].

(١) محمد بيومي مهران: مصر ٣/٦٨٨ ـ ٦٩٠، نجيب ميخائيل: مصر ٢/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

وكذا: F. Daumas, Le Civilisation de l'Egypte Pharaonique, Paris, P. 103, 112, 563.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 376.

Diod, XV, 90-92, XVI, 40-46.

M. F. Gyles, Pharaonic Oolicies and Adminstration (663-323 B. C), Carolina, 1959, P. 45.

الفصل الثاني

الفينيقيون وعلاقاتهم بجيرانهم الآسيويين

أولاً: الفينيقيون وبنو إسرائيل

١ ـ في عهد داود وسليمان عليهما السلام:

لعل من أوضح وأهم العلاقات بين الفينيقيين وبني إسرائيل، تلك العلاقات التي كانت على أيام داود وسليمان عليهما السلام، ذلك أن التاريخ يحدثنا أن سيدنا سليمان عليه السلام، إنما بدأ بنو إسرائيل في عهده يتجهون بنشاطهم التجاري نحو البحر، بغية الاتجار مع البلاد الواقعة على الأبحر، فضلاً عن استيراد ما يحتاجون إليه من خارج فلسطين.

غير أن بني إسرائيل لم يكونوا قد ألفوا ركوب البحر من قبل، كما أنهم لم يكونوا على خبرة، أياً كانت، بشؤون بناء السفن وملاحتها، ومن هنا فقد بدأ سليمان عليه السلام يعمل على تأمين الطرق عبر وادي عربة، ثم الاتفاق مع «حيرام» (٩٦٩ ـ ٩٣٦ ق.م) ملك صور على إنشاء أسطول من السفن في ميناء «عصيون جابر» تستغل فيه المهارة الفينيقية، فضلاً عن أخشاب الأرز الملائمة لبناء السفن[١].

ومن ثم فقد أرسل «حيرام» الصوري الأخشاب التي حملها ثمانية آلاف من الرجال إلى «عصيون جابر» على خليج العقبة، بنى بها سليمان

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٧٨٠ ـ ٧٨٢.

أسطولاً من عشر سفن، وقد عرفنا الكثير عن هذا الأسطول، حتى أسماء ربانية من الفينيقيين[١].

وهكذا أنشىء هذا الأسطول بالخبرة والأخشاب الفينيقية، كما كان يديره فينيقيون كذلك، ونقرأ في التوراة «وقد عمل سليمان سفناً في عصيون جابر، التي بجانب إيله على شاطىء بحرسوف في أرض أدوم»[٢]، ونقرأ كذلك أن حيرام «قد أرسل في السفن عبيدة النواتي العارفين بالبحر، مع عبيد سليمان»[٣]، كما نقرأ كذلك في التوراة عن أسطول منفصل لحيرام، أبحر مع أسطول سليمان إلى «أوفير»[٤]، وأتى من هناك بالذهب والأخشاب النادرة، والأحجار النفيسة، وكل ما هو نادر وغريب[٥].

هذا ولم تقتصر علاقة الفينيقيين مع بني إسرائيل على النشاط التجاري فحسب، وإنما امتدت كذلك إلى النشاط المعماري، ذلك أن «داود عليه السلام» (١٠٠٠ ـ ٩٦٠ ق.م)، أراد ـ قبل أن ينتقل إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه، أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان عليه السلام في بناء «المسجد الأقصى»[٦]، والذي يعرف خطأ في كثير من الكتابات الأوروبية، بل وبعض الكتابات العربية كذلك بـ«هيكل سليمان»، ومن ثم فقد أخذ داود عليه السلام يجهز المواد اللازمة للبناء.

وكان اليهود في عصر داود عليه السلام، ما يزالون في بداوة بدائية يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، ومن ثم فقد كان الاعتماد على الفينيقيين هو الحل الوحيد الممكن أمام داود

---

(١) W. Keller, The Bible As History, London, 1967, P. 201.

(٢) ملوك أول ٩/ ٢٦.

(٣) ملوك أول ٩/ ٢٧.

(٤) انظر عن أوفير (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٧٨٢ ـ ٧٩٣).

(٥) ملوك أول ١٠/ ١١ ـ ١٢.

(٦) انظر عن المسجد الأقصى (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الثالث ـ في بلاد الشام بيروت ١٩٨٨ ص ١١٥ ـ ١٢٧).

وسليمان عليهما السلام، حتى يتم بناء المسجد الأقصى، ونقرأ في التوراة أن داود قد «أمر بجمع الأجانب الذين في أرض إسرائيل، فاتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، وهيأ داود حديداً كثيراً ومسامير لمصاريع الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلا وزن، وخشب أرز لم يكن له عدد، لأن الصيدونيين والصوريين أتوا بخشب كثير لداود»[(١)].

وهكذا عندما بدأ سليمان عليه السلام في البناء، أرسل إلى «حيرام» ملك صور بأن يقطعوا له الأرز من لبنان، على أن يعطيه «عشرين ألف كر حنطة طعاماً لبيته، وعشرين كر زيت»[(٢)]، هذا فضلاً عن الأيدي العاملة التي أرسلها حيرام لتجهيز هذا الخشب والحجارة، لأن الإسرائيليين لم يكونوا مهرة في أعمال البناء، على حين كان الفينيقيون بنائين من الطراز الممتاز في العمارة والفنون[(٣)].

وعلى أية حال، فإن المعلومات التي توفرها لنا التوراة في الأصحاح السادس من سفر الملوك الأول تتيح لنا بسهولة التأكد من تأثير مصر وبلاد الرافدين، على الرغم من أن الكاتب التوراتي يشيد بإعجاب إلى المساعدة الفينيقية، وإلى الإنفاق الضخم على البناء.

وأياً ما كان الأمر، فيمكن القول ـ اعتماداً على استخدام المعماريين والبنائين الفينيقيين، ومن بقايا قصر سليمان ـ أنه قد اتبع النظام الفينيقي، الأمر الذي نادى به من قبل المؤرخ اليهودي «يوسف بن متي» (٣٧ ـ ٩٨ أو ١٠٠ م)، وكذا المؤرخان (Monander) و (Dios) استخدما حوليات صور كمصدر لها، ومن ثم فيمكن الاعتماد عليها[(٤)].

---

(١) أخبار أيام أول ٢٢/٢ ـ ٤.

(٢) ملوك أول ١/٦ ـ ٢، ٧/٢، ٥/٦ ـ ١١.

(٣) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨٤٥ ـ ٨٤٦.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٨٤٦ ـ ٨٤٧.

وكذا: Josephus, Antiquities of The Jews, VIII, 5,3.

ثم ربط يوسف اليهودي بين صداقة سليمان لحيرام الصوري، وبين اقتباسه لنماذج البناء، خاصة فيما يتعلق بالمعبد، غير أن هذا التخمين لا يساعدنا على إعادة التصميم، وذلك لعدم وجود أية بقايا أثرية لمعابد حيرام، وحتى إذا كانت هناك بقايا يمكن العثور عليها، فإنها لم تكتشف بعد، وكل الذي نعرفه من يوسف اليهودي أن حيرام قد بنى معابد، ولكنه لم يذكر لنا أي شيء عن مظهر هذه المعابد وشكلها[١].

وعلى أية حال، فيبدو أن معبد سليمان إنما كان فعلاً فينيقي الطراز، ولعل من أهم ما يدل على أن الفينيقيين هم الذين قاموا بالعمل في عمارة سليمان، العثور على جزأين من تاج «عمود ـ سابق للإيوني» (Proto - Ionic) والذي يسمى أحياناً (Proto - Aeolic) في القدس، في القمة الشرقية للحافة الشرقية للمدينة المقدسة، ومعها حجارة منحوتة مبعثرة كانت، على الأرجح، تشكل حائطاً يشبه ذلك الذي كان مقاماً في مدينة «السامرة» التي كشف فيها عن تيجان شبيهة بذلك، وفي الغالب أنها صنعت على الطراز الفينيقي، كما وجدت أمثلة لها في «مجدو» و «بيت شان» (بيسان) حيث توجد مبان من عهد سليمان عليه السلام[٢].

هذا ومن المعروف تاريخياً، أنه لم يكن لبني إسرائيل حتى ذلك الوقت، إلا تقاليد محلية قليلة في فن العمارة، ما كانت لتفيد كثيراً في بناء المعبد، ومن ثم فقد كان الاعتماد على الفينيقيين، وعلى أية حال، فلقد كان للطابعين ـ المصري والبابلي ـ أثر كبير على الفينيقيين الذين اختلطت

---

(١) O. Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 598.

(٢) عبد الحميد زايد: القدس الخالدة ـ قاهرة ١٩٧٤ ص ٦٨ ـ ٧٠،

وانظر: C. W. Mc-Ewan, The Syrian Expedition of The Oriental Institute, AJA, 1937, P. 8 F.

W. F. Albright, Archaeology and The Religion of Israel, Baltimore, 1963, P. 42.

فنونهم بفنون المصريين من ناحية، والبابليين من ناحية أخرى، وطالما تحدثت التقاليد الإسرائيلية عن نشاط الحرفيين الفينيقيين بكل وضوح وتأكيد.

هذا فضلاً عن أخشاب الأرز التي قام عليها «بيت وعر لبنان» (وهو اسم أطلقته التوراة على جزء من قصر سليمان)[1]، أتت من فينيقيا، ومن المحتمل أن استخدام الفينيقيين للأعمدة الخشبية كان يؤدي ما تقوم به الأعمدة الحجرية عند المصريين، ومن ناحية أخرى، فإن مصر وبابل قد استخدمتا ـ كفينيقيا تماماً ـ أشجار الأرز كحوائط وأسقف أو عوارض من الداخل، كما أنه من المشكوك فيه أن الحجر البرونزي المدعم باثني عشر ثوراً هو تجديد للرمزية البابلية، ولكنه ربما بني على أنماط فينيقية، إلا أن وجود المذبح في مواجهة المدخل هو أسلوب بابلي، وكان يشيد في بابل من الأجر، بينما كان الحجارة أكثر ملائمة في فلسطين[2].

٢ ـ فيما بعد عهد سليمان:

رغم أن هناك الكثير من الأدلة على أن عبادة «البعل» الفينيقية، قد عادت إلى إسرائيل منذ أيام «يربعام الأول» (٩٢٢ ـ ٩٠١ ق.م) وفي أعقاب

---

(١) كان القصر يتكون من عناصر ثلاثة، أولها «بيت وعر لبنان»، وكان يستخدم بالتأكيد كترسانة أسلحة، وربما كمكان للمالية في نفس الوقت، ويحتمل كذلك أنه استخدم كحوش للأسطبلات، هذا وقد كان يؤدي نفس الغرض ثلاثة أو أربعة صفوف متوازية، صنعت من أخشاب أرز لبنان، وثانيها: صالة الأعمدة، والذي لم يعرف للآن الغرض الذي استخدمت من أجله، وثالثها: غرفة الاجتماعات الكبيرة، وقد استخدمت كمكان للقضاء، فضلاً عن الاحتفالات الملكية (انظر: ملوك أول ١٠/١٦ ـ ٢٠، وكذا: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨٦٠ ـ ٨٦١.

وكذا: (O. Eissfeldt, Op. Cit., P. 596).

(٢) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/٦٤٩.

وكذا: K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, P. 247.
R. A. S. Macalister, The Topography of Jerunsalem, in CAH, III, Cambridge, 1965, P. 348-349.

الانفصال الذي حدث بعد وفاة النبي الكريم سيدنا سليمان عليه السلام مباشرة، إلا أن التوراة إنما تقدم لنا الملك الإسرائيلي «أخاب» (٨٦٩ ـ ٨٥٠ ق.م) في صورة قاتمة، حيث تشير إلى أنه قد اقترف كل أنواع الشر التي اقترفها أسلافه من قبل.

ولعل السبب في ذلك أن «أخاب» قد تزوج من «إيزابيل» ابنة «ايشبعل» ملك صور، والتي كانت ذات شخصية قوية، ومن ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها تماماً، ولقد أثار هذا الزواج معارضة قوية في إسرائيل نفسها، تزعمها النبي «إيلياء» (حوالي عام ٨٥٠ ق.م) ذلك لأن «إيزابيل» لم تأت في الواقع لإسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغريبة عن التصور العبري التقليدي عن الملكية فحسب[١]، وإنما حاولت إحلال آلهة الفينيقيين الوثنية شيئاً فشيئاً محل عبادة الله في مملكة إسرائيل[٢].

وليس هناك من ريب في أن «إيزابيل» وحاشيتها الصورية إنما كانوا يمارسون عبادتهم الوثنية الصورية في معبد أنشيء في السامرة، عاصمة إسرائيل، من أجل هذا الغرض[٣]، وعلى أية حال، فلم تكن هذه الديانات الوثنية هي شعائر الدولة الرسمية، فلقد بقي «يهوه»، رب إسرائيل، هو الإله الرسمي بالنسبة للملك «أخاب» وكذا مملكة إسرائيل، وإن كان الملك نفسه، فيما تروي التوراة «قد عبد البعل وسجد له»[٤].

غير أن وجود هذه العبادات الوثنية في عاصمة الدولة (السامرة) قد أثار مقاومة التقاليد القديمة الصارمة للقبائل الإسرائيلية التي كانت خدمة «يهوه» هو هدفها النهائي[٥]، وقد تزعم «إيليا» النبي الثورة ضد «أخاب»

---

(١) C. Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1969, P. 25.

(٢) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٧٤.

(٣) ملوك أول ١٦/ ٣٠ ـ ٣٤.

(٤) ملوك أول ١٦/ ٣١.

(٥) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 242.

وزوجه «إيزابيل» اللذين جهدا لإلغاء عبادة «يهوه»، وإحلال عبادة «البعل» في مكانها، فهدما مذابح رب إسرائيل، وقتلا أنبياءه، ومن ثم فقد اندفع إيليا في طول البلاد وعرضها كالإعصار، مهدداً متوعداً، بأنه لا طل ولا مطر في هذه السنين، وفي السنة الثالثة يقول الرب لإيليا «اذهب وتراء لآخـاب، فأعطي مطراً على وجه الأرض»[١].

ولعل من الأهمية بمكان أن عبادة «البعل» الصورية قد انتقلت من دويلة إسرائيل إلى دويلة يهوذا، وذلك حين تزوج «يهورام» (٨٤٩ ـ ٨٤٢ ق.م) ملك يهوذا من «عثليا»، ابنة آخاب وإيزابيل، وقد أثبتت «عثليا» أنها ابنة أمها حقاً، فتحت نفوذها القوي، ونتيجة لتأثيرها غير المحدود على زوجها «يهورام» لم يحتضن «يهورام» عبادة «بعل» صور فحسب، ولكنه كذلك عقد العزم على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد. وربما لكي يزيل المعارضة عن هدفه في سياسة عبادة الأوثان، فقد قتل أخوته الستة، كما قتل كذلك بعض النبلاء، وإن كان من المحتمل كذلك أن التنافس على العرش كان السبب في هذه المجزرة المروعة[٢].

وأياً ما كان الأمر، فإن «عثليا» عندما يقتل ولدها «أخزيا» (حوالي عام ٨٤٣ ق.م) في «راموت جلعاد» في معركة ضد ملك أرام، وتأتي إليها الأخبار في أورشليم، عاصمة يهوذا، وكانت شديدة الرغبة في تولي العرش، ما أن تأتي لها هذه الأخبار، حتى تسرع فتأمر بقتل أبناء الأسرة المالكة، وتعلن نفسها ملكة على يهوذا، كما تعلن في نفس الوقت عبادة «البعل» الصوري كعبادة رسمية في البلاد[٣]، بل أن «سيسل روث»[٤] إنما

(١) ملوك أول ١/١٧ ـ ١/١٨، ١٩/١، ٢١/١٩، إنجيل لوقا ٤/١٥، رسالة يعقوب ١٧/٥.

(٢) ملوك ثان ١٨/٨ ـ ١٩، أخبار أيام ثان ١/٢١ ـ ٧.

I. Epstein, Judaism, 1970, P. 47.

(٣) ملوك ثان ١/١١، أخبار أيام ثان ١٠/٢٢.

(٤) I. Epstein, Op. Cit., P. 47.

وكذا: C. Roth, Op. Cit., P. 32.

يذهب إلى أن هذه المرأة القوية إنما كانت تخطط لإقامة أسرة ملكية جديدة في أورشليم من موطنها صور، أو بالأحرى من موطن أمها «إيزابيل»، ذلك لأن «عثليا» إنما هي ابنة أخاب ملك إسرائيل.

ولعل «سيسل روث» إنما نظر إلى هذه المرأة من ناحية أمها، طبقاً للتقاليد اليهودية التي ترى أن من كانت أمه يهودية فهو منهم، لا يعنيهم على أي دين كان أبوه، هو يهودي صميم، حتى وإن ظل أغلف غير مختتن[١]، ولكن الأمر بالنسبة إلى «عثليا» إنما هو عكس ذلك فهي من أم صورية فينيقية، ومن أب إسرائيلي.

وعلى أي حال، فقد انتهى حكم «عثليا» بعد ست سنوات (٨٤٣ ـ ٨٣٧ ق.م)[٢] إما بمؤامرة من الجيش، أو بتمرد عام ضد عبادة «البعل» الذي جعلت منه عثليا عبادة رسمية في يهوذا، وعلى أي حال، فإن كلا الرأيين قد وردا في التوراة في الأصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الثاني[٣].

وأياً ما كان الأمر، فإن الأمور سرعان ما تتغير في يهوذا، ويعيد الملك الجديد «يهوآش» (٨٣٧ ـ ٨٠٠ ق.م)[٤]، والنبلاء عبادة «البعل» مرة أخرى، مما أدى في نهاية الأمر إلى اغتياله بيد اثنين من عبيدة[٥].

---

(١) I. Epstein, Op. Cit., P. 168.

(٢) قارن: W. F. Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, N. Y., 1963, P.

(٣) ملوك ثان ١١/١ ـ ١٦،

وانظر: A. Lods, Israel From its Beginnings to The Middle of The Century, London, 1962, P. 384-385.

(٤) انظر: ملوك ثان ١٢/١، أخبار أيام ثان ٢٣/١٥.

وكذا: W. F. Albright, Op. Cit., P. 166.

(٥) ملوك ثان ١٢/١ ـ ٢١، أخبار أيام ثان ٢٤/٤ ـ ٢٦.

وكذا: I. Epstein, Op. Cit., P. 47-48.

ثانياً: الفينيقيون وبلاد الرافدين

١ ـ فيما قبل الآشوريين:

لعل من أوائل الإشارات المبكرة والغامضة التي تدل على علاقة بلاد النهرين بفينيقيا، تلك التي ترجع إلى أيام الملك السومري «لوجال زاجيزي» (من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد) ملك الوركاء، وذلك حين يقول في أحد نصوصه أن معبوده «إنليل» قد جعل شعوب كل البلاد «من البحر السفلي عند دجلة والفرات (الخليج العربي) حتى البحر العلوي (البحر المتوسط) توجه أقدامها نحوه (أي تتجه إليه كقائد لها) ولم يحصل له مناوىء من الشرق إلى الغرب»، ورغم أن بعض الباحثين يحلو له أن يفسر النص بأن الرجل قد بسط نفوذه من الخليج العربي جنوباً، وحتى البحر المتوسط شمالاً، فإن هناك من يرفض هذا التفسير[١].

وفي عهد الملك الآكدي «سرجون الأول» (٢٣٧٠ ـ ٢٣١٥ ق.م) أول الملوك الساميين العظام في العراق القديم ـ نقرأ في بعض نصوصه أن المعبود إنليل قد منحه كل المنطقة من البحر العلوي (البحر المتوسط) إلى البحر السفلي (الخليج العربي)، وأنه قد غسل أسلحته في البحر المتوسط[٢]، ومن ثم فقد ادعى «سرجون الأول» أن المعبود «داجان» قد أعطاه الأرض العلوية، ماري (تل الحريري) ويارموتي (جنوب بيبلوس) وإبلا (بين تل الحريري وجبيل) حتى غابة أخشاب الأرز وجبل الفضة»[٣].

هذا ويذهب «بوتيرو» إلى أن «يارموتي» تمثل الحد الجنوبي للتوسع

---

(١) S. N. Kramer, The Sumeirans, Chicago, London, 1970, P. 58-59, 323.

وكذا: C. J. Gadd, The Cities of Babylonia, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, P. 143.

(٢) A. Poebel, Historical Texts, 1914, P. 175, 181.

وكذا: S. N. Kramer, Op. Cit., P. 324.

(٣) A. L. Oppenheim, Sargon of Agade, ANET, 1966, P. 268.

وكذا: S. N. Kramer, Op. Cit., P. 324.

٢ ـ في عهد الآشوريين:

لم يسفر الضغط السياسي والعسكري الآتي من المناطق الشرقية على فينيقيا عن نتيجة حاسمة، إلا عندما انهارت الدولة الحثية، وظهرت قوة الدولة الآشورية، وحينئذ أصبح من مبادىء سياسة حكام الرافدين أن يتوسعوا غرباً لكي يقبضوا على نهاية الطرق التجارية[١].

هذا فضلاً عن أن «آشور» بدأت، وخاصة منذ أيام «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م)، ترى أن امتلاكها لسورية وفلسطين وفينيقيا هو الشرط الأساسي لنجاح امبراطوريتها، فهو لم يكن بالنسبة لحكام بلاد النهرين بسبب ثروة بلاد الشام من أخشاب نادرة في الشرق، وبسبب ثروتها المعدنية، وسواحلها الطويلة على شاطىء البحر المتوسط، وتجارتها الغنية فحسب، ولكنه كان كذلك ـ وفي نفس الوقت ـ المدخل إلى جنوب شرق آسيا الصغرى من ناحية، ومصر من ناحية أخرى، ولهذا فسوف نرى «تجلات بلاسر» فيما بعد، يتخذ الخطوات الجادة مباشرة، لضم الأجزاء الأساسية من سورية وفلسطين وفينيقيا، ومن هنا فإنه لم يقنع ـ كغيره من الحكام الآشوريين ـ بقبول الجزية ممن يخضعهم من الأمراء في بلاد الشام، الأمر الذي سوف يتبعه الحكام الكلدانيون كذلك»[٢].

وهكذا بدأت آشور تتجه نحو غزو بلاد الشام في عهد «تجلات بلاسر الأول» (١١١٦ ـ ١٠٩٠ ق.م) الذي غزا سورية في عام ١٠٩٤ ق.م، وأعلن نفسه فاتحاً لآمور كلها، وبعد أن اجتاز جبال طوروس إلى بلاد الحيثيين ادعى الحصول على ولاء جبيل وأرواد وصيدا من المدن الفينيقية كوريث للحيثيين في سيطرتهم على سورية، وربما كانت جبيل تحت حكم

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة جورج حداد وعبدالكريم رافق ـ بيروت ١٩٥٨ ص ١٥٠.

(٢) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩٣٤.

وكذا: M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 253.

زكريا بعل، وقطع الفاتح الآشوري أخشاب الأرز جبال لبنان وأرسلها إلى بلاده لبناء هياكل لآلهته، وفي «سيميرا» ركب «بحر أمورو العظيم» (البحر المتوسط) ثم اتجه إلى البر، وقتل في طريقه «حصان البحر» أو «درفيلا»، هذا وقد اصطاد عدد من حكام بلاد الرافدين الثور البري في جبال لبنان[١].

وبعد قرابة عقدين من الزمان، تقدم العاهل الآشوري «ناصر بال الثاني» (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م) نحو سورية الشمالية، ثم اتجه إلى الجنوب، وعبر نهر العاصي ودخل لبنان، ونزل إلى البحر المتوسط بدون مقاومة، وهنا تلقى خضوع المدن الفينيقية، صور وصيدا وجبيل في حوالي عام ٨٧٦ ق.م، وأرغمها على أن تدفع الجزية، وأن يقدم له سكانها الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والمنسوجات الملونة وكميات من خشب الأبنوس والأرز والصندل والعاج، وأقام بهذه المناسبة لوحة تذكارية عند نهر الكلب، شمالي بيروت[٢].

هذا وقد تلقى «ناصر بال الثاني» أيضاً هدايا «عمري» (٨٧٦ ـ ٨٦٩ ق.م) ملك إسرائيل، عندما كان عند نهر الكلب[٣].

وهكذا، ولأول مرة، منذ عهد «تجلات بلاسر الأول» يصل ملك أشوري إلى البحر المتوسط ويتلقى الجزية من عدد من المدن الفينيقية، ويقول الملك الآشوري «لقد استوليت على كل جبال لبنان المترامية

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٥٠، لبنان في التاريخ ص ١٧٣.

وكذا: D. D. Luickenbill, Ancient Records of Assyna ana Babylonia, Chicago, 1927, I, Parag. 302.

(٢) فيليب حتي: لبنان في التاريخ ص ١٧٤، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ١٥١، يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ٤٦/١، نجيب ميخائيل: سورية ـ الإسكندرية ١٩٦٦ ص ٧٥.

وكذا: D. Baramki, Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961, P. 28.
F. C. Eislen, a Study in Oriental history, N. Y., 1907, P. 43.

(٣) A. Lods, Op. Cit., P. 377.

الأطراف، ووصلت إلى البحر الكبير في بلاد أمورو، وغسلت أسلحتي في البحر العظيم، وقدمت قرابيني من الماشية للآلهة جميعاً»[١].

وفي عام ٨٥٣ ق.م، يتقدم «شلمنصر الثالث» (٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق.م) إلى وسط سورية، ومن ثم فقد تجمع في «قرقر» حلف من ملوك الأراميين والفينيقيين والإسرائيليين والعرب والبدو، يضم اثنا عشر ملكاً، على رأسهم «بنحدد» ملك دمشق، حيث حدثت الموقعة الشهيرة، ورغم تفاخر «شلمنصر الثالث» بالنصر في موقعة «قرقر» (قرقار) هذه، فإن الحقائق التاريخية تقول أن نصره لم يكن حاسماً، ولم يؤد أبداً إلى استسلام دمشق أو إسرائيل أو فينيقيا[٢]، ومن ثم فقد اضطر إلى إعادة الكرة مرات بهدف إخضاع سورية وفينيقيا وفلسطين، حتى استطاع في عام ٨٤٢ ق.م، إرغام المدن الفينيقية، وخاصة صور وصيدا، على دفع الجزية له[٣].

ويقول الملك الآشوري في حولياته عن نصره هذا «في السنة الثامنة عشرة لملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة، وكان حزائيل ملك أرام يثق بجيوشه... ولكنني حققت سقوطه، وزحفت إلى «بعلي رأسي» وهو رأس في البحر وأقمت صورتي هناك، وفي ذلك الحين تلقيت الجزية من رجال صور وصيدا، ومن ياهو بن عمري»[٤].

هذا وقد استمرت صيدا وصور تدفعان الجزية للآشوريين في عهد «أدد نيراري الثالث»، الذي قدم إلى فينيقيا مرتين في عامي ٨٠٤، ٨٠٣ ق.م[٥]، و«تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) وقد أقام

---

(١) A. L. Oppenhcim, ANET, 1966, P. 276.
(٢) A. L. Oppenheim, ANET, P. 279.
D.D. Luckenlill,ARAB, I, No. 611.
وكذا: J. B. Pritchard, The Ancient Near East, Princeton, 1950, P. 188.
J. Finegan, Op. Cit., P. 24.
J. Montogomery, Op. Cit., P. 27.
(٣) A. Lods, Op. Cit., P. 377.
(٤) D. D. Luckenbill, Op. Cit., Parag. 672.
(٥) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١١٢.

«تجلات بلاسر» معسكره الرئيسي فيما بين عامي ٧٤٣، ٧٤١ ق.م في «أرباد» (أربادو بالآشورية، وهي تل أرفاد الحالية، على مبعدة ٢١ كيلاً شمالي حلب)، ومن هنا أرسل حملة إلى دمشق، ثم فرض الجزية على المدن الفينيقية، وطبقاً لما جاء في المسلة السوداء، فقد خضع له كذلك «ياهو» ملك إسرائيل، وقدم له الجزية على هيئة أوان من الذهب والفضة والرصاص[١].

هذا، وطبقاً لما جاء في رواية يوسف اليهودي، كما جاءت في الحوليات السورية[٢]، فلقد اجتاح «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق.م) فينيقيا ومدنها، وكانت صيدا وعكا وصور البرية ترغب في تحرير نفسها من السيطرة المالية لمدينة صور التي في الجزيرة وزعامتها، فاعترفت بالفاتح الآشوري وسيادته، وأعطته أسطولاً يتكون من ستين سفينة، يعمل فيها نحو ثمانمائة مجدف فينيقي، وقد تفرق أسطول «شلمنصر الخامس» في معركة مع سكان الجزيرة، ولكن عدداً كافياً من جنوده بقي ليقوم بمحاصرة الجزيرة من الساحل، وكانت الآبار الموجودة داخل المدينة القائمة في الجزيرة كافية لحاجات السكان، وأخيراً انتهى الحصار الذي دام خمس سنوات في عام ٧٢٢ ق.م بمعاهدة تحفظ لصور كرامتها[٣].

وفي عهد «سرجون الثاني» (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م) سقطت السامرة في ربيع، وربما خريف عام ٧٢٢ ق.م تحت أقدام الآشوريين[٤]، ويبدو أن سرجون الثاني قد اتجه بعد ذلك إلى فينيقيا، وكان «إيلوايلي» الموالي لمصر هو ملك صور، فدافع عن مدينته ضد الآشوريين، وظهر كأهم شخصية في منطقة الساحل في عهد سرجون الثاني، ويبدو أنه فرض سلطته

(١) A. L. Oppenheim, Op. Cit., P. 281.
(٢) Josephus, Antiquities, IX, 14, 2.
(٣) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٥٣.
(٤) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الكتاب الثاني ـ الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٩٤٠ ـ ٩٥٠.

على جزء كبير من فينيقيا، حتى أنه حاول إخضاع قبرص كذلك[1].

وجاء بعد «سرجون الثاني» على عرش آشور «سنحريب» (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م)، ونهج نهج سلفه، فأعاد فتح المدن الفينيقية والسورية ومملكة يهوذا، بعد أن أعلنت صور وعسقلان العصيان، فسارع إليها وأخضعها عام ٧٠٠ ق.م، ثم عين «أبو بعل الثاني» ملكاً على صيدا، وحدد له الجزية التي يلتزم بآدائها، ثم بعد ذلك تقدم «ملك أرواد»، و «أورملكي» ملك بيبلوس، الولاء للعاهل الآشوري، ثم قام «سنحريب» بعد ذلك بنقل عمال فينيقيين إلى عاصمته «نينوى» ليقوموا بصناعة سفن له تشبه سفن بلادهم، وقد جهزت هذه السفن ببحارة من صور وصيدا، وكذا من اليونانيين، وربما القبارصة، واستطاع «سنحريب» بهذا الأسطول القيام بحملة بحرية (نهرية) على الدجلة. لإخضاع شعوب «بيت ياقين» والعيلاميين، وأن يعود من هناك بأسرى وذلك في عام ٦٩٤ ق.م[2].

وجاء بعد «سنحريب» ولده «أسرحدون» (٦٨٠ ـ ٦٩٦٩ ق.م) وظن «عبد ملكوتي» (ملقارت) ملك صيدا (وهو خليفة أثو بعل الذي عينه ملكاً على صيدا) أن في وسعه أن يستقل، فسعى إلى ذلك وارتبط ببعض الأمراء المجاورين في حلف أدرك أهدافه «أسرحدون» فعجل بالقضاء عليه، وباءت المحاولة بالفشل، بعد أن اغتصبت صيدا في عام ٦٧٨ ق.م، وعوملت بقسوة حتى لا تعود لمثلها[3].

وما أن رأى «عبد ملكوتي» ذلك حتى فر بحراً، ولكنه أقتيد أسيراً «وصيد كالسمكة من البحر»، ثم أعدم، وانتقم «أسر حدون» من أهل صيدا أبشع انتقام، ودمر المدينة وهدم عمرانها، ودك بيوتها، وأطاح بتضحياتها

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٥٣.

(٢) نجيب ميخائيل: المرج السابق ص ١٢٩.

(٣) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

وأسوارها، وقذف بأحجارها في البحر، وكانت هذه الكارثة أول الكوارث التي توالت على صيدا عبر التاريخ.

ثم أمر «أسر حدون» سكان صيدا بالانتقال عنها إلى بلاده، وأحل محلهم أقواماً من الخليج العربي، أو من شرق الأمبراطورية الآشورية، وأمر بتعمير مدينة جديدة في موضع صيدا أسماها «كار أسر حدون» أي «مدينة أسر حدون»[1]، وإن ذهب «فيليب حتي» إلى أنه مجرد حصن أشوري أقامه أسر حدون، بجانب موقع صيدا، بقصد إلقاء الرعب في قلوب أهلها[2].

ولعل من الأهمية بمكان أن نتوقف هنا قليلاً، للإشارة إلى أن عملية تهجير سكان البلاد المغلوبة، وإحلال آخرين غيرهم من بلاد أخرى، ليست أمراً غريباً في تاريخ سياسة بلاد الرافدين القديمة، وسنذكر هنا مثالين فقط، أولهما، ما فعله سرجون الثاني مع سكان السامرة، وثانيهما ما فعله «نبوخذ نصر» مع سكان القدس.

أما عن المثال الأول: فإن التاريخ يحدثنا أن العاهل الآشوري «سرجون الثاني» (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م) عندما سقطت السامرة، عاصمة دويلة إسرائيل، تحت أقدامه في عام ٧٢٢ ق.م، فإنه قام بتهجير أكثر عناصر سكان السامرة أهمية، ربما النبلاء والأغنياء، إلى «حلج وخابور نهر جوزان، وفي مدن مادي»، ويقول العاهل الآشوري في حولياته.

«في بداية حكمي، وفي السنة الأولى منه، حاصرت السامرة واستوليت عليها، ونقلت من أهلها ٢٧,٩٠ مواطناً، واستوليت على

---

(١) يوسف مزهر: المرجع السابق ص ٥٠، فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٧٨، السيد عبد العزيز سالم: دراسة في تاريخ مدينة صيدا ـ بيروت ١٩٧٠ ص ٣٢ ـ ٣٣.

وكذا: D. Braumki, Op. Cit., P. 29.

(٢) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ١٥٥.

خمسين عربة من السلاح الملكي، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان فيها فأحللت بها مواطنين جدداً من بلاد كنت قد استوليت عليها، وعينت حكاماً عليها وفرضت عليها الجزية والضرائب، كما يفعل الآشوريين»[1].

وبعد سنوات قليلة، وربما في عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق.م، وبعد قلاقل في سورية وفينيقيا وفلسطين، ساهم فيها معظم سكان الولايات المختلفة، تكررت عملية التهجير والإحلال على درجة كبيرة، وحين نجح العاهل الآشوري في القضاء على هذه الاضطرابات، عمل ـ كما تقول التوراة ـ على أن يأتي بقوم آخرين، وأن يسكنهم هذه الأقاليم، ومن بينهم مجاميع من العرب، حددهم النص الآشوري «بقبائل تامودي وإيبا ديدي ومرسيمانو وجبايا، والعرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء، والذين لم يعترفوا برؤساء وموظفين، والذين لم يكونوا قد جاءوا من قبل بجزاهم لأي ملك، سبيت الأحياء منهم، ونقلتهم إلى السامرة»[2].

ونقرأ في التوراة[3] كذلك أن العاهل الآشوري قد جاء أيضاً بقوم من بابل وكوث (تل إبراهيم على مبعدة ٢٤ كيلاً إلى الشمال الشرقي من بابل) ومن «عوا وحماة وسفروايم»[4] ومن سوسة وعيلام.

وربما كان الآشوريين يهدفون من وراء ذلك إلى كسر التحالفات القديمة بإدخال أجانب في البلاد، ربما كانوا في بعض الحالات من الآشوريين أنفسهم، وبداية لظروف جديدة أكثر ملاءمة للأمبراطورية

---

(١) A. G. Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The Annalas, 1929, P. 5.
وكذا: A. L. Oppenheim, ANEt, 1960, P. 284.

(٢) A. L. Oppenheim, ANET, P. 286.

(٣) ملوك ثان ١٧/ ٢٤، عزرا ٢٤/٩.

(٤) سفروايم: بلدان على ضفتي الفرات على مبعدة ١٦ ميلاً جنوب غرب بغداد، ويرى «رسام» أنها «أبو حبة» الحالية، بينما يرى آخرون أنها «شومورية» شرقي بحيرة حمص (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/٩٤٩).

الآشورية الطموح، ومن الصعب أن نقدر أهمية هذا التهجير، وإن كان، على الأقل، قد حطم الروابط الاجتماعية والسياسية والدينية، بدرجة أكثر فاعلية عما سبقه من إجراءات، وبدون شك فإن الغزوات الآشورية قد عجلت بنهاية الدويلات السامية المنهارة، كما أن الأحوال القديمة قد تغيرت، واختفت المعالم القديمة، واضمحلت المشاعر المحلية والقومية، ودمرت الدويلات الحاجزة[1].

وأما المثال الثاني: فكان عندما سقطت أورشليم (القدس) في عام ٥٨٦ ق.م (وربما في أغسطس من عام ٥٨٧ ق.م) تحت أقدام «نبوخذ نصر» (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م)، فلم يكتف العاهل البابلي بنهب المدينة، وإشعال النيران فيها، وإحراق القصر الملكي، وإنما قام الغازي الجديد، اتباعاً للعرف الآشوري، بإبعاد الطبقة العليا الحاكمة في اليهودية، ومن ثم فقد أسر بعضاً من حاشية الملك اليهودي «صدقيا» (٦٩٧ ـ ٥٨٦ ق.م) وعديد من الرجال البارزين في أورشليم وبلاد يهوذا، وأرسلوا إلى «ربلة» حيث لقوا حتفهم جميعاً، وأما بقية السكان، فلقد أقتيد الجزء الأكبر منهم ـ وقد قدره البعض بأربعين ألفاً، وقدره آخرون بخمسين ألفاً ـ أسرى إلى بابل، ولكن «نبوخذ نصر» لم يفعل، كما فعل الآشوريون، بجلب سكان جدد إلى يهوذا[2].

وعوداً على بدء، إلى موقف المدن الفينيقية من «أسرحدون» إذ نرى «ياكنلو» ملك أرواد، يسلم مدينته، وكذا ابنته، لأسرحدون، كما

---

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩٤٩.

وكذا: S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, P. 383-385.

(٢) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ١٠٠٤ ـ ١٠٠٥، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ٥/ ٣٢٠، فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٢٠، طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ٢/ ٢٩٦، ملوك ثان ٢٥/ ١١ ـ ٢١، أرميا ٣٩/ ١١ ـ ١٤.

وكذا: Werner Keller, The Bible As History, 1967, P. 402.

خضعت مدن فينيقية أخرى تحت زعامة «بعل» ملك صور لأسرحدون، ووقعت معاهدة بين بعل وأسرحدون، غير أن ملك صور سرعان ما مزقها حين أحس بأن الوقت أصبح مناسباً لنزع النير الأجنبي.

وهناك نصب عند نهر الكلب، على مقربة من نصب رعمسيس الثاني، يمثل أسرحدون واقفاً بجلال، قرب كتابة أثرية تروي خبر الاستيلاء على منف وعسقلان وصور، وفي نصب آخر في «زنجرلي» (سمأل القديمة) غربي عينتاب في شمالي سورية يقف أسرحدون ممسكاً بحبل ربط به «بعل» ملك صور، وطهراقا، من الأنف، وإن كان من المؤكد تاريخياً أن طهراقا لم يقع أبداً في الأسر، ومن ثم فالمراد من هذا النصب إنما الدعاية والتفاخر الكاذب[(١)].

وفي عهد «آشور بانيبال» (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م) حوصرت صور للمرة الثالثة، فأقامت الحصون الدفاعية على الأرض الرئيسية، ووضعت المتاريس في كل الطرق براً وبحراً، واضطر أهلهاالمحاصرون أن يشربوا من مـاء البحر، كما اضطر بعلها أن يستسلم في ظروف قاسية، وفي صورة تدعو إلى الشجن، إذ سلم ابنته وبنات أخيه إلى العاهل الآشوري المنتصر، كزوجات تحمل كل منهن بائنتها الضخمة، كما سلم ابنه «ياحي ملك».

وكان هذا أكثر مما كان يطمع فيه «أشور بانيبال» فرد الابن إذ لم تكن لـه بـه حـاجة، واكتفي بالنساء اللواتي ضمهن إلى حريمه، واستولى الآشوريون على خيرات صور، وعلى أسطولها الذي استخدموه في إخضاع ملك أرواد «ياكنلو» الذي اضطر في نهاية الأمر أن يستسلم ويبعث بابنته إلى «نينوى» العاصمة الآشورية، محملة بالهدايا، ولم تحتمل أرواد هذه المهانة

---

(١) انظر: فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٥٥.

وكذا: D. D. Luckenbill, ARAB, II, Chicago, 1927, Parag. 582-585.

Rene Mouterde, le Nahr el-Kelb, Beirut, 1932, P. 18, Pl. VI.

A. T. Olmstead, History of Assyria, N. Y., 1923, P. 384.

H. R. Hall, The Ancient History of The Near East, London, 1963, P. 499.

فخلعت ملكها، واضطر أبناؤه العشرة إلى الاتجاه إلى بلاد (أشور بانيبال) يحملون الهدايا، وكل منهم يطمع في أن يوليه أشور بانيبال مكان أبيه، واستطاع أحدهم، وهو «عزي بعل» أن يحقق الهدف، وأن يجلس مكان أبيه على عرش أرواد[١].

٣ ـ في عهد الكلدانيين:

ورث الكلدانيون البابليون أمبراطورية الآشوريين بعد هزيمتهم لهم في نينوى عام ٦١٢ ق.م، ثم في حران عام ٦٠٩ ق.م، ومن ثم فقد ادعى الكلدانيون، أصحاب دولة بابل الجديدة، السيطرة على سورية وفينيقيا وفلسطين، كورثة للأمبراطورية الآشورية، غير أن المدن الفينيقية لم تكن أقل تمرداً في عهد السادة الجدد، منها في عصر السادة القدامى، وكانت مصر وقت ذاك تسعى لاسترداد سيادتها المفقودة على بلاد الشام، وكانت المدن الفينيقية بوجه عام أكثر ميلاً للاعتراف بالسيادة المصرية منها بالسيادة البابلية، ربما لأن مصر كانت دائماً وأبداً أكثر رحمة بهم، وأرفع حضارة، وأشد اهتماماً بمصالحهم. وفي عام ٥٨٧ ق.م، ظهر «نبوخذ نصر» (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م) في شمالي سورية، وأقام معسكره في «ربلة»، على مبعدة ٣٣ كيلاً جنوبي حمص، في وادي العاصي، ومن هناك أرسل قواته لإخضاع المدن الفينيقية، وفتح بلاد اليهودية، وقد تم الاستيلاء على القدس في عام ٥٨٦ ق.م، ونهبت المدينة المقدسة، وأشعلوا فيها النيران، وأحرقوا القصر الملكي والمعبد، وفيه البقية الباقية من التابوت الذي كفت الروايات اليهودية عن ذكره بعد نقله إلى معبد أورشليم[٢].

وفي عام ٥٧٢ ق.م، اتجه الغازي الجديد إلى فينيقيا، فهاجم صيدا

---

(١) نجيب ميخائيل: سورية ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٩٩٧/٢ ـ ١٠٠٤، فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

وكذا: M. Noth, The History of Israel, Lodon, 1965, P. 286-287.

وحاصرها، حتى مات عدد كبير من أهلها بسبب الجوع والوباء، فاستسلمت له، أما صور فقد تحدته بمقاومتها الباسلة، واستطاعت أن تصمد أمامه زهاء ١٣ عاماً، تحطمت مقاومتها بعدها، فاستسلم ملكها «اثبعل الثالث»، وعندئذ دخلتها قوات الكلدانيين ودمرت مبانيها وسوتها بالأرض ـ كما فعلت بالقدس الشريف، ومنذ ذلك الحين تخلت صور عن مكانتها، خاصة وأن الفرعون «أحمس الثاني» (٥٧٠ ـ ٥٢٦ ق.م) كان قد انتقص من سيادتها، بانتزاع قبرص، وإن ظلت أسرة صورية تجلس على عرش «سلاميس» حتى خلعت عنه على يدي «إيفا جوراس»، وعلى أية حال، فلقد انتهت غزوات «نبوخذ نصر» بضياع استقلال صور وصيدا، وإن استطاعت صيدا أن تحل محل صور في زعامة المدن الفينيقية[١].

ثالثاً: الفينيقيون والفرس

في أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، سقطت بابل تحت أقدام الفرس، وأعلن «كيروش الثاني» (٥٥٨ ـ ٥٣٠ ق.م) نفسه ملكاً على بابل[٢]، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م، ومن قبلها سقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م، لا يعد كنهاية لتاريخ العراق القديم (بلاد

(١) يوسف مزهر: المرجع السابق ص ٥٠ ـ ٥٢، عبدالعزيز سالم: المرجع السابق ص٣٣٠، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٣٤.

D. Harden, Op. Cit., P. 54.
Josephus, Antiquities, X, II, 1.
D. Baramki, Op. Cit., P. 30.

(٢) انظر عن احتلال الفرس لبابل (محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٣٣٧ ـ ٣٤٤، إسرائيل ٢/١٠٢٧ ـ ١٠٣٣.

وكذا:
G. Cameron, JAOS, LII, 1932, P. 304.
R. Ghirshman, Iraq, 1954, P. 131-133.
A. T. Olmstead, History of The Persian Empire, Chicago, 1970, P. 5)-51.
Herodotus, I, 178, 188 F.
A. L. Oppenheim, ANET, 1966, P. 315.

النهرين) كدولة مستقلة فحسب، وإنما الأمر أكبر من هذا وأخطر، لأنه في هذا الوقت، وفي هذه المنطقة من مناطق الشرق الأدنى القديم، انتهت سيادة العناصر السامية، وبدأت سيادة العناصر الهندو ـ أوربية، من فرس وإغريق ورومان، والتي استمرت قرابة اثني عشر قرناً، حتى جاء الإسلام الحنيف، وحرر الأرض والقوم من دنس الاستعمار، وذل الاستعباد، فضلاً عن تحرير العقول من وثنية الماضي البغيضة، وبدأ القوم يؤمنون بالله الواحد الأحد، الذي لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

هذا وقد اعتبر الفرس ولايات سورية وفينيقيا وفلسطين من أملاكهم، كورثة للأمبراطورية البابلية، وعلى أية حال، فلقد اعترفت جميع مناطق الأمبراطورية البابلية، بما فيها فينيقيا بطبيعة الحال، بالحكم الفارسي الجديد.

ونقرأ في التوراة أن كيروش أمر في السنة الأولى من حكمه للأمبراطورية البابلية (عام ٥٣٩/ ٥٣٨ ق.م) بالسماح بعودة اليهود المنفيين في بابل إلى أورشليم، ولعل السبب في ذلك أن الجالية اليهودية في بابل قد ساعدته على احتلال المدينة، وربما لأن كيروش الثاني قد رأى في وجود جالية يهودية في فلسطين تدين بوجودها له، سوف يشكل توازناً فعالاً، تجاه الحزب الموالي لمصر، والذي طالما برز بشكل واضح في شؤون فلسطين[١].

هذا وقد اعتمد اليهود العائدين إلى فلسطين في إعادة بناء مقامهم الجديد على الموارد الفينيقية، بل أن الفرس أنفسهم قد اعتمدوا على هذه

---

(١) عزرا ١/١ ـ ١١، فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٤٢.

وكذا:

C. Roth, Op. Cit., P. 53.
S. A. Cook, Op. Cit., P. 409.

الموارد، وقد تم هجوم «قمبيز» (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م) على مصر بمساعدة السفن الفينيقية.

وكان الأسطول الفينيقي أيضاً عماد البحرية الفارسية في هجومها على اليونان بقيادة الملك الفارسي «اكزركسيس الأول» (خشايارشا ٤٨٤ ـ ٤٦٥ ق.م)، ويبدو أن الفينيقيين رحبوا بفرصة ضرب منافسيهم البحريين القدامى، ومن ثم فقد قدموا له ٢٠٧ سفينة، كما أظهرت مهارة الفينيقين الهندسية تفوقها في حفر قناة عبر البرزخ لتجنب العواصف حول جبل «آتوس»، وقد حطم الأسطول كله تقريباً في معركة سلاميس البحرية عام ٣٨٠ ق.م[١].

هذا وقد جعل الفرس من الجزر الفينيقية وفلسطين وسورية وقبرص ولاية، هي الولاية الخامسة من ولايات الأمبراطورية الفارسية، وسميت «مرزبانة» (عبر نهرا)، وفرض عليها جزية تعادل ٣٥٠ وزنة (نصف جزية مصر)، ولم يتعرض الفرس لنظام الحكم الداخلي، فترك للولاة إدارة شؤون ولاياتهم، ما داموا يدفعون الجزية.

وهكذا دخلت المدن الفينيقية في فلك الأمبراطورية الفارسية عام ٥٢٦، ومنحها «قمبيز» كثيراً من الامتيازات، واتخذ صيدا حاضرة لمدن فينيقيا، وأسس فيها الفرس قصراً ملكياً تحيط به المتنزهات، كما أقام والي صيدا الفارسي قصراً لنفسه، وأبقى قمبيز النظام الملكي في صيدا في ظل الحكم الفارسي، ونصب ملكها قائداً عاماً للأسطول الفينيقي، وقد تمتعت المدن الفينيقية في عهد قمبيز بنوع من الاستقلال، وكان ملوكها يضربون العملات المحلية بأسمائهم، وأذن لها أن تعقد اجتماعات سنوية في طرابلس للبحث في شؤونها[٢].

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٤٦.

وكذا: Herodotus, VII, 23, 96, VIII, 86, 89, 90, 96.

(٢) فيليب حتي: لبنان في التاريخ ص ١٨٥، يوسف مزهر: المرجع السابق ص ٥٥. =

وانطلاقاً من كل هذا، فإن استعمار الفرس لفينيقيا لم يؤثر إلا فيما يتصل بالجزية، واستمر الفينيقيون يباشرون نشاطهم المعهود ويجوبون البحار، ينقلون المتاجر بين الشرق والغرب، وفي نفس الوقت أدرك الفينيقيون قوة الأمبراطورية الفارسية، وأنه ليس هناك من يعدلها في قوتها، وأنه من الخير مسالمتها ومهادنتها، ما دامت لا تتعرض كثيراً لأخص شؤونها، ولا تتدخل فيما يمس مصالحها، ومن ثم فقد وقف الأسطول الفينيقي إلى جانب الفرس في حروبه ضد اليونان، وإن كان الأسطول الفينيقي قد هزم في «ساردیس»، إلا أنه أظهر بعد ذلك مهارة وشجاعة ملحوظتين أدتا إلى هزيمة الأيونيين عند جزيرة «ليد» المقابلة لمدينة «ميلتس»، وسرعان ما سقطت ميتلس، وتقدم الفينيقيون نحو جزر أرخبيل اليونان الآسيوية، ثم إلى شاطىء «تراقيا»، ثم احتل الأسطول الفينيقي بعد ذلك جزر بحر إيجه، مما مهد للقوات الفارسية بعد ذلك الانتقال إلى «ماراثون»، حيث انتهت المعركة بهزيمة مروعة للفرس في عام ٤٩٠ ق.م، حتى أن « هيرودوت » يروى أن الملك الفارسي «دارا الأول» (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق.م) كلف واحداً من عبيده بأن يذكره بذلك ثلاث مرات كل مساء بقوله: «يا مولاي لا تنسي الأثينيين»(١).

وفي عهد «اكرزكسيس الأول» (خشایاریشا ٤٨٤ ـ ٤٦٥ ق.م) اشترك الصيدونيون في الحرب الفارسية اليونانية، وزودوا الأسطول الفارسي بعدد من سفنهم، وخاضوا معركتين بحريتين في ملاتس وسلاميس، كما قام الأسطول الفينيقي بدور هام في حروب الفرس ضد اليونان في عام ٤٦٥ ق.م، وذلك على أيام «أرتاكزركسيس» (أرتاخشاشا ٤٦٥

= وكذا: D. Harden, Op. Cit., P. 55.

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

وكذا: A. Gardiner, Op. Cit., P. 368-369.

J. B. B. Bury, History of Greek, London, 1930, fig. 78.

ـ ٤٢٤ ق.م) والذي كان يعرف باسم «لوفيجمانوس» لأن أحد ذراعيه كان أطول من الآخر[١].

وفي عهد «أرتاكرزكسيس الثاني» (٤٠٤ ـ ٣٥٨ ق.م) ثار المصريون ضد فارس، وولوا عليهم فرعون الأسرة الثامنة والعشرين «أمون حر» (أمير تايوس) عام ٤٠٤ ق.م، وحاولوا الاستيلاء على فينيقيا، حين أدركوا أنها سند فارس من الناحية البحرية، ولكن خطط مصر باءت بالفشل، ذلك لأن جماعات الفارين بعد هزيمة اليونان السابقة كانوا قد عادوا إلى فينيقيا، فغدا من المستحيل على مصر أن تنتهز الفرصة وتعيد سيادتها على فينيقيا[٢].

وفي عام ٣٩٠ ق. م، قاد ملك صيدا جيشاً في ثمانين سفينة حربية ضد الإسبراطيين الذين كان يمدهم ملك مصر بالمؤن [٣].

وفي عام ٣٥٨ ق. م، كانت الامبراطورية الفارسية المهتره تهب فيها حياة جديدة بولاية «أرتكزركسيس الثالث» (أوخوس) فبدأ باحتلاف فينيقيا التي بدأت تسعى للتحالف مع مصر، وفي عام ٣٥١/٣٥٠ ق. م، اتجهت حملة إلى مصر، ولكن الحرب انهت بفشل ذريع للغازي الفارسي، وأقام الفرعون «نخت حرحب» (٣٦٠ ـ ٣٤٣ ق. م) لنفسه تمثالاً ضخماً في عاصمته، زعم على النقش المصاحب له أنه حامى مصر، وقاهر البلاد الأجنبية، وضارب الأقواس التسعة»[٤].

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق ص ٣٤، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٣٧٤.

وكذا: F. C. Eislen, Op. Cit., P. 61.

(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٣) G.F. Hill, Catalogue of The Greek Coins of Phoenicia, London, 1901, P. XCIV.

(٤) H. Gardiner, Op. Cit., P. 376.

E. Bahelon, Traite, des Monaies, II, Part, 2, 1910, P. 575 G.

= P. Tresson Sur

هذا وقد أدى انتصار المصريين على الفرس، أن انتشرت الثورات ضد الاحتلال الفارسي في كل مكان، وكانت فينيقيا وقبرص في مقدمة الثائرين، وفي عام ٣٥١ ق. م، عقد الفينيقيون مؤتمراً في طرابلس أعلنوا فيه خروجهم على فارس وسلطانها، وكانت مصر مركز التشجيع كالمعتاد، كما كانت المكان الذي يستطيع أن يوفر للثائرين الذهب والحبوب في وفرة.

وهكذا بدأت الثورة الفينيقية على الفرس في الحي الصيدوني في طرابلس، حيث أعلن ملك صيدا «ستراتون الأول» العصيان، وجهز جيشاً شاركت إسبرطة فيه بالمال والسلاح والرجال، وسرعان ما انتقلت الثورة إلى مدينة «صيدا» نفسها في عهد ملكها الجديد «تنس» الذي طرد الحامية الفارسية، وقطع أشجار الحدقيقة الملكية في المدينة أو حول منحدراتها الشرقية، وأشعلوا النار في التبن المخزون لخيالة الفرس، وسرعان ما طردت تسع من المدن الفينيقية الرئيسية الفرس وأعلنت استقلالها [١].

وأدرك العاهل الفارسي «أوخوس» أن الأمر أخطر من أن يسكت عليه، ومن ثم فسرعان ما خرج على رأس جيش ضخم. قدره كتاب الإغريق بثلاثمائة ألف من المشاة، وثلاثين ألفاً من الفرسان، وخشي الصيدونيون مغبة الأمر، فالتمسوا عون مصر فأمدتهم بفرقة يونانية على رأسها قائد من «رودس» هو «منثور».

غير أن «تنس» ملك صيدا عندما علم بضخامة القوة الحربية الفارسية الموجهة ضد مدينته خاف على نفسه، فسعى إلى التقرب من الملك

---

deux Monmments Egyptiens indit Kemi,, 1931, P. 126 F.
A.T. Olmstead, Op. cit., P. 432.

(١) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٣٩٥ - ٣٩٦.
A.H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 377.
G. Contenau, Deuxieme Mission Archeologique a Sidon, in Syria, IV, 1923, P. 276 F.

الفارسي بأن أرسل «تساليون» أحد نوابه إلى معسكر، الفرس، ليعد ملكهم ببذل العون له في اقتحام صيدا عن طريق الخديعة. فضلاً عن الاشتراك في الحملة التي يجهزها ملك الفرس ضد مصر، ولم يلبث ملك صيدا أن تظاهر بعزمه على التوجه إلى طرابلس في طائفة من رجاله، بحجة التشاور مع ممثلي المدن الأخرى، واصطحب معه مائة من خيرة شباب المدينة، وبدلاً من الاتجاه إلى طرابلس، اتجه بهم إلى معسكر الفرس، وسلمهم إلى أعدائهم، فقتلهم الفرس باعتبارهم المحرضين على الثورة.

ثم زحف «أوخوس» نحو صيدا، فخرج إليه خمسمائة من ممثلي المدينة يحملون الأغصان طلباً للسلم والإبقاء على أرواح الناس. ولكن أوخوس بادرهم بالحكم عليهم بالموت، وقضى بذلك على الأمل في التفاوض مع أهل صيدا الذين أدركوا ما ينتظرهم على أيدي الفرس من سوء المصير.

وهنا قرر سكان صيدا الدفاع عن مدينتهم حتى الموت، وفي لحظة من يأس قاتل أحرقوا سفنهم حتى لا يفكر جبان في الهرب، كما اعتصم الكثيرون ببيوتهم، وفضلوا الموت محترقين مع ممتلكاتهم في لهب ديارهم، وقد قدر بعض الباحثين من هلكوا منهم في هذه المأساة المروعة بحوالي أربعين ألفاً، أما القلائل الذين أسروا فقد نقلوا إلى بابل.

هذا وقد أصدر الملك الفارسي أمره بالعفو عن القائد اليوناني الخائن «منتور»، وأما ملك صيدا الخائن «تنس» فقد أمر ملك الفرس بقتله، فحاول الانتخار ولكنه جبن وأحجم، وعندئذٍ أجهزت عليه زوجه، وقتلت نفسها فوق جثته.

ثم تبع هذه المأساة الصيدونية المروعة استسلام بقية المدن الفينيقية الأخرى متعللة بمصير صيدا[1].

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٣٩٦، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣٥ ـ ٣٧ فيليب حتى: المرجع السابق ص ١٩٠، منير الخوري: =

رابعاً: الفينيقيون والإسكندر المقدوني

كانت معركة أيسوس في أكتوبر ٣٣٣ ق. م بين الإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق. م) و«دارا الثالث» (ودومانوس)، آخر الأخمينيين معركة خاسمة بالنسبة للامبراطورية الفارسية، حيث كانت بداية النهاية لها، وعلى أية حال، فلقد انتهت المعركة بانتصار ساحق للاسكندر الأكبر، وهزيمة فاضحة للملك الفارسي الذي سرعان ما أسرع إلى الهرب مع فلول جيشه شرقاً، تاركاً معسكره وأهل بيته، وقد عوملت نساء الملك معاملة مهذبة، وتخليداً لذي الانتصار، أسست مدينة «الإسكندرونة» التي لا تزال تحمل اسم المنتصر اليوناني، مكان الحادث [(١)].

ولم يتابع الإسكندر عدوه الفارسي «دارا الثالث» (٣٣٦ ـ ٣٣٠ ق. م) إلى الشرق، وإنما اتجه إلى الجنوب بحذاء الساحل، وكانت ضحايا الملك الفارسي «أوخوس» (٣٥٩ ـ ٣٣٨ ق. م) ما تزال ماثلة في أذهان الفينيقيين جميعاً، ومن ثم فقد رحبوا بدخول الإسكندر في البلاد، وكانت مدينة «أرواد» أول مدينة فينيقية تعلن ولاءها للإسكندر، وابتهاجاً بالتخلص من النير الفارسي.

وسرعان ما نهجت نهج أرواد مدن: طرابلس والبترون وجبيل

= صيدا عبر التاريخ ص ٧٣، أمين خليفة: تاريخ سورية قبل الفتح الإسلامي - بيروت ١٩٣٠ ص ١٩٧، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٤٠ ـ ١٤٤.

وكذا: F.C. Eislenm Sidon, N. Y., 1907, P. 75 - 77.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 377.

A. Olmstead, Op. Cit., P. 434 - 435.

D. Baramki Op. Cit., P. 31.

S. Smith, Babilonian Historical Texts, London, 1924, P. 149.

(١) أنظر: Diodorus, XVII, 33.

وكذا: Josephus, Antiquities, XI, 8, 3.

W.W. Tarn, Alexander, in CAH, Cambridge, 1927, P. 366 - 369.

وبيروت، وأرسلت صيدا رسلها للترحيب بالإسكندر، ودعته للدخول فيها، وفتحت أبوابها لجيوشه، ودانت له بالطاعة في نفس العام، فعزل الإسكندر «ستراتون الثاني» ملك صيدا، الموالي للفرس، وأقام مكانه أحد أقربائه، وهو «عبدو لونيم»، وكان يعمل بستانياً في القصر الملكي، وأعاد الإسكندر لمدينة صيدا ممتلكاتها ودستورها الخاص [1] .

وهكذا استسلمت المدن الفينيقية للإسكندر، ما عدا مدينة «صور» التي حملت وحدها لواء المقاومة وتحدته في عناد، معتزة بمكانتها وحصانة أسوارها، كما كان ملكها حليفاً للفرس، فأحكم الإسكندر الحصار عليها زهاء سبعة أشهر، وقد عاونه في هذا الحصار أهل صيدا، واشتركوا مع المدن الفينيقية الشمالية في تزويده بثمانين سفينة لتطويق صور من البحر [2] .

وهكذا كانت صور، التعسة الحظ، تتوقع المساعدة من شقيقاتها الفينيقيات في الشمال، غير أن تصرف الشقيقات كان مخجلاً، فبدلاً من تقديم العون لصور، وضعت سفنها تحت تصرف الغازي الجديد، وكما خاب أمل صور في المدن الفينيقية، خاب كذلك في ابنتها البعيدة في الشمال الإفريقي «قرطاج» حيث بعثت إليها بشيوخها ونسائها وأطفالها [3] .

وفي يولية من عام ٣٣٢ ق.م، سقطت صور تحت أقدام الغازي المقدوني، بعد أن صمدت سبعة أشهر، ولعل سقوط صور، فيما يرى البعض، إنما يعد أعظم عمل عسكري قام به الإسكندر المقدوني، فقدم من

---

(١) أسد رستم: تاريخ اليونان ـ بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧،
وكذا: D. Baramki, Op. Cit., P. 33.
(٢) يوسف مزهر: المرجع السابق ص ١١١، فيليب حتى: المرجع السابق ص ٢٥٤، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣٧ ـ ٣٨،
وكذا: F.C. Eislen, Op. Cit., P. 69.
(٣) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٢٥٤.

جانبه القرابين والتضحيات لإله المدينة «ملقارت»، وقد اعتبره الإسكندر معادلاً لهرقل (هركوليس).

على أن المقدونيين الذين كانوا يشعرون بالمرارة من جراء ما فعله الصوريون من قبل لرفقائهم الذين وقعوا في الأسر لديهم، فإنه لم يكن من اليسير كبح جماحهم، ولذا أعقب استسلام صور الذبح والتقتيل، وقيل أن ثمانية آلاف من المحاربين خروا قتلى، وبيع الكثيرون في أسواق النخاسة من الرجال والنساء والأطفال.

هذا بينما لقي بعض الصوريين النجاة على أيدي الفينيقيين الآخرين، كما وجدت قلة ملاذا في معبد «ملقارت» اعتصموا به، ومن هؤلاء بعض رسل ومبعوثين دينيين من القرطاجيين، فكان وجودهم مثار أسطورة تقول بأن قرطاج كانت تعد وتتأهب لتقديم العون لمدينتها الأم.

وأما بيع كثير من أهل صيدا في سوق النخاسة، فرغم أنه حقاً إجراء بشع، غير أنه كان مألوفاً لدى المنتصرين وقت ذلك، وقد باشره الإسكندر الأكبر مرتين أخريين، إحداهما: في غزة، والأخرى في «قيروبوليس» Cyropolis (حيث كان رجاله قد فتك بهم ولقوا حتفهم)، على أنه من الجدير بالإشارة أن حملة الإسكندر هذه لم يكن لها فيما يبدو أثر ذو بال على أسواق النخاسة العالمية [1].

هذا وقد أصبحت المدن الفينيقية بعد موت الإسكندر تحت السيادة المصرية في العصر البطلمي في أغلب الإحايين، وكان بطليموس الأول (٣٢٣ ـ ٢٨٤ ق. م) قد قام بغزو سورية في عام ٣٢٠ ق. م، ثم الاستيلاء

---

(١) أنظر: و.و. تارن: الإسكندر لأكبر ـ ترجمة زكي علي ـ القاهرة ١٩٦٣ ص ٧٣ ـ ٧٨، الأب إميل إده: الفينيقيون واكتشاف أمريكا بيروت ١٩٦٩ ص ١١١ ـ ١١٢، وكذا:

F.C. Eislen, Op. Cit., P. 69.
Arrian, II, 18 - 24.
Diodorus, XVII, 41 - 46.
G. Glotz Ancent Greece at Work, P. 350.

على أورشليم في عام ٣١٨/٣١٩ ق. م، ورغم أنه قد اضطر إلى إخلاء سورية الجنوبية (جنوب سورية وفينيقيا) إلا أنه سرعان ما عاد إليها مرة أخرى بعد انتصاره العظيم على «ديمتريوس» في موقعه غزة عام ٣١٢ ق. م، وكان من نتائج هذا النصر أن تابع بطليموس الأول تقدمه فاستولى على فلسطين وفينيقيا (١) .

وعلى أية حال، فلقد نجح بطليموس في مد خط حدود دولته إلى خط يقع شمالي أرواد وجنوبي حمص، وقد تراجع هذا الخط لدرجة كبيرة حتى جنوبي بيروت ودمشق حوالي عام ٢٥٠ ق. م، ليتقدم مرة ثانية حتى شمالي أرواد، بعد خمس وعشرين سنة (٢) .

---

(١) مصطفى العبادي: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٤ ـ ٣٧، مصطفى عبد العليم: اليهود في مصر في عهد البطالمة والرومان ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٣، محمد عوّاد حسين: الحرب السورية السادسة، حوليات جمعة إبراهيم باشا الكبير ـ القاهرة ١٩٥١ جـ١ ص ٧١، ١٢٥، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/١١٠٦.

(٢) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٢٦٠.

الفصل الثالث

الفينيقيون ودورهم في حوض المتوسط

أولاً: الفينيقيون ودورهم في التجارة البحرية: ـ

لا ريب في أن الفينيقيين قد تأثروا إلى أبعد الحدود بالبيئة التي عاشوا فيها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تجارتهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

على أن أبرز النواحي التي ظهرت فيها آثار البيئة في الحياة الفينيقية هي ناحية النشاط البحري، فقد كانت جبال لبنان التي تقع خلف الوطن الفينيقي تعرقل صلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية، وتجبر السكان على أن يلتمسوا لأنفسهم مخرجاً آخر بأن يتجهوا إلى البحر، هذا فضلاً عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على إعالة عدد من السكان يتزايد عددهم باستمرار، ولم تعد الزراعة تكفي لإطعام آلاف الأفواه التي تعيش في المدن الساحلية، فكان على الفينيقيين أن يلتمسوا لهم سبلاً أخرى للمعيشة، أو ينطلقوا إلى ميدان التجارة، ويتصلوا بالأمم الكبرى من وراء البحر، زد على هذا أن سفوح لبنان تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء السفن.

ومن ثم، فإذا اقترنت الرغبة في المخاطرة، والبحث عن لقمة العيش، بتوفر الموانيء الصالحة، والمواد الخام اللازمة، لم نعجب إذا رأينا هؤلاء الساميين القادمين من شبه الجزيرة العربية، يستجيبون لنداء البيئة، ويتركون حياة البداوة التي ألفوها، ويقبلون على البحر ليركبوا متنه.

هـذا وقد بدأ القوم برحلات بحرية قصيرة لصيد الأسماك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال، ثم لبيع هذه الأشياء وغيرها من المنتجات المحلية الأخرى، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد، حينما ضغط الآراميون عليهم في وسط سورية، وأحاط بهم الإسرائيليون والفلسطينيون من الجنوب، فلم يجدوا مفراً من أن يتجهوا إلى البحر بكليتهم، فقد كان هو المخرج الوحيد(١).

وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى إنشاء محطات ومراكز مستقرة في المناطق التي تتجه إليها سفنهم لتكون محطات استقرار، أو على الأقل محطات يستريحون فيها أياماً معدودة، في أول الأمر على الأقل، وقد أدى ذلك إلى تتابع هجراتهم بالتدريج، وعلى مرات متعددة، لتحقيق هذا النشاط التجاري في هذه الأسواق والمناطق الجديدة في غربي البحر المتوسط(٢).

هذا وكانت السفن الفينيقية بسيطة أول الأمر، لا تقوى على أن توغل في ماء البحر، فلم تكن أكثر من زوارق مكشوفة، قليلة الارتفاع، قليلة الغوص، تكتسحها الأمواج العظيمة، ولا تستطيع أن تحمل قدراً كبيراً من السلع، وكانت هذه السفن تصنع من خشب الأرز، وتدهن بالقار النباتي الذي لا يقوى على مغالبة الماء، ثم قطعوا شوطاً آخر في فن بناء السفن فكبر حجمها بعض الشيء، واستعين في تسييرها بالمجداف وبالشراع معاً، وأصبح سمكها كبيراً إلى حد ما.

غير أن العمل الجريء حقاً، والذي ينسب إلى الفينيقيين، هو مضيهم في فن بناء السفن إلى أبعد غاية، حينما توصلوا إلى صناعة السفن العظيمة ماخرة المحيطات، فقد قلب هذا الاختراع فن الملاحة رأساً على عقب،

---

(١) حسن أحمد محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ـ القاهرة ص ٣٩٢.

(٢) محمد بيومي مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم ـ القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٤.

فاشتدت جسارة الفينيقيين على السيطرة على البحر وركوبه، وتضاعف نشاطهم، وتضاعفت تجارتهم[1].

هذا ولم يبرع الفينيقيون في صناعة السفن فحسب، وإنما برعوا كذلك في فن الملاحة وتعمقوا فيه، وساعدهم على ذلك كثيراً، اكتشاف أهمية النجم القطبي، فأقبلوا على الإبحار ليلاً معتمدين على النجوم، وقد تعلم الإغريق هذا الفن منهم، حتى أن أسماء النجوم الإغريقية هي نفسها الأسماء الفينيقية، وهكذا كان القوم يبحرون بناءً على خطط مرسومة، واستطاعوا بعد تجارب طويلة أن يشقوا لأنفسهم مسالك وطرق كشفوها واستخدموها، ثم احتكروها.

وهكذا لم يكن الفينيقيون يسيرون في البحر بغير هدى، ولم يكونوا قراصنة، كما تصورهم الأساطير الإغريقية، وإنما كانوا يبحرون بناء على خطط مرسومة، واستطاعوا، كما أشرنا آنفاً، أن يشقوا لأنفسهم طرقاً، لعل من أهمها ذلك الطريق الذي يمر من صيدا إلى صور، ثم يمر بمصر مباشرة، أو قد يتجه إلى قبرص، ثم يتجه غرباً إلى طوروس وليسيا، عن طريق رودس وكريت، ثم يتجه إلى صقيلة، ثم شمال أفريقيا ثم أسبانيا، وهناك طرق أخرى فرعية تتجه إلى الشمال أو الجنوب، ومن ثم فقد حق لهم أن يسموا أول أمة بحرية في العالم. وأول أمة جمعت بين انشاط في البر والبحر[2].

هذا وكانت محطات الفينيقيين في الداخل تضم «أديسا» وربما «نصيبين» بحيث تصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج العربي، والفينيقيون، طبقاً لمروياتهم، فقد أتوا إلى ساحل فينيقيا من منطقة

---

(١) حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٢٩٣.

(٢) فيليب حتى: المرجع السابق ص ١٠٥ - ١٠٦، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ١٨٤، حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٢٩٣، وكذا: Strabo, XVI, 2, 24.

الخليج العربي، حيث كانت لهم هناك مدن تحمل الأسماء نفسها، مثل أرواد وصور وصيدا، وتقدم لنا التوراة في سفر حزقيال وصفا مفصلاً لتجارة الفينيقيين البرية والبحرية في مظاهرها المختلفة، وهو يذكر بين وارداتهم الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا، والرقيق وأواني النحاس الأصفر من أيونيا، والكتان من مصر، والخرفان والماعز من شبه الجزيرة العربية، ويشير «هيرودوت» إلى أن توابل بلاد العرب كانت تنقل عن طريق التجارة الفينيقية[1].

ولم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة والعودة من حيث أتوا، بل كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون مدناً فينيقية جديدة، أما إذا كانت البلاد التي ينزلها الفينيقيون ذات حكومات قادرة على حماية نفسها، فإن ملاحي فينيقيا لا يؤسسون مستعمرة حقيقية، وإنما يكتفون بوكلات تجارية، وبشراء حق حرية التجارة، كما فعلوا في مصر، حين استقروا عند مصبي الدلتا، وطبقاً لرواية هيرودوت، فقد اتخذوا لأنفسهم في منف حياً خاصاً سمي «معسكر الصوريين»، كما أقاموا معبداً هناك كانوا يتعبدون فيه لـ «أفروديث الأجنبية»، وهي عشتار على الأرجح[2].

وكان الفينيقيون يصدرون أربعة أصناف من السلع تحتاج إليها دول البحر الأبيض المتوسط هي: الخشب والقمح والزيت والخمر، ثم حملوا بعد ذلك منتجاتهم الصناعية المشهورة مثل المصنوعات المعدنية والمنسوجات، وكان الخشب الجيد بالذات مطلوباً في مصر والعراق لبناء المعابد والقصور وقوارب الصيد والسفن التجارية وسفن الأساطيل، وكانت

---

(١) حزقيال ٢٧/ ١ ـ ٣٦، فيليب حتى: المرجع السابق ص ١٠٧ ـ ١٠٨ نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١١٦،
وكذا: Stabo, XVI, 3, 4.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ١٨٤، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١١٦، ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٩٥.

أخشاب لبنان المستقيمة والمستديرة تمدهم بحاجاتهم من الأخشاب بل بما يحتاجون إليه من القار والراتنج اللازم لصناعة السفن، وبالنسبة لليونان كان أزر لبنان أرزاً فينيقياً[1].

ولعل من أشهر رحلاتهم البحرية التي استغرقت زهاء ثلاثة أعوام، دارت فيها سفن الفرعون «نخاو الثاني» (٦١٠ ـ ٥٩٥ ق. م) بملاحيها الفينيقيين حوله أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح[2]، كما أشرنا من قبل.

ولم يكن «نخاو الثاني» هو وحده الذي استغل مهارة الفينيقيين البحرية، وإنما سبقه إلى ذلك سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠ ـ ٩٢٢ ق. م)، وطبقاً لرواية التوراة، فلقد أنشأ النبي الكريم، بالاتفاق مع حيرام، ملك صور، كما أشرنا من قبل، أسطولاً في ميناء «عصيون جابر استغل فيه المهارة الفينيقية، كما كان يديره فينيقيون كذلك[3]، ونقرأ في سفر الملوك الأول، أن حيرام قد أرسل عبيده النواتي العارفين بالبحر، مع عبيد سليمان[4]، ونقرأ كذلك عن أسطول منفصل لحيرام أبحر مع أسطول سليمان إلى «أوفير»، وأتى من هناك بالذهب والأخشاب النادرة والأحجار النفيسة، وكل ما هو نادر وغريب[5].

هذا ويذهب «ستانلي كوك» إلى أن سليمان عليه السلام، وحيرام الصوري، قد امتلكا أسطول «ترشيش»[6]، والذي يمكن الحكم عليه من

---

(١) حسن أحمد محمد: المرجع السابق ص ٣٩٤،
وكذا: Thepharstus, III, 12, 3, IV, 2, 2, IX, 2, 3.

(٢) محمد بيومي مهران: مصر ـ الجزء الثالث ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣ (الإسكندرية ١٩٨٨)،
وكذا: Herodotus, IV 42.

(٣) W. Keller, Op. Cit., P. 201.

(٤) ملوك أول ٩/٢٧.

(٥) ملوك أول ١٠/١١ ـ ١٢.

(٦) ترشيش: يذهب بعض الباحثين إلى أنها في «سردينيا»، ويذهب آخرون إلى أنها =

اسمه، أنه قد ذهب إلى ترشيش في أسبانيا، وأما أسطول الفينيقيين فقد أبحر من «عصيون جابر» في أدوم ليحضر الذهب من أرض أوفير [١] (ربما الأرجح جنوب غرب الجزيرة العربية)[٢]، وهكذا يبدو أن رحلة الثلاث سنوات التي ذهبت الروايات إلى أنها تتصل برحلة أوفير هذه، ربما كانت تتصل بأسطول ترشيش إلى أسبانيا، علماً بأن هناك من يرى أن هناك علاقات تجارية بين حيرام الصوري من ناحية، وبين قبرص وأسبانيا من ناحية أخرى[٣].

ثانياً: الفينيقيون ومستعمراتهم في البحر المتوسط: ـ

لم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة والعودة من حيث أتوا، بل كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون مدناً فينيقية جديدة، وكان الفينيقيون الذين يستقرون لا يثيرون فزع السكان الأصليين، فقد كانت أعدادهم قليلة، وكانوا يتسربون دون أن يثيروا الريب والشكوك، ولم يكن لهم اتجاه سياسي معين، فسرعان ما يتلاءمون مع الوسط الذي يعيشون فيه، فإذا تم إنشاء المستعمرة واستقر فيها المهاجرون بدأت تتصل بالمدن الفينيقية الكبرى عن طريق البحر، وتعمل على تصريف المنتجات الفينيقية في البلاد التي تنشأ فيها، كما تعمل على جمع المادة الخام، وإرسالها إلى بلاد الشام.

وهكذا انتشرت المستعمرات من رأس الدلتا إلى ساحل قلقية إلى بلاد اليونان، كما انتشرت في جزر البحر الأبيض المتوسط، ومستعمراتهم في

= «ترتيسوس» في جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق، أو لعلها (قرطاج) المدينة الواقعة في شمال أفريقيا (قاموس الكتاب المقدس ١/٢١٥ ـ ٢١٦، وكذا: F. Thieberger, King Solomon, London, 1957, P. 206.

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 1070 - 1071.

(١) S.A. ook, in CH, III, ambidge, 1965, P. 367.

(٢) أنظر عن الآراء التي دارت حول موقع أوفير (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٧٨٢ ـ ٧٩٣).

(٣) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٧٤.

شرق البحر المتوسط أقدم من مستعمراتهم في أفريقيا وأسبانيا، فقد استقروا في قبرص ورودس منذ منتصف القرن الحادي عشر، ثم استقروا بعد ذلك في صقلية ثم في سردينيا.

وقد وصلت المغامرات الاستعمارية الفينيقية في غرب البحر المتوسط إلى الذروة منذ منتصف القرن العاشر قبل الميلاد وإلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، فقد أنشئت مستعمرة «قرطاج» في شمال أفريقيا، وتخطوا مضيق جبل طارق ونفذوا إلى المحيط الأطلسي، وأنشأوا مستعمرة قادس (كاديس أوجاديس الحالية، قرب مصب الوادي الكبير) على شاطىء أسبانيا الغربي، وكانوا يحصلون من هناك على الفضة المتوفرة في أسبانيا.

هذا وقد كانت السفن تخرج من أجادير لاستجلاب القصدير، فتبلغ الشاطىء الشمالي الغربي لأسبانيا وقد تصل إلى جزائر «كاسيتيريد» (جزائر سيلي) وكل هذه البلاد الأسبانية كانت تسمى عند الفينيقيين بلاد «ترشيش» ويقابل هذه التسمية عند اليونان «ترتيسوس»[1].

وعلى أي حالة، فإن اسم «ترشيش» الذي نصادفه في كتابات التوراة[2] وآشور، هو اسم فينيقي على الأغلب، بمعنى المنجم أو مكان الصهر أو معمل تكرير، هذا وقد اكتسبت تسمية «ترشيش» بسبب بعد البلاد معنى غامضاً، وصارت تعنى المغرب الأقصى، أو أبعد البلاد التي بلغتها التجارة الفينيقية، وإن ذهب بعض الباحثين إلى أن ترشيش هي «طرسوس»

---

(١) حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٣٩٥، فيليب حتى: المرجع السابق ص ١١١ - ١١٣، ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٩٦،
وكذا: Herodouts, III, 115.
وكذا: Strabo, III, S, 11.

(٢) ملوك أول ٢٨/٩، ٢٢/١٠، أخبار أيام ثانٍ ٢١/٩، ٣٦/٢٠، أشعياء ١٩/٦٦، أرميا ٩/١٠، حزقيال ١٢/٢٧، مزمور ٧/٤٨.

في قلقيا، حيث كانت هناك مستعمرة فينيقية، كما أن طقوس عبادة البعل فيها تشبه تلك التي في صور وقرطاجنة [١] .

وهناك من المستعمرات الفينيقية في أسبانيا أيضاً «مقة» (ملاكة بالفينيقية) ومعنى اسمها «دكان» أو معمل صغير، ويذكر «سترابو» مكاناً لتلميح الأسماك في هذه المدينة، وهو أمر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك، وكانت «قرطبة» في الأصل مدينة إيبيرية استولى عليها الفينيقيون، وأقدم نقودها تحمل حروفاً فينيقية استبدلت فيما بعد باليونانية [٢] .

ولعل من أهم المستعمرات الفينيقية في جزر البحر المتوسط إنما كانت «صقلية» التي اتخذوها محطة ينتفعون بها في أسفارهم الخطيرة إلى أعمدة هيرقل (وهما الرأسان الصخريان عند مضيق جبل طارق) ونزلوا خاصة في «بانورموس» (بالرمو) وسوليئس (سولونت) وفي «موتيا»، ومواضع هذه المدن الصقلية الثلاث مواضع اختيرت في عناية بالغة مسترشدين بما يجدون فيها من المنافع، وكانت (بانورموس) في أحد الخلجان، و «سوليئس» عند أحد الرؤوس، وموتيا على جزيرة في بطن الخليج الواقع شمال رأس ليليبه، وكانت الأخيرة أهمها جميعاً، حيث كانت القاعدة الأساسية التي انطلقت منها «قرطاج» لمباشرة حروبها الصقلية حتى حوصرت ودمرت عام ٣٩٨ ق. م.

وطبقاً لرواية ديودور الصقلي، فلقد استقر الفينيقيون أيضاً في جزيرتي مالطة وجولوس وذلك لأنها جزر واقعة في عرض البحر صالحة للأساطيل

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ٢١٦/١، ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٩٦، فيليب حتى: المرجع السابق ص ١١٢،
وكذا: W. Albright, in Study in History of Civilization P. 42.

(٢) فيليب حتى: المرجع السابق ص ١١٣،
وكذا: Stralp, III, 4, 2.

لتكون مرافىء ارتفاق عند المرور من شرق البحر المتوسط إلى غربيه [1].

هذا وقد كان للفينيقيين عدة مراكز في «كورسيكا» و «سردينيا»، ففي سردينيا كانت هناك أربع مدن رئيسة هي: سولكس وكارالكس ونورا وثاروس، وكانت «سولكس» تقع على السفح الداخلي لجزيرة «أنتيكو» الحالية، إلى جانب ممر يصل الجزيرة بالأرض الرئيسية وأما الثلاثة الأخرى فهي مرتفعات جبلية.

هذا ولم يعثر في «سولكس» إلا على آثار قليلة تكشف عن طبوغرافيتها الفينيقية، وإن عثر بها على فخار فينيقي يرجع إلى القرن الثامن ق. م، ويعد أقدم ما عثر عليه في سردينيا، كما عثر على عدد من الألواح تشبه نظائر لها عثر عليها في حظائر «تانيت» في قرطاج، مما قد يشير إلى احتمال وجود معبد هناك.

وأما في «كارالس» (كالياري) حيث حجبت أبنية من عصر متأخر الطبوغرافية الفينيقية، فإن المحلة الأصلية تشبه من نواحي كثيرة نظيرتها بالقرب من مرتفع «سان إيليا» إلى الجنوب الشرقي، وربما كان موقع الميناء القديم حيث توجد البحيرة المالحة اليوم إلى شرقي «كالياري»، ولم يعثر هناك على مقابر من عصر مبكر، ولكننا نلتقي بالمقابر من القرن الخامس وما بعده منتشرة على طول جانب التل إلى شمال غرب المدينة الحديثة.

وأما «نورا» فتقع عند طرف شبه الجزيرة، ولها ميناء، ولم تشغل منذ العصر الروماني إلا بقلعة في العصور الوسطى في مكان قلعة فينيقية، وقد عثر بها على مقابر من القرن السادس وما بعده، كما عثر على معبد للمعبود «تانيت» ومجموعة ضخمة من اللوحات والأواني الجنزية.

---

(١) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٩٥ ـ ٩٦، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ١٨٦.

وأما «ثاروس»، فتقع إلى الغرب من الجزيرة، ولا تزال بحاجة ماسة إلى إجراء حفائر بها تكشف عن آثارها[1] .

هذا وقد سعى الفينيقيون للنزول ببلاد اليونان، وكثر تردد تجارهم عليها، بل يبدو أن بلاد اليونان لم تخل من مستعمرات فينيقية، يدل على هذا انتشار الأسماء السامية في بلاد اليونان، كما أن بعض المعبودات اليونانية متأثرة بالديانة السامية، ويبدو أن الفينيقيين لم يتركوا ناحية من البحر المتوسط، إلا أوغلوا فيها فانتشروا في ساموس وكريت، بل يذهب «ديودور الصقلي» إلى القول بأن أهل مالطة من أصل فينيقي، كما أن أهل «تراقيا» فينيقيوا الأصل أيضاً، وعلى أية حال، فليس بجزيرة مالطة آثار لمدينة فينيقية، ومع ذلك فهناك مقابر «بونية» كثيرة، ترجع إلى القرن الخامس ق. م وما بعده، وهناك عدد قليل منها يرجع إلى القرنين الثامن والتاسع، وربما كان أشهر مواقعها هو حيث تقع اليوم مدينة «فاليتا»[2] .

هذا وتتصل «كورنثوس»، وهي مؤسسة فينيقية في الغالب، باله من أصل فينيقي هو «مليكرتس» (ملقارت)، كما تذكر الأساطير.

ثالثاً: قرطاج: ـ

لا ريب في أن أعظم المدن الفينيقية عبر البحر قاطبة إنما كانت «قرطاج»، وتقع على مقربة من مدينة تونس الحالية، فيما بين «بوسعيد» و «لاجويت»، ويرجع تأسيسها إلى عام ٨١٤ ق. م، وإن ذهب البعض إلى

---

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٦٠.
(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٦٠ ـ ١٦١، حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٣٩٥،
وكذا:
Diodorus, V, 12, 2 - 4.
H.R. Hall, Op. Cit., P. 523.
Autran, Phenicines, P. 5.

فيليب حتى: المرجع السابق ص ١١٣.

أنه يرجع إلى ما قبل ذلك، إلى القرن الثالث عشر ق. م، كما أن أقدم مخلفاتها لا تشير إلى أنها ترجع إلى ما قبل القرن الثامن ق. م، حيث ثبت الآن عدم وجود أية آثار فينيقية الأصل في تلك المناطق قبل حوالي ٧٥٠ ق. م[(١)].

هذا ويذهب البعض إلى اسم «قرطاج» الفينيقي مشتق من كلمتي «قرت حدشت» بمعنى المدينة أو القرية الحديثة، وطبقاً لقصة إنشائها[(٢)]، وبعبارة أصح أسطورة إنشائها، فقد أسستها الأميرة «اليسا» ابنة «متان» ملك صور، عندما هربت من ظلم أخيها «بيجماليون» ويسمى الرواة الأميرة «اليسا» هذه باسم «ديدون» أي «الهاربة»، وليست لدينا أية وثائق تسوغ قبول هذه الرواية أو رفضها[(٣)].

وعلى أية حال، فمنذ تأسيس قرطاج عام ٨١٤ ق. م، اعتبرت نفسها جزءاً من مدينة «صور»، أو بعبارة أخرى تابعة لها، وكانت ترسل في كل عام عشر دخلها لصور، فضلاً عن رسول يقوم بتقديم القرابين لمعبود مدينة صور «ملقارت».

ولم يبدأ التاريخ الحقيقي لقرطاج إلا منذ القرن السادس ق. م، عندما بدأت صور تضمحل ويقل شأنها تحت تأثير ضربات «نبوخذ نصر» (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م)، وسرعان ما ازدهرت قرطاج، حتى غدت زعيمة المدن الفينيقية في أواسط البحر الأبيض المتوسط، ثم سارت قرطاج على نفس سياسة صور وصيدا، فأظلت المستعمرات الفينيقية بحمايتها، وأسست مستعمرات جديدة، مثل المستعمرات التجارية في جزيرة «إليسيا» بين

---

(١) D. Harden The Phoenicians, London. 1963, P. 54.
وكذا: B.H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 22.

(٢) أنظر: رشيد الناضوري: المغرب الكبير ـ بيروت ١٩٨١ ـ الجزء الأول ص ١٦٢ ـ ١٦٣ وكذا: محمد بيومي مهران: المغرب القديم ص ١٨٠ ـ ١٨٥ (الإسكندرية ١٩٩٠).

(٣) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٩٨.

سردينيا وأسبانيا حوالي عام ٦٥٠ ق. م، فضلاً عن مستعمرة أخرى على شواطىء «مينوركا» في جزر البليارد [١] .

غير أن الصدام سرعان ما بدأ بين القرطاجيين واليونان بسبب المنافسات التجارية والسياسية بينهما، وقد بدأت بوادر ذلك الصدام في جزيرة صقلية التي جمعت بين الفينيقيين واليونانيين، وذلك في بداية القرن السادس قبل الميلاد، ولم تستطع مدينة صور القيام بدور الحماية والدفاع عن هذه المراكز الفينيقية الغربية بسبب الضغط الآشوري والبابلي الكلداني.

وهكذا بدأت مدينة قرطاج تحتل مكان الزعامة، وعملت على تحقيق تلك الحماية، ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت بدأت الدول القرطاجية في التواجد فعلاً، كقوة سياسية سامية جديدة في غربي البحر الأبيض المتوسط، منذ حوالي منتصف القرن السادس ق. م.

هذا ولم يقتصر التهديد اليوناني على جزيرة صقلية، وإنما ظهر أيضاً على الساحل الليبي في طرابلس، حيث استقرت بعض العناصر اليونانية وحاولت أيضاً منافسة القرطاجيين، هذا فضلاً عن القوة الفارسية العظيمة التي وصلت سيادتها حتى مصر في عام ٥٢٥ ق. م، ثم حاولت التحرش بالمراكز الفينيقية في الشمال الإفريقي، وعلى رأسها قرطاج، ولكن البحارة الفينيقيون في الأسطول الفارسي امتنعوا عن نفيذ الأوامر الفارسية، وبذا تخلص الفينيقيون من عنصر جديد قوي، كان من أشد الأخطار التي تهدد تواجدهم في تلك المنطقة [٢] .

وأياً ما كان الأمر، فإن الحرب سرعان ما نشبت بين اليونايين والقرطاجيين حوالي عام ٥٥٠ ق. م ونجح «ملخوس» (ملك ـ سيد) أن يهزم اليونانيين في صقلية، وأن يطردهم منها، غير أنه انهزم في سردينيا فعاقبه

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ١٨٥ ـ ١٨٦،
وكذا: O. Harden, Op. Cit., P. 54.

(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

مواطنوه بالنفي من قرطاج، وعندئذٍ تحول ضد وطنه وحاصر قرطاج وأخذها وتولى حكمها، ثم خلفه «ماجون» وعلى يديه تدعمت قوة قرطاج، وفي حوالي عام ٥٣٥ ق. م، وقع اشتباك بحري بين اليونان والأسطول الفينيقي، وفي ظل النصر طرد القرطاجيون اليونان من كورسيكا، وأحلوا مكانهم حلفاءهم أهل «اترووريا» (١).

وثبت القرطاجيون أقدامهم في هذه الفترة في أكثر من موضع على شاطىء أسبانيا، وامتدت امبراطوريتهم القوية في القرن السادس ق. م، من حدود ليبيا إلى أعمدة هيرقل (هيروكوليس) وضمت جزر البليارد ومالطة وسردينيا، وبعض مواقع على ساحل أسبانيا، والغال، وهكذا فإن الفرصة التي لم تتح لصيدا وصور، تحت النفوذ المصري والآشوري، في أن تكون امبراطورية، فقد نجحت قرطاج في أن تفعل ذلك (٢).

وفي عام ٥٠٩ ق. م، عقدت قرطاج أول حلف مع روما، وظل تاريخ قرطاج طوال القرن الخامس كله يدور حول صراعها الطويل مع صقلية، وهو صراع انتهى لصالح قرطاج.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد بدأت الحرب البونية، وفي الحرب الأولى منها (٢٦٨ ـ ٢٤١ ق. م) انتصر الرومان في البحر، وفشلوا في أفريقية، فانحازوا إلى صقلية وانتصروا بها على أهل قرطاج.

وفي الحرب البونية الثانية (٢١٩ ـ ٢٠٢ ق. م) قام «هانيبال» (حاني بعل بالفينيقية، ومعناه نعمة بعل)، وكان قد أقسم، وهو ما يزال يافعاً، أن يكون عدو روما الدائم بمشروعه الذي كرس له حياته، وزحف على إيطاليا من أسبانيا، بطريق جبال الألب، وبعد قتال ناجح دام ١٥ عاماً في الأرض الإيطالية هوجمت روما أثناءه، استدعى «هاينبال» إلى أفريقيا، وهناك كسر

---

(١) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٩٨ ـ ٩٩.
(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١١٦.

في معركة «زما» عام ٢٠٢ ق. م الحاسمة في جنوب غربي قرطاج.

وفي عام ١٩٦ ق. م، هرب هانيبال إلى صور، ومن هناك اتصل بملك سورية «انطيوخس» واشترك معه في الحرب ضد أعداء قرطاج الألداء، غير أنه كسر نهائياً، ولم يعد له أمل في الهرب، فانتحر في آسيا الصغرى في عام ١٨٣ ق. م، وهو يقول «أن هذا سيوفر على الرومان القلق في انتظار موت رجل مسن مكروه».

وفي الحرب البونية الثالثة (١٤٩ ـ ١٤٦ ق. م) انتصر الرومان على القرطاجيين، وانتهت قرطاج، وخربت تخريباً تاماً، حتى لم يبق منها شيء قائم، وحرم للأبد بناء مساكن عند موقع المدينة المهدمة، والتي تركت طعمة للنيران لمدة سبعة عشر يوماً، حتى جعلت موقعها كومة من الرماد، ثم اعملوا المحراث فيها، ومع ذلك فروما نفسها هي التي أسست منازل لحامية جديدة في موقع قرطاج، بعد هدمها بأربع وعشرين سنة، إلا أن تاريخ هذه المدينة الجديدة ـ الوارثة للمستعمرة الفينيقية يدخل في تاريخ روما، وليس في تاريخ قرطاج [١].

بقت الإشارة إلى أهم المستعمرات الفينيقية في الشمال الإفريقي، غير قرطاج، والتي أهمها:

١ ـ أوتيكا: ـ

أو «عتيقة بمعنى القديمة تمييزاً لها عن قرطاج بمعنى الحديثة، وقد سماها «ابن خلدون» (وطاقة)، وتعتبر أقدم مستعمرة فينيقية في الشمال الأفريقي، على الأرجح، وقد أسستها صور حوالي عام ١١٠٠ ق. م، وكانت تقع على مرتفع من الأرض عند مصب نهر

---

(١) أنظر: رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ٢٤٤ ـ ٢٨٣، ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٩٨ ـ ١٠٠ نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٧٩ ـ ١٨١، فيليب حتي: المرجع السابق ص ١١٦، محمد بيومي مهران: المغرب القديم ص ٢٥٥ ـ ٢٨٧.
وكذا: B.H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 160 - 205.

«بجراداس» أهم أنهار تونس، الذي يجري في أخصب بقاعها، وقد تغيرت معالم الموقع اليوم عنها في العصور القديمة، فغطى الغرين المجرى الأدنى للنهر، حتى ليرى موقع المدينة الفينيقية الرومانية اليوم فوق مرتفع يحيط به الطمي الفيضي على مبعدة ١٠ كيلا من البحر، ويمكن التعرف على القلعة القديمة عند تل كان يوماً ما في داخل البحر، مع جزيرة إلى شرقه، يفصلها عنه ممر مائي ضيق.

هذا وما تزال هناك، كما هي الحال في قرطاج، خرائب رومانية كثيرة، وإن كان من العسير التعرف على آثار بونية، وقد ترجع أقدم المقابر هنا إلى القرن الثامن ق. م، ومكانها على جانبي الممر المائي، أما المقابر من العصر المتأخر فبعيدة إلى الغرب والشمال (١).

٢ ـ هيبـو: ـ

وهي بنزرت الحالية، وكان لها مرفأ عظيم في بحيرة بنزرت، وكانت مقراً ملكياً، ولذا أعطيت لقب Regius، وكلمة «هيبو» كلمة ليبية، وتذهب الأساطير إلى أن «ليبيا» وهو الإسم اليوناني لشمال أفريقيا، كانت في الأصل اسم زوجة الإله «بوسيدون» إله البحر، ووالدة «أجينور» ملك فينيقيا.

٣ ـ ليبتـس: ـ

وهي المدينة الوحيدة التي اختيرت في موقع غير مناسب، بجوار خليج «سرته»، ولم يكن لها مرفأ إلا مصب نهر.

٤ ـ وأما أبعد مكان أمكن الكشف عنه على الساحل الأفريقي غرباً، فكان إلى جنوب مدينة «موجادور» مباشرة، على شاطىء المغرب بين الدار البيضاء وأجادير، حيث يصب نهر «كسوب» في خليج صغير تذود عنه أمواه

---

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٦٤، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ١٨٥، ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٩٧.

المحيط جزيرة صغيرة، طولها ٣ كيلا، وعرضا ١/١٢ كيلا، وتبعد عن الشاطىء بمسافة تتراوح بين كيلو ونصف، وثلاثة كيلو مترات، وقد عثر هناك على ما يؤكد قيام مستعمرة فينيقية بها [١].

---

(١) فيليب حتى: المرجع السابق ص ١١٠، ج. كونتنو: المرجع السابق ص ٩٧، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

البَابُ الخامِس

مِن مظاهر الحضارة الفينيقيّة

الفصل الأول

التنظيم السياسي

يقول «بومبونيوس ميلا» (Pomponinus mela) (من القرن الأول الميلادي): إن الفينيقيين كانوا جنساً حاذقاً، نجحوا في الحرب والسلم، ونبغوا في الكتابة والأدب، وبعض الفنون الأخرى، كقيادة السفن والحروب البحرية وفي فن الحكم.

هذا ولا تتجلى شجاعة الفينيقيين في الحروب - كما في صراع القرطاجيين الطويل مع روما - فحسب، بل كذلك في المقاومة الضارية التي بذلتها كل من صيدا وصور ضد البابليين والفرس واليونان، وفيما بذله البحريون الفينيقيون، الذين استخدمهم الفرس لمحاربة اليونان، من براعة في القتال البحري، وما أبدوه من ضروب البسالة والإقدام[1].

ولنتعرف الآن على التنظيم السياسي في فينيقيا وقرطاج.

١ - في فينيقيا: -

لا ريب في أن الفينيقيين - كما أشرنا من قبل - إنما تأثروا إلى أبعد الحدود، بالبيئة التي عاشوا فيها، واستجابوا لها، استجابة كاملة، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أن الوطن الفينيقي الممتد على سواحل الشام، على صورة شريط ضيق بين البحر من الغرب،

(١) Donald Harden, The phoeniecians, London, 1963, P. 19-20.

والصحراء من الشرق، إنما قد أصبح بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة القادمون من بلاد النهرين ـ أو منطقة الجزيرة ـ قبل نزولهم إلى وادي النيل، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادي، تتعقب الغزاة ـ وهم في طريق فرارهم، بعد دفعهم عن حدود مصر.

وكانت القوات المصرية تطرق بلادهم باستمرار، تحاصر مدنهم، وتدك قلاعهم، وتحملهم إلى مصر أسرى، يسخرهم فرعون في الأعمال التي يريدها، حدث ذلك كثيراً، وخاصة على أيام الامبراطورية المصرية في عصر الدولة الحديثة (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق. م).

وهكذا أصبح الوطن الفينيقي في مهب التيارات العالمية، بين قوى عالمية كبرى، قامت في وادي النيل، وفي وادي الدجلة والفرات وآسيا الصغرى، وترتب على هذا الوضع نتائج بعيدة الأثر، لعل أخطرها جميعاً أن الفينيقيين لم يستطيعوا أن يقيموا دولة موحدة، تصد هذه التيارات، وتضع حداً لهذا النفوذ الأجنبي.

وهكذا لم يجد الفينيقيون مفراً، من أن يؤلفوا منهم مجتمعات صغيرة، تعيش في مدن محصنة، ذات أسوار عالية، وأبراج كبيرة، يلجأ إليها السكان في وقت الخطر، ويحتمون بأسوارها، ويتخذونها ـ وقت السلم ـ أسواقاً لتجارتهم.

على أن قيام هذه المدن المحصنة ـ وإن كانت أحسن وسيلة لجأ إليها الفينيقيون، لصد غارات الدول المجاورة، أو غارات البدو المجاورين ـ غير أن تقسيم البلاد إلى مدن صغرى، يحارب بعضها البعض الآخر، ولا يسود بينها نوع من الاستقرار، إنما جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة(١).

وفي العصر الفارسي، يحدثنا «هيرودوت» (٤٨٤ ـ ٤٣٠ ق. م) أنه

---

(١) حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

كان في أسطول الملك الفارسي «أكزركسيس» (٤٨٤ ـ ٤٦٥ ق. م) في حملته على اليونان في عام ٤٨٠ قبل الميلاد، ثلاثة من الضباط، كانوا رؤساء للأسطول الفينيقي، وهم «تيترامنيستوس» من صيدا (Tetramnestos of sidon)، و «ماتان الصوري» (Mattan of tyre)، و «ماربالوس الأروادي» (Marbalos of Aradus).

وبدهي أنه لو كان هناك اتحاد فينيقي، لكانت مجموعة السفن الفينيقية تحت قيادة موحدة[1].

وكانت الملكية الفينيقية ـ كما تشير الوثائق المصرية والآشورية ـ وراثية في الغالب، مع انقطاع في التسلسل الملكي، وتدلنا «رسائل العمارنة» على أن ملوك سورية، إنما كانوا يكتبون إلى فرعون، باعتبارهم اتباعاً، فالعلاقات بين الطرفين، إنما كانت علاقة التابعين للسادة[2].

وهكذا فقد كتب «أبيميلكي» أمير صور، إلى فرعون «إلى الملك، مولاي وسيدي، هكذا يقول أبيميلكي خادمك، سبع مرات، وسبع مرات، أسقط على قدميك، إن الذين قاله الملك مولاي قد نفذ، إن كل الأرض قد ارتعدت من جنود الملك مولاي»[3].

وكتب «خاموبري» أمير بيروت إلى الفرعون يقول: «إلى الملك مولاي، إلهي، نسمه حياتي، أقول: هكذا يقول خامونيري، رجل بيروت، خادمك، تراب قدميك، على قدمي مولاي الملك، شمس وإلهي ونسمة حياتي، سبع مرات، وسبع مرات، أسجد، وأكثر من هذا، إنني سمعت كلمات مولاي الملك، شمس وإلهي ونسمة حياتي، إن قلب خادمك قد فرح، وتراب قدمي الملك، سيدي وشمس وإلهي ونسمة حياتي، لأن نسمة

---

(١) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٢٨٦.

(٢) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ـ ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة الدكتور طه حسين ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ١٠٠.

(٣) S. A. B. Mercer, The Tell El - Amarna Tablets, toronto, 1939, No. 153.

الملك سيدي وإلهي وشمسي، قد ذهبت إلى خادمك وتراب قدميك، وأكثر من هذا، إن الملك مولاي وشمس وإلهي، قد كتب إلى خادمه، وتراب قدميه: استعد لاستقبال حملة أقواس الملك مولاك، لقد سمعت، وحقيقة لقد استقبلتهم بخيلي وعرباتي، وكل ما يتعلق بي، أنا خادم الملك، فهو لحملة أقواس مولاي، لعل فرق «جيش» مولاي الملك، سيدي وإلهي ونسمة حياتي، تحطم حياة أعدائه»[١].

ويكتب «عبدي خيبا» أمير أورشليم القدس إلى سيده الفرعون يقول: «إلى الملك مولاي، هكذا يقول عبدك» عبدي خيبا، خادمك، على قدمي الملك سبع مرات، وسبع مرات أجثو. . . .»[٢].

على أن المدن الفينيقية سرعان ما استقلت بعد ذلك، وحكمها ملوك محليون، ملوك يختارون من بعض الأسر المنتسبة إلى أصل مقدس، هذا ويمكن القول على أساس ذلك أنه وجدت أسر حاكمة، بمعنى الكلمة.

على أن الراجح أن سلطة الملك كانت محدودة، بمجلس الشيوخ، وكان مؤلفاً من أغنياء المدينة ـ أعني أغنى تجارها ـ وهذا الأساس ـ أساس تسويد الأغنياء ـ إنما هو الذي نجده كذلك في قرطاج، وهو أساس ضروري ـ في جملته ـ لدولة تستخرج مواردها الرئيسية من التجارة.

وهناك من نصوص رأس الشمرا ما يلقى الضوء على تجار المدينة، ففيها ذكر وكالات للأقمشة المصبوغة باللون القرمزي، وذكر أصناف الحرف المختلفة بالمدينة، وكان لكل صنف من الحرف رؤساء يديرون أموره، ويسمى الواحد منهم «ربًا»، وعلى هذا الأساس نفسه كان رؤساء القوافل في «تدمر» هم أعظم الشخصيات، لأنهم كانوا شعباً كالفينيقيين تجاراً[٣].

---

(١) S.A. B. Mercer, op - cit, II, P. 457.

J.A. Kundtzon, Die El-Amarna Tafeln, II, Leipzig, 1915, P. 579.

(٢) Ibid., P. 39, L. 19 - 28.

(٣) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ١٠٠ ـ ١٠١.

هذا وقد اكتسبت مجالس الشيوخ - في أخريات العصر الفينيقي - سلطة تكاد تساوي سلطة الملك، وكان في مقدورهم في «صور» أن يتخذوا أي قرار في غيبة الملك، وكان لهم في «صيدا» أن يتخذوا ما يشاءون ضد إرادة الملك، وكان عدد أعضاء مجلس الشيوخ في صيدا مائة عضو[1].

هذا وقد أشارت التوارة - في سفر حزقيال - إلى صدى ما كان من أمر مجلس الشيوخ في جبيل (بيبلوس)[2].

وعلى أية حال، فإن المصادر إنما يمكن أن تمدنا بما نستطيع به القيام بعمل قوائم بأسرات ملكية، حكمت في عدة مدن، وإن كانت غير كاملة، فهناك - مثلاً - أسرة «حيرام» في صور، و «الولي» (إيلوايلي) في صور كذلك، وقد ظهر هذا الرجل - كأهم شخصية في منطقة الساحل الفينيقي - على أيام «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق. م)، وقد فرض سلطته على قسم كبير من فينيقيا، حتى أنه حاول إخضاع قبرص.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن نظام الملكية الوراثية، إنما تحول في المدن الفينيقية إلى نظام «حكم الأقلية» أو «حكم الخاصة» (Oligarchy)، فنحن نلتقي على أيام الحكم الفارسي - وربما قبله - «بمجالس الشيوخ من أثرياء التجار».

هذا وقد شهدنا من قبل في «صور» اثنين من المشرعين معاً، وذلك لأن هناك ما يشير إلى قيام «الجمهورية» في صور في العصر الكلداني أو البابلي الأخير (٦٢٦ - ٥٣٩ ق. م)، وكان يتولى رياستها قضاة - على مثال القضاة في بني إسرائيل[3] - وكان القضاة يعينون لمدة سنتين، وكانت العادة أن يتولى الحكم إثنان منهم مرة واحدة.

---

(١) أنظر: Diodore de sicile, XV, 1,
وكذا Arrionas, II, 15, 16.

(٢) حزقيال ٩/٢٧.

(٣) لم يكن القضاة عند بني إسرائيل قضاة بالمعنى المفهوم، ولم يكونوا مشرعين

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مجلس الشيوخ في المدن الفينيقية، إنما كان يؤلف من أكثر التجار ثراء في المدينة، وقد وجد نفس النظام - نظام سيادة طبقة من الأغنياء - في قرطاج، ولعله ظاهرة طبيعية في دولة تعتمد في مواردها الرئيسية على التجارة، فالطابع التجاري غالب على جميع مظاهر الحياة في المدن الفينيقية، سواء في الشرق أو الغرب.

وهكذا قامت في المدن الفينيقية حكومات الأقلية (الأوليجاركية Oligrachy)، وكما حدث في المدن اليونانية، وفي روما، بعد خلع الملوك، أصبح مجلس الشيوخ هو الهيئة الرئيسية في البناء السياسي للدولة، وإن كنا لا ندري متى حدث هذا - على وجه اليقين - وكيف تم التحول من الملكية إلى «الجمهورية الأوليجاركية»، وإن كان من المرجح أنه حدث بين القرنين، السادس والخامس قبل الميلاد.

هذا ومن المرجح أن هذا التطور، إنما قد حدث في مدينة «قرطاج» في القرن الخامس قبل الميلاد، فقد ذكر «أرسطو» (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) أن القوة بقيت في أيدي اثنين من القضاة، كانا ينتخبان في كل سنة، ويسميان

بالمعنى القديم، وإنما كانوا طبقة من الأبطال المحاربين والمنقذين» أقامهم الرب لتخليص بني إسرائيل من يدناهبيهم»، كما لم يكونوا خلفاء لبعضهم البعض، بل إننا نشهد أكثر من واحد في وقت واحد، وكان الواحد يطلق عليه في بعض الأحيان لقب «ملك» و«قاض» ولم يستطع أحد منهم أن يبسط سلطانه على كل بني إسرائيل، فكان الواحد منهم يتسلم قيادة زمرة واحدة، عندما يتهدد هذه الزمرة تهديداً مباشراً، وهو إذا ما كتب له النصر، لم يحتفظ حتى بتلك القيادة وقد حاول بعض الباحثين أن يقارن هذا النظام القبلي العبراني، بمجلس «الأمفكتيون» (Amphictyony) اليوناني، والذي يقوم على مبدأ مماثل من المركزية الدينية، وعلى أية حال فرغم أن سلطة الكاهن العبراني الأعظم عظيمة، ولكن من المبالغة أن نزعم وجود حكومة «ثيوقراطية» في إسرائيل، لأن سلطة الكاهن لم تكن سياسية (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٦٦٢/٢ - ٦٢٧، سبتينوموسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص ١٤٠ - ١٤١، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٣٢٥، جوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٣٥، وكذا M. Noth, Das System der zwolf staemme Israel, 1930, P. (39 - 60).

«الملوك» أو «القضاة»، ويحملان لقب «سوفيت» (Suffete)، وهي في السامية «شوفيت»، بمعنى «قاضي»، هذا فضلاً عن «مجلس سناتو»ـ ويتكون من ثلاثمائة عضو، يعينون مدى الحياة ـ هذا إلى جانب هيئة أو مجلس يكون من ١٠٤ عضواً، يشكلون هيئة الأمن العام»، وهي الهيئة التي أشار إليها «جوستان» (من القرن الثاني الميلادي)، أنها تستطيع أن تسائل القواد، ثم أخيراً جمعية عمومية من الشعب.

وليس هناك إلى سبيل من ريب، في أن هذا النظام الدستوري إنما قد أخذ عن اليونان، أو على الأقل قد تأثر بالنظم اليونانية، وهو يشبه «النظام الثلاثي»، الذي كان في «أثينا» وغيرها ـ وهو الذي انتقل بصورة، أو بأخرى إلى روما فيما بعد.

وعلى أية حال، فإن اختيار المشرعين، والالتحاق بمجلس الشيوخ ـ فيما يبدو ـ إنما كان يقوم على أساس الثروة، أكثر ما يقوم على الوراثة، على الأقل، فيما بعد القرن السادس قبل الميلاد[1].

٢ ـ في قرطاج: ـ

كان المظهر الوحيد في «قرطاجة» (قرطاج) الذي حظي بإطراء ومديح أباطرة الإغريق والرومان، هو دستورها السياسي الذي يبدو أنه كان يكفل لها الاستقرار وهو مطلب عزيز كانت تنشده المدن في العصور القديمة، وإن كانت التفاصيل عن هذا الدستور غامضة، كما أنه ليس من المؤكد أن

---

(١) أنظر عن التنظيم السياسي عند الفينيقيين (ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٠٠ ـ ١٠٢ نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٤، عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨، محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية ص ١٠٩ ـ ١١٢، وانظر: معن عرب: صور ـ حاضرة فينيقيا ـ بيروت ١٩٦٩، منير الخوري: صيدا ـ بيروت ١٩٦٦،

وكذا Herodotus, VII,.

وكذا Diodorus, XV, 1, 59

وكذا Syria, 15, 1939, P. 137 f.

هؤلاء الكتاب القدامى قد أدركوا الحقائق، كما ينبغي أن تدرك [1] ، وعلى أي حال، فإن التنظيم السياسي في قرطاج قد مر بمراحل رئيسية ثلاثة:

١ ـ المرحلة الأولى: مرحلة الملكية، والتي استمرت حتى العصر الهلينستي، وذلك النظام استمرار لما كان موجوداً في حكومات المدن الفينيقية في المشرق ـ كما تشير إلى ذلك النظام الفينيقي الوثائق المصرية والآشورية ـ فقد كانت الملكية الفينيقية وراثية في الغالب، مع انقطاع أحياناً في التسلسل الملكي ـ ومع ذلك، ففي الإمكان عمل قوائم بأسرات ملكية حكمت في عدة مدن، وإن كانت غير كاملة، فهناك مثلاً أسرة حيرام في صور، وكذا «لولي» (أيلو ايلي) في صور أيضاً، وقد ظهر الأول كأهم شخصية في منطقة الساحل في عهد داود وسليمان عليهما السلام، وظهر الثاني كأهم شخصية في نفس المطقة على أيام سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق. م)، بل إنه إنما قد فرض شخصيته على قسم كبيرة من فينيقيا، حتى أنه حاول إخضاع قبرص [2] .

غير أن الملكية القرطاجية ـ رغم ذلك ـ إنما كانت إلى حد ما فريدة في نوعها، فهي ليست كالملكية المصرية القديمة ذات الطابع الإلهي [3] ، أو الملكية السومرية [4] ، ذلك لأن الملكية القرطاجية إنما كانت في بداية

---

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٤.

(٢) انظر: (محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الكتاب الثاني ص ٧٨ ـ ٧٨٢ ص ٨٤٣ ـ ٨٤٧، ٩٠٤، ٩١٠ ـ ٩١٢، ٩٦٣).

(٣) أنظر: سورة الشعراء: آية ٢٩، القصص: آية ٣٨، النازعات: آية ٢٢ ـ ٢٤، محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الثاني ـ الإسكندرية ١٩٨٩ ص ١١٩ ـ ١٥١.

(٤) هناك ما يشير إلى مبادىء ديمقراطية بدأت في العراق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، تشير إلى تواجد التفكير الديمقراطي في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة، بناءً على قرارات الجمعية العمومية، والتي تتكون من جميع المواطنين، ربما فيهم النساء (أنظر: رشيد الناضوري: جنوبي غربي آسيا وشمال أفريقيا، محمد عبد اللطيف: تاريخ العراق لقديم ص ١٧٨ ـ ١٨٠، =

أمرها تتم عن طريق الانتخاب ـ وليس الوراثة ـ فكان الملك القرطاجي يختار من الطبقة الارستقراطية، ذات المال والجاه المورثين، ومن ثم فإن النظام السياسي القرطاجي يتفق مع الهدف الفينيقي الأول، وهو الاستحواذ على الثروة الاقتصادية، حتى أن العمليات السياسية والحربية القرطاجية إنما كانت تهدف إلى تدعيم الجانب الاقتصادي، كما أن عمليات الاستكشاف البري والبحري والقرطاجي ، فضلاً عن التدخل في أسبانيا وغيرها، إنما كانت لتثبيت هذا الهدف الاقتصادي الذي احتل مكان الصدارة في التاريخ الفينيقي والقرطاجي، ومن ثم فقد كان أصحاب الثروة في المكانة الأولى في السلطات السياسية.

وعلى أية حال، فلقد تولى منصب الملك في قرطاج خلال القرنين، السادس والخامس قبل الميلاد، أفراد من «الأسرة الماجونية»، والتي ظهر من أفرادها المبرزين «هملكار» (حملقرت ـ Hamilcar الذي قاد حملة في عام ٤٨٠ ق. م، والمستكشف «حنون» (هنو ـ Hanno) والذي ربما كان ابنا للملك «هملكار»، وذلك لأن النصوص تشير إليهما بوصفهما ملكين، وقد شغل ملوك أسرة «ماجون» (ماقون) خلال هذين القرنين (السادس والخامس قبل الميلاد) منصب القادة العسكريين للدولة كذلك، عندما تطلبت ذلك تلك القيادة، ومن المحتمل أن الكتاب القدامى في تلقيبهم لهؤلاء بالملوك قد أخذوا في الاعتبار سلطتهم الدينية والقضائية، فضلاً عن سلطاتهم السياسية.

٢ ـ وفي أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حدث تطور أدى في النهاية إلى تناقض قوة الملوك نتيجة لتغير النظم الاقتصادية، فلقد نشأت طبقة جديدة في المجتمع القرطاجي، وهي طبقة ملاك الأراضي الزراعية، وبذلك بدأت عوامل التنافس الاقتصادي على الثروة. والتنافس السياسي على

= T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, in JNES, II, 1943, P. 165, No. 35.

الحكم، وقد نجحت طبقة ملاك الأراضي في النهاية من الاستحواذ على تلك السلطة، وانتزاعها من الأسرة الماجوية، وذلك في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثم فقد بدأت مرحلة جديدة هي أقرب إلى النظام الجمهوري، منها إلى النظام الملكي، رغم الاستمرار في استخدام تعبير «الملك» الحاكم للبلاد، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية من التنظيم السياسي في قرطاج من حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، إلى حوالي بداية القرن الثالث قبل الميلاد.

هذا وقد صاحب هذا التطور الجديد نشأة سلطة «الشفطان» (Sufetes)، وهو الاصطلاح السياسي القرطاجي الوحيد الذي نقله لنا الكتاب الرومان، وكلمة «الشفطان» أو السبطان، تعادل الرقباء (السناسرة) عند الرومان، كما كان لقبها باللغة السامية يعادل لقب «القضاة» (١) عند بني إسرائيل، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منها اثنان ـ وربما أكثر ـ سنوياً، وقد ظل اصطلاح «الشفيط» (Selinus) مستخدماً في شمال أفريقيا في مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الأقل بعد الغزو الروماني، ليشار به إلى الحكام الرئيسيين للمدينة، وكان تقلص سلطة الملك شبيهاً بالتطورات في المدن الإغريقية وروما، وفي نفس الوقت ازدادات قوة الارستقراطية الثرية، حتى أصبح لهم ـ إلى جانب عضويتهم الجماعية في مجلس للدولة يشبه السناتو الروماني (مجلس الشيوخ) ـ مجلسان آخران منتخبان ـ مجلس المائة والأربعة ومجلس الثلاثين ـ وهما يكونان في الحقيقة «أوليجركية» ضيقة وثيقة البنيان، مكونة من أغنى الرجال، وأوسعهم نفوذاً، ويتحكمون في كل إدارات الحكومة.

هذا ورغم أن جماعة المواطنين كان لها بعض الرأي في انتخابات الملوك والشفطان وغيرهم من الموظفين فإنه من المؤكد أن السياسات

---

(١) أنظر عن القضاة عند بني إسرائيل (محمد بيومي مهران: إسرائيل : الجزء الثاني ـ ص ٦٢٣ ـ ٦٥٧).

القرطاجية كانت تحكمها الثروة دائماً، ويعتبر الفيلسوف اليوناني «أرسطو» (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م) أن الدور الذي لعبته الثروة في قرطاجة كان مظهراً سيئاً، فلقد كان شرف المولد وتوفر الثروة شرطين أساسيين للانتخاب، فكل الأمور يقررها الملوك أو الشفطان والمجلس بالتشاور معاً، وفي حالة اختلافهم فقط تتم استشارة الجمعيات الشعبية (الوطنية).

٣ ـ وكانت المرحلة الثالثة على أيام القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، وتركزت فيها السيادة السياسية لأسرة برقة (برقا) وإن اختلفت عن المرحلة الأولى، وإنما جمعت هذه المرحلة الثالثة بين سلطة برقة وسلطات مجلس الشيوخ والمجالس الأخرى الخاصة بالشئون المالية والدينية كالمجلس الثلاثيني ومجلس العشرة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن قرطاج لم تخضع لانقلاب عسكري يقوده قائد طموح أو مغامر، مثلما تكرر هذا المصير في المدن الإغريقية، وخاصة في صقلية، وربما كان السبب أن أجهزة الرقابة والسيطرة كانت فعالة [١].

٥ ـ الجيش القرطاجي: ـ

اتجهت قرطاج إلى تدعيم كيانها العسكري بإنشاء قوة حربية برية وبحرية للدفاع عن الدولة القرطاجية وفي القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فصلت قيادة القوات المسلحة فصلاً تاماً عن الوظائف الأخرى، وكان القواد يعينون فقط في حالة الضرورة، ولحملات محددة الجهة والهدف، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائداً دائماً، وقد انتهجت العديد من الأسر نهجاً عسكرياً، مثل «آل ماقون» (ماجون) في أوائل التاريخ القرطاجي، و «أسرة برقا» (Barcids) فيما بعد ذلك، .

---

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٤، رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ١٨٠ ـ ١٨٤، هـ. ج. ولـز . معالم تاريخ الإنسانية ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٣١.

وكان عبء قيادة الفينيقيين في الغرب ـ فيما يبدو ـ ثقيلاً على القوة البشرية المتاحة لقرطاجة، وقد ظلت قرطاج حتى القرن السادس قبل الميلاد، تعتمد على مواطنيها ـ شأنها في ذلك شأن المدن الحرة الإغريقية ـ غير أنها منذ منتصف هذا القرن السادس، وتحت قيادة «ماقون» (ماجو ـ (mago)) ـ الذي أسس أسرة حاكمة في قرطاج ـ إنما اتبعت سياسة «استخدام القوات المرتزقة» على نطاق واسع، وهي نفس السياسة التي اتبعت حتى نهاية التاريخ القرطاجي.

وهكذا استخدم القرطاجيون الليبيين الذين ساهموا بأكبر نصيب، ثم سرعان ما ازداد عددهم عندما استولت قرطاج على الإقليم الداخلي، واضطرت بالتالي إلى تجنيد القوات إجبارياً، وقد قام الليبيون بدور هام في الجيش القرطاجي ـ كمشاة خفيفي الحركة ـ كما شارك الفرسان النوميديون والموريتانيون ـ في الأجزاء الشمالية للجزائر والمغرب ـ بدور بارز في كل الجيوش القرطاجية ـ سواء أكانوا مرتزقة أو حلفاء طبقاً لمعاهدات عقدت في تاريخ لاحق ـ هذا فضلاً عن مرتزقة آخرين ـ من أسبان وغالبيين وإيطاليين، بل وإغريق ـ عملوا في الجيش القرطاجي في أوقات مختلفة، وطبقاً لظروف متباينة، وقد نجحت هذه السياسة ربما بصورة أكبر مما تسمح به طبيعة الأمور، ولعل أهم ما دفع القرطاجيون إلى استخدام الجنود المرتزقة أن قرطاج ما كانت بقادرة على أية حال ـ اعتماداً على سكانها المحدودي العدد ـ أن تتحمل الحرب الطويلة التي خاضتها.

على أنه لا ريب في أن اعتماد الجيش القرطاجي على المرتزقة ـ في معظمه ـ فضلاً عن إعفاء المواطنين القرطاجيين من الخدمة العسكرية منذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد ـ عدا فترات قليلة ـ إنما قد أدى إلى نتائج ليست، على كل حال ـ في مصلحة الوطن القرطاجي، فهو (أولاً) قد حال بين القرطاجيين وبين تعميق الشعور بمدى قوتهم الذاتية التي كانت عاملاً فعالاً في تطور الاتجاهات الديمقراطية في بلاد الإغريق والرومان، فضلاً عن إضعاف الروح القومية وإبعاد القرطاجيين تدريجياً عن الجيش، وهو

(ثانياً) قد أضعف القوات العسكرية القرطاجية، ذلك لأن الجنود المرتزقة ما كانوا يحسون بالولاء نحو الوطن الذين أصبحوا قوته العسكرية، فضلاً عن الولاء للنظام نفسه.

وزاد الطين بلة أن القوم حينما أرادوا علاج هذه المشكلة، بوضع هؤلاء الجنود المرتزقة تحت القيادة القرطاجية، إنما استعانوا في الوقت نفسه، ببعض القادة اليونانيين الذين كانت لهم تجارب حربية معروفة، وكان هذا مكمن الخطر، ذلك لأن استخدام هؤلاء القادة اليونانيين إنما كان يشكل ـ في أحايين كثيرة ـ خطراً بالغاً على الأمن القرطاجي نفسه، ذلك لأن احتمال خيانتهم لقرطاج، إنما كان محتمل الوقوع في أي وقت، بسبب رغبة اليونان الجامحة في السيطرة السياسية والاقتصادية على قرطاج ـ كما حدث في صقلية على أيام الصراع العنيف بين الأغارقة والقرطاجيين ـ والتاريخ يحدثنا أن «أجاثوكليس» إنما حاول إغراء «افللاس» ـ وهو ضابط إغريقي في الجيش البطلمي في مصر ـ ليعمل ضد قرطاج، على أن يكون ملكاً عليها، إن كتب له النصر على القرطاجيين ـ الأمر الذي فعلوه مع مصر مرات عديدة، خاصة إذا كان القتال ضد أبناء جلدتهم من اليونايين ـ، وإن كان هذا لا يمنع من القول من أن هناك من المرتزقة من كان على ولاء لقرطاج[1].

ومع ذلك، فليس هناك من سبيل إلى شك، في أن القرطاجيين إنما كانت لم قوتهم الحربية الهامة، كما كان لهم أسطولهم القوي، والذي كان يمثل قوة الدفاع ـ فضلاً عن الهجوم ـ الرئيسية، ذلك لأن خبرة القرطاجيين الطويلة بفنون الملاحة ـ التجارية والحربية ـ فضلاً عن درايتهم العملية ببناء

---

(١) أنظر: محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة ص ٣٤٦ ـ ٣٥٠، مصر ـ الجزء الثالث ص ٦٥٦، ٦٦٣ ـ ٦٦٤. ٦٨٨ ـ ٦٨٩، وكذا

Herodotus, III, 13) 16.

A. H. Gardiner, Op. Cit, P. 361 - 362.

D. J. Wiseman, Op. Cit., P. 94 - 95.

السفن وتجهيزها، إلى جانب ما تتميز به سفنهم على السفن اليونانية والرومانية، من صغر في الحجم، وسرعة في الحركة، وقدرة على التكتيك الحربي السريع أثناء المعارك البحرية، كل تلك الأمور إنما قد أتاحت لهم السيادة البحرية إلى حد كبير، وبالتالي تدعيم التنظيم السياسي القرطاجي، الأمر الذي ساعد على تثبيت الدولة القرطاجية في المغرب وحوض البحر المتوسط، كقوة سامية تواجه القوى اليونانية والرومانية المعاصرة في تلك المنطقة، خاصة وأن الدولة القرطاجية إنما دخلت في صراع مرير مع تلك القوى اليونانية في المرحلة الأولى من العصر القرطاجي، ثم استمر هذا الصراع في المرحلة الثانية من العصر القرطاجي مع القوة الرومية[١٩].

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

الفصل الثاني

الحياة الدينية

١ ـ تعريف بالدين: ـ

يذهب علماء مقارنة الأديان إلى أن الإنسان كائن متدين بفطرته، وأن قصة طفولة الإنسانية، إنما هي قصة مثيرة، ومليئة بالمخاوف وبالمثولوجيا (Mythology)[١]، التي من أخص مميزاتها دخول الأساطير الدينية في تفسير العلاقة التي تربط الإنسان بالوجود، وتعليل ما يجري فيه من ظواهر[٢].

هذا فضلاً عن أن تقويم المشاعر الإنسانية ـ فيما يرى تولستون (١٨٢٨ ـ ١٩١٠ م) ـ إنما يقوم على الأديان وحدها، وأن التصور الديني هو الذي يقرب المشاعر التي يعبر عنها[٣].

ولئن كان للتقدم البشري، الذي حققه العالم في شتى المجالات، شأن الاعتداد بالنفس، والثقة فيها، فلقد بينت التجربة أن الحقيقة التي يكشفها العقل المحض، ليس لها من القدرة، ما للدين، على إشعال جذوة

---

(١) أنظر عن «المثولوجيا» في مصر والشرق الأدنى القديم

J. Gray, Near Eastern mythology, mesopotamid, syria and palestine, 1969

. Veronicalond, Egyptian mythology, 1968

(٢) التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن ـ تونس ١٩٧٤ ص ٦.

(٣) أنظر: مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ العدد العام ١٩٥٤ ص ٤١.

الإيمان الصادق[1]، وهذا هو السبب في أن التفكير المجرد لم يؤثر في النفس إلا قليلاً، في حين أن الدين استطاع أن يغيّر مجرى الحياة، كما استطاع أن ينهض بالأفراد، ويبدل الجماعات، ويغيّرهم من حال إلى حال[2].

ولكن : ما هو الدين؟ : ـ

إن الدين ـ في اللغة ـ إنما هو الجزاء، وهو الله، وهو الخضوع والطاعة، وهو العبادة والورع، وهو الحساب والقهر، والغلبة والاستعلاء، والسلطان والملك والحكم، والسيرة والتدبير، والتوحيد، وهو اسم لجميع ما يُتعبّد به لله، عزّ وجلّ[3].

والكلمة ـ أي الدين ـ تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه، «دان بدينه»، وتارة من فعل متعد باللام «دان به»، وباختلاف الاشتقاق، تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة.

وهكذا: إذا قلنا «دان دينا»، عنينا بذلك أنه ملكه وحكمه وساسه، ودبره وحاسبة، وقضى في شأنه، وجازاه وكافأه، الدين في هذا الاستعمال، إنما يدور على معنى الملك والتصرف، بما هو من شأن الملوك من السياسة والتدبير، والحكم والقهر، والمحاسبة والمجازاة.

ومن ذلك: «مالك يوم الدين»، أي يوم المحاسبة والجزاء، وفي الحديث الشريف «الكيّس من دان نفسه»، أي حكمها وضبطها، والدّيان: الحكم القاضي.

---

(١) التهامي نقرة: المرجع السابق ص ٩.

(٢) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام ـ ترجمة عباس محمود ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٠٧.

(٣) أنظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط ٤/٢٢٦ ـ ٢٢٧ (القاهرة ١٩٥٢)، تفسير الطبري ١/ ١٥٥، ٢٢١، ٣/ ٥٧٠ (القاهرة ١٩٥٧)، تفسير المنار ٣/ ٢١١ ـ ٢١٢ (القاهرة ١٩٧٣)، تفسير القرطبي ص ١٢٨٥ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠)، محمود أبو رية: دين الله واحد على ألسّنة جميع الرسل ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٤.

وإذا قلنا «دان له»، أردنا أنه أطاعه، وخضع له، فالدين هنا: هو الخضوع والطاعة والعبادة والورع، وكلمة «الدين لله»، يصح أن يفهم منها كلا المعنيين: الحكم لله، والخضوع لله.

وإذا قلنا «دان بالشيء» كان معناه أنه اتخذه ديناً ومذهباً ـ أي اعتقده أو اعتاده أو تخلق به ـ فالدين على هذا: هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء، نظرياً أو عملياً، والمذهب العملي لكل امرىء هو: عاداته وسيرته، كما يقال «هذا ديني وديدني».

والمذهب النظري عنده هو: عقيدته ورأي الذي يعتنقه، ومن ذلك قولهم: «دينت الرجل»، أي وكلته إلى دينه، ولم اعترض عليه، فيما يراه، سائغاً في اعتقاده[1].

والدين ـ في نظر الإسلاميين ـ إنما هو «وضع إلهي لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل».

هذا ويمكن تلخيص ذلك، بأن الدين إنما هو «وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات[1]».

على أن علماء الغرب إنما يذهبون ـ في تعريفهم للدين ـ مذاهب شتى، فهناك وجه للنظر يذهب إلى أن الدين إنم هو الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان، من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه.

ومع أن الإنسان لم يرَ هذه القوى، غير أنه إنما كان يعتقد في وجودها، وقد كوّن في مخيلته صوراً لها، وأخذ يعطي كلا منها شكلاً وديناً، واسماً معيناً، خاصاً بها، بل أخذ يتمثلها على طريقته الخاصة، فجعل من بعضها أصدقاء أوفياء، ومن البعض الآخر أعداء ألداء، فهو

---

(١) محمد عبد الله دراز: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٧ ـ ٢٨.

لا يعرف أشكالها ولا أماكنها، وأخذ يتصور الأشياء التي تدخل السرور إلى نفسها، كما عرف ما يثيرها، وبالفعل بذل جهوداً لكي يترب أعماله على هذه النتائج[1].

على أن هناك من علماء الغرب من ذهب إلى تصوير الدين بأرقى صورة عرفتها الفلسفة، وأبعد صورة عن الخطور ببال العامة من المتدينين - كما فعل «روبرت سبنسر» (١٨٢٠ - ١٩٠٣ م) - حتى ذهب إلى أن العنصر الأصيل في الدين، إنما هو الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهاياتها الزمنية والمكانية[2].

وذهب فريق من علماء الاجتماع والآثار - من أمثال «إيميل دوركايم» و «سالمون ريناك» - إلى حذف فكرة «الإله الخالق اللانهائي الذي لا يحيط به التصور» من التعريف الجامع للأديان، بل إن هذا الفريق من العلماء، إنما يذهب إلى وجوب إبعاد أصل فكرة الألوهية بكل معانيها، من هذا التعريف.

وقد اعتمدوا في فكرتهم هذه على أن في الشرق أدياناً مثل «البوذية» و «الجاينية» و «الكونفوشيوسية»، إنما تقوم على أساس أخلاقي بحت، خالٍ من تأليه كائن ما، وإن الذين يؤلهون «بوذا» و «جينا» مثلاً، إنما هم مبتدعون، خارجون عن أصل دينهم الحقيقي القديم.

وفي الواقع أن هذا التفسير، إنما يكون نابياً عن مفهوم الناس، مجافياً لذوق اللغات، ولا سيما لغتنا العربية، التي لا تفهم من اسم الدين، غير الاعتقاد بشيء يدين له المرء، ويخضع له، ويتوجه إليه بالرغبة والرهبة والتقديس، بل إننا لا نبالغ، إذا قلنا: إن كل مذهب يخلو من هذه

---

(١) أدولف أرمان: ديانة مصر القديمة - ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أنور شكري - القاهرة ١٩٥٢ ص ٤.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثاني - الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٢٧ - ٣٣٣.

«الدينونة»، إنما هو أحق باسم «الفلسفة» منه باسم آخر.

وأكبر الظن أن الديانات المذكورة آنفاً (البوذية والجاينية والكونفوشيوسية) ما استحقت أن تدرج في جدول الأديان، إلا منذ دخلتهما فكرة التأليه، أو على اعتبار أنها كانت كذلك أبداً[1].

هذا ويستطرد الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ـ طيب الله ثراه ـ (١٨٩٤ ـ ١٩٥٨ م) فيذهب إلى أن الدين إنما هو «الاعتقاد بوجود ذات ـ أو ذوات ـ غيبية، علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشئون التي تعنى الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذوات السامية في رغبة أو رهبة، وفي خضوع وتمجيد.

وبعبارة موجزة: الدين: هو الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة. هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية، بمعنى «التدين».

وأما إذا نظرنا إلى الدين: من حيث هو حقيقة خارجة، فهو: جملة النواويس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «الدين»[3] في نظر بعض

(١) محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص ٣٣ ـ ٣٥.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) يقول صاحب الظلال: إن طبيعة أي دين أن يتضمن تنظيم حياة الناس بالتشريع، وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك، فهو لا يكون ديناً، فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر، ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله، ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية، عن الشعائر التعبدية، عن القيم الخلقية، عن الشرائع التنظيمية، في أي دين، يريد أن يصرف حياة الناس، وفق المنهج الإلهي، وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي =

الاتجاهات السابقة، إنما هو محصور في نطاق الأديان المستندة إلى الوحي السماوي، وهي التي تتخذ معبوداً واحداً، هو الله، الواحد الأحد، الخالق المهيمن على كل شيء.

ومن ثم فالديانات الطبيعية المستندة إلى محض العقل، والديانات الخرافية التي هي وليدة الخيالات والأوهام، وكل ديانة تقوم ـ هي أو جانب منها ـ على عبادة التماثيل أو عبادة الحيوان أو النبات أو الكواكب أو الجن أوالملائكة... الخ، تخرج ـ بمقتضى بعض هذه التوجيهات ـ عن أن تكون ديناً[1].

هذا مع العلم بأن القرآن الكريم قد سماها ديناً، قال الله تعالى: **﴿ومن يتبغ غير الإسلام ديناً، فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**[2].

هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم، إنما يسمي معتقدات الآخرين ديناً، حتى إن كان هذا الدين، هو الكفر ذاته[3]، يقول الله تعالى: **﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم، ولي دين﴾**[4].

= الحياة، ويخالف مفهوم الدين وطبيعته، كما أراده الله (في ظلال القرآن ١/ ٤٠٠ ـ بيروت ١٩٨١).

(١) محمد عبد الله دراز: المرجع السابق ص ٣٢.

(٢) سورة آل عمران: آية ٨٥، وانظر: تفسير الطبري ٦/ ٥٧٠ ـ ٥٧٢، تفسير الفخر الرازي ٨/ ١٣٢، تفسير النسفي ١/ ١٦٨، في ظلال القرآن ١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠، تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٧، السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢/ ٤٠ (طهران ١٣٧٧ هـ) تفسير الطبرسي ٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤، تفسير الكشاف ١/ ٤٤٣، تفسير القاسمي ٤/ ٨٧٨، تفسير القرطبي ص ١٣٧٠ ـ ١٣٧١، تفسير أبي السعود ١/ ٥٠٩.

(٣) عبده الراجحي: الشخصية الإسرائيلية ـ الإسكندرية ١٩٦٨ ص ١٧ ـ ١٨.

(٤) سورة الكافرون: آية ١ ـ ٦، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٨٩٤، تفسير القرطبي ص ٧٣١٩ تفسير الظلال ٦/ ٣٩٩٢ ـ ٣٩٩٣، الإمام محمد عبده: تفسير جزء عم ـ =

وفي صحيح البخاري (كتاب التفسير ـ سورة الكافرون): يقال لكم دينكم الكفر، ولي دين «الإسلام»[1].

٢ ـ فكرة الخلق عند الفينيقيين: ـ

ظلت مصادرنا عن الديانة الفينيقية نادرة تتمثل فيما كتبه إغريقو بيبلوس أو «ساموس» وهي كتابة كثيراً ما تنقصها الدقة والأمانة، هذا فضلاً عن أنه لا يمكن الاعتماد على ما جاء في التوراة (العهد القديم) في هذه الناحية، لأنه إنما كان متأثراً بعداء بني إسرائيل وكراهيتهم للفينيقيين.

واستمر الأمر كذلك، حتى كشف عن مدينة «أوجاريت» (رأس الشمر)، وأميط اللثام عن كثير من النقوش الفينيقية القديمة، فبدأ الظلام الذي كان يغشى هذه الناحية من حياة هذا الشعب الأصيل، ينجاب بعض الشيء، وبدأت معالم الديانة الفينقية تنضح أكثر فأكثر، عما كانت من قبل.

وهكذا أصبحت هذه المجموعة الكبيرة من نصوص أوجاريت مصدرنا الأساسي الآن عن المعبودات الفينيقية التي سادت المدن الساحلية، خاصة في الشمال.

وتذهب فكرة الخلق عند الفينيقيين[2] إلى أنه: من البدء كان الوجود ـ كل الوجود ـ عبارة عن «الهواء السميك والفضاء»، ومنها خرجت «الريح»، وخرجت «الشهوة»، وهم بدورهما أخرجا «الجبل»، وكان شكله على هيئة «بيضة»، وفي داخل البيضة تكونت المخلوقات وبقيت في حالة الجنين، دون حركة، إلى أن انشقت البيضة، وقذف الجبل حينئذٍ بالشمس

= القاهرة ١٩٥٧ ص ١٢٩ تفسير النسفي ٤/ ٣٨٠ ـ ٣٨١، تفسير السعدي ٨/ ٢٦٢.

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٢٠ (دار الشعب ـ القاهرة ١٣٨٧ هـ).

(٢) أنظر عن فكرة الخلق عند المصريين ـ مع ملاحظة أن هناك مدارس مختلفة، ولكل مدرسة نظريتها الخاصة بها، وأهم هذه النظريات ١ ـ نظرية عين شمس ٢ ـ نظرية الأشمونيين ٣ ـ نظرية منف ٤ ـ نظرية طيبة (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الثاني ـ ص ٣٠٣ ـ ٣٢٥).

والقمر والنجوم، أثّر الضوء، فانفصلت المياه عن السماء.

ولم يكن خلق الإنسان أقل تعقيداً من ذلك، فمن «الريح» المسماة «كولبيا» (Kolpia) وزوجة المسماة «باو» (Baau)، ولد «إيون» (أو «الحياة») و «بروتو جونوس» (أو أول مولود)، وكان «إيون» (Aion) أول من عرف الفواكه الصالحة للأكل.

ثم ولد لهما (أي إيون وبروتو جونوس) من الأولاد: «جنوس» (أي الجنس) و «جنيا» (مؤنث جنس)، وهما أول من عبد الشمس.

ومن أولادهما: الضوء والنار واللهب، وهم الذين اكتشفوا النار، ومن النار ولدت العمالقة (Geants)، وكان أحدهم أول من بني المدن، ثم عاش مخاصماً لأخيه «أوسوؤس» (Ousoos)، وكان أول من اتخذ الملابس من جلد الحيوان.

ويذهب «فيلون»(1) إلى أن هناك ستة أزواج من الأخوة توصلوا إلى اختراع: -

١ - الصيد في البر والبحر.
٢ - فن صناعة المعادن والملاحة.
٣ - الحرف وخاصة صناعة الآجر.
٤ - الزراعة.

---

(١) فيلون: هو فيلون الجبيلي (البيبلوسي) (حوالي ٦١ - ١٤١ م - وإن كان هناك من يرى أنه ولد عام ٤٢ م)، وقد وضع كتاباً في الديانة الفينيقية، حفظت بعض نصوصه في كتاب المؤرخ الكنسي «يوسبيوس» (٢٦٤ - ٣٤٠ م)، ويقول فيلون أنه ترجم فكرة الديانة الفينيقية عن خلق العالم عن «سانخونياتون» الكاهن الفينيقي، الذي ولد في حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد، فإذن نحن نظرياً أمام وثيقة قديمة ذات قيمة ممتازة، باعتبارها صادرة عن فينيقي، نقل روايات كاهن من كهان العصر القديم في فينقيا (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/١٦٦ - ١٦٧، كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١١٣).

٥ ـ القرى وحظائر الماشية السائمة.
٦ ـ القانون والعدل.

هذا وقد ولد من القانون والعدل «تاأوتوس» (Taautos) مخترع الكتابة، فضلاً عن «أبالسة» يعرف الواحد منهم باسم «كبير» (Cabires).

وأما الآلهة فهم من المبدأ «إليون» (Elioun) و «بيروث» (Berauth)، وهما ولدا «أورانوس» (Ouranos) السماء، و «جي» (Ge) الأرض.

ثم ولد «أورانوس» «إيل» (El) ـ بمعنى الله ـ وهويته، هوية ساتورن ـ عند فيلون ـ وهو الذي أسس مدينة «جبيل».

ثم ولد «أورانس» أيضاً «بايتولوس» (Baitulos) (أي بيتل ـ بمعنى بيت إيل ـ أي بيت الرب) و «داجون» و «أطلس» و «زيوس ديكاروس» و «بونتس» (Pontos) (بمعنى البحر).

ثم ولد «ديماروس» الإله «ملقارت» معبود صور، ثم «عشتار» الإلهة الكبرى في فينيقيا، ثم «ريا» (Rhea) وغيرهما.

ثم ثار «إيل» وإخوته ـ ذكوراً وإناثاً ـ على «أورانوس» السماء، كما أن «إيل» ـ وهو أول مولود للسماء ـ إنما قد رزق أولاداً هم: «برسفيون» (Persephone) و «أثينا» و «إيروس» و «الموت»... إلخ.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى تلك العادة المغرقة في القدم ـ عند الآشوريين والبابليين واليونانيين والعبرانيين ـ والتي تفترض أشخاصاً معينين، على أنهم مخترعوا كل ما أنتجه التقدم لتنظيم المادة، فضلاً عن عادة تسمية هؤلاء الأشخاص بأسماء الأشياء المخترعة، إلى جانب عادة أخرى مضمونها: إدخال المخترعات والقوى الطبيعية الفيزيقية الموجودة

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١١٤ ـ ١١٦.

تحت حِسِّنا على هيئة شجرة أنساب، بعض أفرادها مولود لبعض[1].

هذا وقد أشار «دمسقوس» (فيلسوف ولد في دمشق حوالي عام ٤٨٠ م) إلى عدة مذاهب فينيقية في خلق العالم، فقال: «في البدء، قبل كل شيء، وجد «كرنوس» (الزمن) و «بوتوس» الشهوة، و «أميكليه» (كلمة سامية مشوهة، ربما بمعنى الأم لكل المخلوقات)، ومن الأخيرين ـ أي اتحاد الشهوة وأميكليه ـ جاء «الهواء»، وهو النقاء، دون امتزاج بأي مفهوم، ومن اتحادهما جاء «أورا»، وهو الصورة الأولى الحيوية للمفهوم، وتتحدد حركته بالهواء، ومن هذين الأخيرين (الهواء وأورا) ولد «أوتوس»، وهو العقل المدرك.

ويروي «دمسقوس» مذهباً آخر في خلق العالم، هو مذهب «ماخوس» ـ وهو مؤرخ فينيقي في القرنين الثاني والثالث، فيما يرى أتينيه ـ ويقول «ماخوس»: إن الأثير والهواء باعتبارهما عنصرين أولين، ولدا «أولوموس» ـ الإله المدرك ـ الذي يخرج من نفسه «خوسوروس»، ثم «البيضة»، ويعنون بالبيضة «العقل المدرك».

وأما «خوسوروس» فهو القوة المدركة، فهو أول من ميز الطبيعة غير المتمايزة، اللهم إلا إذا وضعوا، بعد العنصرين، «القمة» المسماة «إيخوس»، والموصوفة بالوحدانية، ووضعوا في الوسط بينهم الريحين «ليبوس» و «نوتونس» (Lipos, Notos) لأنهم يقدمون في الغالب هذه الآلهة الثلاثة على «أولوموس»، وبالتالي يصبح «أولوموس» هو العقل المدرك، ويكون ترتيبه الأول بعد المدرك.

وأما البيضة فهي السماء، لأنهم يقولون إن البيضة قد انقسمت نصفين، أخرجت «أورانوس» و «جي»، وكلاهما عبارة عن أحد النصفين[1].

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١١٨.

٣ ـ المعبودات الفينيقية: ـ

كانت ديانة الفينقيين مجموعة من الطقوس والعبادات تقيمها المدن الفينيقية، وتختلف من مدينة إلى أخرى، وإن اشتركت جميعها في نظرة القوم العامة، وفي الظواهر الكونية والطبيعية، وكانت طقوس العبادة منبثقة من حياة القوم الزراعية، وكان القحط يهددهم، والرياح الحارة التي تهب من الصحراء كانت تقضي على مزارعهم، كما كان القوم مهددين بقلة المطر، أو بسقوط البرد الذي يتلف الزرع والضرع.

ومن ثم فقد لجأ القوم ـ حماية لأنفسهم ـ إلى أن يضفو على الطبيعة وظاهراتها، صفات إنسانية، وجعلها قريبة منه، وأن يقدم لها المرء القرابين يسترضيها بها، ثم أوجد سلسلة من العبادات بغية التأثير على هذه الطبيعة[1].

وهكذا كانت المعبودات الفينيقية ـ شأنها في ذلك شأن غيرها من معظم الديانات القديمة ـ تدور حولها تقديس مظاهر الكون، وعبادة الطبيعة، ومن ثم فقد كان لكل مدينة فينيقية، «بعلها» ـ أي سيدها ـ وهو جد ملوكها، ومخصب أرضها، فكل الحبوب والخمور والتين والكتان من عمله.

هذا ـ وكما أن لكل مدينة إلهها، أو آلهتها ـ فقد كان لهذا الإله ـ أو الآلهة ـ في الغالب، مكان بين الآلهة التي يعبدها القوم جميعاً، وكانت تمثل وظيفة معينة من وظائف الآلهة المشتركة ـ أو مظهراً معيناً من مظاهرها ـ ويتمثل هذا ـ على أحسن وجه ـ في نصوص رأس الشمرا، فهي إنما تذكر الآلهة، ثم أحداثاً تتعلق بهذه الآلهة، لا تتصل دائماً اتصالاً مباشراً بعبادات تلك المدينة.

هذا وكان الإله ـ أو المعبود ـ إنما يوصف بالمكان الذي يُعْبد فيه،

---

(١) معن عرب: صور ـ بيروت ١٩٦٩ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

مثل «بعل روشي»، أي «سيد الرأس»، وبعل سافون» ـ أي سيد الشمال ـ و «بعل شمين» ـ أي سيد السماوات ـ و «زيوس كاسيوس جوبيتر» ـ الإله الذي يحمي «جبل كاسيوس»[1] ـ.

وكان للحياة البحرية التي عاشها الفينيقيون أثرها في نسبة صفات بحرية إلى آلهتها، وقد أضيفت تلك الصفات إلى الصفات القديمة، وقد كان يغلب على «بعل صور» في العصور القديمة الصفة البحرية، كما كان «بعل داجون» الملقب «سيتون» (Siton) يوصف كذلك في العهود القديمة بصفات بحرية.

ولعل أول ما يُروّع المرء في «الدين ـ الكنعاني ـ الفينيقي» أنه أدنى كثيراً من دين أرض الرافدين في المستوى الحضاري، ويتجلى هذا بأجلى صورة في قسوة بعض طقوسه في نواح عدة، واهتمامه الغليظ بالعناصر الجنسية لدرجة تدعو إلى التقزز.

هذا فضلاً عن أن آلهة الدين الكنعاني الفينيقي، ذات طابع غير محدد أو ثابت، فهي كثيراً ما تتناوب صفاتها ووظائفها وصلاتها ـ بل كذلك جنسها ـ حتى ليصعب أحياناً أن نعرف حقيقة طبيعتها وصلات بعضها بالبعض الآخر.

ولعل السبب في ذلك إنما يرجع (أولاً) إلى انعدام الوحدة بين القوم ـ أي بين الفينيقيين أنفسهم ـ ويرجع (ثانياً) إلى عدم وجود طبقة من الكهان

---

(١) جبل كاسيوس: ويسمى الآن «الجبل الأقرع»، ويقع شمال غرب سورية، فيما بين السويدية واللاذقية، وكان البحارة الأقدمون يقدمون الذبائح من هذا الجبل للإله «زفس».

هذا وقد أنشأ «سلوقس الأول نيكاتور» (٣١٢ ـ ٣٠٥ ق.م) مرفأ على البحر المتوسط، ومن ثم فقد قدم ذبيحة للإله «زفس» المقيم في جبل كاسيوس، وبالتالي فقد أرسل «زفس» نسراً، ليدل سلوقس على مكان تشييد المرفأ، الذي يزعم إقامته (معجم الحضارات القديمة ص ٧٠٣).

منظمة تنظيماً كافياً، تستطيع أن تقيم تنظيماً دينياً سليماً ـ كما في أرض الرافدين ـ[(١)].

وأما أهم المعبودات الفينيقية في فينقيا: ـ

١ ـ إيـل: ـ

هو رأس المعبودات الفينيقية والكنعانية، واسم «إيل» (إل)، ليس في الأصل اسم علم، ولكنه اسم سامي عام معناه «إله»، أو هو الكلمة السامية للإله، كما يبدو واضحاً مثلاً في كلمة «إلوهيم»[(٢)] ـ وهي جمع مفرده إله ـ والأمر كذلك في الكلمة العبرية، وقد أدخلت عليها أداة التعريف «إل» فأصبحت «الإله»، وفي كلمة «بعل» ومعناها «رب» أو «سيد» ومؤنثها «بعلات» ومعناها «ربة» أو «سيدة»، و «ملك» ومعناها ملك أو حاكم، وكذلك كلمة «أدون» العربية، و «أدوناي» العبرية، و «أدونيس» اليونانية،

---

(١) موسكاتي: المرجع السابق ص ١٢٧، حسن أحمد محمود، المرجع السابق ص ٤٠٤، عبد الحميد زايد، المرجع السابق ص ٢٩١.

(٢) تطلق توراة اليهود المتداولة اليوم على «الله» جل جلاله، لفظ «يهوه» (Jhwh) وذلك في المصدر اليهـوي (Jahwiat)، والذي كتب في يهوذا حوالي عام ٨٥٠ قبل الميلاد، كما تستعمل لفظ «إلوهيم» (Elohist)، في المصدر الألوهيمي والذي كتب في إسرائيل حوالي عام ٧٧٠ قبل الميلاد.

هذا ويستعمل اسم «إلوهيم» عادة بكثرة في الإصحاح الأول من سفر التكوين، وفي المزامير (٤٢ ـ ٤٧) والتي سميت «مزامير إلوهيم»، هذا ويستعمل «إلوهيم» بالتبادل مع الاسمين اللذين أطلقتهما التوراة على الذات العلية، وهما «يهوه» و «أدوناي»، فما بقي من أسفار التوراة أو العهد القديم.

ويدل اسم «إلوهيم» على صفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ كخالق أعظم، وعلى علاقته بجميع أمم العالم ـ ومنهم اليهود ـ.

وأما اسم «يهوه» فيدل على علاقة الله ـ عز وجل ـ مع بني إسرائيل، وهو «إله تابوت العهد» وإله الرؤيا والإعلان، وإله الفداء (محمد بيومي فهران: إسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٩٣ ـ ١٠١، قاموس الكتاب المقدس ١٠٧/١، وكذا. M. F. Ungers Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 311, 564.

ومعناها «سيد» وهذه الكلمات العامة يمكن استخدامها منفردة أو متصلة باسم الإله.

هذا وقد ظل الإله الفينيقي «إل» (إيل) كالإله البابلي «آن» شخصية بعيدة غامضة بعض الشيء، فهو يسكن بعيداً عند منابع النهرين، هذا فضلاً عن أن ذكره في الأساطير إنما هو أقل من ذكر الآلهة الأخرى.

هذا وقد وصف «إيل» في نصوص «أوجاريت» بأنه رأس مجمع الآلهة الفينيقي، وهو الإله الأكبر، صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في شؤون البشر الدينية، فهو أبو البشر، وخالق الخلق، وأبو السنين (أي الخالد) والملك والثور (كناية عن القوة) والحكيم والطيب وذو الفؤاد (الرحيم) وأشيب اللحية ـ أي الشيخ ـ.

وهو يسكن عند منبع النهرين، ووسط مجاري المحيطين ـ أي في أطراف العالم، بعيداً عن الآلهة والبشر، ولكن هؤلاء جميعاً يسعون إليه طلباً لمشورته ـ كلما أزمهم أمر من الأمور فإذا اختلفت الآلهة مثلاً: فيمن يحق له منهم بناء معبد أو قصر (رمزاً لسيادته عليهم جميعاً) رجعوا إلى «إيل» (إل) الإله الأكبر، ليختار لهم من يراه جديراً بالسيادة عليهم.

وفي أسطورة «كرت» نجد الإله الأكبر «إيل» يرشد الملك «كرت» إلى الوسيلة التي يستطيع بها تكوين أسرة جديدة ـ بعد أن قضت الكوارث على أهل بيته ـ وعندما يمرض «كرت» بعد ذلك يسير به الإله إيل في سبيل الشفاء، بعد أن استعصي علاجه على جميع الآلهة، كما أن «إيل» هو الذي رزق الملك «دانيال» بولده البطل «أقهت»[1].

وكانت زوج الإله إيل هي الإلهة «إيلات» والمعروف كذلك باسم

---

(١) موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣، وكذا Rene Dussdud, Les religions des Hittites et des Hourrites, des Pheniciens et des Syriens, Paris, 1949, P. 360 - 361.

وكذا O. Eissfeldt, Religionsges chishte, Bedeutung, 1934, P. 77-78.

«عشيرة البحر»، والتي يطلق عليها لقب «الأم الإلهة» هذا وقد لقبت «عشيرة» في نصوص أوجاريت بالسيدة «أثرت» إلهة البحر (ربت أثرت يم) والإلهة «ألت»، وكما أن زوجها «إل» خالق الخلق، فكذلك هي «خالقة الآلهة»، فإذا قيل «بنو أثرت» فالمقصود الآلهة.

ونظراً لأن «إيلات» أو «أثرت» ذات كلمة مسموعة لدى زوجها، فقد كان أصحاب الحاجات يلتمسون وساطتها لديه، وكانت وساطتها دائماً وأبداً ناجحة، ومثال ذلك: أن الإلهة «عنت» ـ أخت بعل وامرأته ـ سألتها التوسط لدى «إل» (إيل) لكي يسمح لـ «بعل» أن يبني قصراً له، رمزاً لسيادته، فأذن له[1].

٢ ـ بعـل: ـ

هو أبرز «الإلهة الكنعانية ـ الفينيقية ـ»، ومركز مجموعة أخرى من الآلهة، وكلمة «بعل» معناها في الأصل «سيد»، ولهذا أمكن إطلاقه على آلهـة أخـرى، ولكـن «بعـل الأكبـر» كـان إلـه العـاصفـة والبـرق والمطـر والإعصار، كالإله «حدد» (هدد) عند البابليين والأراميين.

وتشير بعض الأساطير إلى أنه «ابن إيل» من «عشيرة البحر»، بينما تشير أساطير أخرى إلى أن زوج «عشيرة» إنما هو «أدد» المعروف باسم «بعل» أو «السيد» أو «أدون» رب الرعد والعاصفة والبرق، ومن ثم فهو إله خصب وإخصاب.

هذا ويوصف «بعل» في بعض النصوص بأنه أقوى الأبطال، وهو الأمير (زبل ـ بعل ـ بول، إله عقرون في التوراة)، وهو أحياناً الشمس التي تضيء.

وأما اسمه «أدد» (حدد ـ هدد) فيشير من الناحية اللفظية إلى الرعد وأمطار الشتاء، تعبيراً عن مظهر القوة، ولكنه لم يظهر إلا بصورة ثانوية

(١) موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٧٣، وكذا O. Eissfeldt, op-cit, P. 78-79 وكذا: R. Dussaud, op-cit, P.365.

ـ كإله للزراعة الناتجة عن المطر ـ وهو يوصف كأنه محارب صغير، يبدو في دثاره القصير، مسلحاً ببلطة الحرب، وحربة البرق، وعلى غطاء رأسه قرنا ثور، إشارة إلى قوة إخصابه.

وهناك إشارة تتعلق بصفات «بعل» فيما يختص بالخصب والزراعة، وهي ما تزال موضع خلاف، ـ في تفسيرها، وترجمة جزئيات منها، فضلاً عن الخلاف حول أسماء الآلهة ـ وهناك كذلك من يرفض وجود ابن للإله بعل، يسمى «عليان» ويفسرون إصلاح «عليان بعل» (عاليان بعل) بأنه صفة للإلهة، بمعنى «الرفيع أو العالي»، وليس اسماً لابن بعل.

وتدور الأسطورة حول صراع بعل وولده عليان ضد المعبود «موت» (وهو عند «فيلون الجبيلي» بمعنى الموت، وعند «ديسو» الفرنسي بمعنى البطل المحارب)، الذي يسمى حرارة الصيف، ويبدأ الصراع بنعل قوياً ـ قبل وصول موت ـ فيرسل الصواعق والمطر مدراراً، فضلاً عن الرياح والأعاصير ـ كما يحدث في شهر شباط (فبراير)، غير أن سلطان بعل سرعان ما ينهار أمام قوة موت، الذي يأمر بأن تسود الحرارة والدفء، وهكذا يموت بعل أولاً، وينزل إلى باطن الأرض، ويبقى ابنه «عليان» بمفرده بعض الوقت، متمثلاً في الثمر على الشجر، تحت وطأة حرارة الشمس القوية.

ويضطر عليان إلى السقوط واللحاق بوالده داخل الأرض، ولكنه قبل وفاته، يلتقي بأخته وزوجته «عينات» (عين أو نبع الماء)، واجتماعهما يمثل الربيع، وتبحث عينات عن أخيها حتى تجده تحت الأرض، فتخرج جسمه، وتذهب به إلى قمة جبل «سافون»، حيث تدفنه وتضحي من أجله، ثم تفتش عن «موت» وتسأله أن يرد أخاها إلى الحياة، فيرفض فتقتله، وتصف النصوص مشهد قتله، متمثلاً في سنابل القمح التي تنضحها حرارة الصيف، ثم تعيد أخاها إلى الحياة، ثم تستأنف الدورة الزراعية سيرتها من جديد[1].

---

(١) نجيب ميخائيل: سورية ص ٦٨ ـ ٧١، كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٠٤ =

وهذه الفكرة ـ فكرة إله يموت ليقوم منتصراً على الموت ـ أصبحت ـ فيما يقول الدكتورر فيليب حتي ـ جزءاً حيوياً من المأثور المسيحي(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «بعلاً» ـ كما تشير نصوص رأس الشمرا ـ ليس له معبد، كغيره من الآلهة، وإن كان «إل» (إيل) قد عالج هذا النقص، حين قام الآلهة أنفسهم ـ بناء على اقتراح من عشيرة ـ ببناء معبد له، وقد شارك «بعل» نفسه في بنائه، بقطع أخشاب الأرز التي يحتاج إليها البناء.

ولعل هذا إنما يشير إلى أن «بعلاً» إنما قد أقحم على مجمع الآلهة متأخراً، وإن كان هناك ما يشير إلى أن «بعلاً» لم يكن إلهاً حديثاً، وإنما هو إله محلى قديم، كان يسمى في فلسطين الجنوبية «بعل صفون» أو «بعل الشمال» أو «صفون» فقط، وكان له من «عشيرة» ابن هو «عليان بعل» الذي كان له الإشراف على مياه البحر والأرض معاً، وهو منبت الحَبْ، وهو إله الفيضان كذلك.

وكانت «عنات» ـ فيما يرى البعض ـ أختاً للإله «عليان بعل»، وهي عذراء، محاربة، لها صفات، «عشتار أربل»، وكان «عليان بعل» إلهاً عاماً، يجمع كذلك في شخصيته كل الآلهة، ومن أسمائه كذلك «إل»، وهو «إلوهيم» عند اليهود.

وهكذا يبدو الارتباك واضحاً في صلات النسب، وفي ماهية هذه الآلهة جميعاً، فالمعبود أو الإله إنما يتكرر في أكثر من مظهر، وفي أكثر من موضع، فهو «ابن» مرة، وهو «أب» مرة أخرى.

= ـ ١٠٩، محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية ص ١٤٠ ـ ١٤٢،

وكذا: R. Dussaud, Les Decouvertes de ras-Shamrd (Ugarit) et L'Ancient Testament, 1914, P. 104.

وكذا: J. Gray, Near Eastern Mythology, London, 1968, P. 80-90.

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ١٥٦، معن عرب: صور ص ١٥١.

ولم يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للآلهات اللواتي يختلسن صفات بعضهن البعض الآخر، فضلاً عن خصائصهن، حتى لتطغى الواحدة منهن على الأخرى، وحتى ليبدين أحياناً، وكأنما الكل في واحدة[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «إيزابيل» ابنة «إيثبعل» ملك صور، وكانت ذا شخصية قوية مسيطرة، فإنها عندما تزوجت «أخاب» ابن «عمري» ملك إسرائيل (٨٦٩ ـ ٨٥٠ ق.م) استطاعت أن تسيطر عليه تماماً، ولقد أثار هذا الزواج معارضة قوية في إسرائيل نفسها، تزعمها النبي «إيلياء»، ذلك لأن «إيزابيل» لم تأت في الواقع لإسرائيل بأفكار الحكم المطلق، الغريبة عن التصور العبري التقليدي عن الملكية فحسب، وإنما حاولت جادة في نقل عبادة البعل من صور إلى إسرائيل، وإحلالها محل عبادة الله (يهوه)، وقد مارست ـ دونما ريب ـ إيزابيل وحاشيتها الصورية طقوس عبادة البعل الصورية في معبد أنشيء من «السامرة» العاصمة ـ وهي سبسطية الحالية، على مبعدة ٩ كيلاً شمال غربي شكيم ـ فضلاً عن المحاولة من إحلال عبادة البعل، محل عبادة «يهوه»[1].

هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة البعل هذه، ومقاومة النبي الكريم سيدنا «إلياس» (إيليا) لهذه الوثنية، قال تعالى «وإن إلياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين، الله ربكم ورب آبائكم الأولين، فكذبوه، فإنهم لمحضرون، إلا عباد الله المخلصين، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على آل ياسين، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين»[3].

---

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٦٨.

(٢) ملوك أول ١٦/ ٣٠ ـ ٣٤، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩١٠ ـ ٩١١، وكذا M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 241 C. Rath, Ashort History of the Jewish People, London, 1969, P. 25.

(٣) سورة الصافات: آية ١٢٣ ـ ١٣٢، وانظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٣١ ـ ٣٢، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٩، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٨٠ ـ ١٨١، تفسير الطبرسي: ٢٣/ =

٣ ـ ملقارت: ـ

ملقارت هو «ملكرت» إله صور، وكلمة «ملقارت» تتكون من كلمتين فينيقيتين، وهما كلمة «ملك» بمعنى ملك، وكلمة «قارت» بمعنى مدينة، أي «ملك المدينة» أو «إله المدينة» وهذا يعني أن «ملقارت» إنما هو ملك المدينة وبعلها ـ أي سيدها ـ وقد شبه الأغارقة «ملقارت» بمعبودهم البطل «هرقل».

وسوف نتحدث عنه بالتفصيل عند الحديث عن المعبودات الفينيقية في قرطاج.

٤ ـ أشمون: ـ

يعد «أشمون» بعل «صيدا» أو سيدها، ولم يكن يحمل لقب «بعل»، وقد قرنه اليونان بمعبودهم «إسكليبوس» الذي يشرف على الشفاء، فضلاً عن خصائص الخصوبة التي عرفت عنه، ومن ثم فهو يعد «إله الطب».

وسوف نتحدث عنه بالتفصيل عند الحديث عن معبودات قرطاج.

٥ ـ داجون: ـ

داجون إله رفيع المقام، مرموق المكانة عند القوم، وقد مُثِّل على قطع العملة ملتحياً ذا خصلات طويلة من الشعر، ويمسك في كل يد سمكة، كما ينتهي نصف جسمه الأسفل على هيئة ذيل سمكة كذلك، مغطاة بالفلوس، ومزودة بالزعانف، ويشير الاسم والصورة إلى الارتباط ببابل، وهو على هذه الصورة ليس إلهاً جديداً، وإنما هو معبود كنعاني قديم.

ولئن صدقنا ما يرويه «فيلون الجبيلي» (حوالي ٦١ ـ ١٤١ م) عند

= ٨٠ ـ ٨٢، تفسير القرطبي ص ٥٥٥٤ ـ ٥٥٥٩، تفسير القاسمي ١٤/٥٠٥٩ ـ ٥٠٦١، تفسير الطبري ٢٣/ ٩١ ـ ٩٦، تفسير روح المعاني ٢٣/ ١٣٨ ـ ١٤٢، أبو الحسن الماوردي: أعلام النبوة ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٥٢، الثعلبي: قصص الأنبياء، المسمى عرائس المجالس ص ٢٢٣ ـ ٢٢٩.

بداية الحضارة الإنسانية في المأثورات الفينيقية، فإنه يرجع إلى المعبود «داجون» كشف الخواص الغذائية للحبوب كما ينسب إليه اختراع المحراث.

هذا ونلتقي في مجموع الآلهة البابلية بمعبود هو «داجون» أو «داكان» يظهر كمؤلف للقانون، هذا فضلاً عن أنة من المعروف في الأساطير البابلية أن أول تنظيم للحياة الإنسانية، إنما يرجع إلى تعاليم يقال إنها من مخالفات كائنات نصف بشرية، ونصف سميكة.

وأما تمثيل الإله على هذه الصورة، ونسبة صفات الحماية الإلهية والرعاية الزراعية له، في صورته كنصف رجل، ونصف سمكة، وهو يحمل أسماكاً في يديه، فقد يشير إلى التفسير اللغوي لكلمة «داجون»، وذلك أن كلمة «داجان» تعني الحبوب، وكلمة «داج» وحدها تعني الأسماك.

وهكذا نرى أنه من الميسور استعارة الواحدة من الأخرى، أو المزج بينهما، مزجاً يُستطاع عن طريقه، تفسير صور المعبود، أو تعليل وظائفه، وإظهار صفاته.

هذا وقد عثر في «رأس الشمرا» على معبد للمعبود «داجون»، ملاصقاً لمعبد «بعل»، ولما كان «داجون» إلهاً للزراعة ـ وخاصة القمح ـ فلعله يصبح أمراً واضحاً تفسير اللقب المعروف لـ «بعل» كابن لـ «داجون».

وتشير بعض ألقابه التي نلتقي بها مثل «داجان تاكالا» في رسائل العمارنة، من «بيت دجن» ـ وتقع على مبعدة ١٦ كيلاً شرقي يافا، ثم عبادته في «أشدود» ـ وهي أسدود الحالية، على مبعدة ٢٩ كيلاً، شمال شرق غزة ـ حيث تنتشر زراعة الحبوب[١].

٦ ـ رشف: ـ

رشف: معبود فينيقي شرقي، نلتقي به في النصوص الميثولوجية

---

(١) صموئيل أول ١/٥ ـ ٢، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٨٢ ـ ٨٤.

لرأس الشمرا، حيث يشار إليه لمعبود فلكي، يحمل آلهة الشمس، وكان «رشف» إلهاً للبرق والضوء، ومن ثم فقد قرن بـ «أبوللو»، ومع ذلك فليس من الواضح أنه يعادل «حدد» (هدد) السوري، و «تشوب» الشمالي، وكان «رشف» يعبد أيضاً في «قرطاج» في معبد يقع فيما بين منطقة الموتى وبيرسا.

هذا وقد امتدت عبادة «رشف» إلى مصر السفلى في عهد الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة (١٥٧٥ ـ ١١٨٤ ق.م)، وهو يوصف في النقوش المصرية بأنه إله حرب نشط، مثل «بعل»، وله قرنا وعل، على غطاء رأسه، وربما يشير ذلك إلى صلته بالصحراء، التي كانت مبعث خوف، كمصدر للضرر، بالنسبة للعالم المستقر في الشرق القديم، ذلك لأن «رشف» ـ شأنه شأن نرجال في بلاد النهرين ـ كان الإله الذي يقضي على البشر كجماعات، عن طريق الأوبئة والحروب.

هذا وقد لقب «رشف» في أحد نصوص رأس الشمر بلقب «سيد السهام» كناية عن صفته الحربية[١].

٧ ـ أدونيس: ـ

أدونيس: هو الصبغة اليونانية لاسم الإله السامي «أدون»، بمعنى «السيد»، وتساوى لفظ «بعل»، بمعنى أنها اسم عام، وقد أشيع اسمه «أدونيس» عند الإغريق فقط، حيث تغيّر اسم «أدون»، بإضافة السين في آخره، إلى «أدونيس»، أي سيدي ومولاي.

هذا وقد أسماه العبرانيون «تموز»، تشبيهاً بإله بلاد الرافدين (تموز) المختص بالحب والإنبات، وأما في مصر، فإن «تموز» يصبح «أوسيرس»، وبهذا الاسم ـ أدونيس ـ أصبح أشهر إله بين آلهة السوريين.

هذا وقد ذكر «دمسقوس» ـ في القرن الرابع الميلادي ـ أن «أدونيس»

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٤.

لم يكن مصرياً، ولا يونانياً، وإنما كان فينيقياً.

وقد دخلت عبادة «أدونيس» بلاد الإغريق، وفي القرن الخامس قبل الميلاد، كانت عبادته راسخة الأركان.

وأما في فينيقيا، فإن قصة أدونيس وعشتاروت ـ سيدة جبيل ـ تركزت في «أفقا» (Aphaccd) ـ عند منابع نهر إبراهيم، والذي عرف بنهر أدونيس، في أعالي لبنان ـ وتقول القصة: ـ

إن خنزيراً برياً هاجم تموز، وأنشب نابه في جسمه، فحُمل وهو ينازع سكرات الموت إلى زوجته عشتاروت(١)، ومنذ ذلك الحين، أصبحت مياه النهر، تصطبغ بدمه عاماً بعد عام(٢).

وعندما يكون «تموز» في العالم السفلي، يذبل النبت على وجه الأرض، ثم يموت، ويظل تموز بين الأموات، إلى أن تنزل عشتاروت إلى العالم السفلي ـ عالم الموتى ـ فتخلصه وتعود به إلى وجه الأرض.

هذا وقد نشأت في «جبيل» ـ على مبعدة ٨ كيلاً من مصب نهر أدونيس (نهر إبراهيم) إلى الشمال شعائر وطقوس، لإحياء ذكرى موته وقيامه، ومنها أن النساء كن يذهبن إلى الحقول، ليفتشن عن أدونيس الميت، وكانت هذه الشعائر تدوم أسبوعاً كاملاً(٣).

وعند قيام أدونيس من الموت، كانت تستولي موجة من الفرح، تشبه الجنون على عُباده من الرجال، وعابداته من النساء، وكانت يقدمن عفافهن

---

(١) هناك على صخرة في قرية «الغينة» ـ على مبعدة ١٩ كيلاً، عن شاطىء البحر، جنوبي نهر إبراهيم (نهر أدونيس) تمثال لتموز، وهو يصارع الخنزير البري.

(٢) هناك شكل آخر للأسطورة يجعل أدونيس يتغير إلى زهرة «شقائق النعمان»، ولفظة «نعمان» كانت تطلق على أدونيس كوصف له، ومعنى «شقائق النعمان» جروح أدونيس، وقد دخلت اللفظة (شقائق النعمان) من السامية إلى السريانية إلى الإغريقية إلى الإنجليزية وتدعى فيها (Anemone).

(٣) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص ١٥٨.

كقرابين، بينما يضحي الرجال برجوليتهم، ويقدمون أنفسهم خداماً، خصياناً، في هيكله[1].

وهناك علاقة وثيقة بين عبادتي أدونيس وعشتار، فقد كان الفينيقيون يعتقدون أن الآلهة كالرجال يحتاجون إلى أنثى، لذلك كان لأدونيس ـ إله الجمال ـ في جبيل حبيبة هي عشتار، وقد كانت عبادتهما، وخاصة أدونيس، شعبية جداً، وخاصة بين النساء، وتصور الأسطورة أدونيس في هيئة شاب، قتله خنزير وحشي، وأن عشيقته عشتار، نزلت إلى طبقات الجحيم، لتنتزعه من الموت[2].

٨ ـ عشتارت: ـ

عشتار هي الإلهة الرئيسية في كل من دولتي بابل وآشور، الذين سموها «عشتار»، وفي مدن الفينيقيين، على سواحل لبنان وفلسطين وسورية، وهي إلهة واحدة في كل هذه المناطق، وإن تغيّر اسمها بعض الشيء، وكذا طقوسها من مكان لآخر.

وهي ربة الأمومة، وأم الربات، وهي نفسها الآلهة «إينانا» عند السومريين (الإلهة الأم العذراء)، وأسماها اليونان «آستارت»، وكانت عبادتها تنطوي على الكثير من معالم الخلاعة، وكانت كاهناتها يتولين الدعارة رسمياً، وكانت عشتار تعبد دوماً مع إله ذكر، وقد انتقلت عبادتها إلى إسرائيل، واستمرت فترة طويلة حتى حرمت نهائياً على أيام يوشيا (٦٤٠ ـ ٦٠٩ ق. م)[3].

وعلى أية حال، فعشتار: هي الصيغة المؤنثة من البعل ـ أي بعلة أو سيدة ـ وأصبح نطق لها ـ فيما يرى البعض ـ «عشترة» ـ أي بالتاء المربوطة

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٥٨.

(٢) فؤاد قازان: لبنان ص ٦٥.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢/٦٢٨.

للمؤنث ـ كما جاء في رسائل تل العمارنة، وفي النصوص اليونانية تنطق «آستارت» (أشتارتيه).

وقد أطلق بنو إسرائيل عليها اسم «عشتوريت» (Ashtoreth) ـ (وجمعها عشتاروت Ashtaroth) ـ كما جاء في سفر الملوك الأول[١]، وهي ـ عند السومريين ـ «أنانا»، وتقوم هناك بدور بارز في الأدب والقصص والأساطير.

هذا ومن المعروف أن التسمية الأكدية «عشتار» (Eshtar)، سامية الأصل، وأن عشتار قد وجدت بصيغ أخرى مقارنة في مناطق متعددة من الشرق الأدنى القديم، منها «عشتارت» (Ashtart) عند الأقوام السامية الشمالية الغربية، و«عثر» (Athr) في رأس الشمرا، عند عرب جنوب الجزيرة العربية[٢].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن البابليين والآشوريين والكنعانيين عبدوا «عشتار» على أنها إلهة أنثى، بينما عبدها العرب الجنوبيون على أنها إلهة ذكر، بل إن الاختلاف في جنسية عشتار إنما وجد كذلك في وادي الرافدين، وفي فترة مبكرة، فمثلاً هناك أسماء سامية ـ فيما قبل العصر السرجوني (Presargonic) ـ يدخل في تركيبها اسم «عشتار» على أنه مذكر مثل «عشتار زوجي» (Ishtar Muti)، ومرة مؤنث مثل «عشتار أمي» (Ishtar Umme)، وربما كان سبب هذا الاضطراب وجود إلهين مختلفين جنساً عند أوائل الساميين الذين استوطنوا بلاد الرافدين، أحدهما مذكر، والآخر مؤنث[٣].

---

(١) ملوك أول ١١/ ٣٣.

(٢) انظر عن «عثر» (محمد بيومي مهران: الحضارة العربية القديمة ـ الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٠.

(٣) فاضل عبدالواحد علي: عشتار ومأساة تمور ـ بغداد ١٩٨٦ ص ٢٨، وكذا:
J. Battero, Les Divinites Semitique Anciennes en mesopotomie, in La Antiche Divinita Semitiche, Rome, 1958, P. 17-63.

هذا وقد جسد كل من الإلهة عشتار في وادي الرافدين، والإله «عثر»[1] في نجمة سماوية ثم عبدا ضمن ثالوث المجموعة الشمسية (الشمس والقمر والزهرة) الذي شاعت عبادته في جنوب الجزيرة العربية.

هذا ويعتقد العراقيون أن عشتار إنما كانت ابنة «سين» ـ إله القمر ـ وأخت «شمس» ـ إله الشمس ـ مما يؤكد نسب عشتار السامي، فضلاً عن علاقتها بثالوث المجموعة الشمسية[2].

ويذهب «صموئيل كريمر» إلى أن السومريين إنما قد أخذوا عبادة عشتار من الساميين ثم أدخلوها في مجمع الآلهة السومرية، تحت الاسم السومري «إنانا» (ملكة السماء)، وهو نعت استعمله السومريون بدلاً من اسمها الحقيقي «عشتار» بمعنى الآلهة[3].

ويعترض الدكتور فاضل عبدالواحد على رأي «كريمر» لأسباب، منها اعتماده على مدلول «إنانا» (ملكة السماء) الذي أعطاه الانطباع بأن السومريين ترجموا إحدى صفات عشتار السامية وصيّروها اسماً سومرياً، مع أن قراءة اسم الآلهة بهذا الشكل (Inanna) أوضح موضع شك، ويذهب «جارب» إلى أن الأفضل شكل (Innin)، وإن كان هذا الرأي تعترضه عقبات لغوية، ومنها أن المعتقدات المتصلة بالإله تموز[4] (دموزي)

---

(١) عثر: هو الإله الزهرة عند العرب الجنوبيين، ويقابل «عشتار» عند البابليين والآشوريين و «عشتارت» عند الفينيقيين والكنعانيين والأحباش، و «عثر» عند السريان، مما يشير إلى عبادته في منطقة واسعة، وأنه كان من الإلهة الكبرى قبل الميلاد (محمد بيومي مهران الحضارة العربية القديمة ص ٣٤٨، وكذا J. Hastings, ERE, II, P. 165).

(٢) فاضل عبدالواحد على: عشتار ومأساة تمور ـ بغداد ١٩٨٦ ص ٢٩.

(٣) S. N. Kramer, Sumero-Akkadian Inerconnections, Rellgions Ideas, Geneve, 1960, P. 272-283.

(٤) إن لفظ «تموز» سومري الأصل بمعنى «الابن الأمين»، وقد سمي الشهر الرابع في السنة السامية باسمه (تموز) وهو الشهر السابع في التقويم الغربي الحديث (يوليو)، وكان هذا النهر يكرس لعبادة تموز (أنيس فريحة: الأشهر العربية وتفسير معانيها =

باعتباره إلهاً للخصب، ومنها أن كتابة اسم الإلهة «إنانا» في أقدم أشكالهم إنما كان من إبداع السومريين[1].

ولعل من الجدير بالإشارة أن كلمة «عشتار» في اللغة الأكدية إنما تفيد معنى «الأم» بصفة عامة، كما تعني كذلك المعبودة الشخصية أو تمثالها، والتي كان الفرد يتخذ منه وسيلة بينه وبين الآلهة الأخرى[2]، وقد اشتق منه الصفة «عشتوريت» (Ishtoritu) بمعنى «المقدسة»، والتي أصبحت من نعوت عشتار.

هذا وكانت هذه الصفة «عشتوريت» (Ishtoritu) تطلق أيضاً على صنف معين من النسوة اللاتي كن مكرسات للخدمة في المعابد ـ مع أصناف أخرى مثل (Kulmashitu) و (Qadishtu) ـ ممن كن يمتهن مهنة «البغاء المقدس» (Sacred Prostitution).

هذا وقد تمتعت عشتار بقسط وافر من الصفات والألقاب التي تشير إلى وظائفها وخصائصها المختلفة، ولعل من أبرز صفاتها، وأكثرها شهرة، أنها إلهة الخصب بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، بما في ذلك من مدلولات على الجنس والتكاثر والحب، كما كانت إلهة للحرب.

وكان يُشار إلى عشتار برموز معينة، من أشهرها حزمة من القصب، ونجمة مثمنة ـ كما سنشير إلى ذلك فيما بعد ـ كما كان الأسد ـ بصفتها إلهة حرب ـ من رموزها، وقد كرس الملك الآشوري «ناصر بال الأول» (١٠٤٩

= ـ بيروت ١٩٥٢ م)، وفي عام ١٩٥٣ م تقدم «جاكبسون» بتفسير جديد لاسم الإله «دموزي» (تموز) مُستمداً من راعي الأغنام والماشية، وهو «هو الذي يعجل بالصغار» أي يقوّيهم، ويكسبهم الصحة، وذلك لأن دموزي ـ في اعتقاده ـ يمثل الموسم القصير للبن في الربيع، وعندما تتوقف الأنعام عن درّه، فهذا يعني موت الإله Th. Jacobsen, the myth of inanna and Bilulu, JNES, 12,1959, P. 160-66.

(١) فاضل عبدالواحد: المرجع السابق ص ٢٨ ـ ٣٢.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣١.

ـ ١٠٣٠ ق.م.) الإلهة عشتار تمثال أسد في مدينة «كالح» (نمرود)(١)، مع نص للإهداء، ودعاء طويل(٢).

وهكذا فالإلهة «عشتار» إنما هي إلهة ترمز إلى الخصب، وقد أضاف الآشوريين والبابليون إليها صفة «إلهة المعارك»، وقد عرفت عند اليونان تحت اسم «أفروديت».

هذا وكان اسم «عشتار» يتردد ـ بصفتها إلهة الحب والجنس ـ في بعض التمنيات التي كانت تقال في المناسبات الخاصة، ومن ذلك ما كان يُقال في اللغة السومرية، لمن هو مقدم على الزواج.

«عسى أن تمنحك إنانا (عشتار) زوجة دافئة الأطراف، تضطجع معك، وعسى أن تمنحك أولاداً أقوياء السواعد، وأن تجد لك منزلاً سعيداً»(٣).

هذا وقد اشتهرت عشتار كذلك ـ عند أهل الرافدين ـ بلقب «سيدة الحرب» (Belet Tahagi) و «سيدة المعركة» (Belet gabli)(٤).

ومن عجب أن تجمع عشتار بين هذه الصفات الحربية وبين صفتها الأولى والرئيسية أي كونها «إلهة الحب والجنس»، ويعلل البعض ذلك بأن

---

(١) كانت «كالح» العاصمة الآشورية الثانية، وتقع على الضفة اليسرى لنهر الدجلة عند ملتقاه بنهر الزاب الأعلى، وعلى مبعدة ٣٠ كيلاً جنوبي نينوى، وعلى مبعدة ٣٥كيلاً جنوب شرقي الموصل،وقد أسسها «شلمنصر الأول»(١٢٧٤ ـ١٢٤٥ق.م.) وأما في التوراة فقد أسسها ذلك الذي تدعوه «نمرود»، وقد قام بعثات بالحفر فيها من أهمها بعثة «ليارد» وبعثه «ملوان» (محمد بيومي مهران: العراق القديم ـ الإسكندرية ١٩٩٠ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

(٢) D. D. Ludtenbill, Ancient Records of Assyrid and Babylonid, Vo., II, New York, 1968, P. 62.

(٣) E. Gordon, Sumerian Proverbs, Philadelphid, 1959, P. 115, 147.

(٤) فاضل عبدالواحد: المرجع السابق: ص ٤٧
وكذا: Tallquist, Akkadische Gotterepitheta, P. 330-338.

عشتار إنما كانت على صلة بحياة الإنسان ـ سواء عندما تفني في خضم المعركة، أو عندما تخلق في لهيب العاطفة واتصال الجنسين[١]، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن ظهور عشتار ـ وهي نجمة الزهرة ـ أحياناً عند المساء، وأحياناً عند الفجر، مما أكسبها بطريقة أو بأخرى صفة التناقض.

وهناك وجه ثالث للنظر، يذهب أصحابه أنه لا يستبعد أن يكون هذا التناقض في شخصية عشتار، إلى التقاء مفهومين متباينين عنها أصلاً، الأول ـ والأرجح ـ أنه الأقدم في وادي الرافدين، يجعل منها إلهة للحب والجنس، والثاني: ولعله من المفاهيم التي جاء بها الساميون، ويجعل منها إلهة للحرب، وبمرور الزمن، ونتيجة لامتزاج المفاهيم السومرية بالسامية الخاصة بالمعبودة «إنانا» (عشتار)، وصفت بأنها ربة الحب تارة، وربة الحرب، تارة أخرى[٢]، وقد ساعدت في طرد الجوتيين من البلاد[٣].

هذا وقد بلغت عشتار ـ على أنها إلهة حرب ـ منزلة كبيرة في عصر الآشوريين، حتى أصبحت إلهة الأمبراطورية الحربية، وحتى أصبحت مدن نينوى وأربيل من مراكزها الرئيسية، وقد عرفت في النصوص المسمارية باسم «عشتار نينوى» و «عشتار أربيل»[٤].

وهناك مجموعة من الأقوال الإلهية (Oracles) ترجع إلى أيام «إسرحدون» الآشوري (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق.م.) أوصت عشتار بها نسوة من أربيل ـ منهن كاهنات ـ الأمر الذي يشير إلى مدى ثقة الملوك الآشوريين في معبودتهم «عشتار» في أمور الحرب، وتحقيق النصر على الأعداء[٥].

---

(١) H.W.F. Saggs, the Greatness that was balglon, N.Y, 1962, P. 333.

(٢) فاضل عبدالواحد: المرجع السابق ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) C.J. Gadd, Asumerian Reading Book, P. 67.

(٤) B. Hrushkd, Das spaibabylonishe L'chrgedichs. Inannnas Erhohung, AROR, 37, 1969, P. 413-522.

(٥) ANET, 1966, P. 449.

هذا وقد اكتسبت «عشتار» شهرة عريضة، خاصة في عصر الدولة الأكدية (٢٣٧٠ ـ ٢٢٣٠ ق.م.)[١] فهم ساميون، وقد كانت عبادتها شائعة بينهم منذ وقت مبكر، ويذكر «سرجون الأول» (٢٣٧٠ ـ ٢٣١٥ ق.م) في حديثه عن قصة حياته[٢] أن عشتار أحبته عندما كان يعمل فلاحاً ذات يوم، وأنها أعطته الملكية ليحكم البلاد، ومن ثم فقد أصبحت وكأنها إلهة الإمبراطورية الأكدية.

هذا وقد استمر ادعاء بعض الملوك بتسليم مقاليد الحكم من عشتار تقليداً سارياً، حتى أننا نرى ـ بعد اندثار الأمبراطورية الأكدية بما يقارب القرون الخمسة ـ الملك «زمري ليم» (١٧٧٩ ـ ١٧٦١) ملك «ماري»[٣] أنه تسلم شارات الحكم من الإلهة «عشتار»[٤].

وفي رسائل العمارنة بعث الملك الميتاني «توشراتا» «عشتار» إلى الفرعون «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق. م) لشفاء الفرعون من مرض ألم به في أسنانه[٥].

---

(١) انظر عن الدولة الأكدية (محمد بيومي مهران: العراق القديم ـ الإسكندرية ١٩٩٠ ص ١١٣ ـ ١٧٠).

(٢) عن قصة حياة «سرجون الأول» (انظر: محمد بيومي مهران: العراق القديم ص ١٢٥ ـ ١٢٧، فاضل عبدالواحد: العراق في التاريخ ص ٧٥، عبدالعزيز صالح: مصر والعراق ص ٤١٦،

وكذا: S.N. Kraner, The Sunmerians, Chicago, 1970, P. 324.

وكذا: C.J. Gadd, CAH, I, Part, 2, 1970, P. 418-422.

وكذا: G. Roux, Ancient Iraq, 1980, P. 145-146.

وكذا: E. A. Speiser, In ANET, 1966, P. 19.

(٣) انظر عن مملكة ماري (محمد بيومي مهران: بلاد الشام ـ الإسكندرية ١٩٩٠ ص ٥٠ ـ ٥٣).

(٤) انظر: G. Contenau, Everyday Life in Babygonid and Assyria, P. 118.

(٥) W.C. Hayes, The Scepter of Egypt, Ii, New York, 1959, P. 209.

وكذا: J.A.Kundtzon, Die El-Amarna Tafeln, I, Leipzig, 1908, P. 178.

وكانت «عشتار» ربة صور الرئيسية، وقد حمل المهاجرون الصوريون عبادتها عبر البحار إلى جميع الأنحاء: إلى قبرص ومالطة وصقلية وسردينيا وقرطاج[١].

وتروي الأسطورة أن «عشتارت» اختفت مرة في الظلام في أول الشهر القمري فلحق بها «ملقارت» إلى الغرب، مفتشاً عنها، ورجع بها إلى صور[٢].

وفي أسطورة أخرى، شاهد الصوريون ذات ليلة في منتصف الليل، شعاعاً ساطعاً، ينتشر في أجواء صور، وينير المدينة، فهبوا من رقادهم متراكضين إلى الشاطيء، وإذا هم أمام صبية رائعة الجمال، تخرج من بين الأمواج، وتنشر معها النور والسرور، كانت تلك هي «عشتارت»، بعد جولتها في المسكونة، ورجوعها إلى الجزيرة المقدسة صور[٣].

هذا ويصف الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) «عشتار» بأنها الإلهة الغريبة، وأنها آلهة الصيدونيين، ونعلم أن عبادتها ـ كما تشير التوراة ـ إنما كانت منتشرة بين بني إسرائيل، «الذين تركوا الرب، وعبدوا البعل وعشتارت»[٤].

وهكذا فقد عرف بنو إسرائيل عبادة «عشتار» كذلك، ورغم أن القوم لم يعرفوا بناء السواري، وربما يفترض أن السواري لم تكن جزءاً من تراث الأحبار الديني القديم[٥]، وعلى أية حال، فإن عمود السواري هذا ـ أو «أشيرة» (Asherah) ـ إنما كان يرمز للإلهة «عشتارت»، ثم نقله

---

(١) انظر: Herodotus, I, 199, Strabo, XVI, I, 20, Baruch, 6, 43.

(٢) معن عرب: صور ص ١٥٤، وكذا: Lexiton, XII, 1896, 108.

(٣) معن عرب: صور ص ١٥٤.

(٤) قضاة ١٣/٢، ملوك أول ٥/١١، ملوك ثان ١٣/٢٣، صموئيل أول ١٠/٣١.

(٥) A.Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, P. 425-426.

الإسرائيليون من جيرانهم، وهكذا وجدت «أشيرة» بجانب «بعل»[١] ـ كما وجدت إلى جانب «يهوه»، وأماكنه المقدسة[٢]، كما في السامرة، وأورشليم القدس[٣].

وظل الحال على ذلك حيناً من الدهر، حتى جاء وقت اعتبرت فيه هذه المقدسات وثنية. لأن التوراة اعتبرت عمود الساري (تمثال السارية) ـ كما في سفر التثنية ـ مسبة لأشير ـ والتي هي عشتارت ـ وكان تكريمها وتقديسها مرتبطاً بعبادة «بعل»[٤].

هذا وقد كشفت الحفريات في فلسطين عن تمثالين للإلهتين، «عشتار» و «إيزة»، ترجع إلى أيام العصر الإسرائيلي[٥]، والتي يبدو أن نساءه الإسرائيليات إنما كن يفضلن الآلهة الغريبة[٦].

وهناك من يذهب إلى أن الإلهة الكبرى الشهوانية «عشتار» التي كان بنو إسرائيل يعبدونها في الأماكن المرتفعة بين الغياض، والتي كانوا يأتون بالدعارات المقدسة تكريماً لها، لم تكن سوى «زهراء بابل عشتار».

وكان لعشتار هذه حظوة عظيمة لدى شعب إسرائيل الشبق، وذلك لما كان لها من شعائر شهوانية وكان لها هياكل على التلال، تحاط بغابات الزيتون، حيث يسمع للحمائم العاشقات، سجع وهديل، وحيث تجلس الفتيات اللاتي يقضين نهارهن في تطريز الخيام للغياض، ولياليهن في قضاء أوطار المؤمنين، الذين يتقاطرون إلى هناك.

---

(١) تثنية ٧/٥، قضاة ٦/٢٥.

(٢) هوشع ٣/٤، ميخا ٥/١٢ ـ ١٣.

(٣) ملوك ثان ١٣/٦، ١٨، ٤٠، ٢١/٧، ٢٣/٦.

(٤) تثنية ١٢/٣، ١٦/٢١، قضاة ٣/٧، ملوك أول ١٥/١٣، ١٨/١٩، فؤاد حسنين: المرجع السابق ص ٢٢١، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤/١٢٣ ـ ١٢٤.

(٥) A. Bertholet, Histoire de la civilisation d'Israel, Paris, 1929, P. 383.

(٦) تكوين ٢١/١٩، ٣٠، ٢٥، وكذا: A. Lods, op-cit, P. 429.

وسرعان ما غدت الدعارة المقدسة تأخذ شكلاً، أشد كراهية، وأكثر اشمئزازاً، عندما أصبح الخصيان ـ وليس الفتيات فحسب ـ يبيعون أنفسهم في ليل الغاب الكثيف وقد نعت الأنبياء هؤلاء وأولئك «بالكلاب».

غير أنه رغم ذلك، ورغم ما كان من حظر نذر أجور هؤلاء الفاسقين ـ أو المأبونيين، كما تسميهم التوراة ـ لم ينفك بني إسرائيل عن مضاجعتهم[1].

ولعل من الجدير بالإشارة أن «عشتار» إنما كانت تلقب كذلك بلقب «ملكة»، وهذا يذكرنا «بملكة السماء» التي تحدثت عنها التوراة في سفر أرميا.

وهكذا أصبحت عشتار، أشهر الإهات الخصب، وصارت باعتبارها «بعلة» أو «سيدة» متصلة بمكان معين، وأصبحت حامية لمدينة، ومن هذه الحاميات «بعلة جبيل» حامية مدينة جبيل[2].

وهناك كتابة أثرية كشف عنها في «بيت شان» ـ وهي الآن تل الحصن، على مقربة من بيسان، وعلى مبعدة ٨ كيلاً غربي نهر الأردن ـ وترجع إلى القرن الثالث عشر ق. م، وتسمى فيها «عشتار» باسم «عنات، سيدة السماء»، كما تظهر «عنات» في لوح من رأس الشمرا (أوجاريت)، كشقيقة لـ «عليان بعل»، وتعطي لقب «العذراء»، وقد بقي اسمها في «بيت عنات» ـ وهي قرية البعنة الحالية، على مبعدة ١٩ كيلاً شرقي عكا ـ و «بيت عنوت» ـ وهي بيت عينون الحالية، على مبعدة ٥ كيلاً شمال شرقي حبرون ـ و «عناتوت» ـ وهي قرية عنايا الحالية، شمال شرقي القدس ـ هذا

---

(١) ملوك أول ١٥/١١، ٢٢/٤٦، ملوك ثان ٢٣/٧، جوستان لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٦٢، ٦٧.

(٢) ملوك أول ١١/٥، ٢٣ إرميا ٧/١٨، ٤٤/١٧ ـ ١٩، ٢٥، فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ١٢٨، عبدالحميد زايد: الشرق الخالد ص ٢٩٢، ملوك ثان ٢٣/١٣.

وكانت الإلهة «عنات ـ عشتار» تهب الحياة وتبيدها، ومن أوصافها البارزة الحب والحرب[1].

هذا وقد اشتهرت مدينة «جبيل» (بيبلوس) بعبادة «عشتار»، كما كانت عشتار صاحبة سيادة قوية في ريف صيدا، أكثر من المدينة نفسها، وآية ذلك العثور على كهوف خصصت لعبادتها في «مقدوشة»، على مقربة من صيدا[2].

وكان الاحتفال بعيد «عشتار» (وجمعها عشتاروت) في الاعتدال الربيعي، في حرارة تكاد تبلغ حد الجنون، وكان يستغرق سبعة أيام، وكان من طقوسه الهامة سعي النساء وراء البحث عن الإله المختفي، وكانت تصحب الاحتفال بالعيد، نغمات الناي ودقات الطبول، الممتزجة بعويل النساء على الإله المختفي «أدوني» (أدونيس)، سيد عشارت الميت.

وكان الكهنة والخصيان يرقصون رقصاً عنيفاً، ويطعنون أنفسهم بالمدى والسكاكين، وقد تغلب الحماسة على البعض، فيخلعون ثيابهم، ويخْصُون أنفسهم، ليهبوا ذواتهم طيلة حياتهم، لخدمة الإله، فإذا جنّ الليل، جاء الكهنة بنور خفي، وفتحوا قبر الإله الشاب «أدوني»، ونودي بأنه قام من الأموات، ثم مسوا شفاه عباده ببلسم في أيديهم، وأسروا لهم وعدهم، بأنهم سيقومون من قبورهم يوماً ما، وعندئذ يعم الفرح الناس، ولا سيما النساء، فينذر بعضهن عفافهن[3].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الدعارة الدينية، أو «البغاء المقدس» (Sacred Prostitution)، إنما نشأ مع عبادة عشتار، ولدينا من تراث الأساطير الدينية في «بابل»[4] ـ على مبعدة ٩٠ كيلاً جنوبي

---

(١) يشوع ١٩/٣٥، ٥٩، أخبار أيام ثان ٦/٦٠، فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) عبد الحميد زايد: المرجع السابق ص ٢٩٢.

(٣) نجيب ميخائيل: سورية ص ٧٨.

(٤) انظر عن بابل (محمد بيومي مهران: العراق القديم ص ٢١٥ ـ ٢١٨).

بغداد ـ ما يشير إلى قيام طبقة تعرف باسم «بغايا المعبد» أو «عاهرات الإلهة».

هذا وقد عرف بنو إسرائيل «الدعارة المقدسة» أو الدينية هذه، فكان هناك مجاميع من الرجال والنساء، قد كرسوا أنفسهم للدعارة المقدسة، وكانوا يعرفون بلقب يحط من قدرهم كثيراً، وهو «الكلاب»، وقد استعيرت هذه الدعارة الدينية ـ كما رأينا ـ من الكنعانيين والفينيقيين، وإن انتشرت كثيراً بين بني إسرائيل[1].

وفي التوراة إشارات إلى «بغايا الهيكل»[2]، ورغم أن الدعارة المقدسة استمرت في بني إسرائيل، حتى إصلاحات الملك «يوشيا» (٦٤٠ ـ ٦٠٩ ق.م)[3]، فقد هاجمها الملكان «أسا» (٩١٣ ـ ٨٧٣ ق.م) و «يهوشافط»[4] (٨٧٣ ـ ٨٤٩ ق.م.)، ثم الأنبياء: عاموس[5] (٧٦٠ ـ ٧٤٦ ق.م.) و «هوشع»[6] (٧٥٠ ـ ٧٢٢ ق.م.).

وعلى أية حال، فلقد كانت «الدعارة المقدسة أو الدينية»، عنصراً من أهم العناصر في عبادة الخصب في بعض المجتمعات القديمة، بل إن «الختان»[7]، وهو عادة سامية إنما يعني ـ فيما يرى البعض ـ[8] التضحية

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل الجزء الرابع ص١٥١، وكذا A. Lods, op-cit, P. 449-450.

(٢) خرقيال ١٨/١٤، ميخا ١/٧، تثنية ٢٣/١٨.

(٣) تثنية ٢٣/١٨ ـ ١٩، ملوك ثان ٢٣/٧.

(٤) ملوك أول ١٥/٢٢، ٢٢/٤٦.

(٥) عاموس ٢/٧.

(٦) هوشع ٤/١٤، وانظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/٩٥٧ ـ ٩٥٨، ٩٨٦، ٤/١٥١ ـ ١٥٢.

(٧) انظر عن الختان (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤/١١، ١٢ جوزيف لويس: الختان ـ ترجمة عصام الدين حفني ناصف ـ القاهرة).

(٨) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص٧٧، ثم قارن، قاموس الكتاب المقدس ١/٣٣٧ ـ ٣٣٨، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/٣١٠.

بجزء من عضو الذكر، لهذه الإلهة[1].

وكانت الإباحية الجنسية مظهراً بارزاً في الاحتفالات الزراعية عند كثير من الشعوب القديمة، وربما كانت عادة تقبيل الذين يحضرون حفلة العرس للعروس من بقاياها، كما أن عادة قص الشعر لا يزال من الواجبات المتبعة عند الراهبات المسيحيات، حين يكرسن أنفسهن للعرس الإلهي[6].

هذا وكان اسم «عشتار» هو الذي تتسمى به الإلهات المحلية المقرونة بالبعليم في الأماكن المرتفعة، التي كان لها تأثيرها وجاذبيتها الخاصة بالنسبة لعقول العبرانيين، حتى أن الأنبياء الإسرائيليين ـ كما رأينا ـ قد اضطروا لمهاجمتها مراراً[2].

ولعل مما يثير الدهشة أن عشتار، إنما كانت تعبد من بعض النواحي، على أنها إلّهة الطهر، وتعبد في نواحي أخرى، على أنها إلّهة الفجور والحب الشهواني، وقد ظهرت عبادتها في صورتها الجليلة في «جبيل» (بيبلوس)، وكما كانت «أشتار ـ ميلتا» تتقبل عباداتها من العذارى في بابل، كانت «أشتار ـ جبلة» تتقبل غدائرهن، كما كن يستسلمن لأول غريب، يعرض عليهن حبه، في جوار الهيكل.

هذا ولم تكن هذه التضحية بالبكارة، عملاً يستهدف التقرب للمعبودة عشتار، بقدر مشاركتها في التهتك، الذي يرجى أن يوحي إلى الأرض إيحاءاً قوياً، لا تستطيع مقاومته، ويضمن تكاثر الإنسان والحيوان والنبات[3].

وعلى أية حال، فلقد كانت عبادة عشتار تعني أيضاً تمجيد إخصاب الطبيعة، وقد عمت عبادتها أماكن كثيرة في العالم القديم كله، فكانت تعبد

---

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٧٧.

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٢٧.

(٣) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٧٨.

في فينيقيا ـ وخاصة في صور وصيدا وجبيل ـ ثم انتشرت من فينيقيا إلى بلاد اليونان، وإيطاليا، كما انتشرت في جزر البحر المتوسط، حتى أقيمت لها هناك المعابد[1].

هذا وقد أحجمت النساء عن دخول معابدها في أول الأمر، ولكن سرعان ما أخذن يتنزهن على شطآن الجزيرة، ليعرضن أنفسهن على أول من يلقين من أجانب وأغراب، ويشير «هيرودوت» إلى أنه إنما كان على النسوة البابليات أن يمارسن الدعارة المقدسة، مرة في السنة على الأقل، ولم يكن يسمح لمن تدخل المعبد، أن تتركه دون أن تسدد دينها، ولم يكن القوم ينظرون إلى المنذورات اللائي يمارسن الدعارة المقدسة، بعين الزراية، وإنما كان من المعروف، أنه كلما كثر زوارهن، كلما كان هذا يرفع من قيمتهن، كزوجات في المستقبل.

وكانت العاهرات يقدمن ما يكسبن من دعارة للمعبد، وكان بعضهن يجمعن بائناتهن[2] من وراء تكريسهن أنفسهن لعبادة عشتار، وأما الزوجات فكن يكتفين بتقديم أنفسهن على أن يسلمن أجورهن إلى خزانة المعبد.

وكانت هناك طبقات مختلفة من هؤلاء البغايا المقدسات، وكان بعضهن في مستوى أعلى من مستوى الزوجات، وكن يقضين نهارهن في التطريز، ولياليهن مع عشاق عشتار وكهنتها[3].

وهكذا يبدو واضحاً مدى الانحطاط الخلقي في هذه الديانة الوثنية

---

(١) .Herodotus, I, 199, Strabo, XVI, I, 20, VI, 2, 6

وكذا: Lucian, 22, 43.

(٢) انظر عن «بائنة المرأة» (الشريقتو) (نجيب ميخائيل: حضارات الشرق القديم ٦/٧ ـ ٨، ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين ص ٩٠).

(٣) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٧٩،

وكذا: R.Dussaud. op-cit, r. P. 365-366.

وكذا: O. Eissfeldt, op-cit, P. 79-84.

المنحطة، ومن ثم فهي لا تقدم ديناً، ولا خلقاً، ولا تحمي عرضاً ولا شرفاً، بل إنها إنما تجعل إباحة العرض، وشيوع الفسق والفجور، سبيلاً إلى رضى الإلهة.

ومن فضل الله تعالى على مصر ـ كنانة الله في أرضه ـ أنها لم تعرف هذا النوع الدنيء من الديانة، التي تجعل من الزنا فضيلة، ومن أماكن العبادة مستقراً للفاحشة.

٩ ـ عبادة الكواكب: ـ

هذا ومن المعروف أن الديانة الفينيقية إنما قد عرفت كذلك «عبادة الكواكب»، فقد كان للشمس والقمر مكان محدد، على نحو ظاهر بين القوى الطبيعية المختلفة، التي كانت تؤلهها كنعان وفينيقيا، ويرجع هذا إلى نسبة خصائص الشمس والقمر إلى آلهة أخرى، على أنه من المقطوع به أن أهمية الشمس والقمر، إنما كانت تقل شيئاً فشيئاً بين الشعوب السامية.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الشمس في «أوجاريت» (رأس الشمرا) إلهة أنثى ـ كما كانت كذلك في جنوب الجزيرة العربية ـ وفي نفس الوقت، إنما كانت إلهاً ذكراً عند بقية الشعوب السامية[١].

هذا وقد حملت الشمس في نصوص أوجاريت لقب السيدة «ربت» و «مصباح الآلهة»، وأما القمر، فقد حمل في هذه النصوص لقب «منير السماوات»، كما يتحدث أحد هذه النصوص (في أسطورة نكل وكثرت) عن زواج القمر (يرح) من الإلهة «نكل»[٢].

بقيت الإشارة إلى أن الكنعانيين والفينيقيين إنما قد عبدوا آلهة عدة، أخذوها عن المصريين والبابليين، وهنا يتجلى الطابع المركب التوفيقي

---

(١) موسكاتي: المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢) موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٧٤.

وكذا: O. Eissfeldt, op-cit, P. 85-86.

الذي تتسم به حضارتهم، وقد حدث ارتباط واندماج فيما بين الإلهة الكنعانية الفينيقية وآلهة اليونان[1].

١٠ ـ الآلهة الفينيقية في قرطاج

لا ريب في أن العبادات في قرطاج إنما تشبه إلى حد كبير، تلك التي في فينيقيا ـ حيث نشأت أصلاً ـ وأما أهم المعبودات القرطاجية فهي: ـ

١ ـ بعل حمون:

يعد «بعل حمون» هو الإله الأعلى في العالم الفينيقي الغربي، حيث عرف بهذا الاسم، وأما في فينيقيا فهو «بعل»[2]، وأما معنى اللقب «حمون» لبعل القرطاجي فهي «الناري»، ويعبر عنه بشكل الشمس، وقد

---

(١) سبتينو موسكاتي: المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢) بعل: هو أبرز الآلهة «الكنعانية ـ الفينيقية»، ومركز مجموعة أخرى من الآلهة، وكلمة «بعل» معناه في الأصل «سيد»، ولهذا أمكن إطلاقه على آلهة أخرى، ولكن «بعل الأكبر» كان إله العاصفة والبرق والمطر والإعصار كالإله «حدد» (هدد) عند البابليين والأراميين، وتشير بعض الأساطير إلى أنه ابن «إيل» و «عشيرة البحر» بينما تشير أساطير أخرى إلى أن زوج عشيرة هو «أدد» المعروف باسم «بعل» أو «السيد» أو «أدون» رب الرعد والعاصفة والبرق، ومن ثم فهو إله خصب وإخصاب.

ويوصف «بعل» في بعض النصوص بأنه أقوى الأبطال، وهو الأمير (زبل، بعل، بول إله عقرون في التوراة) وهو أحياناً الشمس التي تضيء وأما اسمه «أدد» (حدد = هدد) فيشير من الناحية اللفظية إلى الرعد وأمطار الشتاء، تعبيراً عن مظهر القوة، ولكنه لم يظهر إلا بصورة ثانوية كإله للزراعة الناتجة عن المطر، وهو يوصف كأنه محارب صغير يبدو في دثارة القصير مسلحاً ببلطة الحرب وحربة البرق، وعلى غطاء رأسه قرنا ثور، إشارة إلى قوة إخصابه.

وهناك إشارة تتعلق بصفات «بعل» فيما يختص بالخصب والزراعة، وهو ما تزال موضع خلاف، في تفسيرها وترجمة جزئيات منها، فضلاً عن الخلاف حول أسماء الآلهة، بل أن هناك من يرفض وجود ابن للإله بعل يسمى «عليان»، ويفسرون اصطلاح «عليان بعل» (عاليان بعل) بأنه صفة للإله بمعنى الرفيع أو العالي، وليس اسماً لابن بعل، وأما الأسطورة ذاتها فتدور حول صراع بعل وابنه عليان ضد =

شبه في العصور الرومانية بالمعبود «ساتورن» (Saturnus)[(١)] وقد أورد «هنو» (Hanno) وغيره ذكر معبده في «قرطاج»، وربما اقترن قبل ذلك بالمعبود «زيوس» (أب هرقل/ ملقارت)، ذلك لأن المعبود الرئيسي الذي كان يذكر، فيما يتصل بقسم «هانيبال» عن العداوة المستعرة الأوار ضد روما، كان هو «زيوس» الذي تم القسم أمام محرابه. هذا وكرست لوحات تذكارية فينيقية غربية للمعبود «بعل حمون» و «تانيت بيني بعل» معاً، وهو يبدو فيها أقل الاثنين شأناً، ومع ذلك فهو يظهر وحده في لوحات أخرى، ومن الطبيعي أن يوجد له (أي بعل حمون) معابده ومحرابيه على جبل «بوقرين» (الذي يشرف على قرطاج عبر الخليج)[(٢)].

= المعبود «موت» (وهو عند فيلون بمعنى الموت، وعند ديسو بمعنى البطل المحارب) الذي يسمى حرارة الصيف، ويبدأ الصراع ببعل قوياً قبل وصول موت، فيرسل الصواعق والمطر مدراراً، فضلاً عن الرياح والأعاصير، كما يحدث في شهر شباط، غير أن سلطان بعل سرعان ما ينهار أمام قوة «موت» الذي يأمر بأن تسود الحرارة والدفء، وهكذا يموت بعل أولاً، وينزل إلى باطن الأرض ويبقى ابنه عليان (عاليان) بمفرده بعض الوقت، متمثلاً في الثمر على الشجر، تحت وطأة حرارة الشمس القوية، وأخيراً يضطر عاليان إلى السقوط واللحاق بوالده داخل الأرض، ولكنه قبل وفاته يلتقي بأخته وزوجته «عينات» (عين أو نبع الماء) واجتماعهما يمثل الربيع، وتبحث عينات عن أخيها حتى تجده تحت الأرض فتخرج جسمه وتذهب به إلى قمة جبل «سافون»، حيث تدفنه وتضحي من أجله، ثم تفتش عن موت وتسأله أن يرد أخاها إلى الحياة، فيرفض فتقتله، وتصف النصوص مشهد مقتله متمثلاً في سنابل القمح التي تنضجها حرارة الصيف، ثم تعيد أخاها إلى الحياة، وتستأنف الدورة الزراعية سيرتها من جديد (انظر: نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٦٨ ـ ٧١، محمد بيومي مهران ـ المدن الفينيقية ـ بيروت ١٩٨٩ ص ٢١٥ ـ ٢١٨، ج. كونتنو: المرجع السابق ص ١٠٤ ـ ١٠٩، محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية ص ١٤٠ ـ ١٤٢،

وكذا. R. Dussaud, les Decouvertes de Ras-Shamra, (Ugarit) et L'Ancient Testament, 1914, P. 104.

J. Gray, Near Eastern Mythology, London, 1968, P. 80-90.

(١) جيهان ديزانج: المرجع السابق ص .

(٢) نجيب ميجائيل: المرجع السابق ص ٧٣ ـ ٧٤.

وربما كان «بعل حمون» إنما يمثل اندماج بعل أفريقي شرقي باله أفريقي (ليبي) قريب الصلة بالمعبود «زيوس أمون»، ومن هنا اتجه البعض إلى اعتبار «بعل حمون» (Baal Hammon) (ويدعى أحياناً «بعل عمون») ذي صلة بالمعبود المصري «أمون»، وربما أمكن تأييد هذا الاتجاه على أساس أن الإله أمون قد انتشرت عبادته في شمال أفريقيا، وقد عثر الباحثون على رسوم لأكباش مقدسة على رأسها قرص الشمس في ليبيا والجزائر، ويمكن اعتبارها تماثل الكبش المصري المقدس الذي يرمز للإله أمون في العاصمة المصرية طيبه (الأقصر)، مع اختلاف في نوع الكبش وشكله، ومن ثم فربما تأثرت قرطاج بهذا المعتقد المصري وظهوره مع الآلهة الأخرى الفينيقية والليبية، وربما يرجع هذا الاندماج إلى العصر الفينيقي نفسه باتخاذ المعبود بعل الفينيقي مع المعبود أمون المصري، الأمر الذي أدى إلى ظهور «بعل حمون» الذي يحمل الصفتين الفينيقية والمصرية، والذي صور في عدة أشكال، منها ذلك الشكل الذي يصوره على هيئة إنسان جالس على عرشه، وبجواره تمثال لأبي الهول المجنح، وأحياناً يحمل قرني كبش، هذا فضلاً عن أن قرص الشمس المجنح، والمصري الأصل، إنما كان من الرموز المتصلة بهذا الإلهة.

وعلى أية حال، فإن المعبودات الفينيقية ـ بصفة عامة ـ إنما ترادف أو تماثل قوى إلهية أخرى تناظرها في العقائد المختلفة، فالإله «بعل» الفينيقي، يرادف في العقائد العراقية القديمة المعبود «أداد»، و «ملقارت» إله مدينة صور، يماثل الإله اليوناني «هيراقليس»، و «داجون» الفينيقي يقترب من «أوناس» البابلي و «أشمون» يرادف «أسكليبيوس» اليوناني[1].

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ٢٥٧، ٢٠٩ ـ ٢١٢، ج. كونتنو: المرجع السابق ص ١٢٠ ـ ١٢١، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٥، وكذا. E. Drioton, G. Contenau and j. Duchesne - Guillemin, Thc Religions of The Ancient East, London, 1959, P. 76-78.

٢ ـ تـانيت:

برزت «تانيت» (Tanit) في القرن الخامس قبل الميلاد، كمعبودة شعبية، وقد اختلف المؤرخون في أصل هذه المعبودة، غير أن عدم الإشارة إليها في نصوص رأس الشمرا وصور وغيرها، إنما يؤكد أنها غير فينيقية كما أن أسمها الليبي، فضلاً عن عبادة البربر لها، إنما يدل على أنها بربرية الأصل، وعلى أية حال، فهي إلهة الإنتاج والخصوبة عند القرطاجيين، وقد رمز لها بامرأة ترضع طفلها، كما مثلت على هيئة مثلث يمثل الجسم واليدين ودائرة تمثل الرأس، كما مثلت في أشكال أنثوية تحمل أسلحة، مع ارتفاع ذراعيها، تمثيلاً بسيطاً على مئات من اللوحات Stelae في قرطاج وغيرها، ولعل اهتمام البربر بآلهة أنثى ـ بدلاً من إله ذكر ـ إنما يرجع إلى أن المجتمعات القبلية ربما كانت تعطي أولوية خاصة للمرأة، الأمر الذي يجعلها رمزاً للقوى الكامنة في ظاهرة الإخصاب.

وأياً ما كان الأمر، فلقد توافق انتشار عبادة «تانيت» مع التوسع الروماني في أفريقيا، وقد طبق الرومان هويتها على هوية (جينون كويليستس = Junon Coelestis)، لأنها تبرز مظاهر الإخصاب، فهي تدين بالكثير للمعبودتين الإغريقيتين «هيرا» و «ديمترا»، وقد عثر لها على معبد في «نورا» ومجموعة ضخمة من اللوحات والأواني الجنازية[١].

٣ ـ عشتـارت:

عشتارت أو عشتار (وجمعها عشتاروت) هي الصفة المؤنثة من البعل، أي بعلة، أو السيدة، وأصح نطق لها، فيما يرى البعض «عشترة» (بالتاء المربوطة للمؤنث) ـ كما جاء في رسائل العمارنة ـ وتنطق في النصوص اليونانية «أشتاريته»، وقد أطلق العبرانيون عليها ـ كما في سفر الملوك الأول من التوراة ـ[٢] «عشتورت»، وليس هناك من شك في أن

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩،

وكذا: B. H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 129-130.

(٢) ملوك أول ١١/٥، ٣٣، كما أطلقت عليها التوراة ملكة السماء (أرميا ٧/١٨، ٤٤/١٧ ـ ١٩، ٢٥).

عبادة عشتا هذه إنما انتقلت إلى قرطاج عن طريق الفينيقيين.

٤ ـ أشمـون:

أشمون هو في الأصل بعل مدينة صيدا وسيدها، ولم يكن يحمل لقب بعل، وقد قرنه اليونان بمعبودهم «أسكلبيوس»، الذي يشرف على الشفاء، هذا فضلاً عن خصائص الخصوبة التي عرفت عنه، ومن ثم فهو ـ في نظرهم ـ إله الطب، وعلى أية حال، فإن اشتقاق اسم «أشمون» غير معروف على وجه اليقين، ويذهب «ليدز بارسكي» إلى أنه صيغة مشتقة من «شيم» بمعنى الاسم الأعظم، و «شيم» من الألقاب المقدسة التي بطلت عندما ظهر لقب «أشمون»، ومن ثم فلفظة أشمون إنما هي مجرد صفة كمعظم الأوصاف التي تطلق على البعول الأخرى[(١)].

هذا وقد كشف عن معبد أشمون في صيدا عام ١٩٠١ م، على الضفة الجنوبية من نهر «أوالي» على مقربة من مصبه في بستان الشيخ[(٢)].

وهناك ما يشير إلى أن أشمون إنما قد أصبح معبوداً أكثر قوة في قرطاج، ولعله قد فاق المعبود «ملقارت» نفسه، فلقد وقف القرطاجيون في دفاعهم الأخير عن مدينتهم في عام ١٤٦ ق.م، عند معبد أشمون الذي كان في قلعة المدينة، أو في منطقة بيرصة (Byrsa) ـ أقدم جزء في قرطاج ـ[(٣)].

٥ ـ ملقـارت:

ملقارت هو «ملكرث» معبود صور، وكلمة «ملقارت» تتكون من كلمتين فينيقيتين، هما «ملك» بمعنى «ملك»، و «قارت» بمعنى «مدينة» أي «ملك المدينة أو إله المدينة»، وهذا يعني أن «ملقارت» إنما هو ملك المدينة وبعلها، أي سيدها، وقد شبه الأغارقة ملقارت بهرقل، هذا، وطبقاً لنقش من مالطة، فلقد لقب «ملقارت» بلقب «بعل صور»، وقد انتشرت

---

(١) Lidbarski, in Encyclopaedia of Religion and Ethics, IX, 892.

(٢) D. Baramki, Phoenicia and Phoenicians, Beirut, 1961, P. 109.

(٣) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٨٥.

عبادته من صور إلى قبرص ومصر وقرطاج وغيرها[1].

هذا وكان ملقارت في الأصل معبوداً شمسياً، ثم سرعان ما أكتسب خصائص بحرية بعد أن انتقل عبر البحر غرباً، وقد ظهرت عبادته في أكثر من مكان في الغرب، فظهرت في «جاديس» (كاديز ـ قادس)، حيث كان له معبد أسسه فينيقو صور منذ القرن الثاني عشر، وقد قدم لنا وصفاً له في القرن الأول الميلادي الكاتب «سليوس إيتاليكوس»، ويشير إلى قيام العبادة فيه عن طريق كهنة على النمط الفينيقي، حفاة الأقدام، يرتدون الكتان، وأن النار به إنما كانت شعلة دائمة، وإن لم يكن به تمثال عبادة، كما كان لملقارت معبد آخر على مقربة من «لكسوس» على شاطىء المحيط الأطلسي.

ويرجح الباحثون أن «ملقارت» هو المعبود الذي كان يضحي له بالأطفال تحت اسم «مولوخ» أو «مولك» (الملك = الإله الرهيب)، وكان القوم حين يحز بهم الأمر، يضحون بأطفالهم، فيحرقونهم أحياء، تقرباً له، كما حدث أثناء حصار قرطاج في عام ٣٠٧ ق.م (وربما في عام ٣١٠ ق.م)، حيث أحرق على مذبح الإله الغاضب مائتاً غلام من أرقى الأسرات، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تغطي على صراخ الأطفال وهم يحترقون في حجر المعبود، وقد عثر في قرطاج على جبانة واسعة تضم جثثاً لأطفال معظمهم دون الثانية، وإن كانت هناك قلة ضئيلة تصل إلى عمر الثانية عشرة.

هذا وقد عثر في بعض مزارات ملقارت على البقايا المحترقة لهؤلاء الأطفال مدفونة في جرار، ومن المعروف أن تمثاله كان صنماً من النحاس المجوف تشعل فيه نار حامية، ثم تقدم له الذبيحة البشرية، كما عثر على

---

(١) R. Dussaud, les religions des hittites et des Hourites, des Phoeniciens et des Syriens, Paris, 1949, P. 365.

G. A. Cooke, A Text-Book Semitic Inscriptions, Oxford, 1903, P. 74.

نظائر لهذا المكان في «نورا» أو «نوري» (Nora - Nurri)، وفي «موتيا» (Motya - Mozia) وفي جهات أخرى في الشمال الأفريقي، مثل «سوسة» (حضرو متوم = (Hadrumatun))، حيث وجد أحد هذه الأماكن، ويضم طبقات متعددة، ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك معبودات من الدرجة الثانية عند القرطاجيين، لعل من أهمها: أدونيس: وقد شبهه الرومان بمعبودهم مركور، واسم أدونيس مشتق من كلمة سامية معناها «سيد»، وهي كلمة «أدون» التي نجدها في العبرية والفينيقية والأوجاريتية، والأصل في أدونيس هو «أدوني» (سيدي) فحرف في اليونانية واللاتينية إلى أدونيس Adonis[٢].

وهناك «بس»، وهو قزم مشوه الخليقة شنيع، نجد له أمثالاً في آسيا الصغرى ومصر[٣].

وهناك «جوبيتر أمون» ـ كما أشرنا من قبل ـ وهو معبود أفريقي، وقد اختلط الاسمان فيما بعد، حتى اتخذ «جوبيتر أمون» الأفريقي شخصية «زيوس كويليستيس» عن طريق بعل حمون، ثم اختلطت الخصائص، مع أن الاسمين في الواقع لمعبودين مختلفين، كما يدل على ذلك هجاء اسمها الأصلي، غير أن حروف «بعل حمون» لم تلبث أن نسيت، وشاع رسم الاسم خطأ باسم «بعل أمون»[٤].

---

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) انظر: W. R. Smith, Lectures on The Religion of The Semites, London, 1827, P. 68, 411.

E. Dharme, Les religions des Babyloine et d'Assyrie, Paris, 1949, P. 115,134.

(٣) انظر عن «بس» في مصر (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ص ٣٣١ ـ ٣٣٣،

وكذا: A. E. Budge, The Gods of The Egyptians, II, London, 1969, P. 285.

S. A. Mercer, The Religion of Ancient Egypt, 1959, P. 189).

(٤) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٢٧.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الغالبية العظمى من الأسماء القرطاجية إنما يدخل في تركيبها أسماء الإلهة (Theophoric)، وليس من شك أن ذلك إنما كان بقصد ترضية الآلهة والتبرك بها، وعلى سبيل المثال، فإن «حملقرت» إنما يعني «حبيب ملقارت» ، و «حنبعل» يعني «حبيب بعل»[1].

ولعل من الأهمية بمكان أن نتوقف هنا قليلاً، لنتحدث بإيجاز عن عادة «التضحية البشرية» والتي تعرضت من أجلها الحياة الدينية القرطاجية لنقد شديد من جميع الكتاب القدامى، ومن البدهي أن الحياة الدينية في معظم منطقة الشرق الأدنى القديم قد تعرضت لنفس النقد لممارستها نفس تلك العادة السيئة، عادة التضحية البشرية.

هذا وقد أثبتت الحفريات التي تمت في قرطاج وسوسة وقرطة (قسنطينة)، فضلاً عن عدد آخر من المستوطنات الفينيقية في خارج أفريقيا، أن القرطاجيين إنما كانوا يمارسون تلك العادة السيئة ـ عادة التضحية البشرية ـ ومن هذه المكتشفات أفنية دفن مقدسة تضم الجرار والعظام المتكلسة للأطفال، وتتميز بلوحات تذكارية إشارة إلى تقديم القرابين عموماً إلى «بعل حمون»، ولكن غالباً ما كانت تقدم أيضاً إلى «تانيت».

وطبقاً للمصادر المتاحة ـ وهي على أية حال ليست فوق مستوى الشبهات ـ فإن الضحايا إنما كانت في أغلب الأحايين من الرجال، وكانت سنوية وإجبارية على العائلات البارزة، ومن المؤكد أن هذه العادة السيئة اندثرت في فترة ما، غير أن حادثاً ـ كحصار قرطاج عام ٣١٠ ق.م ـ إنما يدل على أنه كان من الممكن إحياؤها في أوقات الأزمات، عندما كان يعتبر تجاهلها سبباً في غضب الآلهة، وليس هناك من ريب في أن العقائد الدينية القرطاجية إنما كانت تؤكد على ضرورة تهدئة القوى الإلهية المتقبلة

---

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٥.

واسترضائها، فضلاً عن الحصول على النصر في الحروب، والرفاهية في المجتمع الدنيوي[1].

وفي الواقع، رغم أن القرطاجيين إنما نقلوا هذه العادة عن الفينيقيين، فالأمر الذي لا شك فيه أن كثيراً من مجتمعات الشرق الأدنى القديم إنما قد عرفت عادة «التضحية البشرية» التي كانت تقدم على مذابح الآلهة الوثنية، وتدلنا حفائر «أور» (تل المقبر الحالية، على مبعدة ١٩٢ كيلاً إلى الشمال من البصرة في جنوب العراق) على قدم تلك العادة، فقد كان السومريون يدفنون ملوكهم، ومعهم بعض حاشيتهم وخدمهم، ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم قد ماتوا على الرغم منهم، فليس منهم من وجدت جثته، وفيها أثر الذبح أو الخنق أو الضرب العنيف.

ويذهب «سير ليونارد وولي» إلى أنهم إنما كانوا يتجرعون باختيارهم عقاراً ساماً يخدرهم ويميتهم، لإيمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة في السماء، كحالتهم في الحياة الأرضية، وقد وجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعاً يشبه رأس الحيوان، والمظنون أن هذا الزي كان مقدمة للذبح الرمزي، وإجراء الشعائر مجرى التمثيل في الاحتفالات العامة، ولا سيما الاحتفال بعيد رأس السنة[2].

هذا وتشير التوراة إلى أن «السفرو إيميين»[3] (أبو حبة الحالية فيما يرى رسام)، إنما كانوا يحرقون بنيهم بالنار، كتقدمات لآلهتهم الوثنية[4]،

---

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٥.

(٢) انظر: عباس العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٧٢

وكذا: Sir L. Wooley, Ur of The Chaldees, London, 1950.

Sir l. Wooled, Excovations at ur, London, 1963.

(٣) انظر عن «السفروايميين» (محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الكتاب الأول ـ الإسكندرية ١٩٧٨ ص ١٦٣).

(٤) ملوك ثان ١٧/ ٣١.

وربما كانوا قد أخذوا هذه العادة عن السومريين الذين سبقوهم في سكنى هذه المنطقة من قبل[١].

وتدلنا مقبرة «حعبي زفاي»، الحاكم المصري في كرما، جنوب الشلال الثالث في السودان، على أيام الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ـ ١٧٨٦ ق.م) على اتباع نفس عادة التضحية البشرية، ومن ثم فإن «جورج رايزنر» الذي كشف عن مقبرة «حعبي زفاي» في كرما في عام ١٩١٤ / ١٩١٥ م[٢]، يقول «أقيمت مأدبة جنازية فخمة ذبحوا فيها أكثر من ألف ثور، دقوا رؤوسها حول النصف الجنوبي للدائرة من الخارج، ثم وضعوا جسد الأمير في الحجرة المقببة، وإلى جانب القرابين، ثم أقفلوا الباب الخشبي، وأما الضحايا فكانوا جميعاً من النوبيين، وكانوا أما أن يخدروهم أثناء الحفل منوماً، أو كانوا يخنقونهم، ثم يحملونهم ليضعوهم فوق أرضية الدهليز، وكان عددهم يتراوح ما بين مائتين وثلاثمائة، من الرجال والنساء والأطفال، ثم وضعوا معهم بعض أوان وقدور، أحياناً نجد سيفاً إلى جانب صاحبه، فضلاً عن حليهم الشخصية...»[٣].

ولم تكن مصر بمنأى عن هذه العادة السيئة، فهناك ما يشير إلى معرفة القوم لعادة التضحية البشرية منذ عصور ما قبل الأسرات، وأثناء عصر التأسيس، وربما يرجع ذلك إلى رغبة الملوك، وربما رغبة الأشخاص المضحى بهم أنفسهم في مصاحبة الملك سيدهم في العالم الآخر، حتى يقوموا على خدمته هناك، كما كانوا يفعلون في هذه الحياة الدنيا[٤]،

---

(١) حبيب سعيد: خليل الله في اليهودية والمسيحية والإسلام ص ١٠.

(٢) G. A. Reisner, in Bullentin of The Museum of Fine Arts, Baston, 13, 1915, P. 72.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص ٢٠٩ ـ ٢١١، مصر ـ الجزء الثاني ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.

J. A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, P. 140.

(٤) أحمد أمين سليم: دراسة تاريخية للحضارة المصرية أثناء عصر الأسرتين الأولى =

والأمر هنا ـ كما هو في العراق أو السودان أو حتى قريب منه ـ فإن هؤلاء الأشخاص المضحى بهم لم يدفنوا أحياء، كما أنه لا يوجد أثر للعنف في جثثهم، وأكبر الظن أنهم قد أعطوا شراباً مخدراً، أو كميات من السم، قبل دفنهم[١]، غير أن المصريين سرعان ما أقلعوا عن هذه العادة القبيحة ـ كما تشير إلى ذلك مقابر عصر التأسيس[٢] ـ والتي هي في أصلها (أي عادة التضحية البشرية) إنما هي عادة أفريقية تسربت إلى الحضارة المصرية في عصور ما قبل التاريخ[٣].

هذا وقد عرف الفينيقيون والكنعانيون كذلك عادة التضحية البشرية، ومن ثم فقد كانت التضحية بالطفل البكر عرفاً جارياً لدى الكنعانيين في العصر العتيق، وفي حفريات «جازر» (على مبعدة ٢٩ كيلاً شمال غرب القدس، ٢٧ كيلاً جنوب شرق حيفا)[٤]، دليل قاطع في هذا الصدد، فلقد وجدت بها عظام أطفال في حالة بلاء بين بين، مودعة في أسس المنازل، وقد احتفظ الفينيقيون بهذه العادة السيئة إلى العصور القريبة، حتى روى «فيلون» الجبيلي النحوي (٦١ ـ ١٤١ م) أنه كان من عاداتهم في حالة الأخطار العامة أن يضحوا بأعز أبنائهم لإبعاد الكوارث عن أنفسهم[٥].

وكان المؤابيون يمارسون عادة التضحية البشرية كذلك، وطبقاً لما

= والثانية ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧.

وانظر: W. B. Emery, Great Tombs of The First Dynasty, II, London, 1954, P. 142-158.

(١) Ibid., P. 142.

(٢) G. A. Reisner, The Development of The Egyptian Tomb, London, 1936, P. 128.

W. M. F. Petrie, Tombs of The Coutries and Oxyshylabas, London, 1925, P. 3.

(٣) R. El-Nadowry, Human Sacrifice in The Ancient Near East, in Publications of The Archaeological Society of Alexandria, 1968, P. 5.

(٤) M. F. Unger, Op. Cit., P. 401.

(٥) ج. كونتنو: المرجع السابق ص ١٤٥.

جاء على الحجر المؤابي[١]، وفي التوراة[٢]، فإن «ميشع» ملك مؤاب قد قام بحملة مظفرة، نجح فيها في توسيع ملكه على مدى خط العرض من الطرف الشمالي للبحر الميت، وإخضاع المستعمرات الإسرائيلية والمدن الخاضعة لإسرائيل في الهضبة الخصبة شمال عرنون[٣]، ثم نهب المعبد الإسرائيلي في «نبو» (خربة المحيط جنوب شرقي حسبان بحوالي ٨ كيلاً) ووهب سبعة آلاف من سكانها إلى المعبودة «عشتار ـ كيموش»، مما اضطر الملك الإسرائيلي «يهورام» (٨٤٩ ـ ٨٤٢ ق.م) إلى طلب العون من دولتي يهوذا وأدوم، ثم القيام بهجوم على مؤاب[٤] الأمر الذي دفع الملك المؤابي «ميشع» إلى أن يضحي بولده البكر لإلهه «كيموش» حتى ينقذه من هذه القوات المتحالفة[٥].

وأما في بلاد العرب، فلقد تبين من مخلفات المدافن في «أم النار» في «أبو ظبي» أنها تضم العديد من الهياكل العظيمة المتكدسة في المدفن المشترك، هذا ويدل وجود الهياكل العظيمة خارج الجدران الخارجية على ظاهرة التضحية البشرية التي تواكب مراسم الدفن، حيث توضع جثث الأطفال الذين يضحى بهم مع بعض في خارج المبنى الذي يضم جثة المتوفى[٦].

---

(١) انظر عن نص الحجر المؤابى وترجمته:

J. B. Pritchard, ANET, 1958, P. 209 F.
W. F. Albright, ANEt, 1966, P. 320-321.
G. A. Cooke, Op. Cit., P. 1-14.
S. A. Cook, Op. Cit., P. 372-373.
M. F. Unger, Op. Cit., P. 756.
R. Dussaud, Le Monuments Palestiniens et judaiques (Misee du Louvre), Paris, 1921, P. 4-22.
J. Finegan, Op. Cit., P. 188-188.

(٢) ملوك ثان ٣/ ٤ ـ ٥.

(٣) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 244-246.

(٤) S. A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, P. 372.

(٥) ملوك ثان ٣/ ٢٧.

(٦) K. Thorvildson, Kumi, 1962, P. 217-218. =

هذا وقد عرف بنو إسرائيل أيضاً التضحية البشرية، وقد استمرت إلى ما بعد عهد موسى عليه السلام (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)[1] ونزول التوراة، ومن ثم رأينا التوراة تحرم على بني إسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قرباناً إلى الآلهة، بل أن التوراة إنما تجعل الرجم عقوبة لمن يقدم ولده قرباناً لإله العمونيين «ملوك»، حيث كان بنو إسرائيل يقدمون له ذبائح بشرية، ولا سيما من الأطفال[2]. ومع ذلك، فقد ظل بنو إسرائيل يقدمون أبناءهم لتحرق على المذابح، كما فعل يفتاح الجلعادي ـ على أيام القضاة ـ فقد نذر للرب «إن دفعت بني عمون ليدي، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون، يكون للرب، وأصعده محرقة»[3]، وهكذا ما أن يعود «يفتاح» من معركته ضد العمونيين منتصراً حتى تكون ابنته الوحيدة، هي أول من يهب للقائه، ومن ثم فقد اضطر ـ وفاء لنذره ـ أن يذبح ابنته قرباناً لرب إسرائيل ـ يهوه ـ بعد شهرين من نصره على بني عمون، فصارت عادة في بني إسرائيل أن بنات إسرائيل يذهبن من سنة إلى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادي، أربعة أيام في السنة[4].

وهكذا بقي بنو إسرائيل ـ وحتى عصر القضاة ـ يمارسون هذه العادة الشنيعة، ربما إيماناً بها، وربما تقليداً لجيرانهم الكنعانيين والفينيقيين والمؤابين وغيرهم، رغم أنها ليست ـ ولن تكون أبداً ـ من شريعة موسى

= G. Bibby, Looking for Dilmun. London, 1970, P. 212.

(١) انظر عن عصر موسى عليه السلام (إسرائيل ـ الجزء الأول ـ ص ٣٥٧ ـ ٤٣٩).

(٢) خروج ٢٢/ ٩، لاويون ١٨/ ٢١، ٢٠/ ٢.

(٣) قضاة ١١/ ٣٠ ـ ٣١، محمد بيومي مهران: إسرائيل: الجزء الثاني ـ الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٦٤٢ ـ ٦٤٥،

وكذا: O. Eissfeldt, in CAH, II, part, 2, Cambridge, 1975, P. 557.
M. Noth, Op. Cit., P. 157-158.

(٤) قضاة ١١/ ٣٤ ـ ٤٠.

عليهم السلام، ورغم أن التوراة طالما نهتهم عنها، بل وجعلت الرجم عقوبة لمن يرتكب تلك الفعلة الشنيعة، مع ذلك كله لم يرعو بنو إسرائيل، بل ظلوا يمارسون عادة التضحية البشرية حتى على أيام الملكية، وحتى عصر النبي أرميا (٦٢٦ ـ ٥٨٠ ق.م) الذي نعي عليهم أنهم «بنوا مرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار»، وحتى عصر «أشعيا الثاني» الذي يقول لقومه من بني إسرائيل: «يا بني الساحرة، يا نسل الفاسق والزانية... أولاد المعصية، نسل الكذب، المتوقدون إلى الاتهام تحت كل شجرة خضراء، القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعاقل[١].

وأما أشهر الأماكن التي كان يمارس فيها بنو إسرائيل عادة التضحية البشرية فهي «وادي هنوم»، تقول التوراة «وبنو المرتفعات للبعل التي في وادي بن هنوم، ليجيزوا بنيهم وبناتهم في النار لملوك، الأمر الذي لم أوصهم به ولا صعد على قلبي، ليعلموا هذا الرجس، ليجعلوا يهوذا يخطىء»[٢]، ويقع وادي هنوم هذا في جنوب أورشليم (القدس) وغربها (وادي ربابة الآن)، ويعرف القطاع الجنوبي الشرقي منه باسم «وادي توفه» أو «وادي القتل)، ولكي يتوقف الناس عن القتل وممارسة هذه الوحشية، فلقد خصص المكان لإلقاء القاذرات وحرقها، ومن هنا عرف باسم «جي ـ هنوم» (ومنها جهنم أو مكان العقاب)[٣].

ولم يكن سكان المغرب ـ قبل الفينيقيين ـ بمنأى عن هذه العادة الوحشية، فقد كان البربر يفعلون ذلك أحياناً، وطبقاً لأبحاث كامبس، فقد كان يقدم للميت ذبائح حيوانية كجواد مثلاً، وأحياناً كانت ترتكب جريمة قتل طقوسي، حتى يتسنى للميت أن يحتفظ بخادم مخلص[٤].

---

(١) أشعياء ٥٧/٣ ـ ٥، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٧٢١ ـ ٧٢٤.

(٢) أرميا ٣٢/٣٥.

(٣) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٨١.

(٤) انظر: G. Camps, Op. Cit., P. 461 F.

بقيت الإشارة إلى أن القرطاجيين إنما قد عرفوا ـ بجانب التضحية البشرية ـ نظام مفصل يشمل مختلف الأضاحي، وكان نظام الكهانة يضم كهنة متفرغين، وآخرين ممن ليسوا في جماعة منفصلة، هذا ورغم اتصال القرطاجيين بمصر، فأكبر الظن، أنهم لم يهتموا إلا قليلاً بفكرة الحياة بعد الموت ـ شأنهم في ذلك شأن العبرانيين الأوائل[1] ـ وكان دفن الجثث ـ كما

---

(١) كانت الديانة الإسرائيلية ـ كما تقدمها توراة اليهود المتداولة اليوم ـ تجهل الآخرة والحياة بعد الموت تماماً، إذ لم يرد في أي موضع من التوراة ذكر لإمكان حياة بعد الموت، مع أن الإيمان بالآخرة يتفق تماماً مع عقيدة التوحيد، ذلك لأن القوم إنما كانوا يعتقدون أن الفرد يخدم الرب ويتلقى بركاته في الدنيا، وعندما يموت بعد عمر طويل مديد خصيب، فإنما هي النهاية، وهذه النظرية الإسرائيلية تتعارض تماماً مع الإصرار الدائم على الحياة الآخرة في كل الديانات السماوية والبشرية إنما يفسرها تحريف اليهود للتوراة، فضلاً عن نظرة العبراني إلى نفسه «كجسد حي» وليس «كروح متجسدة»، ومن ثم فإنه يعبر عن كل قيمة في حدود الحياة التي يعرفها عن طريق جسده في هذه الأرض، فلم يكن التمييز الحيوي عنده «بين الروحي والمادي»، وإنما «الحيوية والضعف» فالرجل الروحي هو «الرجل ذو الروح العالية» المليء بالحياة التي تملؤها قوة الرب بالحيوية، وليس الرجل الروحي الذي يحتقر عالم الحواس، وكان من نتائج ذلك أن يفترض الفرد العبراني أنه بالإمكان خلاص «روح» إنسان ما مع إهمال إخصاب حياته وازدهارها على الأرض، وهكذا فقد العبراني التوافق بين المادة والروح، والأخلاق والدين، وكانت النتائج دائماً وأبداً مدمرة.

وشارك كتبة أسفار الأنبياء ـ بقية كتبه أسفار العهد القديم في عدم الإيمان بالحياة بعد الموت، وإن كان هناك نصان ـ الأول ملحق بسفر أشعيا، والثاني في سفر دانيال ـ ويرجعان ربما إلى القرنين الثالث والثاني ق. م، وليس لواحد منهما تأثير على العقيدة في العهد القديم، ومع ذلك فهما يفكران في البعث بعد الموت، بعد أن كان القوم يعتقدون أن الإنسان يتلقى البركات وحكم الرب في هذه الأرض فقط، وبجسده وأن العودة إلى الأرض هي البعث، لأن الروح تنزل عند الموت إلى عالم سفلي هو «شيول» Sheol، وهو نقيض ما نعني به الضوء والحياة، وشيول منطقة تكاد تقترب من العدم والنسيان، وتنظر إلى البشر كوحوش وتغلق عليهم أبوابها، فسكانها من الأموات مجرد ظلال، يتميزون بالضعف الشديد، وهم منقطعون عن تبعية الرب.

هي العادة المتبعة ـ وكانت محتويات القبور متواضعة، وتضم العديد من المقابر، أقنعة صغيرة غريبة من الفخار، والتي يبدو أن لها مغزاً سحرياً ـ كالتمائم والرقي ـ لدرء الأذى، وطرد الأرواح الشريرة[١]، وأكبر الظن أن القرطاجيين قد عرفوا هذه التقاليد من اتصالهم التجاري والحضاري ـ براً وبحراً ـ مع أفريقيا الزنجية والاطلاع على نماذجها الحضارية والتأثر بها، تمشياً مع طريقتهم في الاستزادة من الحضارات الأجنبية لاستكمال كيانهم الحضاري[٢].

وأما تأثر الفينيقيين بالديانة الإغريقية، فلقد كان القرطاجيون ـ حتى تاريخ متأخر ـ أقل تأثراً، إلى حد كبير، بتلك الديانة، رغم أنهم لم يكونوا على الإطلاق بمنأى عن تأثيرها، فلقد أقرت عبادة «ديميتر» (Demeter) و «كوري» (Kores) رسمياً في قرطاج، ولكن العبادات المحلية لم تتأثر بالديانة الإغريقية على نطاق واسع[٣].

= والرأي القائل أن الإنسان عند الموت كالماء المنسكب على الأرض، كان السبب في أن تنصح التوراة في سفر الجامعة، قراءها أن ينتهزوا كل فرصة ليتمتعوا إلى أقصى الحدود، وهذا يعني أنها تقدم لنا الحياة على أنها سباق مع الزمن، على عكس أسفار الأنبياء التي لم تهتم بقصر الحياة، رغم اتفاقها مع بقية أسفار التوراة في عدم الاعتقاد بحياة أخرى (انظر: تكوين ٤١/٣٨ ـ ٤٥، قضاة ٢/٢ ـ ٢٢، أشعيا ١٤/٩ ـ ١١، ٢٦/١٤ ـ ١٩، أيوب ٧/٩، ٢٦/٥، مزمور ٨٨/ ١٠، ١٠٧/١٨، أمثال ٢/١٨، جامعة ٩/١٠، موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٣٤، محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ص ١٠٢ ـ ١٠٤،

وكذا: S. Freud, Moses and Monotheism, N. Y., 1939, P. 18-29.
E. W. Heaten, The Old Testament Prophets, 1969, P. 134-137.
R. B. Scott, The Relenance of Praphets, 1944, P. 132-134.
G. Anderson, The History and Religion of Israel, 1966.

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٥.
(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ٢١٨ ـ ٢٢٠.
(٣) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٥.

١١ ـ الكهانـة:

كان القوم يخصصون لكل معبد مجموعة من الكهنة للقيام بالشعائر الدينية، وهم «الكوهانيم» ويحمل أكبرهم لقب «رب» بمعنى رئيس، وكان هناك ـ في بعض الأحايين ـ كاهنات.

وكان من بين الكهنة طبقة «العرافين» كما كان للمعبد خدم منهم الحراس، وهم يشبهون «اللاويين»[١] عند بني إسرائيل، ومن بين الخدم، الحلاقون وغيرهم من أهل الحرف، وغالباً ما كان الحلاقون يقومون بحلق شعر كل من يريد أن يتعبد للآلهة.

ولعل من الجدير بالإشارة، أن وظائف الكهنة إنما كانت شرفية، كما كانت وقفاً على بعض الأسر أحياناً، كما كان بالمعبد رقيق مقدس من الجنسين، يقومون بالبغاء المقدس، وهو نظام ـ على أية حال ـ إنما كان يوافق ويلازم عبادة عشتار ـ كما أشرنا من قبل ـ بوصفها إلهة الإخصاب.

هذا ولم يتمكن المؤرخون من معرفة سر وجود هذا النوع من البغاء، الذي يسمونه «البغاء المقدس»، فلقد أنكرته التوراة ـ كما أنكره آباء الكنيسة ـ وقد وجد كذلك عند اليونان[٢].

هذا وتشير بعض نصوص أوجاريت (رأس الشمرا) إلى بعض طقوس التنبؤ، هذا وقد وجدت طائفة خاصة هي «طائفة الأنبياء المحترفين»[٣]

---

(١) اللاويون: كان الكهنوت الإسرائيلي منذ خروجهم من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مقصوراً على هارون ونسله، وبذا أصبحت الخدمات الدينية لسدنة وراثيين من سبط اللاويين، وهو السبط أو القبيلة التي ينتمي إليها موسى وهارون عليهما السلام (تكوين ٢٠/٨، خروج ٢/١، ٤/١٤، ٢٨/٤١، ٢٩/٤٥، عدد ١/٤٧ ـ ٥٤، ثروت الأسيوطي المرجع السابق ص ١٤٩ ـ ١٥٠، محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الجزء الرابع ـ الإسكندرية ١٩٧٩ ص ١٤٣ ـ ١٤٩.

(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٨٦ ـ ٨٧، عبدالحميد زايد: المرجع السابق ص ٣٠٠.

(٣) انظر عن الأنبياء المحترفين (غير أنبياء الله الكرام: (محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ـ الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٦٠ ـ ٧١).

ـ وهم على وجه اليقين، غير أنبياء الله الكرام البررة ـ وليست لدينا المعلومات الضرورية التي تمكننا من فهم مكانتهم ووظيفتهم في الدين الكنعاني الفينيقي، ولكنهم يمثلون مظهراً من مظاهر هذا الدين، له نظير عند بني إسرائيل، يدعو إلى الاهتمام البالغ[1].

ونقرأ في التوراة أن عدد أنبياء البعل أربعمائة وخمسين، وأنبياء السواري أربعمائة في عهد نبي الله إلياس (إيليا) عليه السلام، وعلى أيام ملك إسرائيل «أخاب» (٨٦٩ ـ ٨٥٠ ق.م)[2].

١٢ ـ المعابد:

كانت أماكن العبادة ـ في الأغلب ـ هي الأماكن المرتفعة أو العالية، على مقربة من الأشجار أو الينابيع، وبعبارة أخرى ساحات في قمم الجبال، لها عندهم صفة القداسة.

وعلى هذا النحو كان لمدينتي «أرواد» و«جبيل» معابد في الجبل، عند «بيتوسيسي» و«أفقا» على الترتيب، هذا وقد زار «أفقا» «لوسيان» الكاتب، فقال «ورحلت من بيبلوس في لبنان، إلى مسيرة يوم منها، لأني سمعت أن بها معبداً قديماً لـ «أفروديت» من تأسيس «سينيرياس»، ورأيت المعبد ووجدته قائماً حقيقة».

هذا وكانت معابد «صيدا» قائمة، دونما ريب، على المرتفعات الجبلية المشرفة على المدينة، وكان معبد «أشمون» في وسط المسافة بين

---

(١) انظر عن الأنبياء في الدين الفينيقي، وعند بني إسرائيل (م. ص. سيجال: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل ـ بيروت ١٩٥٨ م، محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء الإسكندرية ١٩٧٩، إسرائيل ـ الجزء الثاني ص ٩١٠ ـ ٩١٣، ملوك أول ١/١٧ ـ ١٨، ١٩/٢١.

وكذا: M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 240-42.

(٢) ملوك أول ١٨/١٩، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/٩١٠ ـ ٩١٥، النبوة والأنبياء ص ٩٤ ـ ٩٨.

قمة التل وقدمه، عند مكان مشرف على نهر «إسكلبيوس»، الذي يجري في قاع الوادي القريب.

هذا ولم يعرف مكان معبد عشتارت في صيدا حتى الآن، مع أن «لوسيان» إنما يؤكد أنه كان حرماً كبيراً[1].

ولعل من الجدير بالإشارة، أن المعابد الفينيقية، إنما كانت بسيطة في أول الأمر، وهي عبارة عن حجرة واحدة، لها باب في ضلعها الطويل، ويحيط بالمعبد سور مقدس، غير مسقوف.

ويقام في مركزه معبد صغير، هو «حرم الإله»، أو معبد صغير، بداخله «بيت إل» (بيت إيل)، أمامه مذبح القرابين.

هذا وقد تطورت فكر المعبد ـ بمرور الزمن ـ فظهرت به عدة عناصر لم تكن تعرف من قبل، من بينها «المذبح الحجري» و «النصب المقدس»، وبجانبه «العمود المقدس»، ثم حجرات تحت أرضية المعبد.

ولا ريب في أن المذبح، إنما هو أهم أجزاء المعبد، وعليه تقدم القرابين، وأما النصب فيرمز إلى الإله، ويقوم إلى جواره العمود، أو الشجرة المقدسة التي ترمز إلى الخصب.

وأما الغرف السفلية، فالغرض منها: التنبؤ والعرافة والعيافة والفأل، ومعرفة وإدراك رغبة المعبود وتحديدها، وكانت توجد بالمعبد «دمى» من البرونز، تمثل المعبود ـ أو تمثل المعبودة العارية، ويداها ممسكتان بثدييها، أو متدليتان إلى جانبها.

هذا وكان يستعاض عن المعابد في القمم العالية من التلال أو الجبال، بجذع وعمود من الحجر المقدس، فيها غناء عن المعبد الكامل، وهذه هي «المرتفعات» أو «الأماكن العالية» (ياموت في العبرية) التي هاجمتها التوراة ـ كما في أسفار الملوك الأول وإرميا وهو شع ـ[2].

---

(1) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(2) ملوك أول ٢/١٣، إرميا ٣٢/ ٣٥، هوشع ١٠/ ٨، نجيب ميخائيل: المرجع السابق =

٣ ـ العالم الآخر:

كان الدفن في فينيقيا على عدة صور، فالفقراء يدفنون في الحقول، أو في جرار فخارية، وأما الأرستقراطيون فكانوا يدفنون في نواويس (توابيت) حجرية على الطراز المصري[١].

هذا وكان القوم يعتقدون في بقاء الروح، بعد موت الإنسان، في حياة ضيقة النطاق، لا حركة فيها، ولا متعة، وإن ظلت الروح على اتصال وثيق بالجسم الذي فارقته، ومصيرها متوقف على مصيره، ومن ثم فقد اهتم القوم كثيراً بالحفاظ على الجسد.

هذا وكانت الروح تعيش على الضفاف أو الظلال، طالما كان الجسم سليماً، موسداً في قبره (منزل الراحة ـ أو منزل الأبدية)، ومن ثم فقد كان الجسد يوضع في تابوت في أعماق بئر، بعيدة الغور، أو في داخل كهف يموّه من الخارج، بحيث يضلل اللصوص.

وكانت تقام إلى جوار المقابر أعمدة جنزية، كما كانت توضع ـ مع الميت أحياناً ـ بعض أدواته ومعداته اللازمة، وأدوات الزينة، الأمر الذي يشير إلى وجود اعتقاد غامض بين القوم، بنوع من الحياة على الطراز المألوف في هذه الدنيا[٢].

وكان القوم يدفنون النساء، ومعهن حبات الخرز، وسائر نواحي زينتهن، كما كان الرجال يدفنون ومعهم سلاحهم، هذا ويشير تابوت «حيرام» الحجري الضخم، والمزخرف بموكب جنازي ـ حيث تظهر النساء الباكيات والخدم الذين يحملون الهدايا ـ يشير كل ذلك إلى رغبة في حفظ الجسد.

= ص ٨٦ ـ ٨٧، فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٣٢.

(١) فؤاد قازان: لبنان ـ بيروت ١٩٧٢ ص ٦٥.

(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٨٧.

وعندما تعلم الفينيقيون «التحنيط»[1] من المصريين، في القرن الخامس قبل الميلاد ـ وكان المصريون قد عرفوه قبل ذلك بخمسة وعشرين قرناً ـ عندما تعلم الفينيقيون التحنيط، مارسه كثير من الأغنياء.

وهناك تأثير مصري آخر، يظهر في عادات الدفن عند الفينيقيين، وهو وجود التوابيت ذات الشكل البشري، وقد اكتشفت توابيت كثيرة من هذا النوع، يظهر فيها رأس بشري، وأحياناً شكل متكىء بكامله على الغطاء، وترجع إلى الفترة فيما بين القرن السادس والثالث قبل الميلاد.

ولعل من أجمل التوابيت الفينيقية، تابوت «أشمون عزز بن تبنيت» ملك صيدا، وهو تابوت على هيئة التوابيت المصرية، ومصنوع من الحجر الأسود، وعلى غطائه نقش من اثنين وعشرين سطراً، وهو أطول نقش عثر عليه حتى تاريخ الكشف عنه في عام ١٨٥٦ م، وأول نقش وجد في مكانه بأرض فينيقيا، على حين وجدت النقوش الأخرى في المستعمرات الفينيقية، والتابوت محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس، كما أن على التابوت كتابه ـ من بين كتاباته ـ تصب اللعنات على من يزعج صاحب التابوت، فضلاً عن التأكيد على عدم وجود كنوز ثمينة مدفونة مع الجثة[2].

هذا وجاء كذلك على تابوت «تبينت»[3]، وقد عثر عليه في صيدا، وقد حنطت الجثة وإن لم يعمر طويلاً، جاء فيه «أنا تبنيت كاهن عشتار، ملك صيدا، ابن أشمونز، كاهن عشتارت، ملك صيدا، أنا ثاو في هذا الصندوق، فأيا من تكون، يا أيها الإنسان، الذي يقع على هذا الصندوق،

---

(١) انظر عن التحنيط في مصر (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الأول ـ الآداب والعلوم ـ الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٤٤١ ـ ٤٥٥).

(٢) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١٣٤ ـ ١٣٥،

وكذا: G. A. Cooke, A Tex-Book of Noth Semitic Inscription, Oxford, 1903, P. 30-40.

(٣) لا يزال اسم «تبنيت» اسم قرية تسمى «كفرتبنيت» جنوب شرقي صيدا، وتقابل في العبرية «تبني» (Tibni) (ملوك أول ١٦/٢١).

لا تفتح قبري، ولا تقلقني، فإن ذلك أمراً منكراً عند عشتارت، فإذا تجاسرت على فتح قبري، وجرؤت على إقلاقي، فليأذن الرب بأن لا يكون لك عقب بين الأحياء، تحت الشمس، ولا مهد للراحة عند الريفائيم»[١].

بقيت الإشارة إلى أن هناك من الباحثين من يرى في كل ما أشرنا إليه آنفاً ما يشير إلى حياة أخرى بعد الموت، وإن لم يكن لدينا من الوسائل ما نحدد به طبيعة هذه العقيدة على نحو دقيق، غير أن المحافظة على الجسد قد لا تعني التفكير في البعث، فليس هناك من النصوص ما يشير إلى ذلك، وإن كانت فكرة البعث بالنسبة إلى الآلهة تدور في أنفسهم، وتدور عليها نظم عبادتهم.

وأما مبعث الإنسان فهو أمر ـ فيما يبدو ـ لم يتناولوه في تفكيرهم، أو هم ـ على الأقل ـ لم يشيروا إليه، فيما خلفوه لنا من نصوص[٢].

بقيت الإشارة إلى أن معلوماتنا عن طقوس الديانة الفينيقية ومراسيمها، ما تزال قليلة ومتفرقة، ومن ذلك أن من يضحى للآلهة، ويدخل باحة الهيكل، كان عليه أن يتطهر، وأن يستبدل ثيابه الدنيوية بأخرى جديدة.

هذا وكانت الخنازير تبعد عن هيكل «ملقارت» لئلا تدنسه بقربها، وليس هناك من ريب في أن هناك أساساً أسطورياً لدعوة الشهر الخامس، الذي يموت فيه الإله (ويبدأ فيه الحصاد) باسم «حزيران»، أي شهر الخنزير[٣].

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٥٢،

وكذا: J. M. Lagrange, Etudes Sur les religions Semitiques, GAbalda, 1905, P. 484.

(٢) موسكاتي: المرجع السابق ص ١٢٩، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٨٨.

(٣) معن عرب: صور ص ١٥٨ ـ ١٥٩،

وكذا: W. Baudissin, Adonis und Esmun, Leipzig, 1911, P. 147.

وعنـد الاحتفـال بمـوت الإلـه، كـان النـاس يحلقـون رؤوسهـم ويضربونها، ويقيمون المناحات، ويعلنون الحداد من جميع الأنحاء، وفي اليوم الذي يرجع فيه إلى الحياة، يقولون: إنه أصبح في السماء.

هـذا وكان القـوم يعتقـدون أن لـلإنسـان نفساً مسؤولـة عـن القسم الحيواني من صاحبها وروحاً مسؤولة عن النواحي العقلية عنده، وكانت النفس في معتقدهم، تبقى مع الجسد عند موت صاحبها، أو على مقربة منه.

وكان الإله يظهر لعباديه كأب أو أم أو أخ أو قريب، وأحياناً كسيد أو ملك، ومن أوصافهم لمعبوداتهم، قولهم: «الإله متعال وعظيم وقوي، وهو يعلم ويعمل، ويسمع ويبني ويعطي، ويرجع إلى الحياة، ويقدر المصير، ويحاسب، وهو عادل ورحيم، يسمع الاستغاثة ويخلص ويحمي، وينقذ ويحرر ويساعد، ويجير ويبارك»[1].

٤ ـ الأصنـام:

يذهب المؤرخون إلى أن الكنعانيين الفينيقيين إنما قد اكتفوا ـ بصفة عـامـة ـ بـالنصـب والعمـود المقـدسين، واستغنـوا بهمـا عـن ضـرورة صنـع الأصنام، والصور والتماثيل الصغيرة البرونزية التي تمثل «بعل» واقفاً، يلوح بالصاعقة بيده اليمنى المرفوعة، كانت شائعة.

هذا وكانت الإلهة تمثل عادة عارية، ويداها على جانبيها، أو تمسكان بثدييها، كما لو كانت تعطي الغذاء. وقد وجدت تماثيل عديدة من هذا النوع، صغيرة، مصنوعة من المعدن أو الطين، وإن كانت ـ فيما يبدو ـ تستخدم في المنازل، وليس في الهياكل.

وكان المتعبد المثقف يعتبر التمثال مسكن الإله، وأما الرجل العادي فقد كان ينظر إلى التمثال، على أنه الإله نفسه.

---

(١) معن عرب: صور ص ١٥٩،

وكذا: R. Dussaud, La religion des Pheniciens, Paris, 1945, P. 385.

وكانت الإلهة السورية «أثارجاتس» ـ في أخريات الألف الثاني قبل الميلاد ـ على هيئة امرأة عارية، ترفع إحدى يديها، ممسكة بساق نبات الزنبق أو بالحيات.

وكانت الإلهة «قادش» تتخذ هيئة امرأة عارية أيضاً، وتقف على أسد، وكان الأسد أو الثور، رمزاً للحيوية والقوة.

على أن اتخاذ «الحية» رمزاً للخصب، إنما كان أمراً غير واضح، فربما كان لأنها تعيش في أحشاء الأرض، وقد كان الأقدمون يعجبون بقدرتها على طرح جلدها بمهارة، ثم تجديد جسمها كل سنة، فضلاً عن إصابة من تعضه بالموت المباشر[1].

---

(١) فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ١٣٠ ـ ١٣٢ (بيروت ١٩٥٨).

الفصل الثالث

الحروف الهجائية والكتابة الفينيقية

يقول: «ول ديورانت»[1]: إن الفينيقيين جديرون بأن تكون لهم مشكاة صغيرة في محراب الأمم المتحضرة، ذلك إن تجارهم ـ في أكبر الظن ـ إنما هم الذين علموا الأمم القديمة الحروف الهجائية المصرية، وإن لم يكن الهيام بالأدب هو الذي وحدّ شعوب البحر المتوسط، وإنما كان سبب وحدتهم الشؤون التجارية ومطالبها.

والواقع أن الفينيقيين اشتهروا باقتران اسمهم بالحروف الهجائية التي ينسب إليهم أنهم أول من تعرف عليها، فقد كان الفينيقيون ـ بحكم وضعهم الجغرافي ـ يحتلون مكاناً وسطاً بين شعبين، استطاعا أن يصلا إلى التعبير عن أفكارهم وتسجيلها بالكتابة، التي برزت في حضارة وادي النيل بالحروف والمقاطع الساكنة معاً، وبرزت في حضارة وادي الرافدين بالمقاطع المسمارية.

وأما أداة التسجيل في وادي الرافدين، فكانت «ألواح الطين»، وكانت في وادي النيل «أوراق البردى» وملفاتها، وكانت أهم السلع التجارية في «جبيل الزاهر» ـ القصبة الدينية في فينيقيا ـ

ومن هنا اشتق اليونان في لغتهم «بيبلوس» (Biblos)، ومن هذه

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ـ الجزء الثاني ـ ترجمة محمد بدران ص ٣١٥ ـ ٣١٦ (نشر الإدارة الثقافية ـ جامعة الدول العربية ـ القاهرة ١٩٥٠).

الكلمة أستقت كلمة «Bible» في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وتعنيان «الكتاب المقدس» (التوراة والإنجيل).

وكانت المقاطع والخطوط المسمارية ـ كأداة للكتابة ـ تتطلب الكثير من الجهد، لغموضها، وصعوبة فهمها، وعدم قدرتها على الأداء السليم، لما يراد التعبير عنه، ذلك لأنها إنما تعتمد على الصور التي تقوم مقام الكلمات ـ في أغلب الأمر ـ ومن ثم فهي لا تستطيع أن تكون وافية بالغرض، من حيث التعبير عن القوة النطقية، أو الأصوات، ولما تطورت ظلت تحتفظ بالعلامات الرمزية، رغم إدخال عدد كبير من المقاطع للتعبير عن الصوت.

وأما الكتابة المصرية بأنواعها المعروفة (الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية)، فقد ظهر بها ٢٤ حرفاً (أربعة وعشرون حرفاً هجائياً)، فضلاً عن المقاطع المكونة من حرفين أو ثلاثة.

هذا ورغم أنها احتفظت بالمخصصات والعلامات الرمزية، غير أن التطور الذي طرأ، بظهور الصور التي تعبر عن الأصوات، ويستطاع عن طريقها، ترجمتها لها، إنما يمكن أن يعد الخطوة الأولى للتبسيط، ولظهور حروف الهجاء، واضحة محددة.

وانطلاقاً من هذا كله، فإن الفينيقيين ـ دونما ريب ـ ليسوا أول من عرف حروف الهجاء، بل إن هناك من سبقهم إليها، واهتدى إلى معرفتها قبلهم، فهم ـ في أغلب الأمر ـ ناقلون، استطاعوا أن يدخلوا بعض التحسينات والإضافات للحروف التي أخذوها، من حيث أخذوا البردى[1].

وإنا لنجد الفينيقيين حوالي عام ١١٠٠ قبل الميلاد، يستوردون البردى من مصر، وكان هذا النبات ذا فائدة لا تقدر، للأمة التي تعني بحفظ السجلات الحسابية ونقلها من مكان لآخر، وذلك لما فيه من اليسر، إذا ما

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٥ ـ ٥٦ (الإسكندرية ١٩٦٦).

وزن بالألواح الطينية الثقيلة، التي كانت تستخدم من العراق القديم.

هذا فضلاً عن أن الحروف المصرية (الهجائية) أرقى كثيراً من المقاطع السمجة التي تستخدم ـ في غير مصر ـ من بلاد الشرق الأدنى القديم.

وحسبنا أن نذكر عن هذه الحروف أن «حيرام» ملك صور، إنما قد أهدى أحد آلهته في عام ٩٦٠ قبل الميلاد، كوبا من البرونز، عليه نقش بالحروف الهجائية.

هذا وقد أراد «ميشع» ملك مؤاب في عام ٨٤٠ قبل الميلاد، أن يخلد مجده فنقش على حجر(1) ـ في متحف اللوفر الآن ـ نقشاً، بإحدى اللهجات

---

(١) كان المبشر الألماني «الأب ف.ا. كلاين» أول من اكتشف هذا الحجر في عام ١٨٦٨ م عند العاصمة المؤابية «ديبون» (ذيبان الحالية على مبعدة ٥ كيلاً شمالي نهر أرنون، وشمالي غربي عراعير)، ولكنه فشل في الحصول عليه، وتصادف وجود الباحث الفرنسي «كليرمونت جانو» في القدس، فعلم بالأمر، وانطلق مباشرة إلى «ديبون» وأخذ هذا الحجر المؤابي، ونقله إلى متحف اللوفر في باريس في عام ١٨٧٣ م.

والحجر المؤابي عبارة عن قطعة من صخور البازلت الأسود (عرضها قدمان وثلاث بوصات ونصف، وطولها أربعة أقدام، وسمكها نصف بوصة) عليها ٣٤ سطراً من الكتابة المؤابية.

وقد أقامه «ميشع» ملك مؤاب، فيما بين عامي ٨٥٠، ٨٢٠ ق.م، وربما حوالي عام ٨٣٠ ق. م، تخليداً لانتصاره على ملك إسرائيل (ربما كان يهورام ٨٤٩ ـ ٨٤٢ ق. م) وإن ذهب البعض إلى أنه كتب بعد موت ملك إسرائيل «أخاب» (٨٦٩ ـ ٨٥٠ ق. م) وربما بعد زوال حكم «بيت عمري» تماماً، على يد «ياهو» (٨٤٢ ـ ٨١٥ ق. م).

ونقش الحجر يعد أقدم نقش تاريخي مكتوب على النمط السامي الشمالي القديم، وأما لغته فهي قريبة الشبه في رسمها وقواعدها باللغة العبرية القديمة، كما أن أسلوب النقش يدل على أن مؤاب لم تكن وقت ذاك، بلداً بدائياً، والأمر كذلك بالنسبة إلى أدوم وعمون والولايات الأخرى.

(انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٥٤، ٩١٨ ـ ٩٢٠)

السامية، مكتوباً من اليمين إلى اليسار، بحروف شبيهة بالحروف الفينيقية[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أقدم ما كشف من كتابات بالحروف الهجائية، لم يكشف في فينيقيا، وإنما في مصر ـ في سيناء ـ فلقد عثر «سير وليم ماثيوس فلندرز بتري» (١٨٥٣ ـ ١٩٤٢ م) في عام ١٩٠٤ م في «سرابيط الخادم»[2] ـ حيث كان المصريون القدامى يستخرجون الفيروز ـ على نقوش لعلامات كتابة جديدة، عرفت باسم «الكتابة البروتوسينائية» أو «كتابة ما قبل السينائية» (Proto - Snaitic Script) أثارت اهتماماً كبيراً بين علماء اللغات.

هذا وقد ذهب «بتري» إلى إرجاع عصر هذه الكتابة إلى حوالي عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ـ أي الأسرة الثامنة عشرة المصرية (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ ق.م)، وأنها نتيجة التأثير الواضح في ثقافة الساميين، الذين احتكوا بالمصريين أثناء استغلالهم لمناجم الفيروز في سيناء[3]، وأن هذه الكتابة قد اشتقت من كتابة مصرية قديمة، لأن علاماتها شديدة الشبه بالعلامات المصرية القديمة، وإن اشتد الجدل حول هذه الكتابة المصرية: هل هي الهيروغليفية أم الديموطيقية.

= وكذا: S. A. Cook Op-Cit, P. 372-373

وكذا: M. F. Unger, Op-Cit, P. 756.

وكذا: J. Finegan, Op-Cit, P. 422

وكذا: G. A. Cooke, Op-Cit, P. 1-14) J. B. Pritchard, ANET, P. 209

وكذا: W. Albright, ANET, P. 320-321.

(١) ول ديورانت: المرجع السابق ص ٣١٦.

(٢) انظر عن «سرابيط الخادم» (محمد بيومي مهران: المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الأول ـ بيروت ١٩٩٣ م.

(٣) W. F. Petrie, Researche in sindi, London, 1906, P. 129-131.

W. F. Albright, The Proto-Sinaitic Inscriptions and Thier Development, P. 12.

وكان للسير «ألن جاردنر»[1] (١٨٧٩ ـ ١٩٦٣ م) ـ العالم الحجة في اللغة المصرية القديمة ـ فضل السبق في اشتقاقها من الهيروغليفية، وأنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة[2]، وربما ـ فيما يرى البعض ـ إلى أيام الهكسوس (١٧٢٥ ـ ١٥٧٥ ق.م)، أو بعد طردهم مباشرة[3]، بل إن هناك من يحاول إرجاعها إلى حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م[4].

وعلى أية حال، فإن هذه الكتابة «البروتوسينائية» ـ أو كتابة ما قبل السينائية ـ ليست بالخط المصري، كما أنها ليست بالكتابة المسمارية المقطعية، وإنما هي حروف هجائية محدودة العدد، استعملت بهيئة صوتية، يمثل كل منها صوتاً خاصاً، وإن لم يكن الصوت الأول دائماً، فهي ـ بهذه الصفة ـ هجائية مقطعية.

هذا ولم يستطع أحد ـ حتى اليوم ـ أن يزعم أنه استطاع أن يحلها حلاً يُطمأن إليه تمام الاطمئنان، وإن كان هناك من يذهب إلى أن هذه «الكتابة البروتوسينائية» «قد انتقلت إلى الفينيقيين، هذا فضلاً عن أن هناك من يذهب إلى أنها قد انتقلت إلى بلاد العرب الجنوبية».

هذا ويذهب «شبرنجلنج» (M. Sprengling) إلى أن «الكتابة البرروتوسينائية» إنما قد انتقلت من سيناء إلى بلاد العرب ـ عن طريق القوافل المحادي لساحل البحر الأحمر ـ حيث نشأت الكتابة العربية الجنوبية، ثم انتقلت هذه الأخيرة إلى الشمال ـ عن طريق القوافل الداخلي، والذي يمر بالمراكز الحضارية المختلفة في «العلا» و «مدائن صالح»

---

(١) A. H. Gardiner, The Egyptian Origin of The Semitic Alphabet In JEA, III, 1916, P. 1-16.

(٢) A. H. Gardiner, JEA, III, 1916, P. 13.

(٣) C. Jean, Les Hytsos Sont-ils LEs Inventerurs de L'Alphabet, Syri, IX, 1928, P. 278-299.

وكذا: W. F. Ablright, in BASOR, 110, 1948, P. 6F-22.

(٤) ول ديورانت: المرجع السابق ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

وغيرهما ـ حيث نشأت الكتابة العربية الشمالية بفروعها المختلفة، وهكذا انتشرت الكتابة السامية في بلاد العرب، ثم خرج منها فرع ـ عبر مضيق باب المندب ـ إلى الحبشة، حيث نشأت الكتابة الحبشية القديمة(١).

هذا وقد أشار «جريمة» إلى أوجه الشبه بين الحروف الثمودية وبين الكتابة البروتوسينائية، فكلاهما تكتب أفقية ورأسية، ولا توجد فواصل في كل منهما، والأمر غير ذلك في الكتابة المعينية والسبئية.

ثم يرى «جريمة» ـ بعد ذلك ـ أن الذين ابتكروا الكتابة الثمودية، إنما هم قوم «مدين»، الذين عاشوا في شبه جزيرة سيناء، إبان النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، وكانوا أقرب الجيران إلى أصحاب «الكتابة البروتوسينائية»(٢).

هذا وقد عثر «بيرتون» ـ على مقربة من وادي عينونة ـ على حجر، عليه كتابة شبيهة بالكتابة السامية(٣).

وقد اتخذ «ليبوفتش» هذه الكتابة الأخيرة ـ حجر وادي عينونة ـ منطلقاً لدراسة، حاول فيها الربط بين الكتابة الواردة على هذا الحجر، وبين الكتابة البروتوسينائية، ثم بينها وبين كتابات الصخور في الصحراء الشرقية في مصر والنوبة.

ثم خرج «ليبوفتش» من دراسته تلك، بأن الكتابة السامية الجنوبية، إنما ترجع ـ في أصولها الأولى ـ إلى كتابة مدين، التي اشتقت ـ أو ارتبطت ـ بالكتابة البروتوسينائية ـ التي اشتقت بدورها من الهيروغليفية

---

(١) Martin Sprengling, The Alphabet, its Rise and Develepment from The Sinaitic Inscriptions, Chicago, 1931, P. 49.

(٢) H. Grimme, Die Losung des Sinaischrift Problems die alt Thamudische Schrift, 1926.
Hans Jensen, Sign Sumbol and Script. An Account of Man's Efforts to Wright, London, 1970, P. 350.

(٣) R. F. Burton, The Gold Mines of Midian and The Ruined Midianite Cities, London, 1878.

المصرية، معتمداً في ذلك على التشابه ببين علامات الكتابة البروتوسينائية، وبين العلاقات التي وردت على حجر مدين.

ثم يرى بعد ذلك، أن هناك شبهاً بين علامات كتابة حجر مدين، وبين علامات الكتابة الثمودية، والكتابة العربية الجنوبية.

ثم يخلص «ليبوفتش» من ذلك كله إلى أن الكتابة البروتوسينائية قد انتقلت، عبر مدين، إلى الجنوب في بلاد العرب كلها، وأنها أصل الكتابة السينائية الجنوبية(١).

هذا وقد عثر على نقوش أبجدية في جنوب فلسطين ووسطها، وأقدم هذه النقوش ما عثر عليه في «جازر» ـ وهي تل الجزر الحالية، على مبعدة ٢٩ كيلاً شمال غرب القدس، وعلى مبعدة ٢٧ كيلاً جنوب شرق حيفا ـ و «شكيم» ـ وهي شرق نابلس الحالية، على مبعدة حوالي ٥٠ كيلاً شمال القدس ـ وترجع إلى القرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد، ولا يزال تفسيرها موضع خلاف.

ولعل أقدم الوثائق الأبجدية التي كشف عنها في فينيقيا، إنما هي وثائق «أوجاريت» ولكنها مسمارية الطابع، وأقدم نقش أبجدي فينيقي الطابع هو النقش المكتوب على تابوت «حيرام» (٩٦٩ ـ ٩٣٦ ق.م)، وبدهي أنه يرجع إلى الألف الأول قبل الميلاد ـ وربما فيما يرى البعض إلى الألف الثاني ق. م ـ وصورة الأبجدية التي كتب بها هذا النقش، تشبه أبجدية النقوش الفلسطينية شبهاً مباشراً، وفيها أيضاً شبه بالأبجدية السينائية(٢).

هذا فضلاً عن أنها إنما تعد المرحلة المتطورة للكتابة بالحروف الهجائية، وتتألف من ٢٢ حرفاً (اثنين وعشرين حرفاً)، هي نواة الكتابة التي

---

(١) L. Leibovitch, Les Inscription Protosinaitiques, MIE, T. 24, 1934, P. 21.

(٢) سبتينو موسكاتي: المرجع السابق ص ١٢١.

اشتقت منها الكتابات الهجائية السامية، وغير السامية، التي تمثلها الفينيقية[1].

وهناك ثمة رواية يونانية قديمة، شاع الإيمان بها في العالم اليوناني، تنسب اختراع الحروف الهجائية إلى الفينيقيين، حيث اعترف اليونان بما نقلوه في قصة «قدموس»، الذي ينسب إليه إدخال ستة عشر حرفاً، ربما فيما بين عامي ٨٥٠، ٧٥٠ قبل الميلاد.

وعلى أية حال، فإننا إذا جردنا قصة قدموس من زخارفها الشعرية، فإنها تشير إلى أن المهاجرين من سورية (فينيقيا) ادخلوا إلى بلاد اليونان الأبجدية، وفن التعدين، وعبادة «ديونيسيوس» ـ إله الخمر ـ.

هذا وقد نقل اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، أبجدية ـ أدخلوا عليها بعض التحسينات ـ إلى الرومان، ومن هذه الأبجدية تولدت معظم الأبجديات الأوروبية[2].

هذا وكان اليونان قد قلبوا بعض الحروف، لأنهم إنما كانوا يكتبون من اليسار إلى اليمين، ولكن حروفهم في جوهرها، هي الحروف التي علمهم إياها الفينيقيون، والتي علموها ـ هم بدورهم ـ أوربا[3].

ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن الأراميين الذين استعاروا كذلك أبجديتهم من الفينيقيين، نقلوها ـ بدورهم ـ إلى العرب والهنود والأرمن، وسائر الشعوب الشرقية التي تكتب بالأبجدية.

هذا وكان من صفات الأبجدية الفينيقية ـ المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً ـ بساطتها، مما جعل فن الكتابة والقراءة في متناول الشخص العادي.

وقد تكون كتابة عرب الجنوب مشتقة مباشرة من الكتابة السينائية

---

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٨.

(٢) فيليب حتي، المرجع السابق ص ١١٦ ـ ١١٧.

وكذا: Herodotus, II, 49, V, 58, VII, 57.

(٣) ول ديورانت: المرجع السابق ص ٣١٦.

ـ كما أشرنا آنفاً ـ والتي لها على الفينيقيين فضل تحقيق المرحلة الابتدائية[1].

وهكذا تجه الآراء الآن إلى أن الحروف الأبجدية، إنما قد أخذها الفينيقيون من المصريين، وقد يكون استعمال المصريين لطريقة قصر القيمة الصوتية لعلامات معينة على الحرف الأول، هو الذي أوحى بذلك الاختراع، فلقد كانت الموانىء الفينيقية أوثق أرجاء سورية وفلسطين اتصالاً بمصر.

هذا فضلاً عن أن أرجح تفسير للنماذج الأصلية، التي أقيمت على أساسها الحروف ـ على فرض أن الحروف نشأت عن نماذج ـ هو التفسير الذي يشتق تلك النماذج من رموز هيروغليفية مصرية، على أساس أن الهجائية وجدت أولاً، في الهيروغليفية المصرية، حيث كانت هناك رموز، تدل على حروف، إلى جانب الرموز المستعملة كلمات أو مقاطع.

وانطلاقاً من كل هذا، فيكمن القول: إن كل ما فعله الفينيقيون أنهم طوّروا الفكرة، واستخدموا الرموز، للدلالة على حروف فقط، أي أنهم جعلوا منها نظاماً أبجدياً تاماً، مؤلفاً من اثنين وعشرين علامة، بدون حروف صوتية، بسبب تأثير الهيروغليفية المصرية، وهكذا حصل ما سموه بحق «أعظم اختراع أتى به الإنسان»[2].

وهكذا يبدو واضحاً أن أصل الأبجدية الفينيقية، التي غيرت معالم الحضارة، إنما قد استمدت من مصر، ومن كتابتها الهيروغليفية،

---

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ١١٨.
وكذا: Herodotus, II, 49.
(٢) سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ـ ترجمة وزاد عليه السيد يعقوب بكر ـ بيروت ١٩٨٦ ص ١٢١.
وكذا: Sabatino Mascati, The Semites in Ancient History, Cardiff, 1959, P. 3.
G. R. Driver, Semitic Writing, London, 1954, P. 95-98, 140-144.

فالمعروف أن المصريين والسومريين إنما قد اخترعوا الكتابة، قبل أن يخترعها الفينيقيون بنحو ألف عام.

وكانت هذه الكتابة تصويرية في أول الأمر ـ مجرد تصوير الأشياء المعبر عنها ـ وكانت تلك هي الخطوة الأولى، وكانت الخطوة الثانية اقتران صوت معين، ونطق معين، بصورة معينة، دون ارتباط بين هذا النطق، وبين ما كانت الصورة تعبر عنه من قبل:

ثم مضى المصريون إلى أبعد من ذلك، بأن خصصوا بعض هذه العلامات لتدل على الحروف الجامدة، وجعلوا هذه الحروف تمثل صوت الكلمة الأولى التي اقتبست منها، وبذلك اخترعوا أبجدية تتألف من ٢٤ حرفاً (أربع وعشرين حرفاً)، ولكن الكتاب المحترفين الذين كانوا يحتكرون هذه الصناعة، ويحتكرون أسرارها، لم يغيّروا من طريقتهم القديمة المعقدة، ولم يعتمدوا على هذه الأبجدية في التعبير عما يريدون، حتى أصبحت هذه الكتابة، أشبه بالألغاز، لا يفهمها إلا من يتقنها، أو يتضلع فيها[١].

---

(١) حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ص ٤٠١ (نشر مكتبة مصر ـ القاهرة).

الفصل الرابع

الفن الفينيقي

يذهب بعض الباحثين إلى أن الفن في سورية وفينيقيا وفلسطين، إنما يمتاز بفقره وجمعه بين عناصر أجنبية، وكان هذا أمراً محتوماً من الوجهة التاريخية، ذلك لأن هذه المنطقة لا يمكن أن تقوم فيها قوة سياسية موحدة، بل إن جزءاً كبيراً من هذه المنطقة ـ ولا سيما فينيقيا ـ لم يكن يهتم أصلاً، بإنشاء مثل هذه القوة، أو حتى إنشاء وحدة حضارية ثابتة، تبعاً لذلك، فقد كان منهكاً في المطامع التجارية[1].

ومع ذلك، فإذا نظرنا إلى بيان الغنائم التي وقعت في أيدي المصريين بقيادة الفرعون «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق.م) ـ في أعقاب «معركة مجدو» في ١٢ مايو من عام ١٤٦٨ قبل الميلاد[2] ـ لهالنا ثراء تلك البلاد، وتقدمها الحضاري في ذلك العهد، فإلى جانب العربات المصفحة بالذهب والفضة، والأواني الذهبية والأسلحة، يذكر الفرعون سبعة قضبان من نوع ثمين من خشب يسمى «مرو»، وكانت مصفحة بالفضة لتحمل سرادقات بعض الأمراء، وكان عدد الماشية التي استولى عليها المصريون ألفين أو تزيد، وكان عدد الماعز ألفين، أما الضأن فكان عددها عشرين ألفاً، فضلاً عن ألفين ومائتين وثمانية وثلاثين حصاناً[3].

---

(١) موسكاتي: المرجع السابق ص ١٣٤.

(٢) انظر عن معركة مجدو (محمد بيومي مهران: أخناتون ص ٢٠ ـ ٣٢، مصر ٣/ ٢٠٣ ـ ٢١٥.

(٣) أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ٢٨٠.

١ ـ المعابد:

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العمارة الدينية الفينيقية، على الأخص في المعابد، ويتألف المعبد الفينيقي عادة من ساحة، توضع فيها صورة الرب ـ إما منفردة وحيدة، وإما مصحوبة بمعبد صغير ـ ويقام أمام صورة الرب مذبح، ولعل خير مثال يمكن أن يُستعرض أجزاءه المختلفة، هو معبد عمريت ـ وهي مدينة فينيقية قديمة، على ساحل البحر المتوسط، وعلى مبعدة ٧ كيلاً، جنوبي طرابلس، وقد ظلت فترة طويلة تابعة لمدينة أرواد، وقد أطلق المصريون على «عمريت» اسم «عمرط»، وأسماها اليونان مارثوس ـ.

ويتكون الجزء الأساسي من معبد «عمريت» من سور مقدس في جنب تل من التلال، ومن ساحة كبيرة داخل السور، وهي منحوتة في الصخر (طولها ٢٥ م، وعرضها ٤٨ م) وكان من نتائج النحت في الصخر، أن جدران السور المجاورة للتل من الصخر، قد ترتفع إلى ٥ م، ويشرف الجدار الشمالي للساحة على نهر عمريت، وفي أطراف الساحة حفرة منحوتة في الأرض، ربما لتكون مبايت لشواهد أو لصور الرب، وأعلى من ذلك في متن الجدار نفسه من الداخل، توجد حفرة أصغر، ذات شكل مربع.

وهناك من القرائن ما يثبت أنه كان يوجد في كل نواحي السور، أروقة بأعمدة من خشب، على الأرجح، ذات سقف محمول على عروق من خشب، وقد ثبتت نهاياتها في الحفرة المربعة، ويوجد في وسط الحوش كتلة صخرية، ارتفاعها ٣ م، وقد نحتت بحيث تصاغ منها قاعدة لإقامة معبد صغير عليها[1].

= وكذا: J. H. Breasted, ARE, II, chicago, 1906, Parag, 435-437, P. 187-188.

وكذا: Urk., IV, P. 664.

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

والمعبد ـ رغم تأرجح تاريخه فيما بين القرن الثامن والسابع قبل الميلاد ـ يدعم نقطة أساسية في تاريخ العمارة الفينيقية، وهي حسب الضخامة، والتعود على الأبنية المنحوتة في الصخر الطبيعي[1]، كلما أمكن ذلك، الأمر الذي جعل سكان «أرواد» يجتالون على ضيق المكان، برفع البناء عدة طبقات، غير أن القاعدة الأساسية إنما كانت النحت في الصخر، وما زلنا نرى في الجزيرة الكبيرة المواجهة لمدينة صيدا، تصميم الأبنية القديمة المقامة على الصخر، واستخدام كتل حجرية ضخمة، لبناء الحيطان، مثبتة تثبيتاً قوياً، بصخور الأرض التي لا تعرف البلى[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الأبنية الدينية في فينيقيا، إنما

---

(١) انظر عن المعابد المصرية المنحوتة من الصخر في بلاد النوبة في عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق.م) على سبيل المثال، وأشهرها «معبد بيت الوالي» ـ على مبعدة ٥٥ كيلاً جنوبي أسوان ـ و «معبد جرف حسين» ـ على مبعدة ٩٠ كيلاً جنوبي أسوان ـ و «معبد وادي السبوع» ـ على مبعدة ١٥٠ كيلاً جنوبي أسوان ـ و «معبد الدر» ـ على مبعدة ٢٠٨ كيلاً جنوبي أسوان ـ وأما أعظم المعابد المنحوتة في الصخر قاطبة فهما معبدا أبو سمبل الكبير والصغير ـ على مبعدة ٢٦٥ كيلاً جنوبي أسوان ـ هذا ويعد معبد أبو سمبل الكبير، أجمل المعابد الصخرية، وأعظمها على الإطلاق، وأكبر معبد نحت في الصخر في تاريخ العالم كله، وأعظم بناء صنعه الإنسان على وجه البسيطة في عصره، كما أنه منحوت كله في الصخر الصلب، في جبل مرتفع، يتقدمه بناء من مؤخرته شرفة مرتفعة يتوّجها الكورنيش المصري، وتقوم على حافتها تماثيل للإله حور، وللملك في صورة «أوزير» وتلي الشرفة واجهة سمقاء شماء، ارتفاعها ٣١ متراً، تبرز فيها أربعة تماثيل عملاقة، هي أضخم تماثيل في العالم كله، وتمثل الملك عمسيس الثاني جالساً لارتفاع ٢٠ متراً، أي ما يقرب من ضعف الحجم الطبيعي ١٥ ضعفاً، وفيما بين التماثيل، وحول سيقان الملك وحولها تقف أم الملك وزوجاته وطائفة من بنيه وبناته، قدت تماثيلهم جميعاً من الصخر، في ضعف الحجم الطبيعي، ومع ذلك فليس واحداً منها يتجاوز ركبة الملك الفرعون.

(انظر: محمد بيومي مهران: مصر ـ الجزء الثالث ـ الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٧٨ ـ ٢٨٤).

(٢) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٨٧.

تتكون في الغالب ـ كما رأينا ـ من أرض في العراء، تحيط بها أسوار، وتضم مذبحاً، هذا وكان للمدن الكبيرة معابد مسقوفة أيضاً.

وهكذا كان المعبد الفينيقي بسيطاً أول الأمر، لا يعدو أن يكون حجرة واحدة، لها باب جانبي، وسرعان ما انتقل الفينيقيون ببناء المعبد من البساطة إلى التعقيد، فتعددت حجراته، وتعددت أبهاؤه، وأصبح لها طابع معين، وأصول خاصة، إذ لا بد أن يحتوي المعبد على مذبح حجري، تقدم عليه القرابين، هذا فضلاً عن حجر مقدس، على هيئة عمود، يمثل الإله الذكر، وإلى جانبه الشجرة المقدسة ـ رمز الخصب الدائمة والخصوبة الأبدية ـ.

هذا وكان للمعبد كذلك حجرات تحتية، يستخدمها الكهنة في إصدار النبوءات، عندما يأتي الناس للآلهة يستشيرونها، ويهتدون بهديها، كما كان بالمعبد آنية للبخور، وهياكل ذات مصاطب يغسل الناس فيها أقدامهم، قبل أن يتقدموا للعبادة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن الفينيقيين، لم يتخذوا أصناماً يتقربون إليها، وإنما كانوا يكتفون بصورة صغيرة تمثل المعبود «بعل» رافعاً يده يصد البرق والرعد.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن الأستاذين «بيير مونيه» و «دونان» قد كشفا عن معبد فينيقي، ثبت من الحفر، أن الموجود لم يكن ـ كما كان يظن ـ حرماً مصرياً، وحرماً فينيقياً، وإنما حرم واحد، كان نوعاً من التأليف بين التصميم المصري، وتصميم الأحرام السامية[1].

هذا وقد كشف كذلك في عام ١٩٣٢ م عن حرم ذي مسلات صغيرة،

---

(١) كونتنو: المرجع السابق ص ١٦٦.

وكـذا: M. Dunand, La Cinquieme Campagne de fouilles de Byblos la Sixieme Campagne - Le Septiene - Campagne.

وكذا: R. Dussaud, Syria, 14, 1933, P. 90.

ووديعتي تأسيس، وكانت إحدى الودائع جرة تحوي عدداً من الودائع الذهبية والفضية والبرونزية، ومنها كذلك فأسان، ثم خنجر قبضته مغطاة بورقة شجرة ذهبية واحدة من الذهب، وعلى الغمد المصنوع من الذهب أيضاً يرى صور حيوانات، وشخصاً ممتطياً بغلاً[1].

وأما المعبد فقد أقيم مكان حرم قديم، يرجع تاريخه إلى حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م، ويتكون المعبد من مقدمة ساحة، ثم ساحة يوجد الحرم في مكان منها مرتفع بعض الشيء.

وأما المسلات فعددها عشرون، ويتراوح ارتفاعها، فيما بين ٨٠، ٣,٥ سم، هذا وفي الساحة معابد أخرى أصغر، وبناء مستقل لصهاريج المياه المخصص للطهارة، والمعبد ـ فيما يبدو ـ يرجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة المصرية (١٩٩١ ـ ١٧٨٦ ق. م)[2].

التحصينات والقصور:

كشفت الحفائر الحديثة في فينيقيا عن الأبراج والقلاع والحصون، مما يشهد للمهندس الفينيقي بتمكنه من فنه، وكانت القلاع والحصون والأسوار الفينيقية من أعظم ما عرفه العالم من فن العمارة، كما يتجلى ذلك في أسوار مدن: جازر وصيدا وصور.

وعلى سبيل المثال مدينة «صور»، وكانت مدينة على صخرة وسط البحر، مع منازلها ذات الطبقات الكثيرة، وكانت محاطة بجدران من الحجارة الضخمة، يبلغ ارتفاعها ١٥٠ قدماً، وترتفع فوقها أبراج تسهل على حماتها مهمة الدفاع عنها، بينما كانت صفوف السفن الحربية متأهبة لسير الطريق في وجه من لا ترضى عنه[3].

---

(١) كونتنو: المرجع السابق ص ١٧١.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) معن عرب: صور ص ٦٤.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن المهندس الفينيقي، إنما كان يستخدم كتلاً حجرية ضخمة، الأمر الذي أدى إلى أنه لم يستطع أن يتحكم في المادة، وأن يصوغها وفق هواه، وإنما تحكمت المادة فيه، لأن الكتل الضخمة من الأحجاز، لا تمكن الفنان من أن يستخدم ذوقه في إكسابها الهيئة التي يريد[1].

هذا وقد كشف في «أوجاريت» (رأس الشمرا)، وفي «الإلاخ» ـ وهي تل عطشانة الحالية على نهر العاصي، فيما بين حلب والبحر المتوسط ـ عن بعض القصور الملكية، وكانت تبنى على نمط نظائرها في أرض الرافدين، أي في هيئة فناء أو أكثر، تحيط به الحجرات،. وإن كانت أضيق نطاقاً.

٢ ـ التوابيت والأختام وأدوات الزينة:

ترك لنا الفينيقيون كثيراً من التوابيت الحجرية، وعلى سطحها الأعلى قالب لرأس إنسان، وكثيراً من هذه التوابيت قد وجد في صيدا، ويظهر في القليل منها تأثير مصري ملحوظ، في شكل وزينة رؤوسها.

هذا وقد وجدت آثار قليلة للتصوير بالألوان في غرف القبور الفينيقية تحت الأرض، وكانت جدرانها محلات بألوان زاهية، يغلب عليها اللونان الأحمر والأخضر، مع زخارف من أكاليل الزهور والطير، ومن البشر والحيوان أحياناً.

هذا وقد أدى انتشار استعمال الأختام، إلى تقدم كبير في صناعتها، الأمر الذي ينطبق على الحلى وغيرها من أدوات الزينة، التي وجدنا آثاراً منها تنطوي على قيمة فنية رفيعة.

هذا ونجد على الأوسمة والأساور والخواتم الذهبية صور النخيل ورؤوس الأسود والوعول والطيور، وكانت صوراً أثيرة.

---

(١) موسكاتي: المرجع السابق ص ١٣٥، حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٩٩.

وكانت القلائد وعقود اللؤلؤ والأقراط، أنماطاً أخرى للزينة، يجلّها الناس بل ويجدّون في السعي ورائها[1].

٣ ـ العمـلات:

بدأ الفينيقيون في العصور المتأخرة يسكون عملة، وكانت التجارة قبل ذلك تتم عن طريق المقايضة، وكان اليونان قد بدأوا في استخدام العملة في القرن السابع قبل الميلاد، والمعتقد أن «كرويسوس» (٦٥٠ ـ ٥٤٦ ق.م) ملك ليديا، هو الذي استحدث صب السبائك الذهبية، ذات الوزن الواحد، وطبع الصور عليها، وعلى أي حال، فإن استعمال العملة أصبح أمراً عادياً في القرن السادس قبل الميلاد.

هذا وقد بدأ الفرس في استخدام العملة على أيام الملك «دارا الأول» (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق.م) عند نهاية القرن السادس قبل الميلاد، ورغم أن فينيقيا كانت وقت ذاك تابعة للفرس، فإن «دار الأول» لم يحاول أن يضرب العملة باسمهم.

وأما أقدم عملة شرقية فينيقية، فقد ضربت في «صور»، عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تبعتها «صيدا» ثم «أرواد» ثم «بيبلوس» في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد، وأما بقية المدن الفينيقية فلم تضرب عملتها، إلا في العصر الهليني.

وعلى أية حال، فإننا نجد على النقود الفينيقية ـ وهي قائمة على تقليد النقود اليونانية ـ رموز آلهة تلك المدن، فضلاً عن رموز بحرية وأجسام وحيوانات[2].

هذا ومن أقدم العملات ـ وترجع إلى النصف الثاني للقرن الخامس قبل الميلاد ـ إنما هي تلك القطعة ـ المحفوظة بالمتحف البريطاني ـ وهي

---

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق ص ٣٣ ـ ٣٣١، موسكاتي: المرجع السابق ص ١٣٦.

(٢) موسكاتي: المرجع السابق ص ١٣٦، عبد الحميد زايد: المرجع السابق ص ٣٣١.

من «صور»، وعلى أحد وجهيها «درفيل» (حيوان بحري) وأمواج وأصداف، وعلى الوجه الآخر «بومة»، داخل مربع[1].

وعثر في مدينة «أرواد» على قطعة، على أحد وجهيها معبود له ذيل سمكة، وعلى الوجه الآخر، زورق وفرس البحر، وتؤرخ ببداية القرن الرابع قبل الميلاد[2].

وعثر في «صيدا» على قطعة من العملة، على أحد وجهيها عراك وزورق وأسدان، وعلى الجانب الآخر، أحد ملوك الفرس، وهو يضرب سبعاً، وتؤرخ هذه القطعة بأوائل القرن الرابع قبل الميلاد[3].

هذا وقد قامت المدن الفينيقية بضرب عملتها متأخرة عن المدن الشرقية، فهناك في المتحف البريطاني، قطعة عليها رأس المعبودة «تانيت»، وعليها غطاء رأس بوني. وعلى الوجه الآخر، أسد وشجرة نخيل، ونقش مكتوب باليونانية «رجال المعسكر»، وتؤرخ القطعة بمنتصف القرن الرابع قبل الميلاد[4].

ولعل من الجدير بالإشارة، أن «صقلية» قد ضربت عملتها منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وضربت «أسبانيا» النقود في القرن الثالث قبل الميلاد.

وهناك نقود ضربت من الفضة ـ كما في قرطاج الجديدة ـ[5] كما عثر في «أجاديس» على قطعة نقود، على أحد وجهيها رأس المعبود «ملقارت»، وعلى الوجه الآخر «فيل»، وحرف أبجدي، وتؤرخ هذه القطعة بحوالي عام ٢٠٩ قبل الميلاد[6].

---

(١) G. F. Hall, Catalogue of The Greek Coins of Phoenicia, London, 1910, Pl. 28, No. q.

(٢) Ibid., Pl. I, No. 5.

(٣) Ibid., Pl. 18, No. 6-7.

(٤) G. F. Hill, Guide and Coins, London, 1932, Pl. 62, No. 41.

(٥) F. S. G. Robinson, Punic in Spain, 1965, Pl. 49, No. 4.

(٦) Ibid., Pl. 92, No. 8.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن النقود الرومانية، المنسوبة للعصر الأمبراطوري، قد سجلت لنا رسوماً لبعض المعابد الكبرى في فينيقيا أو في قبرص.

ومن هذه العملات، عملة من «بيبلوس» تنسب إلى الأمبراطور «مكرينومر» (٢١٧ ـ ٢١٨ م)، وعليها رسم لمعبد المدينة، وتتألف معالمه الأساسية من سور، أقيم في وسط ساحته، ويدخله على شكل بوابة ذات أعمدة، يكون الدخول إليها بسلم، وفي داخل المعبد، ألحق بناء آخر مقبى.

ولدينا عملة من «ببلوس» منسوبة إلى عصر «هليوجبل» وعليها رسم بوابة، ولعلها بوابة معبد، وهناك عملة من قبرص، عليها رسم حرم «بافوس» في العصر الروماني[1].

٤ ـ النحت:

هناك من الألف الأول قبل الميلاد، تماثيل آلهة من الحجر والخزف والرسم المحفور، وأخرى على شكل تماثيل صغيرة، ويظهر فيها جميعاً تأثير تيارين أساسيين:

الواحد: تيار مصري، ودليله «بعلة جبيل»، بأسلوبها المصري، وترجع إلى عصر الدولة القديمة، والثاني: تأثير يوناني.

ويمثل شاهد عمريت الفن الفينيقي ـ قبل ظهور التأثير اليوناني ـ وعلى الشاهد صورة «حدد» أو «رشف»، والأرجح أن اللوحة تمثل «بعل عمريت»، كما أن منطقة عمريت إنما تقع في القسم الشمالي من فينيقيا ـ حيث يسود التأثير الحيثي أو تأثير بلاد الرافدين ـ.

هذا ويلبس المعبود في الصورة قميصاً قميصاً بدون أكمام، محبوكاً على جسمه، كما يلبس في وسطه قميصاً آخر، لا يكاد يصل إلى الركبة، مخططاً

(١) ج. ونتنو: المرجع السابع ص ١٩٣.

بخطوط متوازية محفورة، وفوق رأس الإله تاج ذو قرنين، وفي يده اليسرى، الأرجل الخلفية لسبع صغير، ويده اليمنى شاهرة سيفاً عريضاً، تسميه اليونان «حربة».

وسيقان الإله عارية، وإحدى قدميه موضوعة على رأس أسد، والأخرى على ذيله المعقوف، والأسد يسير على أرض مرسومة على شكل لبنان مصفوفة من المحار، وفوق رأس الأسد رسم قرص الشمس، محمولاً على هلال، ثم كرة أرضية مجنحة، وارتفاع الشاهد كله ١٧٠ م.

ولعل من الجدير بالإشارة أن هذا التصوير للأرباب، إنما يكشف عن عدة تأثيرات، فمثلاً ثياب الإله هي نفس الثياب التي كان يلبسها سكان سورية الشمالية، وهي القميص الأعلى المحبوك، والميدعة أو القميص المربوط بالوسط، المتدلي إلى الركبة، وهي نفس الثياب التي توجد على الأختام الأسطوانية المستعملة لختم اللوحات، وهي نفس الثياب التي تظهر في الفرسكات المصرية، عندما تريد هذه الفرسكات تصوير السوريين.

وأما غطاء الرأس، فمركب من عناصر مختلفة، ففيه الخوذة منتهية بسنان غليظ الطرف، ونفس غطاء الرأس كله، له نظير في رسم بارز على الصفحة الجانبية من معبد صغير محفوظ بمتحف اللوفر بباريس.

وأما القرون فهي من خصائص الربوبية في وادي الرافدين، وهي هنا تلاصق صفحة الخوذة، بدلاً من أن تنحرف عنها، على حين يرسم النجم المصري في المكان الذي جرى الاصطلاح الفني على اعتباره مقدم الخوذة، ومن قمة الخوذة يتدلى شريط.

وأما الشعر، فيتجمع في خصلة كبيرة معقوفة، تتدلى على قفا الرب، وهي من الخواص التي تميز بها أهل سورية الشمالية.

وأما السلاح الذي يمسك به الرب، فنوع من السيوف العريضة المسماة «الحربة» ويرسم غالباً في أيدي الملوك الآشوريين، غير أن التحوير في رسم هذا السيف جعله أشبه بعصاة غليظة محدبة.

وأما هيئة الرب قائماً على رأس حيوان وعلى ذيله، فهيئة لها نظائرها في الفن النحتي الريفي في «ياسيلي كايا»، على مقربة من «بوغار كوي» في بلاد الحيثيين.

وانطلاقاً من كل هذا، فإن «شاهد عمريت» يُعد ممثلاً تاماً للفن الفينيقي، قبل أن يظهر فيه التأثير اليوناني.

ولا ريب في أن الفن الفينيقي ـ على أيام شاهد عمريت ـ إنما كان مزيجاً من أساليب سورية وحيثية وآشورية وبابلية ومصرية ـ استطاعت العبقرية الفينيقية أن تصهرها، وأن تخلق منها وحدة منسقة، ذات طابع شخصي[1].

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

الفصل الخامس

الحياة الاقتصادية

أولاً: الزراعة

أثرت البيئة في حياة الفينيقيين ـ كما أثرت في تاريخهم وعمارة مدنهم ـ فقد كانوا يحبون حياة اقتصادية تمليها ظروف البلاد، ومواردها الطبيعية، وكانت أهم حرف السكان: الزراعة والصيد، ورغم أن الفينيقيين شعب ملاح، فهم أيضاً شعب مزارع، حتى أنهم لا يدعون أقل قطعة من الأرض صالحة للزراعة دون استغلال، وحتى أنهم ليعلقون مزروعاتهم على مسطحات مدرجة على سفوح جبل لبنان.

وكان الفينيقيون كذلك يستخرجون من الأرض كل ما يمكن أن تعطيهم من موارد، وكانوا بوجه خاص يستغلون غابات لبنان، بل اعتقدوا يومئذٍ أنها غابات لا تنفد، حتى ابتدأوا في قلعها، لا استغلالها[1].

هذا وكانت زراعة الحدائق أحب الحرف إليهم، حتى أنها أثرت في فنهم ودينهم، وكانوا يبذون الحب بأيديهم، في أول الأمر، ثم ما لبثوا أن استعملوا المحاريث، من بابل أحياناً، ومن مصر أحياناً أخرى، وقد عثر المنقبون على بعض الآلات الزراعية التي ترجع إلى حوالي عام ١٥٠٠ ق. م، وربما إلى ١٣٠٠ قبل الميلاد.

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٣٠٢.

وكان الفلاح الفينيقي يضم محصوله بواسطة منجل مصنوع من الصوان، أسنانه من الملاط، ومقبضه من الخشب، وقد ظلت هذه الآلة تستخدم حتى حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد حينما استخدم «المنجل الحديدي»، وسرعان ما صنعت المحاريث من الحديد.

وكان القوم يستخرجون الحب بشوكة طويلة من الخشب، ويطحنون القمح بمطاحن من الحجر، ويخبزونه في أفران أسطوانية من الطين.

هذا وكانت المحاصيل الرئيسية مثلها اليوم: القمح والشعير والشوفان والفول والعنب والتين والزيتون والبندق والرمان والحبوب والكروم، والفاكهة وغيرها من محصولات حوض البحر المتوسط.

هذا وقد عمد الفلاح الفينيقي ـ بغية الملاءمة بين الزراعة وبين تقلبات الجو وسقوط المطر ـ عمد إلى الزراعة الجافة، وفي لبنان حيث يزيد عدد السكان عن طاقة الأرض، نجد القوم يزرعون سفوح الجبال، ويقيمون من حولها الأسوار لحماية الأرض وبسط رقعتها، وهذه السفوح ملائمة تماماً لزراعة الحدائق والكروم والحبوب[١].

ومن المعروف أن الأشجار المثمرة التي كانت تزرع في فينيقيا على نطاق واسع، إنما هي الأنواع الثلاثة التي تقاوم الجفاف ـ وهي التين والزيتون والكرمة ـ وقد أدخل الفينيقيون الكرمة إلى بلاد اليونان، ومن هناك إلى إيطاليا.

ومن المعروف كذلك، أن شجر الزيتون ـ وهو شجر قديم أصيل في لبنان ـ أن أقدم ذكر له، إنما جاء في نقوش «أوجاريت» (رأس الشمرا) ـ ويرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ـ كما أن جرار الزيت التي كانت تستخدم توابيت يدفن فيها الأموات، إنما كانت ترجع إلى نفس القرن الخامس عشر قبل الميلاد[٢].

---

(١) حسن أحمد محمود: حضارة مصر والشرق الأدنى القديم ص ٣٩١.
(٢) فيليب حتى: تاريخ لبنان ـ بيروت ١٩٨٥ ص ٤١.

هذا وشجرة الزيوت ـ رغم أنها لا تتطلب عناية كبيرة ـ فإنها تعطي الكثير، وثمرها كان ـ وما يزال ـ يشكل أحد مصادر الغذاء الرئيسية للطبقات الدنيا، ويقول المثل اللبناني «الزيت عماد البيت»، وكان القوم يحرقون الزيت في السراج لإنارة بيوتهم[1]، والزيت مرهم لجراحهم، ويدخل في صناعة الدهون العطرية[2]، والعلاجات الطبية[3].

وكان الزيت مقدساً عند القوم، حيث تمسح به رؤوس الملوك عند تنصيبهم[4] ـ كما فعل النبي صموئيل بالملك شاول[5] (طالوت في القرآن الكريم)[6] ـ وما يزال الزيت مقدساً في تلك المنطقة، حيث يمسح الكاهن جبين المختضر بالزيت[7].

هذا وقد تغنى «هوشع»[8] (٧٥٠ ـ ٧٢٢ ق. م) ـ أحد أنبياء بني

---

(١) سفر الخروج ٢٥/٦، إنجيل متى ٢٥/٣.
(٢) خروج ٢٠/٢٥، صموئيل ثانٍ ١٤/٢، مزمور ٢٣/٥.
(٣) صموئيل أول ١٠/١، أشعياء ١/٦، إنجيل مرقص ٦/١٣، لوقا ١/٣٤.
(٤) مزمور ٨٩/ ٢٠ حيث يقول (وجدت داود عبدي، بدهن قدسي مسحته) ـ والمسح في الكتاب المقدس: صب الزيت أو الدهن على الشيء لتكريسه لخدمته تعالى، وأول ذكر لذلك عندما أقام يعقوب الحجر، الذي وضعه تحت رأسه عموداً ومسحه للرب (تكوين ٢٨/١٨، ٣١/١٣)، وأوصت الشريعة الموسوية بمسح أشخاص وأماكن وانية بدهن مقدس (خروج ٣٠/٢٣ ـ ٢٥)، وكان العبرانيون يدهنون أنفسهم بالأدهان في الأعياد وأيام الفرح (راعون ٣/١٣، مزمور ٢٣/٥) وتركه أيام الحزن (صموئيل ثانٍ ١٤/٢، متى ٦/١٧)، وكانوا يمسحون الكهنة (خروج ٢٨/٤) والأنبياء (أخبار أيام أول ١٦/٢٢) والملوك (صموئيل ثانٍ ١٩/ ١٠، ملوك أول ١/٣٩، ١٩/١٥، ١٦)، وقد مسح داود ثلاث مرات (صموئيل أول ١٦/٣، صموئيل ثانٍ ٢/ ٤، ٥/ ٣).
(٥) صموئيل ثانٍ ١٠/ ١١ ـ ٢٧، وانظر محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٦١ ـ ٦٧٩.
(٦) أنظر: سورة البقرة: آية ٢٤٩ ـ ٢٤٨.
(٧) فيليب حتى: تاريخ لبنان ص ٤٢.
(٨) أنظر عن سفر هوشع (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٤٨ ـ ٤٩).

إسرائيل ـ بجمال شجرة الزيتون[١] ، كما تغنى كاتب المزامير[٢] ، بحنوها وكرم نتاجها[٣] .

وشجرة الزيتون أول شجرة ـ كما في سفر القضاة[٤] ـ عرض عليها أن تكون ملكة الأشجار، ويقدر عدد أشجار الزيتون في لبنان بحوالي ستمائة ألف شجرة في أرض مساحتها ٣٤ ألف فدان[٥] .

وهناك غابة زيتون كبيرة في منطقة الكورة، وأخرى على الساحل ـ على مقربة من الشويفات ـ وتعد من أكبر غابات الزيتون في العالم ـ بعد غابات إسبانيا وكاليفورنيا الجنوبية ـ وهناك بين البحر وغابة الشويفات، شاطىء أحمر الرمل، فيقول سكان المنطقة على السفوح: إن قراهم تشرف على ثلاثة أبحر: بحر أخضر من الزيتون، وبحر أحمر من الرمل، وبحر أزرق من الماء[٦] .

هذا ويمتد جنوبي بيروت بستان للزيوت، على مسافة أميال، ويعتبر من أكبر بساتين الزيتون في العالم.

هذا وكانت تربية الحيوان من أقدم وأكثر أنواع النشاط الاقتصادي انتشاراً بين الفينيقيين، ومع ذلك فإن المصادر المختلفة إنما تظهر لنا أن القوم لم يقتصروا في نشاطهم على تربية قطعان الماشية، وزراعة الحاصلات الزراعية، وإنما زرعوا كذلك الكتان، بقدر ما سمحت لهم رقعة الأرض المحدودة في شرقي البلاد.

وأما أشهر أشجار لبنان وأفخمها إنما هو «شجر الأرز»، واسمه

---

(١) هوشع ١٤/٦.
(٢) انظر عن كتاب المزامير (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٦٤ ـ ٦٥.
(٣) مزمور ١٢٨/٣.
(٤) قضاة ٩/٨.
(٥) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٢.
(٦) نفس المرجع السابق ص ٤٢.

النباتي العلمي (Cedrus Libani) - أي الأرز اللبناني - وبقاياه جماعات صغيرة، تبدو كباقات زهر، على صدر لبنان العاري.

هذا وقد تغنى الشعراء والأنبياء والمؤرخون القدامى بصفاته، ومن ثم فقد وصف بالقوة والمقاومة والجلال والملاءمة للحضر[١]، وفي الواقع فإن الإشارة في أسفار التوراة إلى طول شجرة[٢]، وإلى علو ارتفاعه[٣]، وإلى «أرز لبنان العالي المرتفع[٤]»، كل ذلك إنما يشير إلى ما كانت عليه ضخامة الأرز اللبناني، وعظم ارتفاعه، كما هو الآن.

هذا وقد زوّد الأرز الفينيقيين بأحسن الأخشاب لبناء سفنهم، كما كان هذا الأرز إنما يجتذب كثيراً ملوك وادي النيل[٥]، ووادي الرافدين، حيث لا تنبت أشجار كبرى في بلادهم.

ولعل من الجدير بالإشارة أن أشهر مجموعة من أشجار الأرز على الإطلاق، إنما تلك الأجمة القائمة فوق «بشري»، المشرفة على وادي قديشا، حيث يوجد هناك ما يقرب من ٤٥٠ شجرة، ترتفع عالياً بإباء[٦]، وتفد كل سنة على هذه الأجمة ألوف السياح من كل أطراف العالم، ولعل أقدم سائح أتى على ذكرها رجلان، أحدهما فرنسي أتى في أواسط القرن

---

(١) أنظر: مزمور ٢٩/٥، إميا ٢٢/١٤، ملوك ثانٍ ١٤/٩، زكريا ١١/١ ـ ٥٢، إشعياء ٢/١٣، ٤٤/١٤، حزقيال ١٧/٢٢.

(٢) ملوك ثانٍ ١٩/٢٣.

(٣) حزقيال ١٧/٢٢.

(٤) إشعياء ٢/٣.

(٥) أنظر (محمد بيومي مهران: مصر ٢/٢٢٦ ـ ٢٢٧).

(٦) G. E. Post, the Botanical Geography of Syria and palestine, London, 1885, P. 36 - 37.

وكذا A. E. Ruthy, Die Pflanze and ihre Teile in Bililisch - hebraischen sprchgebrauch, Bern, 1942, P. 41 - 42.

السادس عشر[١]، وآخر ألماني أتى في عام ١٥٧٣ م[٢].

والتاريخ يحدثنا أن المصريين قد ركبوا البحر إلى سواحل البنان منذ عصور ما قبل التاريخ لإحضار أخشاب الأرز[٣]، فضلاً عن رحلة سفن الملك «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة المصرية، فلقد جاء في «حجر بالرمو» بأن «سنفرو» قد أرسل أسطولاً بحرياً مكوناً من أربعين سفينة لإحضار كتل من أخشاب الأرز من لبنان[٤].

هذا وما زالت هذه الأخشاب في هرم سنفرو القبلي في دهشور، وما زالت في حالة جيدة حتى الآن، وما زالت تؤدي مهمتها التي أقيمت من أجلها، مثل تثبيت بعض الأحجار، أو سندها، في أماكنها، رغم مضى ما يقرب من أربعة آلاف عام وستمائة عام عليها[٥].

هذا وقد فعل «سرجون الثاني» (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق. م) ملك أشور، ما فعله الملك المصري «سنفرو»، ويحتفظ متحف اللوفر برسم محفور، عثر عليه في «خرسباد» يمثل أسطولاً صغيراً من السفن، يحمل عدة أعمدة خشبية، وقد ربطت بمؤخر الأسطول أعمدة من خشب، هذا فضلاً عن رسوم عثر عليها في «قصر خرسباد» تبيّن إنزال الخشب إلى الأرض، وصفه في أكوام[٦].

---

(١) Pierre Belon du mans, les observations de plusieurs singularitez et choses memorables trouvees en grece, Asia, Judee Arabie et aurtres pays estranges, Paris, 1555, P. 153.

(٢) L. Rauwolff, Itinerary into the Eastern Countries, London, 1968 P. 229.

(٣) رشيد الناضوري: أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ـ الإسكندرية ١٩٦٨ ص ٥،
وكذا P. Montet, Byblos et L'Egypte, Paris, 1928, Nos. 118.

(٤) محمد بيومي مهران: مصر ٢/ ٢٢٧،
وكذا J.H. Breasted, ARE, I, Chicago, 1906, Panag, 146.
وانظر: A. H. Gardiner, Egypt of the pharaohs, Oxford, 1961, P. 42.

(٥) A. Fathry, the Bent pyramid at Dahshur, Cairo, 1954, Pl. 38, P. 559.

(٦) عبد الحميد زايد: المرجع السابق ص ٣٢٨.

وقصة إمداد «حيرام» ملك صور، لسيدنا سليمان عليه السلام بالخشب مشهورة في تاريخ فينيقيا، وفي توراة يهود، هذا فضلاً عن إنشاء سليمان عليه السلام لأسطوله المشهور بالخبرة والأخشاب الفينيقية[١].

وهناك هيكل سليمان، والذي تكاد تجمع أراء المؤرخين على أنه فينيقي الطراز، الأمر الذي يشير إلى أن الفينيقيين إنما قاموا بالعمل، كما أنه من فينيقيا أتت أشجار الأرز، التي قام عليها «بيت وعر لبنان»، وقد استخدم الفينيقيون الأعمدة الخشبية ـ من أخشاب الأرز ـ بدلاً عن الأعمدة الحجرية[٢].

هذا وقد استؤنست الحيوانات، مثل الأبقار والحمير والماعز والخنازير والكلاب ولم يكن اللحم يؤكل، إلا في الأعياد، وكان يطبخ في قدور ذات فوهات واسعة، وكان القوم يأكلون بأيديهم، أو بملاعق من خشب.

وكان ماء الشرب من خزانات الأمطار والعيون، ويحمل إلى المنازل على الرؤوس في «قِرَبْ» أو أواني فخارية، وكانت المصابيح تصنع من الفخار، وتوقد بالزيت، وقد صنعت هذه المصابيح في النصف الأول من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد عثر المنقبون على عدد لا يحصى من أواني الطبخ[٣].

---

(١) ملوك أول ٩/ ١٥ ـ ٢٧، ١٠/ ١١ ـ ١٢، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٧٨٠ ـ ٧٨٢.

(٢) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨٤٠ ـ ٨٦٥، ملوك أول ١٦/ ١ ـ ٢٨، ملوك أول ٦/ ١ ـ ٢، ٧/ ٢، ٥/ ٦ ـ ١١، وانظر: تاريخ الطبري ١/ ٥٠٢ (القاهرة ١٩٦١)

وكذا K.M. Kenyon, Archaeology in the Holy land, London, 1970, P. 247.

وكـذا R.A.S. Macalister, the topography of Jerusalem, in CAH, III, Cambrèdge, 1965, P. 348 - 349.

(٣) حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٣٩١.

هذا وقد اشتغل الفينيقيون بالصيد كذلك، وبرعوا فيه، بحكم وقوعهم على الشاطيء وصنعوا الزوارق من خشب الأرز، ومن أشهر مدن الصيد الفينيقية مدينة «صيدا»، حتى أن البعض ذهب إلى أن اسمها، إنما قد اشتق من الجذر السامي «صيد»، بمعنى صيد الأسماك.

ويذهب البعض إلى أن صيدا، إنما كانت محله صغيرة لصائدي الأسماك، وقد أشار «هومير» إلى أن السمك في صيدا (صيدون) أوفر من الرمال، كما فسر «جستان» (من القرن الأول) اسم صيدا (صيدون) بكثرة أسماكها[1].

وأما بالنسبة لـ «قرطاج» فقد كانت تزرع الحبوب والكروم والزيتون، وتهتم كثيراً بتربية النحل، فضلاً عن الضأن وقطعان الماشية.

ويروي «ديودور الصقلي» أن «أجاثوكليس» ـ حاكم سيراكيوز ـ عندما غزا الساحل الإفريقي، وجد البلاد تنتشر فيها القرى الريفية، وحظائر تربية الحيوان، ومزارع الكروم والزيتون.

وأما عن الحبوب وكثرتها هناك، فيكفي الإشارة إلى أن ولاية شمال إفريقيا أصبحت واحدة من أهم مصادر الغلال لروما.

وفي عام ٢٠٣ قبل الميلاد، عندما غزا «سكيبو الإفريقي» الساحل القرطاجي، اقترح صلحاً ينص على أن تقدم قرطاج لروما خمسمائة ألف كيلا من القمح، وثلاثمائة ألف كيلا من الشعير.

هذا وقد قام شجر النخيل بدوره في الحياة الزراعية في الشمال الإفريقي، حتى أن بعض المدن، إنما قد اتخذت «النخلة» شعاراً لها، وحتى نقش رسمها على بعض العملة والأختام واللوحات الجنازية.

---

(١) أنيس فريحة: أسماء المدن والقرى اللبنانية ص ٢٣٤، منير الخوري: صيدا عبر حقب التاريخ ص ٢٤ (بيروت ١٩٦٦)

وكذا F.C. Eiselen, Astugy in Oriental History, New-York, 1907, P. 11.

وكذا The Jewish Encyclopaedia, 1903, P. 664.

وأما عن تربية الحيوان، فكان الشائع هو تربية الأبقار والأغنام والماعز(١).

بقيت الإشارة إلى أن أهل قرطاج إنما كانوا يزرعون نفس المزروعات الفينيقية. وقد اشتهر من أهلها عالمان هما «هميلكار» و «ماجون»، وقد ألفا كتابين في ا لزراعة، كان لهما شهرة عظيمة في عصرهما، وإن كانت كتبهما قد ضاعت.

هذا وقد استخدم الفينيقيون المحراث، وهو محراث يشبه مثيله الآن عند السوريين من حيث عدم كماله، كما استعملوا في الجرقوة الإنسان أو الثور أو الحمار، وكان هذا المحراث يتكون من قطع خشبية، غير مهذبة، وقد ربط بعضها إلى بعض، ودلت النصوص على أن هذا المحراث «باذر»، وأن عمود الخشب عبارة عن ماسورة جوفاء، منتهية بوعاء لوضع الحبوب.

هذا وقد استعمل ـ في فينيقيا وقرطاج ـ الفيل ـ كحيوان للجر ـ في الزراعات الكبيرة، واستعملوا ـ لتخليص الحب من سنابله ـ طرقاً ثلاثة، الواحدة: أن يداس المحصول بأرجل الثيران والخيل والبغال، والأخرى: أن تمرر على السنابل، لوحة خشبية، مثبت فيها من أسفلها شظايا «حجر السيلكس» (باللاتينية ـ Trubulum)، وهناك طريقة ثالثة، وهي أن تستعمل أداة مركبة من الخشب، لها عجل بأسنان من حديد (النورج).

وقد اشتهرت الأنبذة الفينيقية بوجه عام، وأشارات إلى ذلك نصوص كثيرة، هذا وكان الفينيقيون والقرطاجيون يستخرجون الزيت أولاً من أشجار الزيتون البرية، ثم زرعوا تلك الشجرة بعد ذلك، كما أن الفينيقيين هم الذين أدخلوا إلى إفريقيا شجرة الرمان(٢).

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية ص ١٢٧،
وكذا Frederick Carl Eislem, Astugy in Oriental history, New-York, 1907, P. 121 - 122.

(٢) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧.

ثانياً: الصناعة

اشتهر الفينيقيون في عدة صناعات، لعل من أهمها: ـ

١ ـ صناعة الصبغة الأرجوانية: ـ

اشتهرت جميع المدن الفينيقية تقريباً بهذه الصناعة، وإن كانت صور[١] وصيدا، أهمها جميعاً، وتعتمد هذه الصناعة على ظروف البيئة، ذلك أنه على طول الشاطىء الشرقي لحوض البحر المتوسط، يعيش نوع من القواقع فوق الصخور، وفي المياه الضحلة، وإن كان بعضها يعيش في مياه أكثر عمقاً.

وتمتاز هذه القواقع باحتوائها على كيس صغير، يحوي مادة حمراء أرجوانية، بحيث يستطيع إذا داهمه الخطر أن يكوّن المياه بهذا اللون، فينجو من الخطر المحدق به، وإن كان هذا موضع ريب عند الباحثين.

وعلى أية حال، فلقد عرف الفينيقيون: كيف يستغلون هذا الحيوان استغلالاً اقتصادياً ناجحاً وكيف يسخرون هذه المادة الملونة، بطريقة علمية دقيقة؟ وكيف يحتكرون تجارتها، ويعرفون سرها دون سائر الأمم؟.

---

(١) تميزت صور على كل مدن فينيقيا، وعلى شعوب العالم بصناعة «الصباغ الأرجواني» الذي انتشر منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولأهمية هذه الصناعة في اقتصاد صور، أحاطوا طريقة استخراج الصباغة بهالة من الكتمان والسرية التامة، حفاظاً على احتكارهم لها، بل لقد نسب القوم اكتشاف هذا الصباغ إلى معبوداتهم، وهكذا رووا أن «هرقل» كان يتمشى ذات يوم على الشاطىء الفينيقي وبرفقته «صور» (تيروس) ـ إحدى حوريات الماء الفينيقيات ـ التي كان الإله عاشقاً لها، وعض كلبها على صدفة وجدها بين الصخور ولوّن فمه بعصاتها، فأعجبت «تيروس» باللون، وأقسمت ألا تستقبل الإله، إلا إذا قدم لها ثوباً مصبوغاً بهذا اللون الأحمر البهي، فبحث الإله عن الأصداف واستخرج مادتها الملونة لصباغة ثوب لحبيته «تيروس»، التي بنى لها فيما بعد مدينة صور، وسماها باسمها (معن عرب: صور ص ١١١،
وكذا (Jnes, XVIII, P. 104 - 118

هذا وأنسب أوقات صيد هذا الحيوان، إنما كان في آخر الشتاء، وأوائل الربيع، قبل أن تبدأ أناثه في وضع البيض، فإذا تم صيد هذه القواقع، بدأت عملية تحضير الصبغة[1].

ومن عجب أنه ليست هناك وثائق فينيقية، يحدثنا عن عملية إعداد الصباغ، وإنما عرفنا ذلك من المؤرخ الروماني «بليني الأكبر» (٢٣/ ٢٤ - ٧٩ م) في موسوعته المشهورة «التاريخ الطبيعي» (Historia Naturalis) فقد جاء فيها:

«إن هذه الأصداف ما تكاد تصاد حتى تموت، فإذا ماتت خرج من أجسامها ذلك السائل الأحمر، فيضاف إليه ملح الطعام، ثم يترك لينقع ثلاثة أيام، ثم يغلى في حرارة معتدلة، وأثناء غليانه تنزع الرغوة من وقت لآخر، وفي حوالي اليوم العاشر، عندما تصبح محتويات القدر مائعة، تغطس المادة النسيجية فيه، وتترك لامتصاص السائل مدة خمس ساعات، ثم تسرّح وتوضع ثانية، حتى تتشرب اللون تماماً، ويعتبر الصباغ على أحسنه، عندما يتخذ لون الدم المتجمد»[2].

وكانت هذه الصباغة ذات شهرة عالمية في العالم القديم، كما كانت المنسوجات المصبوغة لا يقدر على اقتنائها، سوى الأغنياء، ومن ثم فقد أصبحت الثياب الأرجوانية اللون، عنوان التفوق، وأدت فيما بعد إلى التعبير المتعلق بالمملوك «مولود في الأرجوان» (Born to the purple)[3].

---

(١) حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٢) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١/ ١٠٣، وكذا Phiny, BK, IX, ch. 62.

(٣) كان تعبير «مولود في الأرجوان» (Born to the Purple) يستعلم دائماً للتعبير عن الاستقراطية، وشرف المولد، وكان الامبراطور البيزنطي «قسطنطين السابع» (٩١٢ - ٩١٩ م) يعرف «بالمولود في الأرجوان» بسبب تعلقه الشديد بالأرجوان، وكانت كلمتا «أرجوان» و «ملكي» متلازمتين لدرجة أنهما كانتا تؤديان المعنى ذاته (معن عرب: صور ص ١١٥،

وفي العصور الهوميرية والهلينسية، اقترنت الثياب الأرجوانية بالملكية والملوك[1].

وهناك ما يشير إلى أن «كليوبترا السابعة» ملكة مصر (٥١ ـ ٣٠ ق. م) في العصر البطلمي (٣٣٢ ـ ٣٠ ق. م) إنما كانت مولعة بها، كما كانت «هيلين» في طروادة ـ ويعرف موقعها الحالي باسم «حصارليك»، وتقع على مبعدة ٦,٥ كيلاً شرقي مدخل الدردنيل، من ناحية بحر إيجة ـ شغوفة بها كذلك، كما ارتدى كاهن اليهود الأكبر، لباساً أرجوانياً، كمظهر من مظاهر مكانته الدينية السامية بين قومه.

وهكذا فعل رئيس كهان «هيرابوليس» ـ مدينة في شمال سورية، كانت مركزاً لعبادة المعبودة السورية «أثارجاتس»، وتعرف اليوم باسم «بامبوك كلاسي» وقد أدى ذلك كله إلى أن يصبح اللون الأحمر من شارات الأرستقراطية في فينيقيا، فضلاً عن بلاد اليونان وإيطاليا هذا ويذكر «مارسيال» (٤٢ ـ ١٠١ م) أن ثمن صوب مصبوغ بالأرجوان بلغ على أيامه، ماديعال ألفي دولار من عملتنا الحالية[3].

٢ ـ صناعة النسيج: ـ

كانت صناعة الغزل والنسيج من أهم الصناعات المنزلية التي قامت بدور كبير في الحياة الاقتصادية في فينيقيا، وقد عثر المنقبون على الأثقال التي كانت تستخدم في الأنوال القديمة، وقد ثبت أنهم استخدموا الأنوال في هذه الصناعة منذ الألف الثالثة قبل الميلاد.

= وكذا .A. Vasilievh History of the Byzantine Empire, I, madison, 1958, P. 362)

(١) سفر أستير ٨/ ١٥، أمثال ٣١/ ٢٢، مكابيون أول ٨/ ١٤، إنجيل لوقا ١٦/ ١٩، الإلياذة ص ٤، ١٤١ ـ ١٤٥.

(٢) فيليب حتى: المرجع السابق ص ١٠٢،

وكذا Strabo, XTV, I, 41.

وكذا Lucian, de dea Syria, 42*

(٣) L. Jensen, the Royal purple of tyre, JNES, 22, 1963, P. 115 - 116.

وكانت المادة الخام اللازمة لهذه الصناعة تتمثل في الصوف والقطن، ومن الكتان الذي كان يزرع بكثرة في بلاد الشام، منذ القرن العاشر قبل الميلاد[١].

وفي الواقع فلقد برع القوم في الحياكة وصناعة النسيج، وكانوا يستعملون ـ في بادىء الأمر ـ المواد الخام التي تقدمها لهم منطقتهم، مستعملين أصواف قطعانهم ومواشيهم، ولكنهم ما لبثوا أن استعانوا بما يستوردون من أصواف من بلاد الرافدين وتركيا، ومن قطن مصر[٢].

وتشيد التوراة (العهد القديم) بمهارتهم في هذا المجال[٣]، كما بدأت صناعة الحرير منذ القرن السادس قبل الميلاد، وقد ذكر «القرمز» في العهد القديم، وكان يصنع من حشرات كانت توجد على نوع من السنديان، الذي ينمو حول السواحل الشرقية، للبحر المتوسط، وعندما كانت تجف الحشرات، وتحل في بعض الحوامض، كانت تعطي اللون القرمزي، وكانت هذه الحشرة برية في أول الأمر، ثم سارت فيما بعد تربى من قبل الفرس، ثم من قبل الأرمن فيما بعد[٤].

وأما الصوف ـ وهو أقدم المنسوجات ـ فقد جاء ذكره في «وثائق نوزي» ـ وهي مدينة قديمة تقع في أعالي دجلة، في موقع «يورجان تبة»، جنوب غربي كركوك ـ (حوالي عام ١٥٠٠ ق. م)، وأما القطن فهو من نبات الهند، ثم أدخله الملك الأشوري «سنحريب» (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق. م) إلى أشور، حيث يشار في إحدى الكتابات إلى «الأشجار التي تحمل صوفا»، وقد أدخل الفينيقيون القطن إلى العالم اليوناني في أوائل العصر

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٩٧،
وكذا Frederick carl Eislen, op - cit, P. 121 - 122.

(٢) معن عرب: صور ص ١١٠ ـ ١١١.

(٣) أخبار أيام ثان ٢/١٤.

(٤) عدد ٦/١٩، لاويون ١٤/١٤، فيليب حتى: المرجع السابق ص ١٠٣.

الهلينستي، باسمه السامي، وكانوا ينتجون الكتان في سورية الجنوبية في القرن العاشر[1] ق. م.

هذا وقد امتدح «هوميروس» صناعة الحلل الحريرية الفينيقية، فلقد جاء في الإلياذة الكثير من العبارات التي تشير إلى القماش المطرز بالحليات، والمصبوغ باللون الأرجواني، الذي كانت تنتجه صيدا، ثم تصدره بعد ذلك عبر البحار.

واستمرت شهرة الفينيقيين بصناعة الملابس طويلاً، حتى أن صيدا كانت تزود القسطنطينية ـ عاصمة الامبراطورية البيزنطية ـ في عهد «جستينان» (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) بالمنسوجات المختلفة كالنسيج[2].

وفي الواقع فإن شهرة المدن الفينيقية بصناعة الملابس ـ وخاصة الحريرية ـ منذ العصور القديمة، وقد اشتهرت «صور» في العهد الروماني بحياكة وصناعة الملابس الحريرية، ويروي بعض المؤرخين: كيف ظهرت «الملكة المصرية كليوبترا» (٥١ ـ ٣٠ ق. م) في إحدى الاحتفالات، مرتدية ثياباً حريرية، مطروزة بالفضة، ومصنوعة في «صور»[3].

بقيت الإشارة إلى أنه مما يشهد بتفوق صناعة الغزل والنسيج ورقيها، في فينيقيا، أن الكشف عن الآثار، إنما قد أظهر لنا أن الغزالين إنما كانوا

---

(١) أنظر: J.H. Breasted, Ancient Times, New-York, 1935, P. 203.
وكذا ASOR, 16, 1936, No. 771.

(٢) E. Giblon, the History of the dechine and Fall of the Roman Empire, V, London, 1903, P. 56.
Maurice Chehali, Role du liban dans L'histoire de la soire Beyrouth, 1967, P. 17 - 18.

(٣) معن عرب: صور ص ١١١،
وكـذا Lucan, pharsalia, X, 21 Cite par Encyclopaedia Britannica, XXIII, 1963, P. 625.

يستخدمون الإبر والدبابيس المصنوعة من «البرونز»، كما عثر على «زراير» من العظم أو العاج أو الفخار.

هذا ويبدو شغف الفينيقيين واضحاً بالثياب ذات الألوان الزاهية، كما يبدو ذلك واضحاً في نقوش بني حسن، ففي مقبرة «خنوم حتب» أمير بني حسن (إقليم الوعل) من عهد «سنوسرن الثاني» (١٩٣٩ ـ ١٨٩٥ ق. م)، مجموعة تقوس تصور هذا الأمير، وهو يستقبل مجموعة أسيوية «كنعانية فينيقية» تتكون من ٣٧ شخصاً رجالاً ونساءً ـ بزعامة «أبشاي»، حيث يلبس القادمون ملابس فاخرة، ذات ألوان متعددة وزاهية، ويطلق الرجال لحاهم، وكان للنساء شعر طويل أسود[1].

٣ ـ صناعة المعادن والعاج والفخار: ـ

١ ـ هناك ما يشير إلى أن الفينيقيين إنما قد أتقنوا صناعة المعادن منذ عصر «البروتر» (٢١٠٠ ـ ١٢٠٠ ق. م)، فاستخدموا النحاس والبرونز بوفرة، وقد أثبتت التحاليل الكيماوية لبعض الأسلحة التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أنهم عرفوا فن صهر الحديد، كما خلطوه بمعادن أخرى، ليجعلوه أكثر صلابة، وأوفر مقاومة، وقد قاموا برحلات خارج بلادهم للبحث عن القصدير، وذلك للاستعانة به في صنع البرونز، وتحسين خامة الحديد، كما بحثوا عن الذهب والفضة.

هذا وقد استخدمت الفضة على نطاق واسع في الصناعة الفينيقية، بل استخدمت كذلك في التبادل التجاري بين فينيقيا وغربي آسيا، فقامت مقام العملة، واستخدمت أيضاً في الصناعة، فصنعت منها أنواع فاخرة من أطباق

---

(١) محمد بيومي مهران: مصر ـ الجزء الثاني ـ الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٩١ ـ ٣٩٢، جيمس بيكي: الآثار المصرية في وادي النيل ٢/ ٧٢ ـ ٧٣،

وكذا P. E. Newberry, Beni - Hassan, I, London, 1893, Pls. 28 - 31.

وكذا A. Erman and H. Rate, La Civilistion Egyptienne, P. 689.

وكذا W.C. Hayes, A papyrus of the late middle Kingdom in the Brooklyn museum, 1955, p. 87 - 99, 133 - 134.

الطعام، وقد وجدت في مصر منها أطباق، قدمت لفرعون كجزية، هذا ويشير الملك الأشوري «سنحريب» (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق. م) إلى أنه صنع قالباً من الطين، وصب البرونز فيه كما يصنع قطع نصف الشاقل[(١)].

هذا وقد برع الفينيقيون في استخدام المعادن في صناعة الأسلحة على اختلاف أنواعها، وقد وجد في حفائر مدينة «جريكو» سكاكين ورؤوس حراب وفؤوس، كما ظهرت في فلسطين نماذج من الأسلحة الحيثية والقبرصية منذ عام ١٥٠٠ قبل الميلاد[(٢)].

ولا ريب في أن فن الصياغة إنما قد وصل إلى أقصى غايته في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد عثر في بعض المناطق على ميزان الجواهرجي، كما وجدت أساور من الذهب والفضة والبرونز، فضلاً عن الأقراط والخلاخيل.

٢ ـ هذا وقد تفوقت صناعة أدوات الزينة ـ بصفة عامة ـ فكان الناس يتزينون بعقود وخواتم مصنوعة من حجر الجير والكوارتز والعقيق.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن العَظْم قد استخدم بدلاً من العاج، رغم أن هناك ما يشير إلى أن الفيلة كانت ما تزال تعيش في بلاد الشام في ذلك العصر، تشهد بذلك رحلات فرعون للصيد والقنص ـ كما حدث في عهد «تحوتمس الأول، وتحوتمس الثالث وأمنحتب الثالث[(٣)].

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٩٨، فيليب حتى: المرجع السابق ص ٩٥، وكذا D. D. Luckenbill, the Annals of Sennacherili, Chicago, 1924, P. 123.

(٢) أنظر: كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

(٣) قام تحوتمس الأول (١٥٢٨ ـ ١٥١٠ ق. م) برحلة صيد في إقليم المستنقعات عند «ني» لصيد الفيلة، بعد نجاح حملته وعبوره الفرات (A.H. Gardiner, Egypt of the pharoohs, 1961, P. 179) وقام تحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق. م) برحلة أيضاً لصيد الفيلة، وقد اعترضه قطيع عدته ١٢٠ فيلاً (Breasted, RAE, II, No.531 وكذا A. Gardiner, Op - Cit, P. 194 - 195) وأما صياد الأسود «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق. م) فقد اصطاد في السنوات العشر الأولى من حكمه ١٠٢ من =

وترجع أقدم المصنوعات العاجية إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كما وجدت مصنوعات بمدينة «مجدو» ترجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، هذا فضلاً عن أمشاط عثر عليها في أسبانيا مصنوعة وفق الأسلوب الفينيقي، وقد قلد الإغريق هذه الصناعة ونقلوها عن الفينيقيين.

وأخيراً فلقد أظهرت الحفريات وجود قيثارات وأبواق وآلات موسيقية متنوعة، مما يدل على رقى هذه الصناعة وازدهارها في فينيقيا.

٣ ـ وكانت صناعة الفخار، من أهم الصناعات الفينيقية وأكثرها ازدهاراً، وقد تأثر الفينيقيون في هذه الصناعة بالحضارات الكبرى ـ في وادي النيل ووادي الرافدين ـ وغيرها من حضارات الأمم المجاورة لفينيقيا.

هذا وقد ظل الخزف الفينيقي تنقصه دقة الصناعة، وجمال الهيئة، حتى استخدم الصانع عجلة الفخار، فكان استخدامها فتحاً جديداً في تاريخ صناعة الفخار، ومن ثم فقد اكتسب الخزف الانسجام والاتقان، ودقة وسلامة الذوق.

وقد استخدم القوم القصدير في تلميع الخزف واكتسابه بريقاً خاصاً، ولا تزال النماذج التي عثر عليها دليلاً على مبلغ ما وصلته الصناعة من رقى واتقان[1].

٤ ـ صناعة الزجاج: ـ

كانت صناعة الزجاج من الصناعات التي تفوق الفينيقيون فيها، غير أنهم أبعد بكثير جداً، من أن يكونوا هم الذين اخترعوها ـ كما زعم بليني ـ

= الأسود المتوحشة، ١٠٠ من الثيران البرية A. H. Gardiner ASAE, 45, 1947, P. 85 - 92
وكذا
J.H. Breasted, ARE, II, Parag. 865, P. 346 - 347).9

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٢١٩ ـ ٢٣٧، ٢٤٠ ـ ٢٤٨، حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

وإنما كانوا هم الذين أذاعوا هذا الاختراع، بل إن شرف هذا الاختراع - فيما يرى المؤرخون المحدثون - إنما يجب أن يكون لمصر - ولمصر وحدها - ولا ريب في أن تاريخ اختراعه إنما يرجع إلى عصر الامبراطور الأولى الطيبية (١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق. م)(١).

هذا وتتلخص رواية «بليني» في أن بعض التجار كانوا يعدون طعامهم على الشاطىء قرب مدينة «عكا»، وقد استخدموا بعض قطع نترات البوتاس التي كانت تحملها سفنهم لتركيز قدورهم على النار، فاكتشفوا على أثر ذلك سائلاً شفافاً، عندما تعرضت قطع النترات للنار، واختلطت بالرمل(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن المصريين - دونما ريب - إنما كانوا قد عرفوا صناعة الزجاج من قبل، وأن الفينيقيين قد تاجروا بالزجاج المصري(٣).

هذا وقد أثبتت الحفريات الآثارية في مصر، أن المصريين القدامى إنما قد عرفوا هذه الصناعة قبل الفينيقيين بعهود طويلة(٤).

ويذهب الدكتور غلاب إلى أن مادة النطرون التي تدخل في صناعة الزجاج إنما كانت متوفرة في مصر، ولم تكن تتوفر في فينيقيا، ويرجح أن الفينيقيين قد تعلموها من مصر، وأنهم كانوا يستوردون هذه المادة من مصر، ثم توسعوا في صناعة الزجاج على نطاق واسع، حتى أصبحت صيدا وصور من أكبر مراكز صناعته في حوض البحر المتوسط(٥).

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) Pliny, Natural History, X, Libri, XXXVI, ed, E. Eichholy, London, 1962, P. 153.

(٣) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٩.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٩٩
وكذا Frederict carl Eislen, Op - Cit, P. 122.

(٥) محمد السيد غلاب: الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ - بيروت ١٩٦٩ ص ٤٤٢.

ويرى «رينيه ديسو» أنه إذا كان المصريون قد ابتكروا عجينة الزجاج القاتمة، فإن الزجاج الرقيق الشفاف من ابتكار الفينيقيين.

ويذهب «ديسو» كذلك إلى أن أهل صيدا، قد ابتكروا الزجاج المنفوخ الذي يزودنا بتحف زجاجية رقيقة وشفافة، وأن الصناع الصيداويين في العصر الروماني قد سجلوا أسماءهم على تحفهم(١).

هذا وقد وصلت دقة الصناعة الفينيقية في الزجاج، أن أحد العمودين اللذين شاهدهما «هيرودوت» (٤٨٤ ـ ٤٣٠ ق. م) في هيكل «ملقارت» عند زيارته لمدينة صور (حوالي عام ٤٥٠ ق. م)، والذي وصفه بأنه من «الزمرد الخالص الذي يشع ليلاً»، إنما كان من الزجاج الصوري الأزرق الشفاف، وأن مصابيح مضيئة كانت تشع من داخله(٢).

وهناك من روائع صناعة الزجاج الصورية، سمكتان من الزجاج الأبيض، طول الواحدة منها حوالي ٥ سم، اكتشفتا في صور في مطلع القرن العشرين، موجودتان الآن في متحف اللوفر في باريس، إنما ترجعان إلى القرن الأول الميلادي، وتشبهان ـ إلى حد بعيد ـ زخرفة آنيتين للشرب بمتحفي «روما» و «تريف»، مما يدل على أن هاتين الآنيتين إنما قد صنعتا في مصانع الزجاج في صور(٣).

وهناك قطعتان من الزجاج الصوري، الواحدة في «كاتدرائية جنوة»

---

(١) R. Dussaud, un Nom Nouveau de Verrier Sidonien, Syria, I, Paris, 1919, P. 230.

(٢) أنظر: هيرودوت في مصر ـ ترجمة محمد صقر خفاجة، ومراجعة أحمد بدوي ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) معن عرب: صور ص ١١٠،

وكذا R. Dussaud, Un Nom Nouveau de Verrier Sidonien, Syria, I, 1919, P. 230.

وكذا Syria, IV, 1923, P. 179.

والأخرى في كنيسة «مونزا» في إيطاليا[1]، وقد روت الأساطير أنها هدية بلقيس ملكة سبأ لسيدنا سليمان عليه السلام[2].

وعلى أية حال، فلقد ظلت «صور» مشهورة بصناعة أنقى أنواع الزجاج، حتى القرون الوسطى[3].

هذا وقد صنع الفينيقيون أنواعاً مختلفة من الأدوات الزجاجية، كتلك التي كانت للاستعمال العادي ـ مثل الكؤوس والزجاج المستعمل للسوائل والقنيات مما نجده في القبور ـ وقد اكتسب في الغالب خاصية عكس أضواء ملونة، بسبب طول الحفظ في الأرض، هذا إلى جانب الأدوات الزجاجية المخصصة للترف.

وكان الفينيقيون يصنعون ـ بطريق النفخ ـ زهريات من الزجاج الرقيق جداً، وكان الناس يقدرونه، بحيث صارت هذه الزهيرات أحياناً، جوائز تعطى في بعض مسابقات المصارعة.

وكانت المصنوعات الفينيقية الزجاجية تصدر إلى البلاد البعيدة ـ أكواباً رقيقة شفافة، وكانوا يلصقون بها حبوباً من عجين الزجاج، على شكل أسماك ومحار وأعشاب بحرية، وقد اكتشفت نماذج من هذا النوع في «روما» و «تريف» لا شك أنها انتقلت إلى هذه البلاد مع الاتصالات القوية بالغرب.

هذا وقد اشتهر الزجاج الفينيقي الملون برسوم ظاهرة في داخل

---

(١) G. Migeon, manuael d'art musulman, II, Paris, 1907, P. 348.

(٢) انظر عن قصة ملكة سبأ مع سيدنا سليمان عليه السلام (محمد بيومي مهران: العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة الرياض ١٩٧٦ ص ٣٥٦ ـ ٣٧٥، إسرائيل ٢/ ٧٦٢ ـ ٧٨٠).

(٣) معن عرب: المرجع السابق ص ١١٠.

Guillaume de tyr Historea Rerumin Patriluis Transmarinis Gestarum, Paris, 1844, XIII, P. 13.

العجينة الزجاجية، وكانوا يتوصلون إلى ذلك عن طريق الترصيع، قبل أن تبرد العجينة، والألوان السائدة في هذا النوع من الزجاج هي: الأبيض والأصفر والأخضر والأزرق والبني، أما اللون الأحمر فنادر، وقد استعملوا للحصول على هذه الألوان المختلفة «أكاسيد المعادن»، وتكون الزهريات المصنوعة بهذه الطريقة صغيرة جداً، وكذلك استعملوا العجينات الملونة لمحاكاة الأحجار الثمينة، وكثيراً ما كانت ترصيعات الأقراط تصنع من عجين الزجاج الملون بألوان الأحجار الثمينة.

وهناك «لؤلؤ الزجاج»، وهو نصف شفاف، ملون أحياناً، وأحياناً قاتماً، مع رسوم في نفس العجينة، وقد استغل الصانع هذه الصناعات الزجاجية في تأليف القلائد، فأما أن يجعلوا لؤلؤ الزجاج حلية للذهب، وإما أن يؤلفوا القلائد كلها من لؤلؤ الزجاج، ومن عناصر زخرفية مصبوبة في قوالب على شكل أقنعة آدمية، أو رؤوس حيوانات.

هذا وقد صنع الفينيقيون أيضاً العصا الزجاجية الصغيرة المثنية، التي لا نعرف طريقة استعمالها، كما عثر على كمية من حب زجاجي صغير شفاف غير ملون، أو مصبوغ بكل مادته، وغير مثقوب بأي ثقب، وربما كان عنصراً زخرفياً.

وأخيراً فلقد استعمل الفينيقيون عوادم الزجاج، ممزوجة بالمونة والأحجار ثم جعلوا منها مادة للبناء[(١)].

وهكذا نجح القوم في صناعة الزجاج الشفاف غير الملون، والملون، والقاتم الذي يشبه الخزف، ويسمح بنفاذ الضوء، والزجاج الذي لا يخترقه الضوء[(٢)].

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠.

(٢) Joseph Michel Chami, de la phenicie, 1967, P. 74.

ثالثاً: التجــارة

ساعد موقع فينيقيا البحرى على أن تصبح مركزها للتجارة ـ وخاصة البحرية ـ كما ساعد توفر أخشاب الأرز والصنوبر والشربين على الملاحة البحرية، وهي ضرورة لازمة للشعوب التجارية، الأمر الذي أدى إلى توجيه الفينيقيين إلى الطواف في البحر المتوسط، واحتكاكهم بالشعوب المجاورة، واتصالهم بالجزر البحرية الهامة، مثل كريت وقبرص وصقلية ـ كما رأينا من قبل.

ومن المعروف أن التجارة إنما كانت ـ أو كادت تصبح الحرفة الرئيسية للفينيقيين ـ وخاصة أهل صور وصيدا ـ الذين كانوا بمثابة وسطاء عالميين للتجارة، انتشروا في العالم القديم شرقاً وغرباً، وحملوا إلى الأسواق الأوربية كل سلع الشرق ومنتجاته، وهكذا تميز الفينيقيون باستعدادهم التجاري، استعداداً كان مضرب الأمثال، بحيث أصبحت كلمة «فينيقي» كثيراً ما تستعمل كمرادف للفظ «تاجر».

هذا ويذهب الأستاذ «رينيه ديسو» إلى أن التجارة إنما قد تمت على مرحلتين.

الواحدة: بالقوافل بين خليج العقبة وإقليم أشدود ـ وهي أسدود حالياً، وتقع على مبعدة ٢٩ كيلا شرقي غزة ـ ولم يكن هذا الإقليم ـ كما هو اليوم ـ صحراوياً مقفراً.

والثانية: بالطرق البحرية ـ بعد احتلال مدن الساحل في بداية الألف الثالث قبل الميلاد[١].

ولعل أكبر دور قامت به البحرية الفينيقية إنما يرجع إلى الألف الأول قبل الميلاد وأما قبل هذا التاريخ فكان الدور الأول للبحرية الإيجية، ولعل

---

(١) ج. ونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٣١٩ ـ ٣٢٠،
وكذا: R. Dussaud, Le Commerce des Andiens pheniciens, Paris.

من قرائن ازدهار البحرية الفينيقية أن أبطال «هوميروس» حين أرادوا الرحيل بالبحر، إنما التجأوا إلى بحارة فينيقيين[1].

وعلى أية حال، فأمر كثافة التجارة الفينيقية، وميل الفينيقيين للهجرة، إنما تؤكده روايات متقابلة رواها الكتاب القدامى، بل يؤكده وجود أشياء ذات أسلوب فينيقي محقق، في أماكن ذكرت الروايات أن سفن ترسيس[2] قصدتها ونزلت بها.

ولعل من الجدير بالإشارة أن التوراة إنما قد رددت صدى هذا الرواج البحاري في فينيقيا، وذلك في وصف النبي «حزقيال» (٥٩٣ ـ ٥٧٢ ق. م) ـ في سفره المعروف باسمه ـ لكثرة الترف في «صور»، ثم تنبؤه بدمارها، وقد أجادت عبارات التوراة التصوير، وأودعته حيوية عجيبة، وأرتنا كيف يهرع الناس إلى الموانىء الفينيقية في منتصف الألف الأول قبل الميلاد، وكيف توجد بالميناء بضائع لا حصر لها في أكوام مكدسة على الأرض[3].

رابعاً: الحياة الاقتصادية في قرطاج

لا ريب في أن قرطاج إنما قد اعتمدت على التجارة أكثر من أية مدينة أخرى، وأن الرجل القرطاجي الأصيل، إنما كان في أذهان الناس وقت ذاك ـ وخاصة عند اليونان والرومان ـ تاجر بطبعه، كما كانت قرطاج

(١) J.G. Fevrier, Les Origines de la marine phenicienne, Revue de l'histoire de la philosophie, 15 avr. 1935.

(٢) ترسيس أوترشيش: يذب بعض الباحثين إلى أنها في «سردينيا»، ويذهب آخرون إلى أنها «ترتيسوس» في جنوب أسبانيا، على مقربة من جبل طارق، أو لعلها» قرطاج في شمال أفريقيا (قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦،
وكذا M. F. Unger, Op - Cit, P. 1070 - 1071).
وكذا: F. Thieberger, king Solomon, London, 1957, P. 206.

(٣) سفر حزقيال ٢٧/ ١ ـ ٢٥، كونتنو: المرجع السابق ص ٣٢٧.

تمثل أغنى مدينة في عالم البحر المتوسط، ومع ذلك فإن الثروة التجارية لم تترك آثاراً تتفق، وما اشتهرت به قرطاج من غنى وجاه، فضلاً عن أنها - (أي الآثار) - أقل بكثير من آثار المدن الكبرى - الإغريقية والأترورية - التي ترجع إلى نفس الفترة، وليس هناك من ريب في أن أحد الأسباب الرئيسية في حالة قرطاج، أن أغلب تجارتها إنما كانت في سلع لا تترك أثراً، فأغلبها معادن غير مصنعة - وهي الهدف الرئيسي من حركة الاستكشاف، الفينيقية - ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية التي تزايدت نتيجة لاستغلال أراضيها الخصبة، وكانت تجنى الأرباح من التجارة مع القبائل الداخلية التي جلبت منها الذهب والفضة والقصدير، وربما الحديد أيضاً، ذلك لأن قرطاج - كما هو معروف - إنما كانت تصنع أسلحتها بنفسها -.

وليس من شك في أن قرطاج إنما قد حصلت على تلك المعادن في مقابل مصنوعات رخيصة، ومن ثم فقد جنت أرباحاً طائلة، وليس أدل على وفرة الأرباح من تلك الجيوش الضخمة التي استطاعت قرطاج تجنيدها من المرتزقة في القرنين - الرابع والثالث قبل الميلاد - هذا فضلاً عن سك العملة من الذهب، على نحو تجاوز ما فعلته المدن المتقدمة الأخرى وقت ذاك (٤).

هذا وتحدثنا المصادر كثيراً عن الدور القيادي النشط في المشروعات التجارية الكبرى، وطبقا لرواية هيرودوت، فإن الفرعون المصري «نخاو الثاني» (٦١٠ - ٥٩٥ ق. م) قد كلف الملاحين الفينيقيين بالطواف حول أفريقيا، ويكاد يكون من المؤكد الآن أن السفن التي أرسلها الفرعون لتقوم بدورة ملاحية حول أفريقيا قد نجحت في هذه المهمة، حيث قضت في رحلتها ثلاث سنوات دارت فيها حول شواطىء أفريقيا، ثم عادت من

---

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٥.
(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ٢١٨ - ٢٢٠.
(٣) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٥.
(٤) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

مضيق جبل طارق (أعمدة هيراكليس) محملة بجميع خيرات أفريقيا التي حصلت عليها من الموانىء التي مرت بها السفن.

ولعل من أهم الأدلة على نجاح الرحلة ما ذكره الملاحون من أنهم كانوا دائماً يسيرون على مقربة من الشاطىء، وكانت الشمس تشرق عن يسارهم، ولكنهم وصلوا إلى نقطة فإذا بهم يرون أن الشمس تشرق عن يمينهم، وقد رفض هيرودوت تصديق ذلك، بينما أن هذه النقطة بالذات إنما تدل على صدق أنباء الرحلة، لأن ذلك إنما قد حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح، وكانت المرة الأولى التي تمر فيها مثل هذه السفن، لغرض الكشف والمعرفة وإظهار المهارة وفتح أسواق للتجارة في آنٍ واحد، ولا بدّ أن مهدت لها معارف وإرهاصات سابقة، وقد روي هيرودوت من مراحل الأعداد لهذه الرحلة، بناء سفن كونثية أو إيرنية (فينيقية) ذات ثلاث طبقات من المجاديف، كانت تمخر عباب البحر المتوسط وخليج السويس، فضلاً عن الاستعانة بخبرة الملاحين الفينيقيين، إلى جانب المصريين [١].

ويحدثنا هيرودوت أيضاً عن التجارة القرطاجية على الساحل المراكشي، فكتب حوالي عام ٤٣٠ ق. م، يقول: «أخبرنا القرطاجيون أيضاً عن جزء من أفريقيا وسكانها وراء مضيق جبل طارق، وعندم وصلوا هذا البلد أفرغوا بضائعهم ورتبوها على الشاطىء، ثم عادوا إلى سفنهم، وأرسلوا إشارة بالدخان، عندما رأى الوطنيون الدخان جاءوا إلى البحر ووضعوا كمية من الذهب مقابل البضائع ثم قفلوا راجعين، وعندئذٍ عاد القرطاجيون إلى الساحل مرة أخرى وفحصوا الذهب الذي تركه الوطنيون،

---

(١) محمد بيومي مهران: مصر ـ الجزء الثالث ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣.

A.H. Gardiner, Egypt of the pharaohs, 1961, P. 357.

Herodotus, II. 159.

E. Drioton et J. Vandier, L'Egypt Paris, 1962, P. 584.

H. De Meulenaere, Op. Cit., P. 50 - 52.

فإذا رأوا أنه يعادل قيمة البضائع أخذوه وأبحروا بعيداً، وإلا عادوا إلى سفنهم وانتظروا أن يضيف الوطنيون الذهب الكافي لإرضائهم، لا يخدع جانب جانباً آخر، فلم يكن القرطاجيون يقربون الذهب حتى يساوي في قيمته البضائع التي أحضروها كما أن الوطنيين ما كانوا يقربون البضائع حتى يتم نقل الذهب من مكانة»[1].

هذا وهناك تقرير عن طريقة المقايضة الصامتة القديمة هذه، وتجارة الذهب، يرتبط برحلة قام بها «حنون» (هنو ـ Hanno) زعيم أسرة «ماقون» في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد[2]، تقول مقدمته: «تقرير عن رحلة هنو ملك القرطاجيين إلى أجزاء من أفريقيا فيما وراء مضيق جبل طارق، والذي قدمه لمعبد الإله «بعل»، ثم تقول فقرته الأولى:

«قرر القرطاجيون أنه يجب على هنو الأبحار بعد مضيق جبل طارق، وتأسيس مراكز ليبية ـ فينيقية، وقد أبحر ومعه خمس وستون سفينة، مجهزة بالمجاديف، وكذا ثلاثون ألف رجل وامرأة، فضلاً عن الطعام والضروريات اللازمة».

هذا ويفهم من التقرير أن أبعد مكان وصلت إليه الرحلة جنوباً إنما كان مستوطنة «قرنة» (Cerne) وقد حددت بصفة عامة بجزيرة «هرنة» (Herne) عند مصب نهر «يودي أور» (Rio de Oro) (وادي الذهب)، وقد ذكر هذا الاسم في مصدر جغرافي إغريقي يعرف باسم «سليلاكس» (الزائف) (Pseudo - Scylax)، حوالي عام ٣٣٨ ق. م جاء فيه:

«في قرنة يرسى الفينيقيون (أي القرطاجيون) سفنهم التجارية المعروفة

---

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٠.
(٢) انظر عن ترجمة تقرير حنون (هنو): رشيد الناضوري: المغرب الكبير ص ٢٢٨ ـ ٢٣٧،
وكذا B.H. Warmington, Carthage, London, 1960, P. 62 - 64.

باسم «جاولولي» (Gauloi) وينصبون خيامهم في الجزيرة، وبعد أن يفرغوا بضائعهم ينقلونها إلى البر في قوارب صغيرة، حيث يعيش الأثيوبيون الذين يتاجرون معهم، وفي مقابل بضائعهم يحصلون على جلود الغزلان والأسود والنمور وأسنان وجلود الفيلة، ويحضر الفينيقيون العطور والأحجار الكريمة المصرية (الخزف المزخرف أو القاشاني) والفخار والجرار الأثينية»، هذا وتظهر «قرنة» هنا كمرسي، أكثر منها مستوطنة، ويبدو أن البضائع التي أحضرت من قرطاج صحيحة، غير أن الحصول على جلود الحيوانات المفترسة، أمر تحيط به هواتف الريبة والشك، على أساس أنه كان يمكن الحصول عليها على مقربة من قرطاج.

وينتهي تقرير حنون بالحديث عن رحلتين توغلتا جنوباً بعد «قرنة»، مع تصوير حي لوحشية السكان، ففي الليل: دقات الطبول وإضرام نيران هائلة، ربما كانت بهدف بث الذعر في قلوب الطامعين أو المغيرين، هذا وقد امتد الحد الجنوبي للرحلة إلى مسافة بعيدة، حتى جبل كميرون، وإن كان يبدو أن هذا بعيداً جداً، ذلك لأن أبعد المواقع الجنوبية التي تمدنا بأدلة أثرية على الزيارات القرطاجية إنما هو «موجادور» (Mogador) (اصويرة)، ولكنها ـ مع ذلك ـ أدلة على الزيارات الموسمية التي ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد فحسب، ولا يمكن ربطها بأي مكان ذكر في التقرير.

وعلى أية حال فلقد أبحر المؤرخ الإغريقي «بوليبيوس» (٢٠٣ ـ ١٢٠ ق. م) إلى ما وراء قرنة بعد عام ١٤٦ قبل الميلاد (أي بعد سقوط قرطاج في أيدي الرومان ولم يجد شيئاً ذا قيمة، وفي القرن الأول الميلاد كتب «بليني الأكبر (٢٤ / ٢٣ ـ ٧٩ م) عن تقرير «حنون» بأن عدداً من الإغريق والرومان يخبروننا على أساسه بأشياء خرافية كثيرة، وبقيام عدد من المدن لا يوجد عنها في الحقيقة أي ذكر أو أثر»، ومن الغريب أن عدداً من فلاحي دولة موريتانيا (التابعة للنفوذ الروماني) بدأوا يترددون على

«موجادور» (مغدور ـ الصويرة)، غير أن هدفهم إنما كان صيد السمك، وليس الحصول على الذهب[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى عدم ذكر الذهب، رغم أن هيرودوت إنما يخبرنا في الكتاب الرابع، أن الفينيقيين قد تاجروا في الذهب مع السودان الغربي، ومنذ ذلك الوقت أصبح الذهب محور تجارة السودان العابرة للصحراء، غير أن السودان لم يمثل مصدراً هاماً من مصادر إمداد حوض البحر المتوسط بالذهب حتى سقوط الامبراطورية الرومانية، فقد كان الرومان يحصلون على الذهب من أوربا، كما كانوا يحصلون على القليل منه عن طريق شمال أفريقيا[2] ، وعلى أية حال، فلقد أصبح الذهب ـ بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ـ في السودان الغربي عنصراً أساسياً في اقتصاد العصور الوسطى لدى شمال أفريقيا (المغرب) وغرب أوربا، قبل اكتشاف أمريكا[3] .

وكان العاج من السلع التي دخلت تجارة الصحراء منذ عصر «الجرمانتيين» والفينيقيين[4] ، وكان ـ فيما يرى البعض ـ متوفراً بكميات كبيرة جعلت المواطنين يصنعون منه أواني للشراب، ويزينون به الخيل، وكان من الكماليات المرغوب فيها في شمال الصحراء، وهناك أيضاً من السودان الغربي «العنبر»، وكان يستخرج من سواحل المحيط الأطلسي على مقربة من جزيرة «أوليل» والتي عرفت باسم «جزيرة العنبر»[5] .

---

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٢) E. W. Bovill, The Golden Trade of the Moors, Oxford, 1952, P. 24.

(٣) j.D. Fage, An Ontroduction to The African History, Cambridge 1955, P. 21.B. Davidson, The Africans, An entry to Cultural History, London, 1969, P. 215.

(٤) R.C. Law, in JAH, 8, 1867, P. 196.

(٥) أحمد الياس حسين: سلع التجارة الصحراوية ـ كتاب الصحراء الكبرى ـ ليبيا ١٩٧٩ ص ٢٠٦.

هذا وكانت منطقة «فزان» منذ عصور مبكرة، مصدراً لتصدير الأحجار الكريمة، وقد تاجر فيها الجرمانتيون مع الفينيقيين والرومان[1].

وعلى أي حال، فإن أستاذنا الدكتور الناضوري إنما يقدم لنا عدة ملاحظات عن رحلة حنون (هنو)، منها (أولاً) أن التقرير قد تضمن الكثير من الحقائق التي تدل على نجاح القرطاجيين في رحلتهم الاستكشافية والاقتصادية الهامة على ساحل أفريقيا الغربي، ووصولهم حتى منطقة الكونغو في أفريقيا الاستوائية الغربية، ومنها (ثانياً) أن الغرض من الرحلة إنما كان أساساً تأسيس مراكز «ليبية ـ فينيقية» (أي بربرية قرطاجية) على الساحل الغربي لإفريقيا الأمر الذي يؤكد تداخل العنصرين البربري والفينيقي في العصر القرطاجي. واعتبارهما عنصرين اندمجا معاً، وحملا الصفة القرطاجية، لأول مرة في تاريخ المغرب، وبالتالي فقد أصبحت العلاقات البربرية الفينيقية سليمة للغاية في هذه المرحلة، ومنها (ثالثاً) أن عدد السفن وأفراد الرحلة كان كبيراً للغاية، فالنص يشير إلى أن أعداد أفراد الرحلة قد بلغ ثلاثين ألف رجل وامرأة، وهو رقم جد مبالغ فيه، بالنسبة لعدد سكان قرطاج (حوالي ٢٠٠ ألف نسمة)، فضلاً عما يتطلبه من مؤونة وإيواء، وعلى أية حال فربما كانت الأغراض السياسية والاقتصادية من وراء تلك المبالغة.

ومنها (رابعاً) أن المكان الذي ذكر تحت اسم «ثايمياتريون» (Thymiaterion) قد حدده البعض «بالمهدية» شمال الرباط، ولكن من الأفضل أن يكون قرب «طنجة» (تنجيس ـ Tingis)، اعتماداً على أن النص إنما يشير في الفقرة السادسة إلى نهر «لوكوس» الذي يوجد عنده موقع «ليكسوس» مما يجعل الرحلة ما تزال في الجزء الشمالي الساحلي من الغرب، ولم تصل بعد إلى منطقة المهدية، ومنها (خامساً) أن محاولة القرطاجيين تشييد مبانٍ في مراكزهم الجديدة، وبالتالي تبعيتها للدولة

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٠٤ ـ ٢١٠.

القرطاجية، الأمر الذي يجعل تحقيق أهدافهم الاقتصادية أيسر مما لو ظلت على طبيعتها الأولى البربرية، وقد نجح القرطاجيون ـ كما جاء في الفقرة السادسة ـ في توطيد علاقاتهم مع أهل ليكسوس، (وهو نهر كبير ينبع من ليبيا، وعلى ضفافه يرعى أهل ليكسوس الرحل مواشيهم).

ومنها (سادساً) أن النص يشير ـ في فقرتيه السابعة والحادية عشرة ـ إلى عناصر بشرية تحمل اسم «الأثيوبيين»، وهنا يجب أن نفرق بين الأثيوبيين الشماليين، وهم من البربر الذين ما يزالون حتى هذه المرحلة في العصر الحجري الحديث، والأثيوبيون الجنوبيون الذين تغلب عليهم الصفة الزنجية، ولم يتمكن التراجمة من أهل ليكسوس من التفاهم معهم، وذلك لاختلافهم الكلي عن إخوانهم في الشمال، ومنها (سابعاً) أن النص يشير ـ في فقرته الثالثة عشرة ـ إلى ظاهرة النيران المشتعلة في فترات غير منتظمة، والمصحوبة، في بعض الإحايين، بأصوات المزامير والطبول وصيحات المجموعات البشرية من حولها، تعبيراً عن الاحتفالات القبلية الزنجية، وأما النيران المشتعلة فربما كانت للإضاءة، وربما لإبعاد القوى الشريرة، وربما لأعراض الدفء أو العبادة، وإن أشارت الفقرة السادسة عشرة إلى أن لهيب النار إنما كان يلامس النجوم، الأمر الذي قد يشير إلى بركان الكمرون، ومنها (ثامناً) أن الفقرة السابعة عشرة إنما قد أشارت إلى «الغوريلات» التي اعترضت الرحلة، وقذفت أفرادها بالأحجار، الأمر الذي يشير ـ مع غيره ـ إلى أن الرحلة قد وصلت إلى المنطقة الاستوائية.

ومنها (تاسعاً) أن هذه الرحلة الكشفية إنما هي جهد مبكر في حركات الاستكشاف الإنساني للعالم، وتسبق الجهود الإسبانية والبرتغالية وغيرها في محاولة كشف القارة الإفريقية والدوران حولها، ومن ثم فهذه الخطوة القرطاجية إنما هي إحدى مآثرهم الهامة في تاريخ الإنسانية [1].

وعلى أية حال، فهناك رحلة أخرى ـ غير رحلة هنو (حنون) هذه

---

(١) رشيد الناضوري: المغرب القديم ص ٢٣٣ ـ ٢٣٨.

والتي وصلت إلى منطقة الكونغو ـ قام بها «هملكو» (Himilco) إلى ساحل أسبانيا وفرنسا الغربي، فلقد كشفت رحلة «هملكو» (حملكون) ساحل الأطلنطي لكل من أسبانيا وفرنسا، ووصلت بالتأكيد «بريتاني» (Bretagne) في شمال غرب فرنسا، وربما كان الهدف منها زيادة السيطرة على تجارة القصدير، الذي كان يمكن الحصول عليه من مصادر مختلفة قريبة من سواحل الأطلنطي، وكان القرطاجيون حريصين في تجارة القصدير، حتى أنهم لم يسمحوا بتسرب معلومات عنها، إلا في النادر القليل، الأمر الذي أثار انتباه وفضول الكتاب القدامى.

وفي الواقع، فإن العصر القرطاجي إنما كان آخر مرحلة في تجارة القصدير على طول الساحل، وهي تجارة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ مع جنوب غرب بريطانيا ـ الذي كان واحداً من أهم مصادرها ـ ومع ذلك فليس هناك من دليل على أن هناك فينيقيا واحداً وصل إلى بريطانيا، كما لم يعثر هناك ـ أو حتى في بريتاني ـ على أي أثر فينيقي، وعلى أية حال، إن كان الفينيقيون قد حصلوا على قصدير من بريطانيا، فأكبر الظن، أن ذلك إنما تم عن طريق القبائل في بريطانيا، ومع ذلك، فهناك احتمال بأن أغلب قصدير بريطانيا المصدر، إنما كان ينقل عبر «غالة» (Gallia) إلى وادي الرون والبحر المتوسط، وأن القرطاجيين إنما قد حصلوا على احتياجاتهم منه من شمال أسبانيا.

وأياً ما كان الأمر، فالذي لا ريب فيه، أن أكبر إنتاج معدني ذي قيمة في أسبانيا إنما كان الفضة، وقد وصل إنتاجها إلى مستويات كبيرة في القرن الثالث قبل الميلاد، ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد تزايدت أهمية «جاديس» (كاديز ـ قادس) بسرعة، وكانت المدينة القرطاجية الوحيدة في الغرب التابعة لقرطاج، بصرف النظر عن «أبيزا» Ibiza ـ التي أصدرت عملة خاصة بها ـ وطبقاً لرواية «سترابو» فإن بناة اسفن فيها قد تفوقوا على زملائهم في صناعة السفن، سواء أكانت للملاحة في البحر المتوسط أو في المحيط الأطلسي.

هذا وقد مارست قرطاج احتكار التجارة داخل امبراطوريتها ـ سواء بإغراق أية سفينة تخرق هذا الاحتكار، أو بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين المحتملين مثل المدن الأترورية وروما ـ وكان طبيعياً أن لا يسمح للتجار الأجانب بالتجارة في غربي قرطاج، وهذا يعني ببساطة أن السلع التي كانوا يحضرونها إلى هذه المدينة كانت تنتقل إلى السفن التجارية القرطاجية، ومن ثم فقد كانت المنتجات الواردة من أتروريا وكامبانيا ومصر ومختلف المدن الإغريقية إنما تصل إلى عدد كبير من الأماكن في شمال أفريقيا.

وبدهي أن ذلك كله إنما كان مصدر قوة اقتصادية لقرطاج، خاصة بعد التغييرات الاقتصادية والسياسية الضخمة التي حدثت في غربي البحر المتوسط بسبب فتوحات الاسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق. م)، فلقد أوجدت هذه الفتوحات أسواقاً كبرى عالمية للمصنوعات الرخيصة التي كان القرطاجيون في موقع متميز يمكنهم من ترويجها، فضلاً عن الأرباح منها[١] .

هذا وكان القرطاجيون يقومون برحلات تجارية برية، عبر الصحراء، إلى منطقة نهر النيجر والسنغال، وربما كانت عن طريق «لبدة» و «صبراتة»، وهما المدينتان الواقعتان في منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة، وعلى أية حال، فإن اهتمام قرطاج بإبعاد الأغريق عن المنطقة دليل على وجود تجارة هامة مع الداخل، حيث أن الأرض الزراعية المناسبة للاستيطان نادرة، وفي القرن الخامس قبل الميلاد يحدثنا هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما: الجرمانتيون والناسامونيون في أقاليم جنوب سرت، وأن المسافة بين الساحل ومنطقة الجرمانتيين ـ المركز السكاني لجرمة ـ تستغرق ثلاثين يوماً، وأن الرومان قد حصلوا ـ عن طريق

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

الجرمانتيين ـ على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية في القرون التالية.

وهناك ما يشير إلى أن «العقيق الأحمر» إنما كان إحدى السلع التجارية الصحراوية، وربما كانت هناك تجارة في الرقيق، حيث يذهب البعض إلى أن الجرمانتيين إنما كانوا يتعقبون الأثيوبيين (الزنوج) بعربات تجرها أربعة جياد، هذا إلى ما سبق أن ذكرناه من قبل عن تجارة العاج والجلود، وليس هناك من ريب في أن عدم وجود «الجمال»[1] في شمال أفريقيا وقت ذلك، إنما يجعل السفر في الصحراء جد صعب، الأمر الذي يحول دون تجارة واسعة عن طريق الصحراء.

وعلى أية حال، فهناك من «جرمة» دليل أثري حديث يشير إلى أن النمو السكاني المبكر في الدولة القرطاجية، إنما يرجع إلى القرن الخامس

---

(١) لم يظهر «الجمل» ـ وأصله من الشرق الأدنى ـ في الصحراء الإفريقية إلا بعد فترة متأخرة، بل أنه لم يظهر في مصر حتى العصرين، الفارسي والهلينستي (في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد)، وقد نوقشت هذه المسألة كثيراً، دون أن تحسم، والواقع أن الجمل دخل الصحراء من وادي النيل، وإن كان تأريخ دخوله صعب، وكل ما نهتدي به في هذا الصدد هو الرسوم الصخرية الليبية البربرية في الصحراء، وهي قليلة الفائدة في التأريخ الدقيق، ثم النقوش والتماثيل الرومانية في شمال أفريقيا، وكلها ترجع إلى القرن الثاني الميلادي، وهناك ما يشير إلى أن قيصر قد غنم عام ٤٦ ق. م عدد ٢٢ جملاً من الملك النوميدي «يوبا الأول» الذي امتدت دولته إلى حدود الصحراء، وكانت الجمال ما تزال حيوانات نادرة، ثم كثرت بعد ذلك، ثم أصبحت وسيلة المواصلات في الصحراء، كما تشير إلى ذلك كثرة صور الإبل في «رسوم الجمل الصخرية» (Caballine) في كل مناطق الصحراء الكبرى، ورغم أنها صعبة التأريخ، إلا أنها بالتأكيد أحدث زمنياً بكثير من صور الجياد البديعة (Gallia) وقد كثرت الجمال في القرن الرابع الميلادي في شمالي طرابلس، حتى أن الرومان فرضوا على «البدة» (لبتس ماجنا) أن تجمع على نفقتها بانتظام أربعة آلاف جمل، وفي الوقت نفسه عززت وفرة الجمال قدرة البدو على شن الهجمات على الرومان (تاريخ أفريقيا العام ص ٥٤٠ ـ ٥٤٦).

أو الرابع قبل الميلاد، وأنه بتتابع القرون ازداد عدد السكان المستقرين، والمعتمدين على الزراعة، زيادة مطردة، ولعل هذا يرجع إلى التأثير الثقافي الذي امتد من المراكز القرطاجية على الساحل، وبعد تدمير قرطاج توغل الرومان إلى كل من جرمة وغدامس، وأحياناً إلى أبعد من ذلك جنوباً[1] .

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن التجارة إنما كانت تتم عن طريق المقايضة، وأن اليونان قد بدأوا في استخدام العملة في القرن السابع قبل الميلاد، وأكبر الظن أن «كرويسوس» (٦٥٠ ـ ٥٤٦ ق. م) ملك ليديا، هو الذي استخدم صب السبائك الذهبية، ذات الوزن الواحد، وطبع الصور عليها، وعلى أية حال، فلقد أصبح استعمال العملة عادياً في القرن السادس قبل الميلاد.

هذا وقد بدأ الفرس في استخدام العملة على أيام «دارا الأول» (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق. م) عند نهاية القرن السادس، ورغم أن فينيقيا كانت وقت ذاك خاضعة للفرس، غير أن دارا لم يحاول أن يضرب العملة باسمهم، وأما أقدم عملة شرقية فينيقية فقد ضربت في صور عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تبعتها صيدا وأرواد، وجبيل في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد[2] ـ كما أشرنا من قبل ـ.

ولعل أقدم العملات ـ من النصف الثاني للقرن الخامس قبل الميلاد ـ تلك القطعة المحفوظة بالمتحف البريطاني، وهي من صور، وعلى أحد وجهيها «درفيل» (حيوان بحري)، وعلى الوجه الآخر «بومة» داخل مربع[3] .

---

(١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٣.

(٢) عبد الحميد: الشرق الخالدة ص ٣٣٠ ـ ٣٣١، سبتينو موسكاتي: المرجع السابق ص ١٣٦.

(٣) G.F. Hill, B. M. Cat. Phoenicia, London, 1910, Pl. 28, No. 9.

هذا وقد قامت المدن الفينيقية الغربية بضرب عملتها متأخرة عن المدن الشرقية، فهناك في المتحف البريطاني قطعة عليها رأس المعبودة «تانيت»، وعليها غطاء رأس بوني، وعلى الوجه الآخر، أسد وشجرة نخيل، ونقش مكتوب بالبونية (الفينيقية) «رجال المعسكر»، وتؤرخ هذه القطعة بمنتصف القرن الرابع قبل الميلاد[١] ، وأما صقلية فقد ضربت عملتها منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وفي أسبانيا ضربت العملة في القرن الثالث قبل الميلاد، كما أن هناك نقوداً ضربت من الفضة، كما في قرطاج الجديدة[٢] ، ، كما عثر في «جاديس» على قطعة نقود، على أحد وجهيها رأس المعبود «ملقارت» وعلى الآخر، فيل وحرف أبجدي Aleph، وتؤرخ هذه القطعة بحوالي عام ٢٠٩ قبل الميلاد[٣] .

وعلى أية حال، فإن «قرطاج» إنما بدأت في إصدار عملتها في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة، وحيث أصبح من الضروري ـ نتيجة للتغيير في الوضع الاقتصادي ـ أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقداً[٤] .

وآخر دعوانا، أن الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وجدنا
محمد رسول الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين

---

(١) G.F. Hill, Guide and Greek Coins, London, 1932, Pl. 62. No. 41.
(٢) F.S.G. Robinson, Punic in Spain, 1965, Pl. 49, No. 4.
(٣) Ibid, Pl. 52, No. 8.
(٤) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٦٢.

التوسع الفينيقى فى البحر المتوسط

المراجع المختارة

أولاً: المراجع العربية

١ ـ الدكتور أحمد أمين سليم: سورية ـ بلاد العرب الإسكندرية ١٩٩١

٢ ـ أسد رستم: تاريخ اليونان بيروت ١٩٦٦

٣ ـ الأب أميل أده: الفينيقيون واكتشاف أمريكا بيروت ١٩٦٩

٤ ـ الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي بيروت ١٩٧٠

٥ ـ الدكتور أنيس فريحة: أسماء المدن والقرى اللبنانية بيروت ١٩٥٦

٦ ـ الدكتور حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم القاهرة

٧ ـ الدكتور رشيد الناضوري المغرب الكبير ـ العصور القديمة بيروت ١٩٨١

٨ ـ الدكتور عبد الحميد زايد: الشرق الخالد القاهرة ١٩٦٦

٩ ـ الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية بيروت ١٩٨١

١٠ ـ فؤاد قازان: لبنان بيروت ١٩٧٢

١١ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: مصر (٣ أجزاء) الإسكندرية ١٩٨٨

١٢ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة (جزءان) الإسكندرية ١٩٨٩

١٣ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: بلاد الشام الإسكندرية ١٩٩٠

١٤ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: العراق القديم الإسكندرية ١٩٩٠

١٥ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: إسرائيل (٤ أجزاء) الإسكندرية ١٩٧٩

١٦ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم (جزءان) (ط الحادية عشرة) الإسكندرية ١٩٩٤
١٧ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: الحضارة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٨٨
١٨ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: المغرب القديم الإسكندرية ١٩٩٠
١٩ ـ معن عرب: صور ـ حاضرة فينيقيا بيروت ١٩٦٩
٢٠ ـ منير الخوري: صيدا ـ عبر حقب التاريخ بيروت ١٩٦٦
٢١ ـ الدكتور نجيب ميخائيل: سورية الإسكندرية ١٩٦٦
٢٢ ـ الدكتور يوسف مزهر تاريخ لبنان ـ الجزء الأول ـ بيروت —
٢٣ ـ قاموس الكتاب المقدس (جزءان) بيروت ٦٤/ ١٩٦٧
٢٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية القاهرة ٦٩/ ١٩٧١

ثانياً: المراجع المترجمة إلى اللغة العربية

٢٥ ـ ألن جاردنر: مصر الفراعنة ـ ترجمة نجيب ميخائيل، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر القاهرة ١٩٧٣
٢٦ ـ ب. هـ. وارمنجتون: العصر القرطاجي ـ تاريخ أفريقيا العام ـ تورينو ١٩٨٥
٢٧ ـ ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ـ ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ومراجعة طه حسين. القاهرة ١٩٦٥
٢٨ ـ جورج حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي ـ ترجمه وزاد عليه ـ السيد يعقوب بكر القاهرة ١٩٥٨
٢٩ ـ سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ـ ترجمه وزاد عليه ـ السيد يعقوب بكر ـ بيروت ١٩٨٦
٣٠ ـ فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق بيروت ١٩٥٨
٣١ ـ فيليب حتى: تاريخ لبنان ـ ترجمة أنيس فريحة، ونقولا زيادة بيروت ١٩٨٥

٣٢ ـ وليم أولبرايت: آثار فلسطين ـ ترجمة زكي إسكندر،
ومحمد عبد القادر القاهرة ١٩٧١
٣٣ ـ هربرت جورج ويلز: معالم تاريخ الإنسانية ـ ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد القاهرة ١٩٦٩
٣٤ ـ ول ديوارنت: قصة الحضارة ـ الجزء الثاني ـ ترجمة
محمد بدران القاهرة ١٩٦١
٣٥ ـ و. و. تارن: الإسكندر الأكبر ـ ترجمة زكي علي القاهرة ١٩٦٣

ثالثاً: المراجع الأجنبية

36 - Albright, (W.F.), The Archaeology of Palestine, London, 1949.
37 - ------- The Bible and the Ancient Near East London, 1961.
38 - Barmatu, (D.), Phonenici and the Phoenicians, Beirut, 1961.
39 - Bovill, (E.W.), The Golden trade of the moors, oxford, 1952.
40 - Bright, (C.F.), A History of Israel, philadelphia,1969.
41 - Clermont - Ganneau, La Stele de mesa, Paris, 1887.
42 - Contenau, (G), La Civilisation Phenicienne, Paris, 1949.
43 - Dussaud, (R.), La mythologie phenicienne d'Apres, les tablettes de Ras - shamra, revue de L'Histoire des Religions, CIV, 1931.
45 - Dussaud, (R.), Byblos et la mention des Giblites dans L'Ancien testament, syria, IV, 1923.
46 - Dussaud, (R.), les Religions des Hittites et des Hourrites des pheniciens et des syrien, Paris, 1949.
47 - Dhorme, (E.), Les Religions des Babylonie et d'Assyrie, Paris, 1949.
48 - Driver, (G.R.), Semitic writing, London, 1954.
49 - Hall, (H.R.), The Ancient Hi story of the NearE ast, London, 1963.
50 - Harden (D.), The phoenicians, London, 1963.
51 - Hill, (G.F.), Catalogue of the Greet Coins of Phoenicia, London. 1910.
52 - Hill, (G.F.), Aguide and Greek Coins, London, 1932.
53 - Mercer, (S.A.B.), The Tell-El Amarna tablets, 2 Vols, Tornto, 1939.

54 - Montet, (P.) Byblos et L'Egypte, Paris, 1928 .
55 - Moscati, (S.), Ancient Simitic Civilization, London, 1957 .
56 - Moscati, (S.), The World of the phoenicians, London, 1968 .
57 - Noth, (M.), the History of Israel, London, 1965 .
58 - Robinson, (F.S.G), Punic in spain, 1965 .
59 - Strabo, the Geography of strabo, translated by Hamilton London, 1912 .
60 - Strabon the Geography of strabo, translated by H.L. Jones, London, 1960 .
61 - Encyclopedia Biblica.
62 - Encyclopedia Britannica.
63 - Eneyclopaedia of Islam.
64 - The Jewish Encyclopaedia.

مؤلفات الأستاذ الدكتور محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أولاً - التاريخ المصري القديم:

١ - الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية — الإسكندرية ١٩٦٦
٢ - مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث — الإسكندرية ١٩٦٩
٣ - حركات التحرير في مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٦
٤ - إخناتون: عصره ودعوته — القاهرة ١٩٧٩

ثانياً - في تاريخ اليهود القديم:

٥ - التوراة (١) - مجلة الأسطول - العدد ٦٣ — الإسكندرية ١٩٧٠
٦ - التوراة (٢) - مجلة الأسطول - العدد ٦٤ — الإسكندرية ١٩٧٠
٧ - التوراة (٣) - مجلة الأسطول - العدد ٦٥ — الإسكندرية ١٩٧٠
٨ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة - مجلة الأسطول - العدد ٦٦ — الإسكندرية ١٩٧١
٩ - النقاوة الجنسية عند اليهود - مجلة الأسطول - العدد ٦٧ — الإسكندرية ١٩٧١
١٠ - النقاوة الجنسية عند اليهود - مجلة الأسطول - العدد ٦٨ — الإسكندرية ١٩٧١
١١ - أخلاقيات الحرب عند اليهود - مجلة الأسطول - العدد ٦٩ — الإسكندرية ١٩٧١
١٢ - التلمود - مجلة الأسطول - العدد ٧٠ — الإسكندرية ١٩٧٢
١٣ - إسرائيل - الجزء الأول - التاريخ — الإسكندرية ١٩٧٨
١٤ - إسرائيل - الجزء الثاني - التاريخ — الإسكندرية ١٩٧٨

١٥ ـ إسرائيل ـ الجزء الثالث ـ الحضارة — الإسكندرية ١٩٧٩

١٦ ـ إسرائيل ـ الجزء الرابع ـ الحضارة — الإسكندرية ١٩٧٩

١٧ ـ النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل — الإسكندرية ١٩٧٩

ثالثاً ـ في تاريخ العرب القديم:

١٨ ـ الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي — الرياض ١٩٧٤

١٩ ـ العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة — الرياض ١٩٧٦

٢٠ ـ مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة — الرياض ١٩٧٧

٢١ ـ الديانة العربية القديمة — الإسكندرية ١٩٧٨

٢٢ ـ العرب والفرس في العصور القديمة — الإسكندرية ١٩٧٩

رابعاً ـ في تاريخ العراق القديم:

٢٤ ـ قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة — الرياض ١٩٧٦

٢٥ ـ قانون حمورابي وأثره في تشريعات التوراة — الإسكندرية ١٩٧٩

خامساً ـ سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم:

٢٦ ـ الجزء الأول ـ في بلاد العرب — بيروت ١٩٨٨

٢٧ ـ الجزء الثاني ـ في مصر — بيروت ١٩٨٨

٢٨ ـ الجزء الثالث ـ في بلاد الشام — بيروت ١٩٨٨

٢٩ ـ الجزء الرابع ـ في العراق — بيروت ١٩٨٨

سادساً ـ سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم:

٣٠ ـ مصر ـ الجزء الأول ـ — الإسكندرية ١٩٨٨

٣١ ـ مصر ـ الجزء الثاني ـ — الإسكندرية ١٩٨٨

٣٢ ـ مصر ـ الجزء الثالث ـ — الإسكندرية ١٩٨٨

٣٣ ـ الحضارة المصرية ـ الجزء الأول — الإسكندرية ١٩٨٩

٣٤ ـ الحضارة المصرية ـ الجزء الثاني — الإسكندرية ١٩٨٩

٣٥ ـ التاريخ والتأريخ	الإسكندرية ١٩٩٢
٣٦ ـ تاريخ العرب القديم (جزءان)	الإسكندرية ١٩٩٤
٣٧ ـ الحضارة العربية القديمة	الإسكندرية ١٩٨٨
٣٨ ـ بلاد الشام	الإسكندرية ١٩٩٠
٣٩ ـ المغرب القديم	الإسكندرية ١٩٩٠
٤٠ ـ العراق القديم	الإسكندرية ١٩٩٠
٤١ ـ تاريخ السودان القديم	الإسكندرية ١٩٩٤

سابعاً ـ سلسلة: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين:

٤٢ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الأول ـ	بيروت	١٩٩٠
٤٣ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثاني ـ	بيروت	١٩٩٠
٤٤ ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الجزء الثالث ـ	بيروت	١٩٩٠
٤٥ ـ السيدة فاطمة الزهراء	بيروت	١٩٩٠
٤٦ ـ الإمام علي بن أبي طالب (الجزء الأول)	بيروت	١٩٩٠
٤٧ ـ الإمام علي بن أبي طالب (الجزء الثاني)	بيروت	١٩٩٠
٤٨ ـ الإمام الحسن بن علي	بيروت	١٩٩٠
٤٩ ـ الإمام الحسين بن علي	بيروت	١٩٩٠
٥٠ ـ الإمام علي زين العابدين	بيروت	١٩٩٠
٥١ ـ الإمام جعفر الصادق	تحت الطبع	

ثامناً ـ معجم البلدان الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم:

٥٢ ـ الجزء الأول: مصر والجزيرة العربية	بيروت	١٩٩٣
٥٣ ـ الجزء الثاني: العراق ـ بلاد الشام ـ المغرب ـ السودان	بيروت	١٩٩٣

تاسعاً: الإمامة وأهل البيت:

٥٤ ـ الإمامة ـ الجزء الأول ـ	بيروت	١٩٩٣
٥٥ ـ الإمامة والإمام علي ـ الجزء الثاني ـ	بيروت	١٩٩٣

٥٦ ـ خلفاء الإمام علي ـ الجزء الثالث ـ بيروت ١٩٩٣

عاشراً: في مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية:

٥٧ ـ دراسة حول التأريخ للأنبياء ـ العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢ م

٥٨ ـ الإعجاز في القرآن: دراسة في الإعجاز التاريخي ـ العدد ٤٠ لعام ١٩٩٣



المؤلف في سطور

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١ - ولد في البصيلية - مركز أدفو - محافظة أسوان.

٢ - حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمعهد المعلمين بقنا، حيث تخرج فيه عام ١٩٤٩.

٣ - عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩ - ١٩٦٠).

٤ - حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠ م.

٥ - عين معيدا لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١ م.

٦ - حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف في التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.

٧ - عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.

٨ - عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤ م.

٩ - عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩ م.

١٠ - أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٧ م.

١١ - عين عضواً في مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٨٢ م.

١٢ ـ عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة في عام ١٩٨١ م.
١٣ ـ أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة في الفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧ م.
١٤ ـ عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية في كلية الآداب جامعة الإسكندرية (١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ م)
١٥ ـ أختير مقرراً للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين في الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ م).
١٦ ـ عين أستاذاً متفرغاً في كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية في عام ١٩٨٨ م.
١٧ ـ عضو لجنة التراث الحضاري والأثري بالمجالس القومية المتخصصة.
١٨ ـ عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية في هيئة الآثار.
١٩ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين في الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
٢٠ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة في الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
٢١ ـ عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين في التاريخ العام.
٢٢ ـ أشرف وشارك في مناقشة أكثر من ٤٠ رسالة دكتوراه وماجستير في تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم في الجامعات المصرية والعربية.
٣ ـ أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢.
٢٤ ـ شارك في حفائر كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية في الوقف ـ مركز دشنا ـ محافظة قنا، (في عام ١٩٨٠/ ١٩٨١ م)، وفي «تل الفراعين» مركز دسوق ـ محافظة كفر الشيخ (في عام ٨٢/ ١٩٨٣).

الفهرس

الموضوع | الصفحة

البـاب الـرابع

البـاب الخامـس